

الصلوات

الطيب محمد الطيب



المؤلف : الطيب محمد الطيب

- مواليد القرن ريفي الدامر
- حفظ القرآن بخلوة القرن .
- الكتاب اتبرا .
- الوسطي اتبرا .
- دراسات خاصة وقراءات خاصة .
- عمل بجامعة الخرطوم وحدة أبحاث السودان . ثم
- وزارة الثقافة كمدير مركز الفولكلور .



تكريم :

- وسام العلم الفضي عام ١٩٧٠م
- وسام العلم الذهبي من المكتبة القبطية .
- وسام المجلس القومي للبحوث .
- ماجستير فخري من جامعة الخرطوم ١٩٨٢م
- وسام العلم الذهبي في الدراسات الشعبية . جامعة
- الخرطوم .

- وسام السلام ١٩٨٩م
- وسام معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية .

النشاط الإعلامي :

- مقدم برنامج تلفزيوني (صور شعبية) ٢٧ عام متواصلة .
- مقدم برامج إذاعية لأكثر من ١٥ عام .
- كاتب صحفي منذ ١٩٦٨م .

مؤلفات :

- تاريخ قبيلة المناصر من أدبهم الشعبي بالاشتراك مع الأستاذ /
- عبد السلام سليمان سعد وعلي سعد علي مدير تنفيذي جنوب
- دافور .
- تاريخ قبيلة البطاحين من أدبهم الشعبي .
- المرشد لجمع الفلكلور بالاشتراك مع د. مصطفى معيار مصطفى
- ومحمد عمر بشارة .
- الأندايه دارسة المجتمع السوداني من خلال الحانات الشعبية .
- الدوباي دارسة عن بحور العناء الشعبي .
- الشيخ فرح ودتكوت دراسة لعصره وأشعاره علي عهد السلطنة
- الزرقاء ١٥٠٤م ٩١٠هـ .

النشاط الفكري :

- عضو اتحاد الأدباء السودانيين .
- عضو المجمع اللغوي .
- عضو اتحاد الكتاب السودانيين .
- شارك في مؤتمرات في أوروبا ومصر والكويت . الإمارات و الصومال
- وغيرها .
- شارك في عشرات المحاضرات بالجمعيات والأندية .



دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان

ناشرون وموزعون وهنالك دور نشر

المسيد

الصيد

الطيب محمد الطيب



دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان

الكتاب : المسيد

المؤلف : الطيب محمد الطيب

رقم الإيداع : ١٤٧٣٠ / ٢٠٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٥

ردمك : ٠٠٤٩ - ٥٤ - ٩٩٩٤٢

حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة ولا يسمح بإعادة
نشر هذا العمل كاملاً أو أى قسم من أقسامه ، بأى شكل من
أشكال النشر إلا بإذن كتابى

الناشر : دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة : شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة .

ت : ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩ +)

التوزيع : دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

azza ph @ yahoo.com

بريد إلكترونى

قال رسول الله ﷺ:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه،

حديث شريف

مقدمة نقدية

المسيد

متعة ذهنية ورياضة فكرية

بقلم الأستاذ عبد الوهاب موسى^(١)

كثيراً ما يبدو الإنجاز الإبداعي سهلاً وبسيطاً لمن يرمقه بنظرة عابرة. ولكن النظرة الفاحصة هي التي تكشف أنه «السهل الممتنع» وكتاب المسيد للأخ الصديق. الطيب محمد الطيب هو النموذج الحي لكل هذا فهو يتيح للقارئ فرصة الإقبال على قراءته من مختلف المنطلقات ويتحمل تقييمه له على مختلف المستويات إن قراءته متعة ذهنية ورياضة عقلية.. ولعل مما يساعد القارئ على الاستمتاع والإفادة من هذا الكتاب أن مؤلفه معروف لمعظم الناس منذ عشرات السنين عن طريق التلفزيون والإذاعة والمحاضرات العديدة التي ظل يقدمها استجابة لرجاء الكثيرين ممن يتولون إدارة النشاط الثقافي في مختلف الهيئات والتجمعات الفئوية والأندية الاجتماعية..

الجراءة.. سمة المؤلف:

وكان النتاج الأول للأستاذ الطيب هو كتاب الانداية الذي تلقفه القراء بمختلف مستوياتهم العلمية ومواقعهم الاجتماعية ووجد كل منهم ما كان يرحوه فيه من متعة ذهنية وطرائف تراثية.. على أن الذي كان جديداً على القراء هو أن

(١) الأستاذ «الدكتور» عبد الوهاب موسى من أهل الفكر والثقافة وصاحب ملكة نقدية عالية.

يتجرأ كاتب على تأليف كتاب عن «الانداية» التي يتحرج معظم الناس لمجرد ذكر اسمها لاسيما على المستوى الاجتماعي المستنير..

- ولكن الطيب لا ينزعج لمثل هذا التحرج الاجتماعي طالما كان الموضوع الذي يطرقه في كتاب أو جريدة أو ندوة أو حلقة في التلفزيون أو الإذاعة موضوعاً حيوياً في نظره أو في نظر المجتمع المتأثر به ولا عجب أن رأيناه يتطرق إلى موضوعات كثيرة في التراث الشعبي في مختلف مناطق وقبائل السودان ويزيل الحرج عن الباحثين الأكاديميين الذين يترفعون أحياناً عن التصدي لدراسة مثل تلك الموضوعات الشعبية وانطلاقاً مع رؤيته العفوية هذه تناول الأستاذ الطيب موضوعاً شعبياً آخر هو سيرة الشيخ فرح ود تكتوك فاتحف القراء بكتاب ود تكتوك حلال المشبوك الذي جاء نقيضاً «للانداية» وتضمن دراسة لمجتمع صوفي مخالف تماماً لمجتمع الانداية فأدرك الناس أنه باحث متجرد ضالته الحقيقة أنى وجدها وهدفه التبصير كيفما اتفق..

عصارة جهاد وأسفار:

وهو إذ يضع الآن بين يدي القراء كتاب «المسيد» إنما يذكرهم بمنهجه العفوي في جمع الحقائق وعرضها ويهرهم بقدرته المتفردة على معايشة تلك الحقائق في مواقعها مهما انزوت أو توارت عن أنظار الناس ويكفي أن يعرف القارئ أن جمع مادة هذا الكتاب استغرق أكثر من ربع قرن وأنه استوجب سفراً طويلاً إلى شتى مناطق السودان، وأسفاراً أطول إلى كل بلاد المغرب وموريتانيا والنيجر ونيجيريا وشاد والصومال واليمن والسعودية ودول الخليج ليحزم أنه أمام باحث عشق الموضوع الذي ينقب عنه وأمام كتاب هو تجسيد لشخصية كاتبه..

- وحين يدرك القارئ هذه العلاقة الحميمة بين الكاتب وموضوع كتابه فإن تساؤله الأول يصبح «كيف استطاع الكاتب أن يلتزم الحياد والموضوعية وهو يتناول موضوعاً حيوياً إلى نفسه مترسباً في وجدانه؟» والإجابة المعقولة على هذا

التساؤل هي إيمان الكاتب بأهمية وقيمة موضوعه الذي جعله يفترض اشتراك القارئ معه في نفس الإيمان ومن ثم زوال الحاجة لأي دفاع أو تحيز للحقائق المقدمة في الكتاب ورصد مؤشرات فإنه سيقبل على قراءته بعقل متحرر من قيود الترتيب والتبويب والتسلسل والترقيم وغير ذلك مما تعارف عليه أهل الخبرة في تأليف الكتب وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه من الضوابط والنظم التحريرية وسيجد نفسه في حل من الإصرار على أي تفسير محدد أو الالتزام بأي منحنى خاص في تقييم أو تحليل ما يجد فيه من حقائق أو مفاهيم أو تصورات خلافاً لما يلزم به النقاد أنفسهم من مناهج وقواعد للتقييم..

- والواقع أن أسلوب الأخ الطيب في الكتابة يذكرك بأسلوب ود ضيف الله في كتاب الطبقات وأسلوب الشيخ بابكر بدري في كتابه «تاريخ حياتي» وأسلوب الرحالة العرب فهو يبدأ الموضوع من أي نقطة تروقه وتشد انتباهه كحقيقة أو ملاحظة هامة تستحق التسجيل مادامت له صلة قريبة أو بعيدة بالموضوع الذي يكتب فيه، وقد تضعف الصلة أحياناً بسبب الاستطراد الذي يقع فيه من وقت لآخر فيحس القارئ أن الكلام خرج عن الموضوع لكن الذين يستلمحون هذا الاستطراد يجدون فيه ترويحاً عن النفس من عناء الالتزام بالتراطبات الوثيق والتتابع المنطقي في عرض الجوانب التي ينطوي عليها موضوع الكتاب..

قارئان.. وقراءتان:

والذي يقبل على قراءة كتاب «المسيد» بهذه الروح والإدراك سيجد نفسه أمام حقائق وطرائف مثورة هنا وهناك وعليه أن يشحذ ذهنه ليجد الرابطة بينها وبين أصل الموضوع كلما عرضت عليه ويستشف شخصية الكاتب واهتمامه بكل ما يتصل بموضوعه من قريب أو بعيد، وقد يتسم من وقت لآخر وهو يتأمل هذا الحرص على جمع كل شاردة وواردة حول الموضوع وتفريعاته أما إذا أقبل القارئ على الكتاب بروح الباحث المدقق فإن عليه أن يغوص بأعماق متفاوتة

في تحليل وتقييم ما يجده من مادة غزيرة قابلة لمختلف أنواع ودرجات الدلالة وهذا ما يجعل النوع الأول من القراءة متعة ذهنية والنوع الثانية رياضة عقلية والأخ الطيب يدرك هذه الاحتمالات ولهذا قال في نهاية المقدمة:-

- «ها أنا أضع بين يدي القارئ الكريم حصيلة جهد سار بي عدة سنوات ولو علم القارئ مقدار ما بذلته في جمع مادته وما قمت به من جهود مليئة بالأسفار واللقاءات والاطلاعات والمقارنات وولوج مناطق يعتبر الحاضر فيها جزءاً من الماضي والمشاهد فيها جزءاً من الآثار أقول لو عرف القارئ كل ذلك لتقبل مني هذا الكتاب بصدر رحب وتغاضى عما يشوبه من نقص وحسبه أن يكون نبأً للمتعطشين لأحاديث التراث، ومعيناً للباحثين عن تاريخ الثقافة الإسلامية في السودان ونسأله تعالى الرشاد والتوفيق والسداد».

المسيد.. لماذا؟

وتوقع الطيب أن يتساءل القارئ عن دوافع الكاتب لتأليف هذا الكتاب فقال في المقدمة: «ولعل أول سؤال ينبغي أن أطرحه أو أجيب عليه قبل الشروع في العمل الذي أنا بصددده هو لماذا اخترت البحث في هذا الميدان؟ وحينما طرحت هذا السؤال على نفسي وجدت أن لذلك ثلاثة أسباب:-

- الأول ذاتي.. - الثاني الاهتمام الكبير من خلال هذه الصحوة الإسلامية التي انتظمت معظم الأقطار الإسلامية وبلادنا خاصة دعوة الرجوع إلى الأصول والجذور الثقافية وعلى قمته الخلوة والمسيد باعتبارهما أوعية المعرفة الحقيقية التي صاغت المفرد المثالي في سالف السنين وقد رأى كثير من المثقفين والمتعلمين أن الانعتاق والاستقلال الثقافي الحقيقي لا يتحقق إلا بالرجوع للأصول المتمثلة في المدرسة القرآنية.

- الثالث قبل دخول المدرسة الأولية تفتحت عيناى على الخلوة في مسيد

جدي الفكي أحمد أبو القاسم ودارنا كانت جزءاً من ذلك المسيد البذي بداه
جدنا الفكي مدني بن الفكي أحمد قبل قرنين في قرية المقرن التابعة لريفني
الدامر هكذا وجدت نفسي بين طلبة القرآن..

- كان ذلك على عهد شيخنا تاج المولى محمد عيسى الشايقي من أهالي
الحامداب ثم عقبه شيخنا الفكي الحسن سعد علي سورج من أهالي قرية الأراك
مركز مروى وكان أول ما عرفت الحياة من خلال خلوة المسيد وكنت أظن أن
العالم كله هو الخلوة والمسيد لأنني تمرغت في ترابهما وعرفت طعم الحياة حلوة
ومرة في أفيائهما ولم أدرك قيمة المسيد والخلوة إلا بعد أن فارقتهما بزمان أدركت
خلاله قيمة المدرسة القرآنية في تأصيل العقيدة والثقافة والذات والكيان ومن خلال
هذا الفهم أحاول في هذا الكتاب رد بعض الجميل للمسيد..

- وحين يقول الطيب أن السبب الأول لإقدامه على تأليف الكتاب هو سبب
ذاتي فإن ذلك يعني أن الشغف بالمعرفة جمعاً ونشراً وتلك الموهبة الذاتية التي
تعين على تسخير ذلك الشغف لخدمة المعرفة بمختلف إشكالها وبهذا الاستقراء
يصبح السبب الثاني نتيجة منطقية للسبب الأول حيث نجد المؤلف يضع شغفه
لذاتي بالمعرفة في خدمة الصحوة الإسلامية التي انتظمت العالم الإسلامي ويتولى
التنقيب عن الأصول والجذور ويركز على الخلوة والمسيد باعتبارهما أوعية
المعرفة الحقيقية التي صاغت الفرد المثالي في سالف السنين وقد رأى كثير من
المثقفين والمتعلمين إن الانعتاق والاستقلال الحقيقي لا يتحقق إلا بالرجوع
للأصول المتمثلة في المدرسة القرآنية أما السبب الثالث فهو انعكاس للسبب الثاني
في نفس المؤلف فقد تأثر بتلك الصحوة الإسلامية وعبر عن ذلك التأثر بقوله
أدركت خلاله قيمة هذه المدرسة القرآنية في تأصيل العقيدة والثقافة والذات
والكيان ومن خلال هذا الفهم أحاول في هذا الكتاب رد بعض الجميل للمسيد.

شاهد من أهلها:

وبعد أن وضع المؤلف الأسباب التي دعت له لاختيار المسيد كموضوع يستحق الدراسة نجده يعبر عن إيمانه بأهمية وإمكانية وضرورة العودة إلى الخلوة والمسيد كمنطلق للتخلص والانعتاق من قبضة الفلسفة التربوية الغربية تدريجياً دون التفريط في الجوانب الصالحة من تلك الفلسفة ودعماً لإيمانه هذا يشير إلى ما جاء في كتاب اليونسكو لسنة ١٩٥٣ من أن فلسفة التربية الإسلامية لا تضارعها فلسفة وأن جوهر الخلاف بين التربية الغربية والشرقية هو أن الأولى مادية والثانية روحانية ثم يقول ومن هذا المنظور سيحاول هذا البحث أن يطلعنا على المسيد والخلوة وأهميتهما العلمية والاجتماعية والتربوية..

- وذلك بمنهج وصفي تحليلي كما تفرضه طبيعة هذه الدراسة بينما يعتمد الجانب الثاني على التجربة والملاحظة الخاصة التي خضتها في البلدان التي زرتها داخلياً وخارجياً..

هكذا حدد المؤلف أسبابه لاختيار موضوع الكتاب، ووضح أهدافه من تأليف الكتاب وبين منهجه في عرض مادته وأتاح للقارئ فرصة التأمل والتمعن في ما يقرأ بهذه المعايير ويقرز ما إذا كان المؤلف قد التزم بها مباشرة أو غير مباشرة وإلى أي مدى أعتمد على جهد القارئ في استخراج المؤشرات والشواهد التي خواها الكتاب ليثبت بها نجاح المؤلف في عرض تصوراته وأفكاره وقناعاته بالوضوح والمنطق المطلوب.

- سيجد القارئ نزرأ يسيراً من الطرائف في الكتاب وترويحاً عرضياً عن النفس عندماي عرض عليه المؤلف جوانب من حياة الطلبة والخيران وما يتبادلونه من أَلغاز ومصطلحات للتخاطب السري «ص ٦٠-٦١» أو يشير إلى أنواع العقاب البدني والمعنوي والكلمات المستخدمة في كل ذلك «ص ٦٤-٦٥».

- ولكن ذلك هو كل ما سمح به موضوع الكتاب وعلى القارئ أن يوطن

نفسه على رياضة عقلية شاقة ليستخرج مما يقرأ شواهد على صحة وتصورات وقناعات المؤلف حول الخلوة والمسيد واتخاذهما مرتكزاً ومنطلقاً للاعتداد بالتراث والثقافة والقومية الإسلامية والانعتاق من الثقافة الغربية التي ادعت لنفسها السمو والسيادة على مختلف الثقافات لمجرد أنها غزت تلك الثقافات بالقوة ووسائل الإعلام المتعددة والشاهد الهام على سمو مكانة الخلوة والمسيد في النسيج الاجتماعي الثقافي والديني في البلاد العربية والإسلامية عامة وفي السودان خاصة هو هذه القدرة الباهرة على إزالة الحواجز العرقية والقبلية والجهوية بين طالبي العلم والمؤسسة التي تحقق هذا القدر من الاتصال والتواصل والاندماج والانسجام بين شتات الناس جديرة بالإحياء والرعاية والتطوير وإنه لمن دواعي الارتياح والاعتباط لأي حادب على دعم الأصالة الثقافية أن يرى «المسيد» قد تطور مؤخراً إلى ما سمي بمجمع القرآن في كثير من القرى والمناطق..

- والنماذج الحية للمسيد في ود الفادني وهمشكوريب والدامر وغيرها تقف دليلاً قاطعاً على مدى عراقية هذه المؤسسة التعليمية ومكانتها السامي في وجدان المجتمع وهي تزداد تمكناً رغم ما يجري حولها من توسع في التعليم المدني بكل مستوياته..

- والذين لم يرتادوا الخلوة أو يتعرفوا عليها في مستوياتها العليا داخل المسيد يستخفون عادة بدورها في تخريج أشخاص مؤهلين للقيام بأي عمل يحتاج له المجتمع ولكن الواقع أن الخلوة والمسيد كانا يعدان للمجتمع رجالاً قياديين في شتى مجالات الحياة وقد تحدث المؤلف عن هذا الدور الأساسي وأورد قوائم الأفاضل من خريجي مسيد ود الفادني، والدامر، والغريبة.

وشهادات أخرى:

وإذا كان معيار الرقي الثقافي والتواصل فإن الخلوة والمسيد كانا نقطة

الاتصال بين السودان والأقطار الأخرى، وها هو المبورخ «هولت» يتحدث عن مملكة الفونج فيقول: كان أشهر مركز تدريس بها مدينة الدامر حيث أسس بها المجاذيب خلال القرن الثالث عشر ما يمكن أن يسمى «جامعة إسلامية» كانت خلالها على اتصال دائم بمركز الثقافة والعلم في الحجاز والقاهرة.

كذلك تحدث الرحالة الألماني «بيركهارت» عن الدامر حيث زارها سنة ١٨١٤م فوصفها بأنها مدينة كبيرة وأشار إلى المجاذيب فقال: كانت لهم مكتبة كبيرة كما كانت حلقات العلم فيها تضارع حلقات الأزهر وأوضح من هذا أن السودان كان على صلة مبكرة بالعالم الإسلامي حوله وكان فقهاؤه يتبادلون الزيارات والإقامة الطويلة بل إن هناك من فقهاء السودان من وصل إلى اندونيسيا كالشيخ سوركتي ومن وصل أمريكا كالشيخ ساتي ماجد ولم يكن ذلك ممكناً لاسيما في تلك العهود البعيدة والمواصلات الصعبة لولا الشجاعة التي اكتسبها أولئك الرجال من دراساتهم في الخلوة والمسجد أما الآن وقد سهلت المواصلات فإن خلاوي السودان تعج بالآلاف من الطلاب الوافدين من مختلف الأقطار الإفريقية والعربية.

ويقول المؤلف في ص ٢١ من الكتاب: ثم إن المسجد وكما هو معلوم يقوم مقام المدرسة العصرية ومن المعروف أن التعليم العصري لم ينتشر أولاً إلا في المناطق التي عرفت المسجد لأن المجتمع جرب التعليم واقتنع بجذواه وما زالت هنالك أصوات وجماعات تدعو لبث الروح في الخلوة القرآنية والمسجد.

وقد التزم المؤلف بهذا المخطط وصدق وعده حين عرض نماذج للعلاقة النمطية الحميمة بين الخلوة والمسجد والمجتمع المحيط بهما ثم ركّز على تجربة همشكوريب وود الفادني فأبدع في إبراز المسجد كقلب نابض في جسم المجتمع يتبادل معه العطاء ويمده بأسباب البقاء.. إن المتمعن في هاتين التجربتين لا يسعه إلا أن يرى فيهما مجتمعاً مثالياً متكافلاً تحركه توجهات إسلامية مبسطة وقيم

شعبية متصلة. وليس غريباً في ضوء هذا أن يقول المؤلف في «ص ٢١»: «ولا بأس من أخذ تجارب الأمم الأخرى غربية أو شرقية أو إفريقية في مجال التربية وفي نفس الوقت يمكننا أن نعود لتراثنا الثقافي لنجد فيه ما يلي: - رغباتنا وحاجاتنا إذا أحسنا استغلاله والاستفادة منه».

هويتنا.. هويتنا:

إن الهجمة الغربية الكاسحة التي أشعرت شعوب العالم الثالث أن ثقافتها زائلة لا محالة، قدمت لتلك الشعوب بدائل قلما وجدت قبولاً عندها لهذا بدأت المناهضة والبحث عن الذات وبلورة «الهوية» واتخاذ الإسلام والتراث أساساً لكل ذلك وما يحدث الآن ومنذ سنين في مسيدين ود الفادني وهمشكوريب من تنظيم دقيق وكامل لجياة المجتمع المحيط بهما هو الرد المفحم على من يكابرون ويتشككون في إمكانية الانفلات من قبضة الثقافة الغربية ونظمها التربوية والاجتماعية.. ففي هذين المسيدين وأمثالهما في مختلف بقاع السودان يطلع القارئ على مستوى من الجهود الطوعية الخيرة المتضافرة، لا يتحقق بالوسائل الرسمية الالتزامية ويورد المؤلف أسماء عدد من الخيرين الذين أسهموا بقسط وافر في بناء الخلوي والمساكن القائمة في مسيد ود الفادني أما في مسيد الغربية فقد تكفل سكان القرية بإيواء وإطعام الطلبة الوافدين في منازلهم مباشرة ويواصل المؤلف عرض شواهد على مكانة الخلوة والمسيد في نسيج المجتمع السوداني ويكشف الأدوار المتعددة التي يقوم بها المسيد في توجيه ورعاية حياة هذا المجتمع ليثبت بكل ذلك سلامة قناعاته بجدوى إحياء وتطوير هذه المؤسسة الدينية والاجتماعية في بلاد الإسلام عامة والسودان خاصة.

والمجال لا يتسع هنا للإسهاب في كشف تلك الشواهد ويكفي ذكر بعض العناوين ليرى القارئ كيف دعم المؤلف قناعاته وتصوراتهِ عن الخلوة والمسيد

ودورهما وجدارتهما بالبقاء والتطوير.. فهو تحدث «عن الأمر بالمعروف» في مسيد المجاذيب «ص ١٤٣» وعن نظام التعليم عند المجاذيب «ص ١٤٧» وعن الأدوار التي تقوم بها الخلوة في المجتمع التقليدي ويرز البور السياسي والاجتماعي منها «ص ١٦٤» وعن المسجد والتعليم «ص ١٧٥» وعن وظيفة المسجد التعليمية «ص ١٧٦» وعن الخلوة والمهدية «ص ١٩٧» ويفصل النشاط اليومي لمسيد أم ضبان «ص ٢١٠-٢١١» ويتحدث عن العلاقة الوثيقة التي قامت بين أطباء الأمراض العصبية والنفسية ومسيد أم ضبان «ص ٢١٧» تحت عنوان العلاج التقليدي وبرز دور المسيد في استقرار العرب الرُّحل حول الآبار والحفائر التي تقوم بالقرب من المسيد ويتحدث عن دور المرأة في إنشاء وتعمير وإدارة الخلاوي والقيام بالتدريس فيها «ص ٢٤٧».. إلخ.

وقد يرى بعض القراء أن المؤلف أفرد لتاريخ القبائل وأنسابها حيزاً كبيراً في الكتاب ولكن العلاقة الوثيقة بين القبائل وما ينشأ فيها من خلاوي هي التي تبرر ذلك الاستطراد المستملح، وانظر إلى ما أورده المؤلف في «ص ١١١-١١٤» عن قبيلة المحس وكيف اتخذ من كل ذلك مدخلاً بارعاً للحديث عن الشيخ أرباب العقائد ودوره في تأسيس خلاوي القرآن وهكذا لم يخرج عن موضوع الكتاب هنا أو في المواضع الأخرى التي استطردها فيها بسرد تاريخ بعض القبائل ليذكر مفاخرها في إنشاء ورعاية المسيد.

والحديث عن القبائل بهذا التوسع والاستطراد هو مفتاح شخصية المؤلف فقد نشأ في بيئة معيارها القبلية وعمادها الأنساب وهذا ما يجعل قراءة الكتاب تأملاً في تلك الشخصية واندھاشاً لما اختارت وإعجاباً بما أنجزت وانبهاراً بما حققت.

نقد لكتاب المسيد

مع الطيب محمد الطيب في كتابه المسيد

بقلم د. محمد خير عثمان وزير التعليم العام السابق

صدر أخيراً من دار جامعة الخرطوم للنشر كتاب «المسيد» لمؤلفه الباحث الأديب الأستاذ الطيب محمد الطيب. والكتاب يعتبر تعبيراً آخر عن الاهتمام الذي ينتظم جميع أعمال الطيب محمد الطيب القائمة على تأصيل الموروث الثقافي الشعبي لبلادنا. ولا أحسب من الإنصاف أن يوصف الكتاب بأنه مجرد إضافة جديدة للمكتبة التربوية السودانية، فهو وبكل المعايير يعتبر رائداً وغير مسبوق في مجاله. إنه يخطو بنا خطوة متطورة في معالجة التعليم الإسلامي في طبيعته ونشأته وانتشاره في ربوع السودان بصورة متكاملة وموثقة، ويقرب بنا من تأطير التجربة السودانية في التعليم السوداني وطرحها كمنظومة تتوفر لها كل المقومات التي تجعل منها «نظماً تعليمياً» متكامل العناصر.

لقد تمت هذه التجربة الفريدة للتعليم في بيئة بدائية بالمقاييس الحديثة.. بيئة عربية - افريقية زراعية وشبه صحراوية تقوم على اقتصاد الكفاف، وتغطي فترة زمنية سابقة بقرون وأجيال للاقتصاد التقني المتطور والمتغيرات المتسارعة التي يتصف بها العالم المعاصر، إلا أنها كانت مع كل ذلك تحمل الخصائص والبذور التي تجعل منها نظاماً قابلاً لمجابهة المتطلبات المعاصرة لأن التجربة كانت تحمل في جوفها خصوصية «التربية الإسلامية» المؤسسة على هدي القرآن الكريم والشريعة

المحمدية واجتهادات العلماء والفقهاء المسلمين في عصورهم المختلفة. وعلى الرغم من أن التربية الإسلامية بهذا المفهوم - كانت - وما زالت - في مجملها مجرد تصور نظري لمجموعة من المبادئ والإرشادات ولاستخلاصات علمائها من القرآن والسنة ولم تجد التطبيق العملي في أرض الواقع إلا في وحدتها الأساسية - الخلوة القرآنية - والمراحل غير المبرمجة التي تلوها، إلا أنها في نموذجها السوداني وفي الظروف التي أحاطت بنشأتها وتطورها في البيئة السودانية استطاعت أن تجود بأروع ما فيها من مبادئ وقيم تجسدت فيها خصائص ما زالت تفتقر إليها النظم التربوية الحديثة، كالمرونة والانفتاح والقدرة على التأقلم مع الاستجابة لحاجات البيئات المحلية وخصوصياتها، ومع الاحتفاظ بركايز الهوية الوطنية وثوابتها.

ونحن في كتاب «المسيد» نرى هذه التجربة الرائدة في تكاملها وعمقها وانتشارها والتي بدأت في ديارنا منذ أوائل القرن الثامن الميلادي وكأنها تخاطب مجتمعات القرن الواحد والعشرين. إنها تحمل كثيراً من الرؤى والطموحات التي ظلت تنادي بها المجتمعات العصرية ولا تكاد تحققها إلا فيما ندر.. مجانية التعليم.. تعميم التعليم.. تكافؤ الفرص في تناوله.. ارتباطه بالبيئة.. قيامه على المنظومة الأخلاقية.. بل إنها وفي كثير من جوانبها وتطبيقاتها العملية تتجاوز الواقع العصري إلى مخاطبة المستقبل.. حرية الحركة العلمية بإلغاء الحدود الجغرافية بين طلاب العلم ومؤسساته وأساتذته.. إشاعة التعليم بلا شروط مقيدة ولا التزامات عسيرة إلخ.. كما أنها في سعيها لتحقيق مبدأ «المجتمع المتعلم» و«التربية المستمرة» - وهما من أحلام المتفائلين من دعاة التجديد التربوي - نقلت مفهوم «الأعمال الخيرية» في التعليم إلى واجب والتزام أدبي يكاد في كثير من الأحيان يكون هو الحد الأدنى لإعانة التعليم من الرعاية والحكام والقادرين من المواطنين. وبفضل هذه الرعاية التي أسبغها المجتمع السوداني على التعليم أصبح

السودان أول «سوق حرة» للعلم لا قيد على أحد في تناوله إلا قيد الرغبة فيه والقدرة عليه.

هذه هي الصورة الأساسية التي يحاول كتاب «المسيد» أن يطرحها للقارىء. وهي صورة سودانية أصيلة إلى حد كبير. نعلم ذلك من تعرفنا على المؤسسات المشابهة للخولة والمسيد من أقطار عربية وأفريقية أخرى وفي الأجزاء التي تناول فيها المؤلف بالوصف المقارن هاتين المؤسستين.

وقد سلك المؤلف إلى وصف هذه الصورة مسالك عدة وركب إليها مراكب مختلفة.. معظمها صعب وأقلها يسير، بعضها حالفه التوفيق وبعضها كان أقل حظاً من النجاح. فقد تبنى المؤلف في كتابه نفس المنهج الذي أخرج به أعماله الأخرى. وهو منهج يجمع بين طريقة ابن بطوطة في رحلاته وذلك من حيث تحري الحقائق في مظانها المكانية وبوجوده المباشر على مسرح الأحداث أو بالاعتماد على المصادر الحية أو المخطوطة خلال طوافه ولقاءاته بأصحاب الشأن. وقد حملت هذه الرحلات المؤلف داخل وخارج حدود البلاد وإلى أقطار عربية وإفريقية إسلامية عدة. كما نجد في الكتاب ظلالاً من ود ضيف الله في شغفه بالتفاصيل وشعبته واستطراداته. وقد التزم المؤلف بأسلوب سهل ومسترسل، تزينه أحياناً عربية مشرقة الديباجة.

ومن الصعب على القارىء أن يضع يده على منهجية واضحة في الكتاب. ويبدو أن المؤلف قد أخذ بعدة مداخل وكاد المنهج أن يجمع من شتات المعلومات الغنية والمفيدة والتي تشتمل على حقائق توثق لأول مرة. والمنهج التاريخي ذو أهمية أساسية في مثل هذه الدراسات والتي يعتبر الزمن من أهم عناصرها لإكسابها منطق التتابع والترابط المطلوب. ويمكن حصر المداخل التي تجمع عناصر الكتاب في المنطق المؤسس ومدخل المشايخ والمدخل القبلي والمدخل الجغرافي والمدخل المقارن. وهي مداخل متداخلة ومتشابكة في بعضها

البعض وإن غلب واحد منها على الأخرى. فهو في المدخل المؤسس مثلاً. يركز على الخلوة أو المسيد كوحدة محورية يختارها إما لشهرتها أو لعراقتها أو لحجمها ولكنه لا ينسى الوقوف عند مشائخها لاسيما صاحب الفضل الأول في إنشائها ومن جاء بعده من ورثته. هكذا فعل مثلاً عند وصفه لمسيد ود الفادني ومسيد أم ضبان ومسيد همشكوريب وكما فعل بخلوة الغريسة من دار الشايقية وهي من أعرق وأشهر الخلاوي في تلك المنطقة.

وعندما يختار القبيلة محوراً فإنه يتناول بالوصف المناطق الجغرافية التي حملت إليها العلم ويعدد مشايخها من الذين ذاع صيتهم في البلاد. وفي هذه الحال فإنه يحرص دائماً على التمييز بين القبيلة كصاحبة الأصل في إنشاء المؤسسة والقبيلة أو المنطقة التي اتفق أن قامت فيها المؤسسة. فهو مثلاً يشير إلى خلاوي «الغبش» من بربر وخلاوي «المجاذيب» في الدامر دون أن ينسبها إلى الجعليين وكذلك الحال عندما يصف خلاوي البديرية فإنه لا ينسبها إلى الشايقية بل إلى «دار الشايقية» ومع ذلك فإنه يشير إلى الدور الذي قدمته المنطقة «المضيقة» إلى المؤسسات ذات الأصل «الوافد» من رعاية وكرم وفادة مما سهل على الأخيرة قدراً كافياً من التفرغ لأداء رسالتها العلمية في مقابل ما حصلت عليه المنطقة من خدمات علمية.

وقد وقف المؤلف وقفات طويلة ومفيدة عند بعض المجموعات القبلية والتي لعبت دوراً رائداً وبارزاً في نشر القرآن وعلومه في ربوع البلاد وهي قبائل ومجموعات توارثت هذه الرسالة وعرفت بها على مدى أجيال طويلة فهو يبدأ بالمجموعة الدنقلاوية والتي شهدت ديارها إقامة المسجد الأول في السودان ومنه انبثقت المؤسسات الرائدة وعم نورها أطراف البلاد وانتشر علماؤها المنحدرون من غلام الله بن عائد وذريته، يتوارثون العلم، قرآناً وفقهاً وقضاء إلى يومنا هذا. ومنهم أولاد حاج بلول الذين يتشرفون باحتضان أول مصحف في نسخته الخطية

الأصلية وقد اعتبره المؤلف من أقدم المصاحف من نوعه والمعروفة حتى اليوم وقد تم الانتهاء من كتابته في يوم الأحد ١٠ شوال عام ٨٧٠هـ.

ووقف وقفات أطول عند مجموعة القبائل المحسية ووصف دورها التاريخي العريض والعميق في التعليم القرآني ونشره في البلاد واحتفاظها بقراءة «ورش» أقدم القراءات القرآنية بالسودان كما عدد بعض أكابر علمائها الذين تألقوا في سماء العلم وتعليمه وحفظه. وكذلك فعل مع الغبش والمجاذيب كما أسلفنا ومع أركابية والصواردة والكتياب الذين اشتهروا دون غيرهم في السودان أو بلاد الإسلام الأخرى بتخصيص مقبرة لحفظة القرآن «لا يفصل بينها أي قبر لم يعرف صاحبه بحفظ القرآن».

وقد يفرد المؤلف أحياناً فقرات مكثفة للحديث عن علم واحد ومن مشائخ القرآن يجعله محوراً لحال القرآن في منطقة أو قبيلة أو علم بعينه «ومن هؤلاء مثلاً الشيخ «أرباب العقائد» والذي يرجح المؤلف أن مسجده الأصلي كان في المكان الذي أقيم فيه المسجد العتيق حالياً أو «مسجد فاروق» بالخرطوم. وقد يأتي الحديث عن أحد هؤلاء الأعلام في سياق الحديث عن المؤسسة وبذلك يجمع عنصرين في جزء واحد من الكتاب كما فعل عندما خصص في الفصل السادس جزءاً لمسجد «أم ضبان» ولكنه يتعجل في وصف «المؤسسة» ليسرع الخطى إلى «الشيخ» فيفصل القول فيه؟؟ أخلاقاً وحكمة شعبية وجهاداً ضد المستعمر. وهكذا ينقل الصورة متكاملة للشيخ العبيد ود بدر .

وهو قد يعطي كلاً من المؤسسة وشيخها ويبتها نصيباً عادلاً من الوصف وذلك عندما أفرد الباب الخامس للمسيد في شرق السودان فجعله قسمة بين مسيد همشكوريب الذائع الصيت في الشرق وبين سيدنا علي بيتاي ريسن البيشة القبلية والاجتماعية التي تم فيها إنشاء المسيد.

وقد يبدي المؤلف اهتماماً خاصاً بالأنساب ومتابعتها - وهذا الاهتمام جزء من

ثقافته وتخصصه - فترك لنفسه العنان في تتبع أصول المشائخ وعلاقاتهم بغيرهم من أئذاذ وأنداد آخرين وبذلك يضيف للقارئ معرفة عرضية بجانب آخر ليس من صلب الموضوع ولكنه لا يخلو من الفائدة في حد ذاته.

والكتاب يلفت الاهتمام إلى حقيقة طريفة وهامة ويطرحها بطريقة غير مباشرة كقضية علمية تنتظر التحقيق والمتابعة والاستقصاء ألا وهي وجود «أشجار نسب» أخرى غير أشجار النسب الرحمية المعروفة وهي تلك المتعلقة بالعلاقات المتسلسلة «بالقربة» العلمية وتشابكها وتفرعها رأسياً وأفقياً في حلقات متصلة كالعلاقة التي تقوم بين الشيخ وجيرانه ومن أخذ عنهم في أجيال متتابعة. ومثل هذه «النسبة» لا تخضع بالضرورة للتوريث أو لعلاقة الرحم أو النشأة في قبيلة واحدة ولكنها في أحيان كثيرة تنمو بمعزل عن العلاقات العائلية أو القبلية. ولعل هذه ظاهرة فريدة تميز صورة التعليم الإسلامي في السودان.

ويقف التعليم القرآني في دارفور ثقافة علمية واجتماعية بذاته ونموذجاً للمدخل الجغرافي في الكتاب وشاهداً على مدى التغيير الجذري الذي تتعرض له المجموعات التي تستقبله وتقبل عليه بالشوق واللهفة كما فعلت دارفور - وعندما تذكر الهجرات القرآنية من أدبيات التعليم الإسلامي في السودان ينصرف الذهن إلى المهاجرين من طلاب القرآن من أبناء دارفور إلى مناطق أواسط السودان وحوض النيل، كأنها الهجرة الدارفورية هي ذات اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق، و كأنها لا توجد منافذ أخرى لهجرة أبناء دارفور غير منافذ الهجرة إلى الشمال ولكن الدراسة تصحح هذا المفهوم من وجهين الأول أن الهجرات القرآنية بين دارفور وغيرها من مناطق السودان الأخرى كانت حركة متبادلة فكما هاجر أبناء دارفور إلى الشمال كانت دارفور تستقبل مهاجرين إليها من الشمال لنفس الهدف العلمي. والوجه الآخر هو أن هناك حركة هجرة متبادلة قديمة بين دارفور من جانب وغيرها من أقطار المغرب العربي وقد تكون هجرات دارفور إلى مصر

والحجاز ولا يكون شمال ووسط السودان إلا استراحة مؤقتة لاستئناف الرحلة شمالاً أو شرقاً.

ومن أهم إسهامات الكتاب عقده فصلاً كاملاً عن دور المرأة في تدريس القرآن والفقه وتوثيقه لهذا الدور في حركة التعليم الإسلامي بعامة في بلادنا. ودور المرأة المسلمة في العالم - تناولاً وعطاءً - ظاهرة شائعة في كثير من البلدان الإسلامية ولا أحسب أن المرأة السودانية كانت بأقل تأثيراً من تطوير التعليم الإسلامي بين النساء خاصة وفي المجتمع بصورة عامة وقد بذل المؤلف جهداً طيباً في جمعه وتحقيقه لتراجم بعض شهيرات النساء ودورهن المتميز في هذا المجال.

هذه شذرات قصدت بها تقديم هذا العمل المفيد والأصيل للقارئ ولكنها شذرات لا تغني عن قراءة الكتاب في أصله فهو وثيقة علمية وسياحة ثقافية في واحد من أهم موروثاتنا الشعبية وأخطرها تأثيراً على ثقافتنا وهويتنا. ولكني وبصفة خاصة أرشح لقراءته المتخصصين في الترية من القراء وأخص بالذكر منهم الذين تناولوا في دراستهم وبحوثهم أو تأليفهم تاريخ التعليم في السودان. فلم أعثر في قراءاتي لمن ساهم منهم في هذا المجال على تحقيق جاد ومقنع لخلفية تاريخ التعليم في بلادنا في صورة تنصف التعليم الإسلامي وتشكلاً «شخصيته» ونحدد كيانه وإنما هي شذرات متفرقة مكرورة ومرددة لا يتجاوز مصدرها طبقات ود ضيف الله أو الدكتور عبد العزيز عبد المجيد الذي أعاد صياغة أجزاء من ود ضيف الله واستكملها بما استطاع الحصول عليه من دار الكتب المصرية من وثائق تتعلق بالحكم التركي في السودان وفرماناته. وقد كان في وقته جهداً رائداً ومشكوراً.

فقد دأب المؤرخون من التربويين السودانيين على اعتبار ميلاد التعليم في السودان هو «ثلاثية» جيمس كري المشهورة في أهداف التعليم ومن هنا فإنهم

قلما أنصفوا التعليم الإسلامي السابق للعهد الاستعماري والتعامل معه كثقافة تقليدية وطنية ومتكاملة ثقافة كما أهدافها ومراميها وفلسفتها وتقنياتها التي تختلف جذرياً عن طبيعة التعليم الجديد الوافد. ودون إبراز هذه الخلفية كقوة ثقافية موازية للقوة الجديدة، ودون وضع احتمالات الصراع السياسي والثقافي بين القوتين في الحسبان وفي إطار جدلي حتمي كما برهنت الأحداث من واقع التطورات المتلاحقة في السودان خلال نصف القرن الأول للحكم الجديد فإن الجهد الذي أنصرف وما زال ينصرف من قبل مؤرخي التعليم الحديث في السودان لا يتجاوز كونه تدريباً أكاديمياً على منهجية البحث.. وليس مرشحاً بحال من الأحوال لتقديم مرافعة مقنعة ومؤثرة يمكن أن تحمل واضعي القرار التعليمي لوضع البديل الإسلامي موضع النظر الجاد مهما انطوى هذا البديل - وبالنظرة العلمية المجردة - على كل الخصائص والمقومات التي تجعل منه الحل المنتظر لإشكالية التعليم في بلادنا على أقل تقدير.

ويبدو أن مثل هذه المرافعة في حق ثقافتنا وتعليمنا الوطني العريق صارت أمراً غير وارد بالنسبة للخبراء والمتخصصين.. ولعل في الكتاب الذي نحن بصدده بشائر جديدة تأتي من خارج الساحة... فلنتنظر المزيد.

شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بشكري وامتناني لكل من أعان في هذا الكتاب وهم كثير لا، أستطيع لهم حصراً وعلى رأسهم السيد رئيس الجمهورية الذي أعانني بمبلغ كبير دفع بهذا الكتاب إلى المطبعة ولولاه ولولا جهود السيد وزير شؤون الرئاسة لما وجد هذا الكتاب طريقاً ميسراً للمطبعة ثم يمتد الشكر للأستاذ المربي إبراهيم ضو البيت الذي تفضل علي بفتح مكتبته وراجع معي مسودات الكتاب ونقد ووجهه والشكر للدكتور أحمد عبد الرحيم نصر الذي عمل في المملكة العربية السعودية والخليج وأمدني بالدوريات والمخطوطات التي تعرضت للمدرسة القرآنية «الكتاب».

وشكري موصولاً للدكتور عبد الله علي إبراهيم الذي ساهم معي في ترتيب أبواب الكتاب. وأذكر بالفخر الأستاذ اللغوي العالم والشاعر الكبير محمد عبد القادر كرف الذي شجعني ورفع من روحي رحمه الله.

وشكري أيضاً للدكتور العالم عبد الوهاب سر الختم أحمد. والشكر للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم الذي أتاح لي فرصة الاطلاع على مخطوطات دار الوثائق كما أمدني ببعض الروايات الشفهية وشكري للصديق الأستاذ يحيى محمد إبراهيم من دار الوثائق وشكري يمتد بالتقدير للأخ الفنان حسن خضر دلوك وجمال عبد الله الزبير مصمما هذا الكتاب.

وامتناني للأستاذ عثمان بابكر «العمدة» وللأخ عبد الرازق محمد أحمد الحسين الإداري والفني بشركة أرقو للطباعة الذي وقف بجانب هذه المادة حتى

جمعت.. والسيدة زينب زرقة ولأسرة دار جامعة الخرطوم للنشر إدارة ومطبعة
وفنيين وعمالاً الذين أولوا هذا الكتاب عناية خاصة في الطبعة الأولى جزاهم ربي
خير الجزاء، كما أشكر مؤسسة الصالحاني التي قامت مشكورة بالطبعة الثانية من
هذا الكتاب خاصة الفنانين محمد الصيرفي - خالد الحجار وعبد الرحمن
زند الحديد الذين عكفوا على إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الممتازة جزاهم
الله الخير كله. وليعذرني من لم أستطع إيراد اسمه ممن تفضلوا علي بأدنى كلمة
تشجيع.

مقدمة

هو ذا كتاب المسيد أضعه بين يدي القارئ الكريم ولأن الموضوع يتعلق بالمدرسة القرآنية «المسيد» لذا يقتضي الأمر أن أجعل له مقدمة تتفق والموضوع. السودان هو رأس الرمح للعروبة والإسلام في أفريقيا السوداء وذلك منذ أقدم العصور وإلى يومنا هذا واهتمام الفرد من أهليه يتركز في انتمائه القبلي العربي وارتباطه الإسلامي وكثيراً ما يزعم فرد بأن قبيلته تنحدر من صحابي جليل وبذلك يجمع بين الانتماء العربي والإسلامي. ولإثبات ذلك تدور روايات تختلط فيها الحقائق بالأمانى. الأمر الذي يجعل مهمة الباحث عسيرة وشاقة. هذا والزمن يمضي وثقافة الرواة يتساقطون، وموكب الحياة الصاخب لا يهدأ ولا يتوقف.

وحسبنا من عروبة العقيدة الإسلامية والثقافة العربية وفوق هذا فعروبتنا السودانية لا يأتيها الباطل ولا الشك عندنا فأغلب أهل السودان يعيشون العربية لغة وسلوكاً وذوقاً وعليها أقاموا عمدهم حياتهم في الماضي والحاضر والمستقبل وهي عروبة افريقية لا نبدلها بأي انتماء قاري أو إقليمي.

وأسلافنا هم من الزعيل الأول ذي الشوكة والمرودة والحمية الذين خرج بعضهم من بلاد الإسلام فاتحين ومبشرين، إذن فاتصلنا بالعرب الأقدمين حقيقة لا مرية فيها عند كافة عرب السودان ولكثير منهم وثائق نسب تثبت ذلك وكما جاء في الأثر «الناس أمناء على أنسابهم»، وعروبة أهل السودان نابعة من بلدهم هذا.

وعروبتنا لا ريب محل شك عند الغالبية العظمى من العرب المعاصرين واستثنى قلة من العلماء الذين لهم باع في المعرفة. أما الغالبية العظمى فمهما فعلنا وأفصحنا

فما زلنا في رأيهم زنجياً وأفارقة وما درى هذا نفر أن غالبية العرب اليوم تقطن أفريقيا وقد ذكرت آخر إحصائيات جامعة الدول العربية «كما علمت» أن نسبة العرب في أفريقيا توازي ٧٠% من مجموع العرب كلهم في شبه الجزيرة العربية كما أفادت دوريات المنظمة العربية.

ونحن عرب أفارقة لا ننفصل من عروبتنا وأفريقيتنا وفيما زنجٌ عَرَبهم الإسلام وهم كثر ولنا أن نفخر بالإفريقية ونحرص عليها من غير تعصب، واللون الأسود والأخضر والأسمر لا ينتقص من قدر العربي المسلم وقديماً قال الشاعر العربي الفضل بن عباس ابن أبي لهب عندما فاخره شباب من العرب السمر:

وأنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة من بيت العرب

مق دخل العرب السودان... ومن أي مرفأ

مق دخل الإسلام السودان.. ومن أي جهة

هذان هما السؤالان اللذان يتبادران إلى الذهن عند الحديث عن الإسلام والعروبة في السودان. وللإجابة على ذلك ينبغي أن أشير إلى موقع السودان الذي هو أقرب المواقع إلى شبه جزيرة العرب إذ لا يفصله عنها إلا البحر الأحمر، وكان عبوره ميسوراً وقتذاك رغم قلة السفن مما حدا بالرواة أن يقولوا لم يكن البحر الأحمر في الماضي هذا «الاتساع». وقد عبر بعض العرب البحر الأحمر من أربعة مرائء أولها «ينبع» وهي ميناء قديم يقع غرب يثرب، والمرفأ الثاني «جدة» والثالث «فَرْسان» موضعه جنوبي جدة وتمتد جزيرة فرسان بضعة «كيلومترات» داخل البحر وحدثني أحد المعمرين من سكان فرسان ويدعى «جابر بن حمدان» قائلاً أن أسلافنا كانوا يشاهدون في أماسنى الصيف وحينما يكون البحر هادئاً النار في ساحل الحبوش^(١). والعرب في هذا البلد كانوا

(١) الحبوش هو الاسم المتعارف عليه بين قدامى أهل الحجاز ويعنون به أهل السودان وعند ظهور السلطنة السنارية صاروا ينادون أهل السودان بالسناريين (جائزة على بعد).

قبل الإسلام بلا ريب. والمرفأ الرابع هو مضيق باب المندب المشهور وسمعت من أحد الجيولوجيين أن البحر الأحمر كان ضيقاً عند باب المندب وأن من يقف لدى ساحله الشرقي عندما تكون السماء صافية يشاهد شواطئ الساحل الغربي وقد عرف البحارة والتجار العرب من بلادنا عذاب وسواكن المشهورتين وذلك منذ زمان بعيد كما عرفوا بعض الجزر المفضية إلى البر السوداني كجزر باضع. هذا وقد ذكروا أن بعض الهجرات العربية كانت تنفادى البحر الأحمر وتعبّر بشرقى مصر وتواصل السير حتى تستقر في السودان وكان هؤلاء نفر أهل بدواة ولا يعملون للحياة المستقرة المتوفرة في مصر التي تسودها قوانين الحضر. ولذلك تجاوزوا مصر والتحقوا بأبناء عمومتهم الذين هبطوا المهجر الجديد قبلهم بقرون عديدة.

الأسباب:

ذكر المؤرخ ابن حوقل أن بلاد السودان عرفت العرب والعروبة قبل عام الفيل بثلاثة قرون^(١) وأول القبائل العربية التي دخلت السودان هي قبيلة «بلى» الحجازية اليمنية التي تنتشر بطونها وأفخاذها على ساحل البحر الأحمر وتهاتمي اليمن والحجاز فوجدوا عرباً مثلهم في الساحل الغربي لبحر القلزم.

وانتشرت تلك القبيلة في المهجر الجديد وغالطت البجاة فسمتها البجاة باسمها الأصلي «بلى» وسموا لغتهم «بلويه» والفرد منهم بتخريج لغة البجاة يسمى «بلوي» ولغته «بلويت».

أصالة السودان^(٢):

السودان كغيره من بلاد العالم ذو تاريخ طويل إن لم نقل أطول من غيره

(١) تاريخ الثقافة الإسلامية في شرق السودان مخطوط تأليف الأستاذ الشيخ محمد الأمين شريف مؤرخ شرق السودان المعروف.

(٢) تاريخ السودان - بروفيسر منفور المهدي ص ١٧-٤٠.

وأقدم. كما ذكر ذلك ديودورس^(١) "Diodorus" الذي وصف سكان السودان بأنهم أول الخلق على ظهر الأرض.

تاريخ التعليم:

ويقول البروفيسر مندور المهدي^(٢): المتعرض لتاريخ التعليم في السودان لابد له من أن يرجع إلى عهود بعيدة جداً يتعرض فيها للمحاولات الأولى لنشر المعرفة في السودان. ويجزم على أن وراء الثقافة السودانية تاريخاً طويلاً وإن التعليم في السودان قد ظهر قبل ثلاثة آلاف سنة من ميلاد المسيح وأشهر العهود وأبعدها صيتاً وأثراً العهد المروي الذي نشأت فيه المملكة المروية وشمخت في وقت كانت فيه أغلب أقطار العالم تغط في بدائية وجهل وتخلف وفي عهدها بلغ التعليم شأواً بعيداً. حتى أن رجالها ابتكروا حروفاً جديدة للكتابة خاصة بمملكتهم. منفصلين بذلك عن الكتابة الهيروغليفية المصرية وقد عرفت بالكتابة المروية وقد حاول دارسو علوم الآثار فك رموزها ويقال أن العالم الانجليزي الشاب «هيكوك» الذي كان يحاضر بجامعة الخرطوم قد أوشك على ذلك ولكن المنية عاجلته وبصبر العلماء وإصرارهم على بلوغ الهدف ستحل عاجلاً أو آجلاً رموز الكتابة المروية وسيقف العالم على كنز يضم الكثير من أخبار وأسرار تلك الحقب العتيقة إن شاء الله.

(١) ديودورس - مؤرخ إغريقي عاش وكتب في القرن الأول قبل الميلاد.

(٢) التعليم في القرون الماضية - بحث كتبه العالم الكبير بروفيسر مندور المهدي عليه رحمة الله وكان من كبار رجال التعليم والتربية.

























52
 S
 /
 4
 //
 6
 7
 8
 9
 10
 11
 12
 13
 14
 15
 16
 17
 18
 19
 20
 21
 22
 23
 24
 25
 26
 27
 28
 29
 30
 31
 32

A
 B
 C
 D
 E
 F
 G
 H
 I
 J
 K
 L
 M
 N
 O
 P
 Q
 R
 S
 T
 U
 V
 W
 X
 Y
 Z

نموذج للخط المروي

التعليم قديماً:

إن لهذا البلد «السودان» أصولاً بعيدة من حيث الأصالة والبعد التاريخي فقد عمرت هذا الجزء شعوب كثيرة وقد عُرفت بأسماء شتى مثل «الكوشيين» وتلاههم عهد «كرمة» وهي دولة ذات حضارة باسقة وقد أثبت البحث الأثري الذي قام به بروفير أن تاريخ دولة كرمة يبدأ بـ ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد وتلا العهد «الكرمي» دولة - نبتة - تم نشأت دولة مروى بين ٧٥٠ قبل الميلاد إلى ٣٥٠ بعد الميلاد.

وفي الدولة المروية استنبط أهلها الحرف ثم الكتابة التي عرفت فيما بعد باسم الخط المروي والدليل ماثل حتى اليوم إذ يوجد الخط في حاضرة مملكة مروى «البحراوية» شمال الخرطوم عند «كبوشية».

والخط المروي موجود ههنا ومنه نماذج يراها الزائر إن حرص. فالحجارة التي تحمل الخط «مدفونة» بين القصر الملكي ومعبد آمون الإله الكبير في تلك الدولة.

وقد حاول العلماء فك هذا الخط وطلاسمه مراراً وتكراراً وأغلب من حاولوا الأثرين الأجانب كالمستر هولت والمستر شبيني وكان أوفرهم حظاً الباحث الانجليزي الذي عمل أستاذاً في جامعة الخرطوم فقد أجهد المستر «هيكوك» نفسه حتى أمسك برأس خيط هذا الخط المروي وبدأ يقرأ ويفك بعضاً من حروفه ولكن المنية عاجلته في نهاية ١٩٦٧. الشاهد ههنا أن دولة مروى بلغت درجة من التحضر إذ صنعت الحرف وبلادنا «السودان» واحد من ثلاثة أقطار عرفت الحرف والخط - «الهيروغليفية» في مصر، «الأمهرية» في أثيوبيا، «المروية» في السودان.

المسيحية:

بعد انهيار مروى دخلت المسيحية إلى مملكة «نوباتيا» و«علوة» كما ذكر

لنا المؤرخ «يوحنا الافسوسي» أما مملكة المقرة الواقعة بين نوباتيا وعلوة لم يذكر المؤرخ شيئاً عنها ربما سكت خشية من أهل دنقلا الذين كانوا يعبدون الأوثان.

غير أن مؤرخاً آخر هو «يوحنا القوطي» الذي كان شاهد عيان لهذه الأحداث وروايته تدل على قبول مملكة «المقرة» أيضاً للدين المسيحي كان ذلك سنة ٥٦٨ م. ويقول القوطي أنه من سنة ٥٧٤ وصل القسطنطينية وفد من سكان مملكة المقرة يحمل هدايا إلى ملك الروم وطلبوا منه عقد معاهدة معه وقد تم لهم ما أرادوه.

وذهب وفد آخر إلى ملك الروم وطلبوا إلى الامبراطور عقد معاهدة سائلين أن «يتعملوا» عبادة الدين المسيحي فوافق الملك ويضيف يوحنا القوطي أن شعب المقرة أقبل على الإيمان بالدين المسيحي. من هذه الوقائع يتضح أن تعاليم المسيحية انتشرت بواسطة القراءة والكتابة بالخصوص في الكنيسة. وكان المتدينون يكتبون بالقلم القبطي واليوناني ثم أخضعوا الكتابة إلى اللغة النوبية لغة البلاد.

شاهد القبر:

ولفت نظر فازار فانتيني أن الأثرين وجدوا في قرية «ميناري» من أرض دنقلا شاهداً على قبر سيدة مسلمة^(١).

(١) مكتوب عليه اسمها وتاريخ وفاتها: من بعد. بسم الله الرحمن الرحيم «الكتابة على الشاهد غير واضحة» - الله أنت خلقتها وأنت أحيتها وأنت على... فاطمة بنت إبراهيم بن إسحاق بن عيسى توفيت يوم الأحد أول يوم من شهر «بونة» «٤٥٣» والتاريخ هذا على الرصد القبطي، من عهد الشهداء الموافق ٧٣٣ م.

دخول الإسلام:

دخل الإسلام بلادنا في العام الحادي والثلاثين من الهجرة بقيادة سيدنا عبد الله بن سعد بن أبي السرح وأبرم مع عظيم النوبة المعاهدة المعروفة باسم «البقت» وهو النطق الصحيح ولكنها ربما تحرفت عند الكاتب «عمرو بن شرحبيل» وهو من الجماعة الإسلامية التي حضرت إبرام الاتفاقية.

ولكن الإسلام تسرب ودخل وانتشر بين الناس حتى عم أكثر الجهات الشمالية والشرقية والغربية فضلاً عن وسط البلاد. والأغلب في هذه الحالات أن يتعلم من يعتنقون الإسلام الكتابة والقراءة وهذا أمر بديهي.

ولكن لم يحدثنا مؤرخ متخصص عن البدايات الأولى وافترض أن الكتابة بدأت منذ القرن الأول وأخذت تتوسع وتنتشر. وقد برز في القرن الأول والثاني من الهجرة بعض رجال أعلام وتقديرى أنهم بدأوا الدراسة هنا في بلدهم ثم هاجروا إلى مصر وغيرها وعلى رأسهم التابعي الجليل يزيد بن أبي حبيب «الدنقلوي» وسيأتي الحديث عنه لاحقاً.

ومن الأسماء التي خرجت من حاضرة البلاد دنقلا عصرئذ «البشر المريسي» وقد ارتفع ذكره في بلاد العراق ولا ندري عنه كبير شيء وفي عصره أيضاً برز الشيخ - كُحَيْل الشام - المشهور بكحيل «فقيه الشام». ولا نعلم عنه خبراً شافياً ولكنهم جميعاً أبناء النوبة.

ومعلوم أن الإسلام صَحِبَ معه الكتابة والقراءة ومنذ ذلك العهد صار المسلمون يتكلمون فكتبوا وقرأوا وبلادنا كما ذكرنا آنفاً عرفت الخط المروي وبعد الإسلام عرف الناس الحرف العربي وذكر المؤرخ المسيحي يوحنا القوطي أن الحرف العربي كان شائعاً في القرن السادس للميلاد وقد حدثنا عن الشاهد الذي وجدوه في مقبرة «ميناي» في دنقلا.

وأنا أبدأ دراستي هذه من القرن التاسع الهجري. الخامس عشر الميلادي.

عرف هذا البلد العرب والعروبة قبل عام الفيل كما ذكر «ابن حوقل» وهو علامة ومؤرخ معروف^(١) وتبين لي من طريق جهدي الخاص وما لقفته من أقوال العلماء وأهل المعرفة التاريخية أن الجنس العربي عمر هذه البلاد منذ قرون سحيقة. وكان بحر القلزم «الأحمر» ضيقاً جداً وكان واصلاً لا فاصلاً فالعرب خلقوا هنا في هذه البلاد وقد أشار الكاتب الانجليزي المعروف مستر هارولد ماك مايكيل إلى أن الجزيرة العربية لا يفصلها عن هذا البلد شيء قبل انصداع الأخدود الأعظم وذلك قبل وجود البحر الأحمر وأقول من غير تحاسر أن العرب خلقوا في هذه البلاد كما خلقوا في بلاد اليمن والحجاز ونجد. والأوطان العربية الأخرى فهذا الجنس العربي الذي يقطن هذه البلاد يقطن فيها أصلاً ولم يأت من شبه جزيرة العرب كما يزعمون.

إذن فقد عرف بلدنا نشوء الجنس العربي كما أسلفت منذ قرون بعيدة ولكن بعد انتشار الإسلام هاجرت جماعات وبطون كثيرة من بلاد الحجاز واليمن ونجد وقد وجد المهاجرون المسلمون قبائل وبطون وأفخاذ بذات الأسماء التي في بلاد الحجاز وكان أقدمهم قبيلة «بلي» ولهم أصول في تهامة اليمن والحجاز. كما وجدوا قريش وخزاعة ولحيان والحرمان والمجانين والصحاف وبشر وزبيد وصبح والحوازم والهبلية والمطارحة والأحامدة وقد أشار إلى هذه القبائل المنشور الذي أرسله خليفة المهدي إلى أهل الحجاز ونجد. راجع نعوم شقير^(٢).

وتقديري أننا نتماثل لغة وثقافة وعقيدة وربما دماءً كما نتماثل في الأسماء «فقط» فكثير من القبائل في الحجاز ونجد وبعض أنحاء اليمن تحمل ذات الأسماء المنتشرة في بلادنا.

(١) توفي ٣٦٧ هجرية ٩٦٦ ميلادية ذكر هذا في كتابه «كروية الأرض».

(٢) المنشور بتاريخ ٢١ شوال ١٣٠٣ هـ الموافق ١٨٨٦/٧/٢٣. صفحة ١٠٢٢ - تاريخ وجغرافية السودان

نعوم شقير - بيروت دار الثقافة.

مثلاً قريش في الحجاز وتمائلها المجموعة العباسية الجعلية وهم يفخرون بأنهم من قريش^(١) الحمران بذات الاسم في السودان ويسكنون على ضفاف نهري «سسييت وباسلام» وبادية «القرقف» و«لحيان» يماثلهم عندنا «اللحيون» - يقيمون على ضفاف ستييت واتبرا «المحانيين» قبيلة هنالك وهنا موطنهم كردفان. «زبيد» ولعلمهم الزبيدية وهم أحدث هجرة دخلت البلاد في أول القرن التاسع عشر الميلادي - صبح - يقابلهم في بلادنا «الصبحة» على النيل الأبيض «زنك» والجزيرة مصران وغيرها. الحوازم - هنا اسمهم الحوازمة يقطنون بين جبال النوبة والأبيض وأغلبهم يميلون إلى الترحال مع البقر - الهلبة - هنا قبيلة تقابلهم في دارفور يعرفون باسم بنوهلبة - الأحامدة كما هي في البلدين وهنالك قبائل أخرى من الشايقية والقريات بذات الاسم وفي اليمن قبيلة بني عامر وهنا بني عامر شرق السودان كسلا وخور بركة.

وسار الزمن طويلاً وانطوت قرون ودخلت من شمالي البلاد ديانة جديدة تحمل معها معارف جديدة، ألا وهي النصرانية فاعتنقها النوبة وقامت عليها المملكتان النصرانيتان المقررة في الشمال وعلوة في الجنوب، ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً كثيراً من أخبارها غير ما هو معروف عند عامة القراء.

دخول الإسلام:

دخل المسلمون أرض النوبة في عهد باكر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح سنة ٣١ هـ الموافق ٦٥٢م وتمت بينه وبين ملوك النوبة بدقلاً مصالحة عرفت باسم البقط وهذا نصها^(٢):

(١) ولهم وثائق نسب تشهد بذلك راجع النسب الذي أثبتته الشاعر المفوه الأستاذ محمد المهدي المحنوب في الفصل الخاص بمسجد الدامر.

(٢) البقط عند المقريري - المواعظ والاعتبار بذكر الخطوط والآثار - صفحة ١٩٩.

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد بين الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة.. إن عبد الله بن سعد جعل لهم أماناً وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ.. أن لا نحاربكم ولا نُنصب لكم حرباً ولا نغزوكم ما أقمتكم على الشرائط التي بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وإنه عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصلياً.. وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه، وعليكم في كل سنة ثلاثمائة وستون رأساً تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث.. ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك إلى والي أسوان.. وليس على مسلم دفع عدد عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان. فإن أنتم آوئتم «عبد» المسلم أو قتلتم مسلماً أو معاهداً أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم من الثلاثمائة رأس والمستين رأساً فقد برأت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.. بذلك عهد الله وميثاقه ودمته ورسوله محمد ﷺ ولنا عليكم بذلك ما تدينون له من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم - الله شاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبه عمرو بن شرحبيل ٣١هـ..

البقط في لسان العرب

قال ابن منظور^(١) في الأرض «بقط» من بقل وعشب أي نبذ مرعى يقال أمسينا في بقط معشبة أي في رقعة من كلاً وقيل البقط جمعه «بقوط» وهو ما ليس بمجتمع في موضع ولا منه ضيعة كاملة وإنما هو شيء متفرق. وحكى ثعلب أن في بني تميم بقطان ربيعة أي فرقة أو قطعة وهم بقط في الأرض. والبقط أن تعطى الحبة على الثلث أو الربع والبقط أيضاً ما سقط من التمر إذا قطع فيكون معناه على هذا بعض ما في أيدي النوبة. وأول ما تقرر هذا البقط على النوبة في إمارة عمرو بن العاص.

البقط عند أهل السودان النوبة

أولاً: ينطق أهل دنقلا كلمة بقط من غير طاء فيقولون بَقْتُ - BUGIT - ومعنى الكلمة عند النوبة «الدناقلة» يعني النصيب أو القسمة من زرع الساقية أو الجزيرة. وما زال يستعملها حتى اليوم من يعملون في الزراعة التقليدية وغيرها. وظني أن العرب المسلمين أو كاتب المعاهدة عمرو بن شرحبيل هو الذي حور الكلمة من بقت لتصير بقط من غير قصد للتحويل، والنوبة كانوا أهل حضارة وعزة وكبرياء وكيان تليد لذلك فقد وقعوا الاتفاق وهم أعزاء وسمعت من بعض المتعلمين أن أصل الكلمة روماني أو يوناني وفي تقديري أن أصل الكلمة «بقت» أو «بقيت» بمعنى النصيب الذي يخرج من الزرع. بلاد النوبة كان معاشها عصرئذ من الزراعة وأنا أرجح كلمة «بقت» على كلمة بقط وبالمناسبة فإن قدامى المؤرخين العرب كانوا يقولون دمقلا بدل دنقلا إذن فالقلب جائز هنا. والخطأ جائز في ذلك الوقت البعيد.

(١) ابن منظور المصري الإفريقي صاحب لسان العرب.

ويشير البروفسور يوسف فضل حسن^(١) إلى أنه وبعد سقوط دولة المقررة عم البلاد شيء من الفوضى وانقطعت صلتها بمصر ومن ثم لم يعرف عن تاريخها شيء وكان ذلك بداية لعهد مظلم لم تنقش ظلمته إلا بعد قيام مملكة الفونج في أوائل القرن السادس عشر حيث بدأت الروايات الشفهية تورخ لسودان وادي النيل ونتيجة لسقوط مملكة المقررة تصدع الحاجز الذي كان يحول دون دخول البدو عن طريق وادي النيل وكان ذلك ما بين سنة ١٣١٤م و١٣٢٧م. انتهى.

غلام الله:

وفي نهاية القرن التاسع الهجري هبط أرض دنقلا الشيخ المعلم الداعية غلام الله بن عايد فوجد أهلها يكتنفهم على حد قوله «التيه والضلال» وتتفق روايته هذه مع ما ذكره «يوحنا السوري» عند وصفه لنهاية المسيحية وتأكيده لما كانت تعانيه البلاد من تعطش ديني وجذب روحي بعد تدهور الكنيسة الأمر الذي جعل الكثيرين من أهل البلاد يتجهون نحو الإسلام الذي ساعد على انتشاره حماس مشايخ القرآن الذين أقاموا الخلاوي لتدريس القرآن الكريم.

وفي هذه الفترة أسلم حاكم دنقلا النوبي المعروف باسم «عبد الله برشمبو» وتبعه عليه قومه من وزراء وكبراء ثم تلاهم جمع غفير من العامة وقديماً قيل «الناس على دين ملوكهم» وكان ذلك في سنة ٧١٧ كما هو مثبت في اللوحة بالمسجد المذكور وبعد سقوط المقررة بقرنين، سقطت مملكة علوة وعاصمتها «سوبا».

وهكذا اضمحلت شيئاً فشيئاً دولتا المقررة وعلوة وتلاشتا في غياهب التاريخ وساد السودان سكون مظلم.. إلا من بعض نيران الخلاوي التي تدرس القرآن هنا وهناك.

(١) طبقات ود ضيف الله. لمؤلفه - محمد النور ضيف الله تحقيق بروفسير يوسف فضل حسن.

وبقيام دولة الفونج^(١) ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م نشط التعليم الديني وبذات طلائع الدعاة الإسلاميين فقد إلى مملكة سنار من الأندلس والحجاز والمغرب ومصر والعراق وازدهرت الخلاوي التي كان بعضها قائماً منذ عهد مملكتي المقررة وعلوة، وكانت مهمتها الأولى تحفيظ القرآن الكريم، ومع ازدهارها برزت حلقات العلم في «المساجد» لتدريس الفقه والتفسير واللغة لمعرفة الميراث وغيره من ضرورات المعرفة وقصد الطموحون من الحفاظ الحجاز وعادوا منه بعلم وفكر وروح جديد وقصد قلة آخرون الأزهر بعد زمن طويل لنيل المزيد من العلم وأغلبهم اتصل بالأزهر بعد سنة ١٠٠٠ هـ فأغلب أهل السودان القديم كانوا يقصدون الحجاز.

وغزت جيوش محمد علي باشا السودان في سنة ١٨٢١ م وأدخلت المدارس الحديثة التي تدرس مواد ذات طابع خاص وظلت خلاوي القرآن الكريم في سيرها التقليدي إلى أن اندلعت الثورة المهدية التي أعلنت الجهاد بالقلم والسيف لتحرير البلاد من المستعمر والعودة بالدين إلى ما كان عليه في عهد رسول الله ﷺ «وقد أبقت المهدية على الخلاوي لكي تقوم بعبء التعليم الذي صار محصوراً في حفظ القرآن^(٢) وتقديراً للقائمين بها فقد أعفى شيخ الخلوة من الخروج إلى الجهاد وقد برزت في البلاد حركة ثقافية مركزها «أم درمان» عاصمة الدولة الإسلامية وقامت المطبعة الحجرية بدور بارز ونشطت به حركة التدوين والتصنيف والتأليف والنشر التي قامت على أكتاف الكتاب والعلماء والأدباء^(٣)..

ولعل أول سؤال ينبغي أن أطرحه أو أجيب عليه قبل الشروع في العمل الذي

(١) ويقول المؤرخون العارفون أن أول دولة إسلامية قامت في بلادنا هي دولة «الكنوز» أبناء كثر الدولة بين ١٠٧٣ إلى ١٤١٢ م.

(٢) الحركة الفكرية في المهدية - بروفيسر محمد إبراهيم أبو سليم ص ٥٢ - دار جامعة الخرطوم للنشر.

(٣) ما زال شرف القرآن في بيتنا خاصة أخي سليمان محمد الطيب الحافظ التالي المجود يقوم بالتدريس في مدينة أتبرا ويشرف على أماكن أخرى مثل العكد وكدباس وغيرهما من القرى المجاورة.

أنا بهدده. لماذا اخترت للبحث في هذا الميدان وحينما طرحت هذا السؤال على نفسي وجدت أن لذلك ثلاثة أسباب:-

الأول: ذاتي.

الثاني: الاهتمام الكبير من خلال هذه الصحوة الإسلامية التي انتظمت معظم الأقطار الإسلامية وبلادنا خاصة. دعوة الرجوع إلى الأصول والجنور الثقافية وعلى قمتها الخلوة والمسجد باعتبارهما أوعية المعرفة الحقيقية التي صاغت المفرد المثالي في سالف السنين وقد رأى كثير من المثقفين والمتعلمين أن الانعتاق والاستغلال الثقافي الحقيقي لا يتحقق إلا بالرجوع إلى الأصول المتمثلة في المدرسة القرآنية.

الثالث: قبل دخول المدرسة الأولية تفتحت عيني على الخلوة في مسجد جدي الفكي أحمد أبو القاسم ودارنا كانت جزءاً من ذلك المسجد الذي بدأه جدنا الفكي مدني بن الفكي أحمد قبل قرنين في قرية «المقرن» التابعة لريفني الدامر هكذا وجدت نفسي بين طلبة القرآن.

كان ذلك على عهد شيخنا تاج المولى محمد عيسى الشايقي من أهالي الحامداب ثم عقبه شيخنا الفكي الحسن سعد علي سورج من أهالي قرية الاراك مركز مروى وكان أول ما عرفت الحياة من خلال خلوة المسجد وكنت أظن أن العالم كله هو الخلوة والمسجد لأنني تمرغت في ترابهما وعرفت طعم الحياة حلوه ومره في أفيائهما ولم أدرك قيمة المسجد والخلوة إلا بعد أن فارقتهما بزمان. أدركت خلاله قيمة هذه المدرسة القرآنية في تأصيل العقيدة والثقافة والذات والكيان ومن خلال هذا الفهم أحاول في هذا الكتاب رد بعض الجميل للمسيد وستشمل دراستي ثلاث مناطق الوسط والغرب والشرق مع التركيز على منطقة حوض النيل التي تحسب أول منطقة عرفت العلم فقد استنبط أسلافنا المرويون الخط الذي عرف بالخط المروي «عند الدارسين» وما زال قيد الحل والتفسير عند علماء الآثار كما نوهت سابقاً.

ثم عرف حوض النيل المسيحية وهي دين اهتم بالمعرفة وقد أثر هذا المذهب في الحركة التعليمية ووسم بعض العادات بميسمه «الكنسي» ثم إن أول مسجد عرفته بلادنا كان في حوض النيل وهو المسجد الذي بناه المسلمون بفناء مدينة دنقلا حوالي سنة ٣١هـ هجرية ثم بسط الإسلام رواقه على أطراف البلاد، فإن ركزت على هذا الإقليم فإني أغلبه لهذا السبب، ثم إن المنطقة التي أعنيها يسهل الانتقال فيها أضف إلى ذلك معرفتي الخاصة بهذا الإقليم الذي يركز عليه البحث للأسباب الآتفة الذكر. وينبغي أن أنبه إلى أن الإقليمين الشرقي والغربي أحرص اليوم على دراسة القرآن من غيرهما ونلاحظ أن مشايخ وطلبة المساجد العامة إما من أبناء الغرب أو الشرق. وأظن أن معرفة المنطقة مدار البحث أمر هام لأن المرء يخطئ كثيراً إذا عمم بعض الأحكام وتركيزي سيجعلني ملتزماً نسبياً. علماً بأن مدارس القرآن وأساليبها وبرامجها متشابهة جداً في كل أصقاع السودان بل في عموم بلاد المسلمين عربياً وأفريقية وآسيوية مع مراعاة افتراض بعض الخلافات الإقليمية التي يحتملها نمط الحياة وحركة الاقتصاد. ثم إن المسيد وكما هو معلوم يقوم مقام المدرسة العصرية ومن المعروف أن التعليم العصري لم ينتشر أولاً. إلا في المناطق التي عرفت المسيد لأن المجتمع جرب التعليم واقتنع بجدواه وما زالت هنالك أصوات وجماعات تدعو لبث الروح في الخلوة القرآنية والمسيد وإن تم هذا وأحسنه سيتم إن شاء الله فإنه ينبغي أن يقوم على أسس حديثة مع احتفاظه بالمنهج الذي قام عليه كما في بعض المعاهد التي أخذت بطرف من حياة المسيد وحياة المدرسة الحديثة وهكذا ستكون دراسة المسيد دراسة لجانب كبير من سلوك المجتمع نحو هذا النوع من التعليم.

وهناك أمر من الأهمية بمكان ذلك أننا في مجال الترية الحديثة ما زلنا نركن للدول الغربية لنأخذ قسباً من تربيته ونحاول أن نطبقه على واقعنا السوداني. مع أنه من الممكن أن نرجع لتراثنا الإسلامي والوطني لنجد فيه ما قد يلبي بعض رغباتنا وحاجتنا..

ولا بأس من أخذ تجارب الأمم الأخرى غربية أو شرقية أو أفريقية في مجال التربية وفي الوقت نفسه يمكننا أن نعود لتراثنا الثقافي لنجد فيه ما يلبي رغباتنا وحاجتنا إذا أحسنّا استغلاله والاستفادة منه.

وفلسفة التربية الإسلامية لا تضارعها فلسفة تربوية وجوهر الخلاف بين التربية الشرقية والغربية أن الأولى روحانية والثانية مادية كما جاء في كتاب اليونسكو^(١) لعام ١٩٥٣م.

الإنسان في نظر الشرق من الألوهية وفي الغرب حيوان قادر على التقدم ص ١٠٢ وقد جمع الإسلام بين النظريتين حينما قرر أن الإنسان مخلوق من ماء وطين وأن به نفحة إلهية.

ومن هذا المنظور سيحاول هذا البحث أن يطلعنا على المسيد والخلوة وأهميتهما العلمية والاجتماعية والتربوية.

وذلك بمنهج وصفي تحليلي كما تفرضه طبيعة هذه الدراسة بينما يعتمد الجانب الثاني على التجربة والملاحظة الخاصة التي خضتها في البلدان التي زرتها داخلياً وخارجياً..

كما أرجو أن أشير إلى أنني التزمت التاريخ الهجري الذي قام عليه أمر المسيد وبه يؤرخون ويكتبون كل أحوالهم وفي بعض الحالات التي لا أجد فيها تاريخاً شافياً أعود للتاريخ الميلادي.

أ - ويلاحظ القارئ أنني استعملت كلمات مترادفات مثل طالب حوار، تلميذ وكلها بمعنى واحد كما يلاحظ أن كلمات مسجد - مسيد - مدرسة قرآن - خلوة - معناها مترادف في أغلب الحالات.

وها أنا أضع بين يدي القارئ الكريم حصيلة جهد. سار بي عدة سنوات، ولو

(١) كتاب اليونسكو الذي نشره المنظمة بين الحين والآخر.

علم القارىء مقدار ما بذلته في جمع مادته وما قمت به من جهود مليئة بالاسفار
واللقاءات والاطلاعات والمقارنات وولوج مناطق يعتبر الحاضر فيها جزءاً من
الماضي والمشاهد فيها جزءاً من الآثار أقول لو عرف القارىء كل ذلك لتقبل مني
هذا الكتاب بصدر رحب، وتغاضى عما يشوبه من نقص، وحسبه أن يكون نبعاً
للمتعطشين لأحاديث التراث. ومعيناً للباحثين عن تاريخ الثقافة الإسلامية في
السودان، ونسأله تعالى الرشاد والتوفيق والسداد.

الطيب محمد الطيب

أمدرمان

غرة محرم ١٤١١هـ

٢٣ يوليو ١٩٩٠م

القرآن الكريم

القرآن الكريم هو كتاب الله العزيز الذي أنزله على النبي الأمي محمد ﷺ أنزله عليه بطريق الوحي منجماً على حسب الوقائع والأحداث، والتدرج في التكاليف والفوائض وتم نزوله على رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة كان في ثلاث عشرة منها بمكة والبقية بالمدينة المنورة وتسمى السور التي نزلت بمكة بمكة مكية والتي نزلت بالمدينة مدنية^(١).

وأول سورة نزلت على رسول الله ﷺ وهو يتعبد بغار حراء بمكة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(٢) وكان ذلك على المرجح في ليلة القدر في السابع والعشرين من رمضان.

وأول ما نزل عليه ﷺ بالمدينة المنورة ﴿ويل للمطففين الذين إذا اكثالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين﴾^(٣) وآخر آية نزلت على أشهر الأقوال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾^(٤) وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴿نزلت عليه في حجة الوداع.

(١) صفحة ١٦٦ من تاريخ الأدب العربي تأليف الأستاذة أحمد الاسكندري وأحمد أمين وعلي الحارم وعبد العزيز البشري والدكتور أحمد ضيف الناشر مكتبة عالم الكتب أم درمان.

(٢) سورة العلق الآيات ١/٢/٣/٤.٥.

(٣) سورة المطففين الآيات ١/٢/٣/٤/٥/٦.

(٤) سورة المائدة آية ٣.

موضوعات القرآن ومقاصدها

كانت موضوعات الآيات والصور التي نزلت بمكة الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وتنزيهه من مشابهة خلقه ونبذ عبادة الأوثان، وإلى الإيمان بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا. في يوم يبعث فيه الناس ويحاسبون على ما قدموا في دار الدنيا. يجازى المؤمنين بنعيم الجنة ويعاقب الكافرين بجحيم جهنم، يقرر كل ذلك في سور شتى وأساليب مختلفة، فمن موعظة حسنة وحكمة بالغة وحث على التمسك بفضيلة أو مكرمة ومن عبر تقص قصة طاغية أو عاقبة أمم باغية، وسيرة رسول مع قومه ومن استدلال بخلق السموات والأرض على قدرة موجدتها، وعلى وجوب توحيده بالربوبية.

ومن إنذار للمعاندين وتقريع للمستهزئين ونفي على الجاهلين وذم للكافرين فكل أولئك عبارات بليغة وقصار مفصلة وسور كان في أول الإسلام قصيرة ثم طالت بحسب الأحوال^(١).

ولما قوي الإسلام بالهجرة إلى المدينة صار أغلب موضوعات الآيات يشمل فوق ما تقدم أموراً أخرى نظام العبادة وفرض الفرائض والتحليل والتحريم، ونظام الأسرة من تقرير أحكام الزواج والطلاق والميراث والوصية والاسترقاق والعنق وحماية العرض والمال وتقرير العدالة في القضاء والأحكام وتحديد للمعاملة في البيع والشراء والمداينة والرهن ومعاملة المسلمين لغيرهم من الأمم في الحرب والسلم وتقسيم الغنائم ومعاملة الأسرى وعقد الهدنات والمعاهدات وكل ما تقتضيه مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان^(٢).

كان ﷺ بعد نزول الوحي إليه وحفظه الآية أو السورة التي نزلت يبلغها الناس، ويقرئ ويستحفظ من كان حوله من الصحابة تلك الآية. وكان الصحابة إذا تلقوا

(١) تاريخ الأدب العربي لأحمد الاسكندري وآخرين ص ١٦٧.

(٢) تاريخ الأدب العربي ص ١٦٧.

آية من رسول الله ﷺ أو سورة يترددون عليه غير مرة ويتلونها أمامه حتى يشبثوا من حفظها ويسألونه هل حفظناها كما نزلت فيقرهم عليها^(١).

وبعد الحفظ والإتقان كان كل حافظ ينشر ما حفظه ويعلمه للأولاد والصبيان الذين لم يحضروا ساعة الوحي، فلا يمضي يوم أو يومان إلا وما نزل محفوظ في صدور كثيرين من الصحابة وكان الحفظة والقراء يعرضون على النبي ﷺ القرآن ويختمونه عنده^(٢) وقد أرسل الرسول ﷺ عندما كان بمكة جماعة من القراء إلى المدينة لتعليم القرآن.. قال البراء رضي الله عنه أول من قدم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلنا يقرآن القرآن. ثم جاء عمار وبلال وكان الرجل إذا هاجر إلى المدينة دفعه النبي ﷺ إلى رجل من الحفظة ليعلمه القرآن^(٣).

ومن أشهر حفاظ القرآن الكريم الخلفاء الأربعة وطلحة وسعد وابن مسعود وحذيفة وأبو هريرة وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عباس وعائشة وحفصة وأم سلمة^(٤).

كتابة القرآن حين نزوله

روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت الآية ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ آية ٩٥ النساء قال النبي ﷺ: «ادع لي زيداً وليحيء باللوح والدواة والكتف» ثم قال: «اكتب» ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾^(٥).

(١) نفس المصدر ص ١٦٨.

(٢) ص ٣٥ من تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني - الطبعة الثالثة ١٩٦٩ الناشر دار الإعلامي للمطبوعات.

(٣) نفس المصدر ص ٣٩.

(٤) نفس المصدر ص ٤٠.

(٥) نفس المصدر ص ٤٢.

«وكان للنبي ﷺ كتاب يكتبون الوحي وهم ثلاثة وأربعون أشهرهم الخلفاء الأربعة وأبو سفيان وابناه معاوية ويزيد وزيد بن ثابت والزبير بن العوام وأبي بن كعب وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد^(١) والمواد التي كان يكتب عليها العرب في بادئ الأمر من يثبتهم فقد كتبوا في الجاهلية وصدر الإسلام على المواد التالية:

١/ العصب وهو جريد النخل.

٢/ الأكتاف والأضلاع من عظام الإبل والأغنام.

٣/ اللخاف وهي الحجارة الرقيقة البيضاء.

٤/ الجلود المدبوغة.

٥/ المهارق وهي أنواع من القماش^(٢).

وروى البخاري عن زيد بن ثابت أنه قال تبعت القرآن أجمعه من اللخاف والعصب وصدور الرجال^(٣).

الأحرف السبعة

قال ابن مسعود رضي الله عنه كنا مع النبي ﷺ في غار حراء فنزلت عليه ﴿والمرسلات عرفاً﴾ فأخذناها من «فيه» وكانوا حريصين على حفظ السورة كما سمعوها من رسول الله ﷺ وقال سيدنا عمر رضي الله عنه سمعت هشام بن حكيم يقرأ «سورة الفرقان» في حياة الرسول ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنا بها رسول الله ﷺ فكدت أساوره «أثب عليه» في الصلاة

(١) صفحة ٦٩ عن كتاب تدوين القرآن الكريم للدكتور محمد قبيسي الطبعة الأولى. الناشر دار الآفاق الجديدة بيروت.

(٢) صفحة «٤٤» عن كتاب تاريخ القرآن للزنجاني.

(٣) تاريخ القرآن للزنجاني ص ٤٢.

فتصبرت حتى سلم فلبسته بردائه وقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ بها. قال أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان حروف لم تقرئنيها فقال: «أرسله أقرأ يا هشام» فقرأ عليه القراءة التي سمعتها يقرأ فقال ﷺ «كذلك أنزلت» ثم قال: «أقرأ يا عمر» فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ: «كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه» والمراد بالأحرف السبعة سبعة أوجه من المعاني المتفقة بالألفاظ المختلفة. نحو أقبل، وهلم، وتعال، وعجل، وأسرع، وآخر، وأمهل، وامضي، وسر، هذا هو ما اختاره الإمام الطبري.

القرآن في عهد سيدنا أبي بكر وفي عهد سيدنا عمر:

لما توفي رسول الله ﷺ وتولى الأمر سيدنا أبو بكر ظهر مسيلمة الكذاب في السنة الأولى من خلافته وجهاز سيدنا أبو بكر جيشاً يضم أكثر القراء وحفظة القرآن من الصحابة واشتد القتل على المسلمين وكتب الله لهم النصر أخيراً فقتلوا مسيلمة الكذاب ولكنهم فقدوا عدداً ضخماً من حملة القرآن وأحس سيدنا عمر بخطر ذلك فتكلم مع سيدنا أبي بكر قائلاً: «إن القتل قد اشتد يوم اليمامة بقراء القرآن وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن» وبعد تردد من سيدنا أبي بكر خوفاً أن يكون ذلك من البدع، قبل الفكرة وأقبل الناس بما عندهم حتى جُمع كله في «الورق» فكان سيدنا أبو بكر أول من جمع القرآن في المصحف، ثم أعلن سيدنا عمر في المدينة بأن يأتي كل من تلقى شيئاً من رسول الله ﷺ وقال سيدنا أبو بكر لسيدنا عمر ولزيد اقعداً على باب المسجد فمن جاء كما بشاهدين على كتاب الله فاكتباه وكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة على العظام والجلد وعسب النخل وتم نسخها في الأديم وهو الجلد المدبوغ وكانت هذه المصحف عند سيدنا أبو بكر

حتى وفاته ثم عند سيدنا عمر حتى وفاته ثم عند السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنها^(١).

القرآن في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه

بدأ اختلاف القراء في قراءة بعض كلمات القرآن بالفاظ مختلفة كانت تدل على معنى واحد ولم يكن هذا الاختلاف في نظرهم مغيراً لمعنى القرآن ولذلك أقر النبي ﷺ قراءاتهم على اختلاف ألفاظها. وبعد عهد النبي ﷺ أخذ الاختلاف يزيد في عهد سيدنا أبي بكر ويشد في عهد سيدنا عثمان حتى اقتتل المعلمون والعلماء وتفرق القراء والحفاظ في العراق والشام واليمن وغيرها من البلدان التي دخلها الإسلام حديثاً. وأحس الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه بسوء الحال إن استمر فقال لسيدنا عثمان يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل سيدنا عثمان إلى السيدة حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ثم نردها إليك فأرسلت حفصة الصحف إليه فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال لهم سيدنا عثمان إذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما أنزل بلسانهم^(٢).

كان الاعتماد في نقل القرآن ولا يزال في تلقي من صدور الرجال ثقة من ثقة وإماماً من إمام إلى النبي ﷺ لذلك اختار سيدنا عثمان حفاظاً يثق بهم وأرسلهم إلى الأقطار الإسلامية واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثواني مبالغة في الأمر وتوثيقاً للقرآن لجمع كلمة المسلمين فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع مع يوافق قراءته في الأكثر الأغلب وقد روي أنه رضي الله عنه أمر زيد بن ثابت أن يقرء

(١) راجع كتاب منظور الخط العربي تأليف ناجي زين العابدين - مكتبة النهضة بغداد الطبعة الثانية ١٣٩٤ هـ

١٩٧٤ م بيروت.

(٢) نفس المصدر ص ٣٥.

بالمديني، وبعث عبد الله بن السائب مع المكي والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبد الرحمن السلمي مع الكوفي وعامر بن عبد القيس مع البصري، ثم نقل التابعون من الصحابة فقرأ أهل كل إقليم عما في مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم الرسول ﷺ ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم واعتماد رؤيتهم ومن هنا نسبت القراءة إليهم^(١).

وهكذا أصبح مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه «هو المصحف الوحيد المتداول في العالم الإسلامي - سنية وشيعية - منذ ١٤ قرناً وحتى اليوم»^(٢).

جاء في المأثور:

أن المصحف العثماني كان خالياً من النقط والحركات لأن الحاجة إليها حينئذ لم تكن ملحة ولا ضرورية. نظراً لأن العرب كانوا يميزون ويقرؤون الأحرف بالبليقة ومعرفة السابق على اللاحق، لذا ظل الناس في مختلف الأمصار الإسلامية يقرؤون القرآن في مصحف عثمان إلى ما يقرب من أربعين سنة بدون نقط وبدون حركات. ولكن عندما امتدت الفتوحات الإسلامية ودخلت في الإسلام أمم غير عربية اختلط هؤلاء المسلمون الجدد بإخوانهم العرب فأدى ذلك إلى ظهور اللحن والتصحيف والقراءة المغلوطة. الأمر الذي أوجب وضع نظام الحركات (النقط الإعرابي) أو (الشكل) التي قام بها أبو الأسود الدؤلي ومن ثم تبعها نقط حرف القرآن بالنقط الإعجمي وهي النقطة المميزة (ب ت ث ج ح خ إلخ... التي وضعها تلاميذ أبي الأسود الدؤلي وهم يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم الليثي وابن سيرين ٦٥-٦٦هـ) وقد لاقى نظامهم هذا معارضة شديدة، منهم

(١) نفس المصدر ص ٦٤.

(٢) نفس المصدر ص ٦٦.

أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود الذي قال: «لا تخلطوا في كتاب الله ما ليس منه» انظر المحكم لأبي عمرو الداني.

عدد آيات القرآن وكلماته وسوره

يلغ عدد آيات القرآن الكريم كما اتفق العادون المكيون على أنها ٦٢٢٠ آية.

وذكروا بأن عدد كلمات القرآن ٧٧٩٣٤.

وأن عدد سوره ١١٤ وقد قسمها العلماء إلى أربعة أقسام:

١/ الطوال سبع سور - البقرة وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، واختلفوا في السابعة أمهي الأنفال وبراءة معاً لعدم الفصل بينهما بالبسملة. أم هي سورة يونس.

٢/ المثنون وهي السور التي تزيد آياتها على ١٠٠ آية أو تقاربها.

٣/ والمثنائي وهي التي تلي المثنين في عدد الآيات.

٤/ والمفصل هو أواخر القرآن وسمي المفصل لكثرة الفصل بينه.

والقرآن لا ريب «توقيفي» ولكن العلماء المجتهدون الصالحون الصادقون هم الذين توصلوا لهذا التقسيم وأهل المسيد في السودان تابعوا هذا التقسيم. ولكن المعتمد عندهم أن القرآن.

٣٠ جزءاً.

٦٠ حزباً.

١٨٠ مقرة أو «مقرأ».

٤٨٠ ثمناً والثنى يعرف كذلك باللوح.

ثم يلي هذا التقسيم «الخروبة» وهي بضع آيات مثالهما - من أول سورة

البقرة:

﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾.
هذه هي الخروبة.

هذا الكلام من باب التخمين وأملّي أن يصححه الحيل القادم أو من يفتح الله عليه بمعرفة.

الباب الأول

مدخل

خرجت في منتصف صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية أبحث عن أماكن دراسة القرآن المشهورة في شرق النيل الأزرق زرت خلالها مسيد أبو دليق، والشيخ مصطفى الفادني ومسيد أم ضبان والهالية وأبو حراز.. الخ.

وسبب زيارتي لهذه الأماكن يرجع لاقتراح من مشائخنا بالداير فهم يظنون أن خيوط المعرفة وأسبابها تلتقط من محلات البركة المسيد والخلوة فأكثر الأهالي يستودعون كثيراً من أشياءهم الثمينة والمهمة خزانة المسيد ثقة منهم في هذه الأماكن الطاهرة التي يضمخ ساحتها أريج التلاوة ويظللها الأمن وبالفعل وجدت عند المشائخ وثائق نادرة أهمها وثائق تملك الأرض والهبة والصدقة والميراث والمهر والبيع والشراء وسير الحرب ووثائق النسب التي يحرصون على حفظها كثيراً. وعند بعض المشائخ وجدت مخطوطات كاملة عن الفقه وتجويد القرآن والتوحيد وعلم العقائد إلى آخره.. أذكر منها خزانة مسيد شيخنا الفكي يوسف الأمين بشندي والشيخ محمد بن عوض الله حفيد الشيخ برير ود الحسين بشبشة ومسيد الفكي العربي بالسلمة «بربر» و«محمد» بن الفكي آدم الحلاوي وخزانة مسيد الغبش «بربر» التي يقوم عليها الشيخ الخليفة خوجلي.. وخزانة شيخ المسيد لا تخلو من أثر مهم وقد تكدست هذه الأوراق في زمن الأزمات التي تعرض لها الأهالي في أواسط عهد الفونج وفي عهد الحكم التركي، وبالأخص أيام حملة «الدتردار» وأثناء الثورة المهدية، وفي الفتح الإنجليزي المصري أيضاً تعرض الناس للهجرة والارتحال وكلما تعرضوا لزعة أودعوا وثائقهم المشايخ وذهبوا

حيث يشاء القدر، وكثير من الناس أهمل تلك الوثائق وفيما بعد، صارت مع مرور الزمن من ضمن المحفوظات التي يهتم بحفظها المسيد وفي طي هذه الأوراق معلومات كثيرة عن حياة أهل السودان وتاريخهم، كان هدفي الاطلاع على هذه المکتوبات وبالفعل أفدت منها فائدة كبيرة..

وفي المساید التي زرتها في شرق النيل كانوا يسألوني هل زرت مسيد ود الفادني فأجيب بالنفي وتكرر اسم مسيد ود الفادني في كل محل زرته كان هذا أول عهدي بسماع اسم مسيد ود الفادني المشهور ثم زرت أماكن تدريس القرآن في قلب الجزيرة وجنوبها.

ود نعمان - سنار - اليعقوباب - تباجة - الحجاج - العمارة - ما يرنو - الصابونابي.

وعدت إلى الخرطوم من غير أن أعرج على ود الفادني وفي أوائل ربيع الآخر زرت بعض المساید في النيل الأبيض وأغلب المشائخ يسألونك عن هويتك والغرض من زيارة المسيد وحينما يطمئنون إليك يتمهلون وتنشرح صدورهم وما من شيخ تحدثت إليه في تلك الأماكن إلا وسألني هل زرت مسيد ود الفادني وهو سؤال اعتدته وكنت أتوقعه كل لحظة وهذا يدل على عراقة مسيد ود الفادني وسمعته الكبيرة. وخرجت من النيل الأبيض عبر مشروع المناقل وأسلمني الطريق إلى مدينة ود مدني ومنها ذهبت رأساً إلى قرية ود الفادني وكانت تزحم خاطري أفكار شتى وتغمرني نشوة فرح والسيارة تنهب ذلك الطريق الجميل.

ثم مالت بنا السيارة يساراً ونحن قادمون من ود مدني وفارقنا الطريق «المعبد» واتجهنا غرباً وتبعنا أثر السيارات في طريق لا يخلو من المطبات والمستنقعات وعيوننا مشلوبة نحو المثدنة التي تتدثر بالأشجار الخضراء من على البعد.

ولما دنونا انحسرت الأشجار وبانت القرية وأذكر جيداً أننا دخلنا من جهة الجنوب والقرية في يميننا ولا تفصلنا عنها غير عشرات الأمتار ومع ذلك كان الدخول عسيراً. فقد انكسرت إحدى «الترع» المارة في صدر قرية ود الفادني

وانساح الماء وطوق القرية ومدخلها من كل الجهات إلا معبراً صغيراً لا يعرفه إلا أبناء القرية ودرنا حول القرية إلى أن وجدنا مدخلاً لا يصلح إلا لمن يمشي على رجله، وصحبت فتى من أهل القرية وأخبرته بأني أقصد المسيد فرحب بي وصحبني إلى المسيد عبر دروب القرية المتعرجة. ود الفادني قرية آمنة وادعة مجتمعها متكافل وهوؤها حسن وتسكنها حوالي ثلاثمائة أسرة.

دخلت فيما أذكر من البوابة الغربية وهي المدخل الرئيسي لأغلب سكان القرية. خلعت نعلي تأدباً ودخلت المسيد ووجدت نفسي بين حلقتين كبيرتين يتوسطهما معلمان الحلقة الأولى يتوسطها الشيخ محمد ود القراعة والحلقة الثانية فيها الشيخ أحمد، والحلقتان تدويان بتلاوة القرآن أصوات تؤزك أزيزاً وتهزك هزيراً. أصوات متداخلة في بعضها، فيها صوت الكهل وصوت الفتى وصوت الغلام والصبي وكل واحد مكب على لوحه.

وبين الدائرتين وحول أطراف المسيد وداخل المسجد وخارجه كبار الطلاب الذين شارفوا الحفظ وهم في سن المسؤولية لا يحتاجون معها لرقابة الشيخ أو وكيل الشيخ. فهؤلاء منكفئون على الألواح المركوزة على جدار المسيد أو الخلوة وبعضهم يركز لوحه على لوح زميله بطريقة خاصة ووجههما متقابلان ومنهم من



طريقة خاصة الحفظ . ركز الألواح على بعضها ،

يضطرب ساعة القراءة ومنهم من يهتز جسمه ومنهم الساكن الأوصال «وهؤلاء قلة» فأغلب من يدرسون القرآن تتحرك أطرافهم وحواسهم. وهذه الحركات تعينهم على طرد الوسن والكسل.

وفي ركن قصي من المسيد رأيت رجلاً حوله بعض الطلاب وبعضاً من الأهالي وهو دائب الحركة يتحدث إلى هذا ويهمس في أذن ذاك يعطي هذا ويوجه هذا وحسبته شيخاً من شيوخ التدريس وهو رجل بين الكهولة والشباب ربع القامة جم النشاط مستدير الوجه وعلمت أن الرجل هو شيخ المسيد وخليفة الشيخ علي ود الفادني اسمه الشيخ الريح بن الشيخ حمد النيل وسألت أقرب شخص مني وأنا أشير نحوه من الرجل.

قال والدهشة تكسو وجهه: هذا هو الخليفة.

قلت: من الخليفة.

قال: من أنت الذي لا تعرف الخليفة الريح.

قلت: أنا زائر وتلك أول مرة أدخل فيها هذا المسيد.

قال: حسناً هذا الخليفة الريح. خليفة الشيخ ود الفادني.

ثم تقدمت نحو الخليفة الريح وهو في مجلسه المشار إليه وقد أحاطه الطلبة وأصحاب الحاجات. فلما رأني مقبلاً عليه هب مندفعاً نحوي وطوقني بكلتا يديه وكأنه يعرفني منذ أمد بعيد فقابلت تحيته بمثلها ثم قادني إلى بيت الضيافة المجاور للمسيد وأمضى معي برهة من الوقت.

شرحت له أسباب زيارتي لهذا المسيد واستأذنته في الدخول إلى المسيد فرحب وأخذني إلى المسيد قال: هذا المسيد ينسب لمؤسسه الشيخ علي ود الفادني والشيخ علي يرجع نسبه «للفادنية» وهم قبيلة كبيرة من قبائل «الجعليين» ويرجع نسبهم إلى محمد «بافادن» جد القبيلة التي إليها ينتسبون وينتهي نسب

محمد بافادن إلى محمد بن الحنفية^(١) وعرف الفادنية بين الناس بأنهم أهل قرآن، وتعلموا القرآن وعلموه لأبناء المسلمين واشتهر منهم رجال أعلام في هذا المجال كالشيخ نعيم الفادني والشيخ البشير والشيخ مصطفى الفادني ومن ضمن هؤلاء الرجال الشيخ علي بن فضل الله الفادني مؤسس هذا المسيد المبارك وقبل أن يؤسسه كان يدرس في شرق النيل الأزرق في منطقة «ود عشيبي» ثم انتقل إلى غرب النيل الأزرق وأسس مسيداً صغيراً في قرية «أم جلود» ثم انتقل إلى مكان آخر يعرف باسم «كدباس» وانتقل من كدباس للمكان الحالي الذي نحن فيه وهو يعرف بـود الفادني نسبة للشيخ علي بن الفادني.

الشيخ علي ود الفادني

ولد الشيخ علي بن فضل الله بن حسن بن خير السيد بن عدلان في قرية ود عشيبي شرق النيل الأزرق.

ووالدته هي مريم بنت عبد الرحمن بن علي ود عشيبي، بدأ القرآن عند والده ثم انتقل للشيخ الكبير ود مضوي الشمباتي ثم انتقل على اثني عشر شيخاً. والانتقال في ذلك الزمان أمر مقبول ومتبع ثم تزوج ثلاث زوجات هن منارة بنت البشير وتفوتي بنت علي السميح وستنا بنت عطية.

ثم تنقل في أماكن عدة - ود عشيبي - أم جلود - كدباس - ود الفادني ومن المتفق عليه عند الرواة كلهم أنه أنشأ مسيده هذا في غضون السلطنة الزرقاء حوالي ١١٠٥^(٢) ومما يؤسف له أنني لم أجد من أرخ لهذا المسيد وألمي كبير في أن أعثر حتى طباعة هذا الكتاب على من يملك وثيقة تؤرخ له وظني كبير في المصاحف التي خطها الطلبة المتخرجون في هذا المسيد إذ جرى العرف أن

(١) محمد بن الإمام علي بن أبي طالب وشهرته محمد بن الحنفية وهي أمه.

(٢) الراوية - الوالدة عائشة بنت النذير بن الفكي محمد بن الشيخ علي ود الفادني رحمها الله.

يكتب الطالب المجود بعد تخرجه - مصحفاً للمسيد ويمهره باسمه وبالتاريخ واليوم الذي تم فيه الفراغ من كتابته..^(١).

ود الفادني - المكان

تقع قرية ود الفادني على الخط العرض ١٢ وتبعد عن الخرطوم مائة وخمسين كيلومتراً والمدينة التي تحاورها هي «أربجي» وهي المدينة التاريخية الأولى في منطقة الجزيرة وذكر الشيخ ود ضيف الله أن مؤسسها هو الشيخ حجازي بن معين وقد بناها قبل سنار عاصمة «الفونج» بثلاثين سنة والمعلوم إن سنار تأسست بعد قيام السلطنة الزرقاء وغدت أربجي قرية صغيرة زماناً طويلاً كاد يضيع فيها اسمها إلى أن سخر الله أحد أبنائها البررة ذلكم هو المعلم المربي الأستاذ عبد الرحمن علي طه فآلف بين فرقانها ذات الأسماء المختلفة ووحدها من جديد تحت اسم «أربجي» وبعد التوحيد تجدد شبابها واندفعت في شرايتها الحياة، رحمه الله وأجزل ثوابه. أما المدينة الثانية المجاورة لود الفادني فهي مدينة الحصاصيصة ثاني أكبر مدن الجزيرة وهي مدينة ذات حركة تجارية كبيرة وسوق هام.

المسيد الكيان

شيد المسيد القديم على مساحة تبلغ عشرين وثلاثمائة وأربعة آلاف متراً اثنتان وسبعون متراً في ستين وعلى ثلاثة من جدرانه تقوم الخلاوي وهي غرف متوسطة الحجم بين ٤×٤ و ٣×٤ متراً مبنية بالطوب الأخضر ومسقوفة بالمواد المحلية كالخطب ثم استغلوا الزنك والاسمنت في السقف فيما بعد هذه الخلاوي تخصص سكناً للطلبة وفي كل خلوة طالبان إلى أربعة. الكبار مع الكبار والصغار مع الصغار ويراعي المسيد الحالة الاجتماعية للطلبة فبعضهم يقدم من مناطق رعوية وآخرون من مناطق زراعية وبعضهم من خارج السودان ولكل جماعة متشاكلة

(١) الراوية - الشيخة ودية بنت الحسن بن محمد ابن الشيخ علي ود الفادني رحمه الله.

ومتجانسة سكن يناسب حالهم. وكل جماعة تسمى خلوتها باسم الجهة التي انحدرت منها أو اسم القبيلة. وخلوات السكن غير خلوات الدراسة والخلوي السكنية الموجودة الآن عددها يقرب من خمسين توزيعها كالآتي:-

الرقم	الاسم	القبيلة	الجهة
١	خلوة	الحسانية	النيل الأبيض والحزيرة
٢	خلوة	الفادنية	شرق النيل والحزيرة
٣	خلوة	السلامات	دارفور
٤	خلوة	اريجي	الحزيرة
٥	خلوة	السدارنة	البطانة بين النيل الأزرق ونهر اتبرا
٦	خلوة	طلبة	الجامعات
٧	خلوة	طلبة	المدارس العليا
٨	خلوة	التاما	دارفور
٩	خلوة	الهوسا	نيجيريا
١٠	خلوة	ارتريا	ارتريا
١١	خلوة	مساليت	دارفور
١٢	خلوة	أولاد الفاو	جبال الفاو وشرق الرهد
١٣	خلوة	فلانة	غرب السودان ونيجيريا
١٤	خلوة	التنجر	دارفور
١٥	خلوة	بني عمران	كردفان
١٦	خلوة	هوسا	السودان ونيجيريا
١٧	خلوة	الرزقات	دارفور
١٨	خلوة	الشويحات	كردفان
١٩	خلوة	المعالية	دارفور
٢٠	خلوة	أم بررو	عرب فلاتا رحالة

القوت:

هذا وأصبح ادخار القوت للمسيد تقليداً ثم فطن الحاكيم لاحترام الناس للمدرسة القرآنية «المسيد» فخصص لها الأراضي الزراعية والحوالكير، ومبالغة في احترامه للعلم والعلماء أعفى تلك الأراضي من الضرائب وصار إعفاء أرض المسيد تقليداً يلتزمه جميع الحكام في السودان حتى وقتنا هذا.

وينسب الرواة إلى الشيخ عجيب المانجلك أنه أول من اقتطع الأرض للمسيد وخصص راتباً للشيخ المعلم^(١).

وتخصيص الأراضي الزراعية مطرية كانت أو نيلية لا يخفى مغزاها فهي دعوة صريحة للاستقرار، فالعلم لا ينتشر ولا تقوم له قائمة إلا في مجتمع آمن مستقر فواحدة من أسباب استقرار «المسيد» هي الأراضي الزراعية التي تضمن له الأمن الغذائي والاستقرار النفسي.

المسيد والإعاشة

للمسيد أرض يفلحها الشيخ وتلاميذه وأحياناً يتكفل بها المجتمع فيزرعها مثلما يزرع أرضه إذا كانت قطناً أو ذرة أو بطيخاً. إلخ وبعد الزراعة ينظفونها ويعزقونها ويحصدونها وينقلونها إلى مخزن المسيد هذا كان أسلوب ممارسة العمل اليدوي ثم دخلت ضمن مشروع الجزيرة الأرض المخصصة للمسيد وصارت تزرع بوسائل الري الحديث وأصبح الطلبة يعملون تحت رقابة الخبراء الزراعيين.

فالطالب يأتي في الزمان الماضي «مهاجراً» من غرب أفريقيا حتى يصل السودان ثم يسأل عن أفضل المسايد ويقصدها فيجد الأمن والغذاء والكساء والتعليم، والخلاوي تساوي بينهم وبين أبنائه من غير من ولا أذى، وهي تؤدي

(١) عجيب المانجلك بن عبد الله جماع ثاني حكام العبدلاب حكم بعد والده ٩٥٠ هـ إلى أن توفي بكر كوج الحريف.

هذه الرسالة والصلة العلمية أبقي وأرسخ من كل الصلات ولو كان أهل المسابيد يرصدون عدد الطلبة الأفريقيين منذ أن قامت خلاويهم ومسايدهم لرأينا عدداً ضخماً تخرج من هذه المدارس الأهلية التي لا تفرض على الطالب إبراز البطاقة الشخصية ولا تسأله عن الجواز، ولا عن قوميته فهو مثلهم إنسان سوي يستأهل الإكرام والتقدير.. كما أنها لا تسألهم أجراً على التعليم فالدراسة «مجاناً» والمسيد قطعاً يحتاج لنفقات تناسب حجم الطلبة وفي الماضي كان المجتمع هو الكفيل بالإنفاق على المسيد ولم تكن متطلبات الحيران تتجاوز «العصيدة» أو الكسرة وإن صاحبها «إدام» فيها ونعمت، وإلا فالماء هو إدام طلبة القرآن لأن المشايخ الكبار كان إدامهم الماء. والأكل بالماء يعين على صفاء الذهن كما يقولون والذهن الصافي أكثر قابلية للحفظ من غيره.. كما حدثنا شيوخ القراءة - إذن - فكل متطلبات المسيد كمية من الذرة وشيء من العشب البري^(١) يكون إداماً وهي لا تكلف المجتمع كبير جهد هكذا كانت البداية وكانت شاقة جداً على الشيخ وطلبته فالشيخ اختار مكاناً نائياً عن القرى ولكن سكان القرى ملزمون أخلاقياً واجتماعياً بمد يد العون إلى المسيد وبفضل الأهل والمجتمع عمر هذا المسيد حتى طبقت شهرته أركان السودان كلها ثم شرع الطلبة بعد تكاثرهم في نظافة الأرض الوعرة فزرعوا الذرة وخزنوها فكانت دعماً «لتكية» المسيد.

وهذا مثال للأجناس التي تقرأ وتسكن هذه الخلاوي ويبدو أن لمسيد ود الفادني سمعة حسنة خارج السودان وقد لاحظت في مطلع السبعين عدداً من أبناء أفريقيا أذكر منهم: -

٦ طلاب من الكامبيرون.

١١ نيجيريا.

(١) قصب الذرة وبعد حرقه يسمى الريكاب. وهو من جيد الإدام كذلك البامية الناشفة (الويكة والملوخية الناشفة) التي تسمى أم تكشور.

٢ النيجر.

٣ السنغال.

٩ شاد.

٥ زائير.

٢ غينيا بيساو.

وقد رأيت ابنيّ سفير نيجيريا بالخراطوم «سعادة الحاج نوح» يدرسان في خلوة ود الفادني والرجل قطعاً ملم بأخبار الخلاوي إذ ظل يقصدها جماعات من سكان غرب أفريقيا فينقلون أخبارها لأهلهم ومعارفهم. فعلا صيتها ومن ير المسيد وأسماء الخلاوي تذكره بأسلوب الجامع الأزهر فقد خصص الأزهر لكل جنس رواقاً باسمهم.

رواق المغاربة.

رواق الشامية.

رواق السناريين.

رواق الفور.

والمسيد يقوم بالإشراف على سكن الطلبة وغذائهم وصحتهم وكل أمورهم ويصرف خازن المسيد لكل خلوة لوازم العيش، والحراية تتكون من دقيق وسكر وخضار ولحم إلخ... فلكل خلوة من خلاوي الطلبة للكبار مندوب يستلم نصيبها من الشيخ أو وكيله أما صغار الطلبة فيصنع لهم المسيد الطعام في كل الوجبات وفوق ما يخصصه المسيد تأتي وجبات كاملة من أهل القرية ومن ذوي اليسار وتوزع تلك الوجبات على الطلبة بالسوية فوق راتبهم اليومي..

والمسيد بجانب الطلبة ينفق على خلاوي الضيفان وعابري السبيل وأصحاب الحاجات الذين يقصدونه.. وقد تطول إقامة هؤلاء فيتولى المسيد أمرهم..

ومن يرى حال الطلبة في هذا المسيد والمساید الأخرى تتأكد عنده وتتجسد معاني الوحدة الإسلامية والأفريقية وهذا تقليد أخذت به بلادنا منذ عهد بعيد.

أوقاف المسيد

١/ حواشيان بمشروع الجزيرة «عشرة أفدنة» فقط.

٢/ مشروعات زراعيان مطريان بجهة الدالي والمزموم.

٣/ سبعة دكاكين مربع ٤٠ سوق الحصاصيصا.

وهذه كل أوقاف المسيد الذي يتجاوز طلابه «ألف» طالب يزيدون ولا ينقصون والمسيد يطحن كل ليلة من خمسة إلى ستة شوالات ذرة بالإضافة للإدام والسكر والشاي وملحقات الطعام الأخرى كل هذا العبء يقوم به الخليفة ويعاونه أهالي قرية ود الفادني المشار إليهم.

وفوق عبء الطلبة أعباء أخرى كالضيوف الذين يتوافدون لزيارة أبنائهم الطلبة وبعضهم أغراهم المسيد فسكن في القرية سكناً دائماً وفيهم المعدم ومحدود الدخل فمثل هؤلاء يأكلون من المسيد حيث يصرفون كل صباح الدقيق والسكر واللحم وأدوات الطعام الأخرى من مخزون «الميرة» فيأكلون ويخرجون ما يفيض عن حاجاتهم للمسيد على رأس كل وجبة.

وبعض أهل القرية محدودو الدخل.. مثل هؤلاء يسدون النقص من المسيد ويدفعون ما زاد عن حاجتهم للطلبة.

وللمسيد قطع من البقر يحلب مساء كل يوم ويوزع على المسيد وأسرة الشيخ ومن يحتاج من أهل القرية يأخذ من غير حرج.

وأهالي قرية ود الفادني متفانون في خدمة مسيدهم وأغلبهم ينحدر من الفادنية والجعليين والحلاويين وغيرهم وفضل هذه الجماعات ظل يتنامى كلما ازداد عدد

الطلبة فكل يصل طعامه وعونه للمسيد حتى أصبح إنفاقهم على المسيد عادة.
ولا سيما من بسط الله لهم في الرزق كالحاج إبراهيم شمو وأولاده والأستاذ
علي محمد شمو الذي يحمل الأعباء الكبرى التي تهم المسيد معنوياً وأديباً...
وذلك ثبت بمن شيدوا خلاوي المسيد ابتغاء الثواب

المحسنون

الرقم	الاسم	عدد الخلاوي
١	ابراهيم طلب	٢
٢	التيحاني هلال	٢ بملحقاتها فرنادات
٣	عباس كرم	٢
٤	البروفسير عبد العال عبد الله	٢
٥	الياس كمبال	١
٦	أحمد عبد اللطيف	٤
٧	عبد الرحيم	٢
٨	سيد عيسى «المسرة»	٣٢
٩	عوض البلولة	١ مظلة حديثة ٩×١٧
١٠	زار المسيد أحد المواطنين «القطريين» هو الشيخ عبد الله الدباغ فأعجب بنظام المسيد وتبرع ببناء مسيد حديث، واختار طالبين مجودين من خريجي المسيد وأخذهما لقطر للتدريس وهما: الشيخ علي الحنيد والشيخ عبد الكريم علي من الشباب الحفظة المجودين. وهو بصدد أخذ دفعة كبيرة عددها عشرون خريجاً ليقوموا بتدريس القرآن في الدولة القطرية.	

ونعود للخلاوي فهي بالرغم من كثرتها مضاف إليها خلاوي المسيد العتيقة

لا تسع هذا العدد الكبير حيث يتوافد الطلبة الراغبون في حفظ القرآن الكريم من الجامعات والمدارس العليا فيضطر بعض المواطنين من أهالي ود الفادني إلى إخلاء بيوتهم لسكنى الطلبة خلال فترة إجازة المدارس..

برنامج الخليفة

ويبدأ يوم خليفة المسيد الشيخ الريح بن الشيخ حمد النيل قبيل الفجر بساعة أو ساعتين يقرأ في تلك الفترة أوراده القرآنية ثم يصلي الصبح ومن ثم يقبل على تصريف شئون المسيد الإدارية.. فهو يتابع الغذاء منذ خروجه من المخزن إلى أن يؤكل.. ويقف على الشاي الصباحي بل ويوزعه بيده وعندما يتم ذلك يأتي زمن الفطور وبعد الفطور يذهب لتدبير داره وأسرته الصغيرة ثم يقبل على أصحاب الحاجات والضيوف إلى أن يدخل عليهم وقت الظهر فيشرف الخليفة على وجبة الغذاء ثم ينطلق لتدبير شئون أخرى فيدخل عليهم المغرب والعشاء فيناقشون حركة المسيد وما جد من أمور ثم ينصرفون لهجة قصيرة وفي الثلث الأخير من الليل يبدأ يومه. القراءة والتهجد وصلاة الصبح فشئون الطلبة والمسيد إلخ..

ويحمل خليفة المسيد فوق هذا هموم المجتمع الكبير كالمواساة ومشاركة الناس أتراحهم وأفراحهم ولأنه موضوع احترام فهو على رأس «الأجاويد» وهم فئة معروفة في المجتمع يناط بهم فض الخصومة وعقد الصلح بين الأفراد والجماعة وبين الرجل وزوجه - وجماعة الأجاويد تحل تسعة من عشرة من القضايا التي تشجر بين الناس والناس أميل للفطرة والصلح الأهلي وهم يذعنون لهذه الأحكام العرفية أكثر من إذعانهم للمحاكم المدنية أو التي تشرف عليها الدولة عموماً..

وبالعموم فإن شيخ المسيد لا يملك من زمنه شيئاً فهو في يد المجتمع يقبله كيف شاء ويقلبهم حيث أراد. وعدت وفي نفسي شيء من مسيد ود الفادني وظل هذا الشعور يكبر كلما زرت هذا المسيد وأصبحت علاقتي بالمسيد علاقة حميمة.

وكنـت أزوره في المناسبات والمواسـم الدينية وأدعو بعض الأصدقاء لزيارته.

ثم سألت وحدثت نفسي ألا يصلح هذا المسيد ليكون مشروع دراسة؟ ولما اطمانت نفسي عرضت الأمر على الأصدقاء الأستاذ عبد الوهاب موسى والمرحوم الدكتور حسن عبد اللطيف وفي وقت لاحق الدكتور محمد خير عثمان وطلعت أجمع المعلومات من هنا وهناك إلى أن أصبحت عندي حصيلة اطمانت لها نفسي وكان القصد في بادئ الأمر أن يكون هذا البحث عن «الخلوة» وذهبت في هذا الاتجاه شوطاً ما.

ودفع بي الحماس لهذا الموضوع أن أخرج من السودان لإفريقيا غرباً وشمالاً وشرقاً متبعاً أثر المدارس القرآنية وبدأت الرحلة في اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة وألف. وكانت أول محطة مدينة انجمينا «جمهورية شاد» ثم منها إلى الكاميرون ومن الكاميرون دلفت لبلاد البرنو حيث أمضيت أسابيع بمدينة «ماي دوغري» وهي عاصمة البرنو ولها سمعة علمية كبيرة في مجال «بحثي» هذا، ومنها ذهبت لمدينة «كانو» وخرجت رأساً لجمهورية النيجر وأمضيت بها وقتاً طيباً، ومن النيجر ذهبت رأساً لمدينة العلم والتاريخ «تمبكتو» من أعمال جمهورية «مالي» وعبرت فولتا وغينيا وغانا إلى مدينة داكار وذهبت منها إلى الجمهورية الموريتانية التي تعرف عندنا ببلاد «الشنقيط» وبعد أسبوعين دخلت المملكة المغربية ومنها للجزائر وتونس فمصر ثم أتاحت لي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن أزور جمهورية الصومال للاشتراك في دراسة ميدانية لمدارس القرآن التي تعرف عندهم باسم «الدكسي» وفيما بعد زرت المملكة العربية السعودية مرتين وكذلك الجمهورية العربية اليمنية ودول الخليج ولما عدت وجدت في حقيتي معلومات لا بأس عليها.. وأخذت في تفرغها من حالتها الصوتية مدة طويلة، إذ كنت أعمل على جمع المعلومات بطريقة «الكاسيت» وهو أيسر وسيلة للجمع وتفضل الكتابة كثيراً وتقتصد الزمن. وفوق هذا تحفظ

المعلومات بصوت راويها. ثم أفرغتها على الكراس وبدأت أناقشها جزءاً جزءاً مع الإخوان الذين لهم إلمام بالمعرفة التربوية ثم أخضعت المعلومات مرة ثانية لغربة وتصنيف واستقر الرأي أن يكون اسم الكتاب «المسيد» وهو أوسع نسبياً من الخطوة واستخرت الله وبدأت متوكلاً عليه وكان انطلاقي من مسيد ود الفادني لذلك كانت البداية به، لاعتبارين الأول ثقة فيه وفي مشايخه بحسبانه مسيداً «نموذجياً» ويحسب من أهم مدارس القرآن في السودان.

الاعتبار الثاني: والذي أيضاً لفت نظري هو عدد الخريجين الذين درسوا وحفظوا في هذا المسيد وهو عدد ضخم إذ ظل هذا المسيد ومنذ تشييده وخلال السلطنة الزرقاء يُخرجُ الحفظة. ولما بسط الأتراك يدهم على بلادنا كان أغلب المشايخ الذين يديرون دفة التعليم والكتابة من تلاميذ ود الفادني وكذلك في المهديّة جل العلماء والمشايخ الذين أثروا في الحياة العامة منهم وهذه طائفة بأسماء بعض الأعلام الذين تخرجوا في ود الفادني منذ مدة طويلة.

- | | | |
|---|--|-------------------------------|
| ١ | الشيخ إبراهيم الكباشي | شمال الخرطوم |
| ٢ | الشيخ محمد ود كنان | الجزيرة |
| ٣ | الشيخ القرشي ود الزين | الحلاوين |
| ٤ | الشيخ الأستاذ الحسين ابراهيم ود الزهراء عالم وقاضي المهديّة الشهير | |
| ٥ | الشيخ محمد ود البصير | الحلاوين |
| ٦ | الشيخ محمد ود عويضة | الجزيرة |
| ٧ | الشيخ حمد النيل بن الشيخ الريح | صاحب مقبرة حمد النيل بأمدرمان |
| ٨ | الشيخ طه الأبيض البطحاني | الجزيرة |
| ٩ | محمد ود حماد | الجزيرة |
- وغيرهم

المعلمون المعاصرون

وهذه قائمة بأسماء المشايخ الذين يقومون بالتدريس اليوم ربيع الأخير

١٤٠٤هـ.

١	الفكي الشيخ محمد حسن ^(١)	ود القراءة	شرق النيل
٢	الفكي الشيخ أحمد عبد المطلب	الشقيلاب	بحر أبيض
٣	الفكي الشيخ النور أحمد ادريس	السلامات	رheid البردي
٤	الفكي الشيخ حسن الفكي محمد	القراءة	شرق النيل
٥	الفكي الشيخ محمد ابكر ابراهيم	مساليت	دارفور
٦	الفكي الشيخ الأمير الطيب	وداي شعير	الجزيرة
٧	الفكي الشيخ العوض أحمد طيفور	ود الفادني	الجزيرة
٨	الفكي الشيخ موسى أبي صالح		
٩	الفكي الشيخ عبد الرحمن الحسين		

الصناعة

في الماضي القريب كانت قرية ود الفادني مركزاً لصناعة الفخار أباريق القهوة «الحجّين» وأباريق الوضوء المعروفة والدواة وغيره ولعل حركة المسيد ونشاطه هو الذي شجع هذه الصناعة مع وجود الخامات الجيدة وهي تراب غصاص بالمنطقة، والفقراء والطلبة يهتمون بالإبريق والدواة والجبنة وكلها مرتبطة بنشاطهم اليومي والطلبة عندما يذهبون في العطلات يحملون معهم قطعة أو قطعتين من صناعة ود الفادني فضلاً عن أن الإبريق والدواة ملازمان للطلاب في المسيد وخارجه. ولفتت صناعة الفخار نظر المجتمع فصاروا يقتنونها لسببين الأول لأنها صناعة جيدة.

(١) الفكي - أصلها الفقيه.

والثاني يقصد البركة لأنها صنعت من طينة مباركة تغمرها أصوات تلاوة القرآن الليل والنهار.

وهذان العاملان مهذا لرواج صناعة الفخار فازدهرت وصار تجار الفخار يقصدون قرية ود الفادي فيشترون كميات مناسبة ويتشرون لتوزيعها في الأسواق، وإقبال التجار على هذه الصناعة شجع الطلبة وحفزهم على تعلمها فكثير منهم أصبح من حذاق هذه الصناعة التي تدر عليهم عائداً مادياً يسد حاجاتهم الصغيرة بالإضافة إلى هذا. فإن المسيد يشجع هذه الحرف والصناعات بل يشجع الطلبة على تعلمها..

الزراعة

وما دنا بصدد الحرف فالمسيد يهتم بالزراعة بجانب الدراسة فيأذن — للطلبة أن يعملوا في أوقات فراغهم فيتعلمون صناعة الزراعة فيتأثر الطلاب بالمجتمع من حولهم وهو مجتمع زراعي، ويتعلم سريعاً، وتعلم العمل الزراعي لا يحتاج لمهارة كبيرة فهو عند الجمهور علم عين.

وقد رأيت الطلبة يخرجون للعمل وفي يد كل واحد حشاشة «ملود» وفأس وأكثر الطلبة يتعلم الصناعة في الأرض المخصصة للمسيد وهي «حواشات» يزرعها الطلبة بتوجيه شيخ القرآن أو وكيله وتحت إشراف خبراء الزراعة الرسميين وبعد أن يحذق الطالب صناعة الزراعة يحصل بوسائله الخاصة على أدوات الزراعة — الحشاشة والجراية والفأس والفرار والمنجل إلخ..

هذا ومهما يكن الجهد الذي قمت به فلا أعتبره بحتاً متكاملاً وعسى أن يتصدى لتوسيع هذه المادة باحث آخر تكون ظروفه أوفر حظاً من ظروفي التي اعتمدت فيها على جهدي الخاص والعون الأدبي والمادي الذي لقيته من بعض الإخوان الأساتذة عبد الوهاب موسى — علي محمد شمو — الرائد معاش زين العابدين محمد أحمد عبد القادر.

ثم زرت مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف والرياض والمنطقة الشرقية وبعض المدن الأخرى. متابعاً فيها تاريخ المدارس القرآنية وتسمى عندهم كما هو معلوم الكتاتيب وعدت بحصيلة متواضعة من مطبوعات ومخطوطات وروايات شفوية..

وبعد أوتيت من المملكة السعودية شددت الرحال لأفريقيا الغربية والشمالية زرت خلال هذه الرحلة.

١/ شاد.

٢/ الكاميرون.

٣/ نيجيريا.

٤/ مالي.

٥/ النيجر.

٦/ موريتانيا.

٧/ المغرب.

٨/ الجزائر.

٩/ تونس.

١٠/ مصر.

ثم أتاحت لي المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. أن أزور الصومال سنة ثمان وتسعين بعد الثلاثمائة والألف ثم زرت كينيا.

وأحسب أنني حصلت على معلومات ظننتها تفي بالغرض. وبدأت في إعدادها وترتيبها تحت عنوان «الخلوة» وهي مدارس القرآن في بلادنا.

وتبين لي أن بعضاً من الدارسين كتبوا عن مدارس القرآن الكتاتيب فاستخرت الله على تغيير الاسم من الخلوة إلى المسيد وفي تقديرى أن المسيد أرحب وأشمل، والخلوة جزء من المسيد.

المسيد

ولما كنا بصدد المسيد ينبغي أن نتحدث عن كلمة مسيد وهي معروفة عند الجمهور، فقط لحقها الإبدال. والإبدال معروف في لهجات العرب وإبدال الجيم (يا) معروف ومألوف في الماضي والحاضر، وكذلك يغلب بعضهم الياء جيماً كقولهم - يمل بدل حمل وشير بدل شجر.

وسكان الخليج صار جميعهم في عهدنا هذا يقلبون الجيم «ياء» إلا إذا أفصحوا، رجال تنطق ريال «جبل - ييل - حمل - يمل» وكذلك المصريون يقلبون الجيم قافاً «صعيداً» جاء. قاء. رجل رقل إلخ والشام يعطشون الجيم حتى يكادوا يهلكونها فتصير شيئاً وعموماً فإن حرف «الجيم» يحسب من حروف الثقل فتحويره وقلبه سهل وجائز عند العامة وربما الخاصة.

هذا البيت من الشعر «القلب» فيه واضح في كلمتي «ينا وشيرات» وأصلها «جنا وشجرات» فقلبت الجيم ياء قالت الشاعر الخثعمية:

إذا لم يكن فيكن ظلا ولا ينا فقبحكن الله من شيرات

وذكر الدكتور عون في كتابه «قاموس اللهجة العامية في السودان» في مادة مسيد.

قال وقد ذكر ابن مكّي أن عامة أهل صقلية يقولون «مسيد» وذكر أن المسيد قد حكاه غير واحد فهو مسموع من العرب وقد نسب لكتاب «لحن العامة» قول الخثعمية ونحن في بلدنا السودان لا نقلب الجيم ولا نحورها فهي عند العام والخاص جيم قرشية حرة.

وهذا يدل على أن كلمة مسيد تلقفها أهل السودان من أفواه المشايخ الذين توافدوا على السودان في وقت مبكر وأغلبهم قدم من الحجاز والمغرب وأسسوا

المسيد وقد أشرت آنفاً أن كلمة مسيد لا تطلق في بلادنا على المسجد ولا على الجامع ولا على الزاوية إنما تنصرف إلى المكان الذي يجمع مدرسة القرآن والمصلى والسكن. فإذا اجتمعت هذه المناشط «الاستخدامات» الثلاثة كان المسيد أما إذا كانت مدرسة قرآن فحسب فهي خلوة وربما جاء بها أهل السودان أنفسهم.

وعند البدو الرحل في شمال «كردفان» كلمة مسيد ولكنها تعني الرمل في بطن الوادي مسطحاً أو مبسوطاً وإذا كان الوادي ضيقاً ورملة قليل قالوا مسيد وأحياناً يطلقون كلمة مسيد على الشجرة الظليلة التي يستظلون بها والمراد كما علمت أنهم يعنون بكلمة مسيد المكان النظيف الطاهر كمسيد القرآن.

وأهل إقليم دارفور يعرفون المسيد اسماً ومعنى ولكنهم ينطقون الكلمة «مسيك» يدلون الدال كافاً حسب لهجتهم المحلية.

فالقبايل التي تتحدث لهجات غير العربية تقول «مسيك وبعضهم يقول مسيج» وأشهر الأماكن وأقدمها في مجال تدريس القرآن دنقلا وأهلها يتحدثون اللهجة النوبية ولهم مدرسة قرآن قديمة تعرف بـ «كلو مسيد» معنى «كلو» حجر فيكون المعنى «مسيد الحجر» واشتهر في بلادنا قرى كثيرة باسم المسيد. مسيد ود الفادني مسيد «بربر» وهي قرية شهيرة وقديمة جداً ولا تعرف إلا «بالمسيد» وكذلك قرية المسيد بالجزيرة غرب بلدة «كرانج»^(١) وهي بلدة سميت بهذا الاسم منذ عهد بعيد.

ولما زرت المملكة العربية السعودية أول مرة وأنا بصدد دراسة أحوال كتاتيب القرآن مررت على مدينة الطائف الشهيرة وزرت هنالك مسجد سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ولفت نظري غرفة مربعة ومغلقة من كل الجهات وسألت حارس المسجد عن

(١) كرانج بلدة قديمة لها شهرة عظيمة في مجال تدريس القرآن وعموم علوم الآلة.

هذه الغرفة^(١) قال: «هذا قبر ابن عباس رضي الله عنهما» وقبل بناء هذا المسجد كانت الغرفة التي تضم القبر من ضمن (المسيد) وانتبهت لكلمة مسيد منذ تلك اللحظة إذ كنت أحسب أن أهل السودان هم الذين يستعملون كلمة مسيد وبدأت أسأل عامة أهل المملكة العربية السعودية وتبين لي أن العامة يقولون «مسيد» وبالأخص قبائل الجنوب كقبائل عسير وغيرها ثم زرت المملكة المغربية متابعاً كتابي القرآن فوجدتهم مثل أهل السودان يقولون مسيد وينطقونها بلهجتهم ذات التعطيش البين ويميلون بالياء نحو الحميم وسألت جماعة من أساتذة كلية اللغة العربية بمراكش عن أصل كلمة مسيد واشتقاقها قالوا أصلها مسجد ثم صغرها العامة فصارت «مسيجد» ثم أدغمت الياء في الحميم فصارت «مسيد» وهو ما عليه أهل المغرب.

وزرت مسيد سيدي الزوين ويقع جنوبي مراكش في ذي الحجة ١٣٩٨ ومكثت فيه وقتاً طويلاً..

وطيلة إقامتي كنت أتخيل أنني في مسيد «أم ضبان» فبكل شيء يذكر بك بأم ضبان - الضيوف - خلاوي القرآن - مساكن الطلبة - هيتهم وأزيأهم المتقشفة «التكية» والتكية تسمى بيت «الطياب» وهي حجرة كبيرة «كبيت النار» في مسايد السودان. السواد يكسو حياطها وتغطي السقف طبقة رمادية أقرب إلى السواد من فعل النار التي تضرم للطعام فالدخان والفتار يصعد حتى يرتطم بالسقف ثم يعود فيجد فتحات في أعلى الحجرة هي نفس «الطاقات» التي نجعلها في خلاوي المسيد، وفي حجرة الطعام مجموعة من النسوة المتفاوتات الأعمار وهن منهمكات في صنع الطعام للطلبة بعزيمة وصدق يفعلن هذا احتساباً للأجر وتقرباً إلى الله.

وفي المسيد جماعة من العمال لجلب الحطب والدقيق والطعام وشهدت ثلاثة من العمال «يرمُون» خلاوي المسيد «بالزبالة» الاسطى «مندرج من وسطه ورباط

(١) الحارس - اسمه جابر بن الحبيب (٧٥ سنة).

قميصه بحبل وفي يده «المحارة» وصعد على السلم وبدأ في بلط الحائط ومساعدته يمدّه «بالزباله» عن طريق «القذف» كما يجدهم مساعد الاسطى في بلدنا الطين أو المادة التي تطلّى بها الحيطان.

فالمسيد عموماً يمرور بالحركة نهيق الحمر وثغاء الشاة وأصوات القراءة إلخ..
الليحان مركوزة على جدار المسيد مكان المحاية.

أقلام البوص دواة الحبر الأسود كل شيء يذكر بك بمسيد أم ضبان أو أي مسيد آخر في السودان. وتأكد عندي أن المساييد التي رأيته في المغرب هي نفس المساييد الموجودة في بلادنا فكل شيء متطابق تماماً.

الخلوة

الحديث عن المسيد بالضرورة يفضي بنا إلى الخلوة والمسيد ذاته لا يسمى مسيداً إلا إذا كانت الخلوة هي محور نشاطه فالمسيد بلا خلوة لا يساوي شيئاً إذن فالحديث حتماً يسوقنا إلى الخلوة. وكما عرفتُ المسيد ينبغي أن أتعرض للخلوة. معناها وظيفتها - مناهجها ومكائنها في المجتمع.

جاء في لسان العرب^(١) عن ابن إسحق خلوا وخلأ وخلوة الأخيرة عن الليحاني اجتمع معه في خلوة وقيل الخلاء والخلو - المصدر.

والخلوة في بلادنا لها ثلاثة معاني:

الأول

الخلوة المكان يقصده المرء ليخلو فيه وينقطع عن الناس للذكر والعبادة وقد تكون الخلوة مبنى أو كهفاً أو جذع شجرة وقد رأيتهم في منطقة «القلعة»^(٢)

(١) لسان العرب - لابن منظور الجزء الثامن عشر من صفحة ٢٦١.

(٢) القلعة منطقة في جبال الفاو، مشروع الرهد.

يحفرون أشجار التبلى من عل حتى قاعها وينزل المختلي بالدرج ويمكث عدة أيام مختلياً في هذا المكان الوعر.

المعنى الثاني

الخلوة التي يدرس فيها القرآن ويكون بناؤها مما يتخذونه من الطوب اللبن أو الأحمر أو بيت الشعر ونحوه.

وخلوة تدريس القرآن أكثر شهرة من الخلوة الأولى والثالثة ولا تنصرف كلمة خلوة بداهة إلا على خلوة تدريس القرآن.

المعنى الثالث

الأهالي في السودان يطلقون كلمة خلوة على الحجرة المخصصة نزلاً للضيوف فهي كالديوان أو الصالون في البيوت الحضرية.. ففي كل القرى نجد الخلوة حتى أهل البادية يخصصون خيمة مما يسكنون ويطلقوا عليها اسم الخلوة وهي هنا بالمعنى اللغوي. من الخلو، والرجال الذين اشتهروا بالكرم في القبائل تكون في ساحتهم خلوة أو عدة خلاوي..

والخلوة في الحي أو الفريق أو القرية عنوان مجد وشارة كرم فالذين يخصصون الخلوة أو الخلاوي في بيوتهم وقراهم يجلبون الحمد والثناء لقومهم وعشيرتهم إلخ... ولم أعثر على كتابة شافية عن الخلوة وتاريخ نشوئها.. ومن المعلومات التي توفرت عندي فإنني أرجح أن كلمة خلوة اصطلاح صحب الدعاة الأول فأشاعوه في بلادنا وهم رواد العلم عندنا فالخلوة إذن تنسب إليهم واستعمالهم للكلمة يدل أن الخلوة من قاموسهم، فسكن الشيخ يسمى الخلوة ومكان عبادته الخلوة، والغرفة التي يخصصها لتعليم الصبيان خلوة..

الخلوة خارج السودان

وقد لاحظت أن بعض الشعوب العربية تعرفها فهي عند أهل اليمن حجرة في أعلى الدار تسمى «الخلوة» وهي غرفة صغيرة يجعلونها نزلاً للضيوف وغيرهم من العابرين والطارقين وفي المملكة العربية السعودية منطقة «نجد» وما حولها يعرفون الخلوة ولها ثلاث وظائف عندهم. وهي:-

الأولى: يجعلونها تحت بناء المسجد على نسق «البدرن» ويتخذونها مصلى في زمن الشتاء..

الثانية: يجعلونها غرفة في الدار يستعملونها للقليلة في نهار الصيف..

الثالثة: في بعض الدور يتخذونها مجلس أنس في زمان الشتاء..

وتحدث الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي^(١) عن ذكرياته الدراسية في الحرم قال: وقد أدركنا «الحلقات» في المسجد الحرام - كما كانت في المدينة المنورة بالمسجد النبوي الشريف. تغص بالطلاب الكبار والصغار ليلاً ونهاراً وفي جميع الأوقات حتى منتصف الليل وفي تباكير الصباح وبعد كل فرض يؤدي، ولا أبالغ إن قلت أن عددها أكثر من مائة بيت - الأروقة - و«الحصاوي» وفي المدارس المجاورة والخللاوي^(٢).

الخلوة في مكة

وفي مكة المكرمة داخل الحرم مئات الخللاوي وقد أحصيتها فوجدتها تسع وثلاثمائة «خلوة» مكتوب على كل غرفة عبارة «خلوة» رقم كذا إلى ٣٠٩^(٣) وهي غرفة عندما رأيتها مخصصة للمجموعات التي تعمل داخل الحرم كالأغوات والمؤذنين والسقائين وعمال النظافة وما شاكلهم فلكل غرفة ومكانها أسفل الحرم ينزلون لها بالدرج.

(١) «شذرات الذهب - أحمد بن إبراهيم الغزاوي إصدارات المنهل - جدة»

(٢) رأيها ١٣٩٥ هـ المؤلف.

ولا أستبعد أن تلك الخلاوي كانت مكاناً لحلقات التدريس كما أشار الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي^(١) وأن بعض المشائخ يدرسون فيها القرآن ولبعض الفقهاء رأي في تدريس الأطفال في الحرم. خوفاً عليه من عبث الأطفال لأنهم لا يتحرون الطهارة ويخشى أن ينقلوا النجاسة والقاذورات لهذه الأماكن^(٢).

سنوك والخلوة

وقد زار مكة المكرمة المستشرق الهولندي «سنوك» هرجرونجه متنكراً ومدعياً الإسلام ومكث بها سنة كاملة^(٣)..

وقد لفت نظره الخلاوي الكثيرة فكتب يقول: وعندي أن هذا النظام مقتبس من نظام مدرسة «قايتباي» التي بناها عندما حج عام ٨٨٤هـ والتي شيدها لصق الحرم من الجهة الشرقية ويصف لنا سنوك هذه المدرسة بقوله.

وفي سنة ١٤٧٧م بنى السلطان قايتباي بالقرب من باب السلام مدرسة بها قاعة جميلة للمحاضرات واثنين وسبعين خلوة «حجرة صغيرة» للسكن ومكتبة للمذاهب الأربعة ومعنى هذا أن المدرسة كانت تحتوي على عدد من الخلوات في داخلها. وأزيلت هذه الخلاوي بعد حادث الحرم.

المشهور والذي وقع في ١٣٩٩ الموافق ١٩٧٩ في الأيام الأخيرة للحج وذلك عندما احتفى جماعة من الرجال كان يقودهم المدعو «جهيمان» ببعض الخلاوي بالحرم وأطلقوا النار على الساعين والطائفين والمصلين، وسرعان ما طوقتهم القوات السعودية وأخمدت حركتهم وأعادت الدولة صيانة الحرم الشريف

(١) «أيام الاصراف والاقلاة جريدة قريش عدد ٢٠٥ - ١٠/٧/١٣٨٣هـ - ٢٧/١١/١٩٦٣م تأليف الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي راجع التعليم في مكة والمدينة تأليف محمد عبد الرحمن الشامخ دار العلوم الرياض الطبعة الثانية.

(٢) التعليم في مكة - المستشرق الهولندي - سنوك هرجرونجه.

وأدخلت المزيد والحديد من الخدمات التي تهدف إلى خدمة ورعاية الأماكن المقدسة وحجاج البيت العتيق وبعد التعديل والتوسعة أُلغيت الخلاوي وصارت توسعة للحرم المكي..

(١) الخلوة في مصر

ذكر الشيخ عبد السلام النابلسي أنه زار زاوية الدمرداش فرأى خارج ضريحه خمسين أو ستين «خلوة» ذات أسوار وأنوار وتسمى مساجد «الأنوار». ونظام الخلوة يشبه نظام الزاوية والتكية والرباط وهو معروف في أنحاء العالم الإسلامي بأنها مكان للذكر والعبادة والدراسة وإقامة للعاشرين والمقيمين من أبناء السبيل والحجاج ونحوهم فالخلوة تقوم جزئياً مقام الزاوية. ولا تزال في السودان تؤدي مهامها كما كانت في الماضي البعيد يقصدها أبناء السبيل والمسافرون والفقراء والحجاج للدراسة أو الإقامة القصيرة ويتخذون منها مكاناً للدراسة والاستجمام إلخ.. وسلوكهم هذا صار عرفاً معروفاً في مساجد العالم الإسلامي ولا سيما الأفريقي وكثير من جمهور المسلمين يصلون هذه الأماكن بصدقاتهم وهباتهم وطعامهم ويندر أن يمر يوم ولم تصل هذه الأمكنة صدقة أو رفقاً.

ولكن المسيد هو الأكبر والأشمل وما زال المسيد والخلوة والزاوية وحتى المسجد والجامع مقصداً للمحتاجين من عامة المسلمين.

(٢) الخلوة في تونس

ذكر الأستاذ المرزوقي في معرض حديثه عن التعليم في البادية التونسية الخلوة إذ قال: -

(١) نقلاً عن مخطوط النابلسي دار الكتب القاهرة تحت رقم ٣٤٤ التربة في السودان د. عبد العزيز أمين عبد المجيد المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٤٩م.

(٢) مع البلد في حلهم وترحالهم - محمد المرزوقي تونس ١٩٨٤م - الدار العربية.

إذا بلغ الطفل الخامسة من عمره أو السادسة على الأكثر يدفعه والده إلى مؤدب الصبيان بالكتاب القرآني فيستقبل هنالك بالفرح من زملائه إذا كان معروف الأب وبالصمت والتكشير أحياناً إن كان غير معروف إلى أن يقول المرزوقي والزوايا منتشرة في القرى الريفية وهي عبارة عن مكان يقام بجانبه جامع القرية وكتاب لتعليم القرآن ويسمى عندهم «الخلوة».. والخلوة معروفة جداً في ليبيا.

الخلوة في المغرب

المغرب العربي عرف الخلوة. وكثير من المساجد بها غرفة تسمى الخلوة وتكون بالقرب من المحراب من الجهة اليسرى للمصلى.

ورأيت خلوة في مسجد القرويين بمدينة فاس وأفادني عالم جليل^(١) أن الخلوة موجودة في مساجد المشايخ - يوسف بن تاشفين والمولى إبراهيم والقاضي عياض ومحمد بن الجزولي وهؤلاء بمدينة مراكش كمركز، إن - الخلوة أيضاً في مساجد كثيرة.

وفي تقديري أن الخلوة عرفت بها بلادنا ثم عززها المشايخ الذين قدموا من الحجاز ثم من المغرب فيما بعد..

وأثر هؤلاء واضح في كل وجه من وجوه المعرفة ومن الشواهد على ذلك رواية أبي عمر الدوري^(٢) التي قرأ بها أهل السودان وقد جاءت من الحجاز يدلنا على ذلك المصاحف المخطوطة بهذه الرواية وأقدم ما وقفت عليه مصحف مكتوب بخط الناسخ المعروف الشريف «أبو نُمي» وهو حجازي من مكة

(١) رواية الأستاذ عبد السلام بن جبران عميد كلية اللغة العربية بمدينة مراكش.

(٢) هو حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي الدوري أبو عمر إمام القراءة في عصره وقد تلقى القراءة عن أبي عمرو بن العلاء البصري، مات بالكوفة سنة ٢٤٦ هـ.

راجع المحتبى في تخريج رواية أبي عمر الدوري تأليف محمد محمد محمد سالم محسن وزارة الشؤون الدينية المرطوم.

المكرمة وهي الرواية التي تقرأ بها الخلاوي الآن - «وهناك رواية أخرى هي رواية ورش^(١) والأخيرة منتشرة في منطقتين دنقلا ودارفور، وأجزم أن هنالك مصاحف لم أقف عليها.

دخول الخلوة

الخلوة نظامها حر يقبل كل الأعمار. تجد فيها الغلام ابن الخمسة والصبي ابن العاشرة والشاب ابن العشرين والكهل الذي تجاوز الأربعين ويصنفون في قسمين حوار وطالب.

الحوار: أب القرية.

الطالب: الذي يأتي من خارج القرية أو المدينة.

والحوار في السودان يطلق على التلميذ الذي يتعلم القرآن والرأي عندي أن السبب في تسميته بهذا الاسم أن الحوار في الأصل ولد الناقة. ولا يزال حواراً حتى يفصل فإذا فصل عن أمه فهو «فصيل» وقد شبه التلميذ الذي يتبع أستاذه ويتلقى عنه العلم والإرشاد بالحوار لأنه لم يفصل عنه بعد، ويؤيد هذا الرأي عندي ما كان يقوله ود ضيف الله فهو يستعمل كلمة «فطام الحوار» ويعني بذلك تمام دراسته وانفصاله عن شيخه فهو يقول أن فطام محمد بن الريدة كان في نوري على يد الفقيه مدني ابن محمد بن مدني «صفحة ١٦٥» وفي هذا أحالف رأي مؤلف العربية في السودان - إذ يقول «ص ٣٦» أن الحوار أصله «حواري» الناصر والتلميذ ينصر أستاذه^(٢) وكذلك في صفحة «١٢٨» الطبقات نجد أن فطام الشيخ

(١) ورش هو أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري - الملقب بورش ولد بمصر ورحل إلى نافع فقرأ عليه بالمدينة ومات بمصر ١٩٧هـ.

(٢) الحوار وقد يخلطون بين الحوار والطالب في زماننا هذا. فالحوار بالضم ابن الناقة وبالكسر النقاش بين شخصين.

عبد الرحمن بن صالح بن بانقا في دراسته «خليل» كان على الشيخ ضيف الله والقطام يكون للطفل ولابن الناقة «الحوار» أيضاً فهو حوار.

وقد عرف بعضهم الحوار ونسبه للحواريين أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام^(١).

في يوم الدخول للخلوة يأتي ولي أمر الحوار أبوه أو أمه فيجلس أمام سيدنا ويقدم ابنه ويشفع تقديمه بكلمات تقليدية - إليك اللحم ولينا العضم.

فيرد الشيخ ربنا يعلمه ويحفظه وإن شاء الله يكون ابن حلال ويدعو له فيرد ولي أمر الحوار بعبارات محفوظة ومسجوعة..

دُقه إن كضب

وعلمه الأدب.

والمشايخ متفقون على سن القبول «خمسة سنين» والمجتمع في الحقب الماضية ما كان يعرف شهادة الميلاد ولا سجل الوفيات.. والمتعلمون يكتبون تأريخ ميلاد الأولاد «دون البنات» على صفحات المصاحف وهذا نموذج لكتابتهم.

ولد ابننا أحمد صباح الثلاثاء الخامس عشر من شهر رجب سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وألف من هجرة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وللمشايخ طريقة يقدرّون فيها عمر الحوار يأمره سيدنا برفع يده اليمنى على رأسه حتى يمسك بها أذنه اليسرى فإن مسكت يده أذنه قيل بلغ الخامسة أو تجاوزها أما دون الخامسة فلا تصل يده الأذن.

ولبلوغ الحلم عندهم طريقة أخرى يُثني سيدنا خيطاً على رقبة الحوار ثم

(١) العربية في السودان. الشيخ عبد الله عبد الرحمن - منشورات دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٦٧م.

يفردها «دائرة» وينزلها في رأس الحوار فإن نزلت فقد بلغ الحلم وإن لم تتسع لإدخال رأسه فهو دون بلوغ الحلم وهي طريقة مجربة عندهم..

وفي يوم قبول الحوار يقدم له ولي أمره هدية من نقود أو شاة أو ثور حسب طاقته. ويترك ابنه وديعة في يد سيدنا، وجرى العرف أن قبول الطلبة «الحيران» المحدد يوم الأربعاء من كل أسبوع والدخول بالأربعاء تطبقه كل المدارس القرآنية في أفريقيا، وفي بعض البلدان العربية والإسلامية ولهم أثر متفقون عليه وقد يجعله بعضهم حديثاً وهو قولهم «ما بدى أمر بيوم الأربعاء إلا كان حقاً على الله أن يتمه» وعند بعضهم أن الأربعاء هو اليوم الذي خلق الله فيه النور، ثم يوكل أمر الحوار لطالب كبير متمكن فيبدأ معه.. بسم الله الرحمن الرحيم كتابة الحروف على الأرض ويظل يكررها في كل يوم إلى أن يستقر رسمها في ذهنه وهذه - المرحلة تكون الكتابة فيها على الأرض ويكتب الطالب ويمسح ثم يكرر فإن أجادها الغلام استحق مسك اللوح ويعطى لوحاً صغيراً فينتقل الطالب للكتابة عليه، على مرحلتين، الأولى يكتب له سيدنا «تبركاً» بنواة التمر على اللوح ثم يمرر الحوار القلم عليها إلى أن يثبت القلم في يده ثم يوالي الكتابة كل يوم وبذات الطريقة يرسمون له الحروف بالنواة..

ثم ينقلونه إلى المرحلة الثانية وهي كتابة حروف الهجاء.

أ - ب - ت - ث - ج - ح - خ - ...

يكتبها على طريقة الإملاء أ - ب - ث، يصار به إلى التمييز بين الحروف المهملة والمعجمة^(١) والحوار يحد مشقة في مخارجها وتمرور الأيام يستقيم لسانه ولهم أسلوب خاص، توخت فيه الخلاوي النغمة والسجعة وهو أسلوب محبب للأطفال فيكررونه من غير ضجر..

(١) المهملة الحروف من غير نقط والمعجمة الحروف - ذات النقط.

اليّف لا شيء عليه.
الباء واحدة من تحتى.
التاء اثنين من فوق لى.
الثاء ثلاثة من فوق لى.
الحيم واحدة من تحتى.
الحاء لا شيء عليه.
الخاء واحدة من فوق لى.
الذال لا شيء عليه.
الذال واحدة من فوق لى.
الراء لا شيء عليه.
الزين واحدة من فوق لى.
السين لا شيء عليه.
الشين ثلاثة من فوق لى.
الصاد لا شيء عليه.
الضاد واحدة من فوق لى.
الطاء لا شيء عليه.
الظاء واحدة من فوق لى.
العين لا شيء عليه.
الغين واحدة من فوق لى.
الفاء واحدة من فوق لى.
القاف اثنين من فوق لى.
الكاف لا شيء عليه.
اللام لا شيء عليه.

الميم لا شيء عليه.

النون واحدة من فوق لى.

والكلمات - عليه وتحتى ولى - تنطق بإمالة اللسان الدارج.

ويفصحها سيدنا وهو الشيخ المعلم فيقول.

الباء نقطة واحدة من تحتها.

التاء نقطتين من فوقها.

الثاء ثلاثة نقاط من فوقها.

الحيم نقطة واحدة من تحتها.

الحاء لا شيء عليها. إلخ..

ومن بعد أن يميز الحوار الحروف المنقوطة وغير المنقوطة يدخل مرحلة

أخرى: الشكل - النصب - الخفض - الرفع - والحزم^(١) - ويتعلم هكذا:-

بَ نصب - ب خِفض - بُ رُفع - أَبْ حزم.

تَ نصب - تِ خِفض - تُ رُفع - أَتْ حزم.

وإلى آخر الحركات التي تعرف بالشكل.

ولما يحذقها الحوار ينتقل إلى الجر.

ب - جاب الف - بى جاب ياء - بو جاب واو - والف - أ ب حزم.

ت - جاب الف - تى جاب ياء - تو جاب واو - والف - أ ت حزم.

وهكذا إلى نهاية الحروف الهجائية.

وبعد أن يحذق الحوار الحروف وحركاتها جيداً ينتقل للجمل ذات الحرفين

(١) والنصب والخفض والرفع والحزم أسلوب المدارس القرآنية في السودان وكذلك في المغرب العربي.

أما الفتح والكسر والضممة والسكون فقد ظهرت مع المدارس الحديثة.

والثلاثة إلى أن يستطيع «تقرين» الحروف. وبعد تقرينها «ربطها» بعضها مع بعض ينتقل لسورة الحمد لله رب العالمين ثم سورة الناس والفلق إلخ..

اللوح

نحن في بلادنا نذكر كلمة اللوح مطلقاً وبعض إخواننا في البلدان العربية يؤثنونها ويذكرونها فيقولون اللوحة واللوح.

وتصنع الألواح من أشجار خاصة تمتاز باللدانة والقوة إذ تكون لدنة في حالة جفافها وخضرتها، وتكون قوية المكسر في حالة جفافها وأفضلها.

١/ شجر العشر في شمال وشرق السودان.

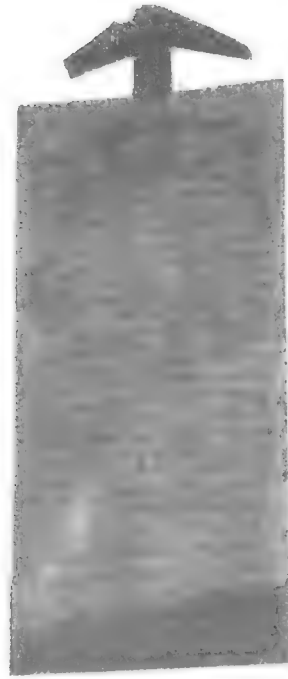
٢/ شجر الهجليج في الغرب والوسط.

٣/ شجر السريز شرق السودان.

٤/ شجر الاندراب وسط السودان.

٥/ شجر الحراز في وسط السودان.

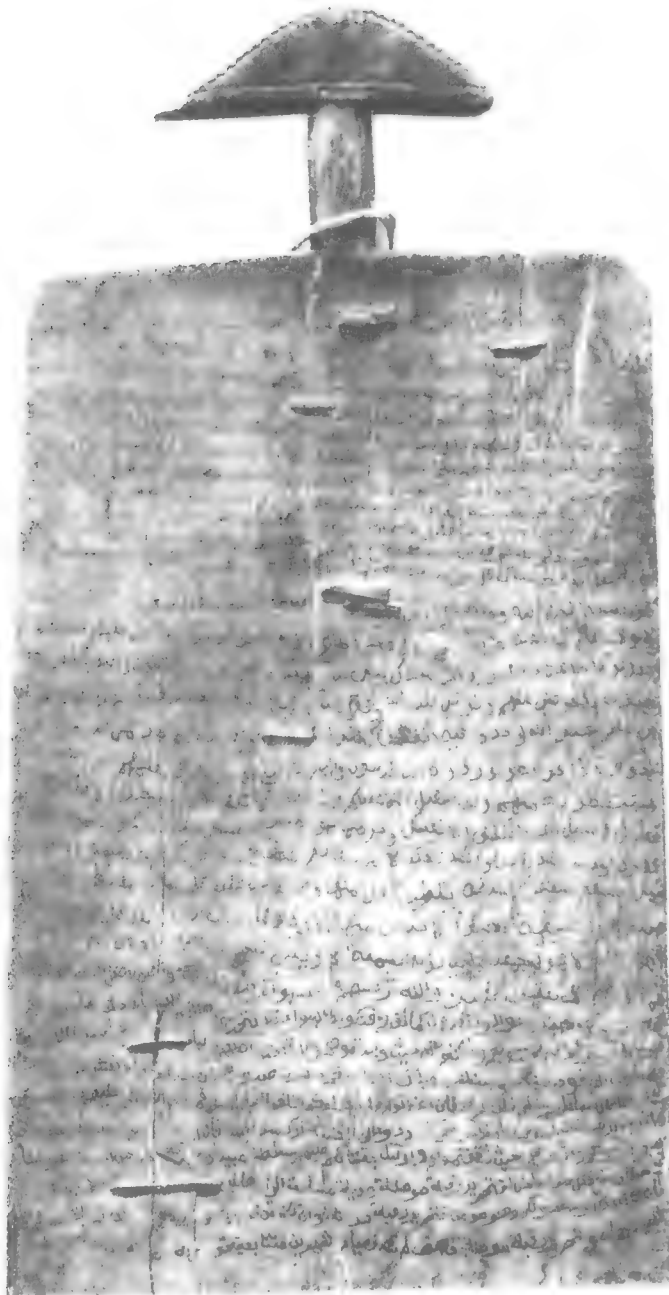
وللوح صناع «ينجرونه» ويهدونه للخلوة وبعضهم يصنعه ويعرضه للبيع وفي الخلاوي الكبيرة ألواح مشهورة، اكتسبت شهرتها من كثرة عدد الطلبة الذين حفظوا عليها فيتنافس الطلبة في الحصول عليها ويتفاءلون بالقراءة عليها وفي حوزتي لوح بلغ المائة سنة وقد حفظ عليه مئات الطلبة وصار مشكلة في الخلوة بسبب التنافس عليه لأن كل طالب يسعى للقراءة فيه وأحياناً يسرقه الحوار ويذهب به إلى خلوة أخرى فتتبعه العيون وترصده إلى أن يردوه لمكانه. واللوح بطول الزمن وتعرضه للماء يتشقق ويتضرر ولكنهم يصونونه ويربطونه بالمسامير وأمتن وأجمل الألواح هي ألواح غرب السودان التي تصنع من شجر الهجليج «اللالوب» وهذا رسم لنموذجين من الألواح.



لوح الهجليج



لوح العشر



لوح أثري من خلوة ود نعمان قرأ عليه أربعة أجيال

وقد أعجب هذا اللوح شاعرنا الكبير الأستاذ محمد عبد القادر كرف فقال شعراً:

وإذا به في كل ركن	فيه يزخر بالعجيب
بنفائس الكتب التي	حبت إلى كل القلوب
بمآثر للسلم حظ	بينهن وللحروب
وكانما هو متحف	فد براء من ضريب
وشهدت (لوحاً) عنده	قد قُذ من خشب صليب
وكانه لأبي الأعاجم	آدم وأبي العريب
لم أدر ماذا فيه من	خط ومن كلم غريب

القلم

القلم أو الأقلام يتخذونها من مواد محلية متوفرة في كل منطقة وأشهرها:

١/ سيقان قصب الذرة.

٢/ البوص - أشجار رقيقة مجوفة.

٣/ التمام «الشمام» وهو صلب المكسر وينبت في أكثر أنحاء السودان لاسيما في حزام السافانا وشبه المناطق الصحراوية.

وبعض أشجار ونباتات أخرى تصلح قلماً - فيجمع كل طالب ما تيسر له من الأقلام الخام ثم «يربها» بحنكة ويجعل للأقلام «كنانة» ويسميها - الحيران - قلامة «مقلمة» وربما كان القلم عزيزاً على الطالب فيربطه بخيط طويل في عنق الدواة. وساعة الكتابة والتصحيح يقدم كل طالب يريد التصحيح قلمه ودواته فيصحح سيدنا اللوح وكلمنا «ترع»^(١) القلم نظفه سيدنا على رأس الطالب ونظافة

(١) ترع - سال مداده.

القلم على رأس «الطالب» يعدونها بركة ونخيراً ويترك الحوار أثر القلم على رأسه بضعة أيام من باب التفاؤل والبركة.

الجير

وقبل أن يكتبوا على اللوح يغسلونه في حجر «المحاية» وهو مكان معد لمثل هذا الغرض لا يطوّه أحد ولا تصله سائمة، يتوخون له الطهارة بقدر الإمكان.

فيأتي الطالب ويمحي لوحه ثم يمسحه بالجير «البلدي» الذي يعرف في الخلاوي باسم «الطفل».

ويوجد في أماكن كثيرة من المناطق التي يكون فيها ترسب جيرى. فمن هذه الأمكنة يستخرج الحيران الطفل المناسب فيمسحون به الألواح ويحفظون ما تبقى ليوم غد.

ويتحامون الجير «الافرنجي» المعروف «بالطباشير» فجيرهم الطفل أبرك من أي مادة بيضاء لا يثقون في طهارتها.

صناعة العمار

درجت الخلاوي على توزيع المهام على بعض أيام الأسبوع فكل يوم يخصص لإنجاز مهمة. بجانب الدراسة اليومية.

وقد نظم الحيران أيام الأسبوع في قالبهم التعبيري المعروف بـ«الربق» قالوا السبت سبوت.

والخلاوي متفقة بأن يوم الثلاثاء مخصص للعمار ويسمى أيضاً المدار ويتكون العمار من العناصر التالية:-

١/ السكّن. ٢/ الصمغ. ٣/ السيب «الشعر».

السكن واللون الأسود

السكن يتجمع في الآنية التي تتعرض للهب نار الحطب كالقدر والحلة والدوكة^(١) وهي مادة سوداء ناعمة تتجمع على الآنية فيجمعها الحيران بطريقة ماهرة «يخرطونها» بالسكين ويضعونها في إناء ثم يضيفون إليه الصمغ المسحوق ويخلطونه بالماء خلطاً جيداً وعندما يقوى يجعلونه دوائر صغيرة في حجم «القرش».

ويعرضون العمار للهواء والشمس فيجف، ثم يحفظونه، وكلما احتاج الحوار تناول قطعة وجعلها في الدواة فتذوب قليلاً، ومع الصمغ والسكن يجعلون السيب وأفضله سيب البقر والمعز والسيب يجعل المداد ليناً لا يتجمد ويساعد القلم على الارتواء والانسحاب.

وفي حالة الألوان يستغلون ثلاثة مواد أخرى.

١/ المغر. هو تراب جيرى أقرب للحمرة ويوجد في أماكن كثيرة من بلادنا ولونه يصلح للورق ونقش المصاحف وزخرفتها.

٢/ الكركم وهو نبات أصفر شديد الاصفرار يستحلب من آسيا وبعض الشعوب تجعله على الطعام فيعطيه اللون الأصفر. وفي بلادنا نجعل الكركم في صناعة الأحذية البلدية فيزينها.

٣/ الزهرة وهي لون أزرق معروف وبعضهم يكتب بماء البصل^(٢) «العادي» فيعطي لوناً أقرب للحمرة.

(١) الدوكة - أداة من الفعار أو الساج تصنع عليها الكسرة وكلمة دوكة - مأخوذة من كلمة «دونكا» النورية وهي محل صنع الطعام.

(٢) ماء البصل تكتب به بعض الوثائق والتمايم إذ يغرمون البصلة من جنبها ويشكون البصلة حتى يتكون مازها فيغمسون فيه القلم ويكتب الكاتب ثم يلوح الورقة على النار فتصير الورقة في الحين قديمة والحبر كذلك. وبذات الطريقة يزور الأهالي الوثائق في ماضي السنين.

ولكل لون دواة خاصة وقلم خاص وبعض المتخصصين يضعون ماء «الزعفران» عندما يريدون كتابة المصحف.

الدواة

وهي ثلاثة أنواع:-

الأول: يصنعونها من الخامة المتوفرة في كل ناحية ولكنهم يفضلون دواة الطين «الفخار» ينونها بأيديهم ثم يحرقونها فتصير حمراء كصناعة «ود القادني» بالجزيرة وسنكات وكسلا في شرق السودان وبعض الأماكن تربتها سوداء فتصير الدواة كذلك.

ثانياً: دواة القرع وهو ما يعرف في السودان بالقرع «المر» الذي يستخدم كآنية منزلية واستعمالاته كثيرة جداً وفيه نوع جميل «مكور» وعليه ندوب طبيعية تزيده جمالاً ويسميه الأهالي القرع «المجدر» وهو أصلح أنواع القرع للدواة - وفوق جماله يكسونه بجلد فيزداد متانة ورونقاً.

ثالثاً: دواة الزجاج بكل أشكاله كزجاج «الأورنيش» وهو مربع الحجم صغير لطيف الشكل عليه غطاء جميل من الفلين وعلى الغطاء صورة ثعبان «الكوبرا».

رأينا هذه العلب الزجاجية في خلاوينا نهاية الأربعينيات وغطاؤها محكم وعندما يفتحها الحوار تفوح منها رائحة حسنة وللعنار طعم لا يخلو من حلاوة باهتة والحيران الشرهين «يلحسون» غطاء الفلين وبعضهم يقرضه.

خصائص الأيام

خصصت الخلاوي لكل يوم عملاً من أعمالها المتصلة بالإضافة للقراءة اليومية:-

السبت: للقراءة والمراجعة وتفقد أحوال الطلبة والحيران.

الأحد: دراسة جادة.

الاثنين : فزعة «احتطاب».

الثلاثاء: يصنع فيها العمار «الحير».

الأربعاء: القبول - الكرامة - الامتحان.

الخميس: للنظافة - ونصفه عطلة.

الجمعة: عطلة.

وقد ضمّن الحيران هذا التقسيم في «رَبَقَاتِهِم المشهورة» فقالوا:

السبت سُبُوت.

الأحد نُبُوت.

الاثنين بايين.

الثلاثاء عَمَّارة.

الأربعاء كَرَّامة.

الخميس أبونا

الجمعة أُنحونا.

وأصبح هذا التقسيم بتقادم الزمن برنامجاً ثابتاً في جميع الخلاوي السبت

سبوت والأحد نبوت - كل الطلبة الذين يتحدثون العربية يقولون السبت سبوت

الأحد نبوت يكونون به للضرب وفي المغرب ومورتانيا يقولون:

السبت سِبُوت.

الأحد نُبُوت.

الاثنين الشارة.

الثلاثاء العمارة.

الأربعاء تفرحوا.

الخميس تسرحوا.

الجمعة «تدرسوا» دراسة الحمير على القرار.

الأربعاء

أسعد أيام الخلوة وأحفلها بالحركة هو هذا اليوم ويتم في نهاره وشطراً من ليله عدة أشياء.

١/ قبول الحيران الجدد صباحاً.

٢/ كرامة الأربعاء نهاراً.

٣/ المراماة امتحان أسبوعي مساء.

٤/ امتحان الحفظة بعد صلاة العشاء.

وفي يوم الأربعاء يهش وجه سيدنا على غير العادة فهو طيلة أيام الأسبوع مقطب الجبين ويتطير من عينه الشرر أو هكذا يتصوره الطلاب والحزم والشدة من ضمن الفضائل التي يمدح بها سيدنا.

وسعاده تتكامل بدخول الحيران الجدد فكل واحد يأتي مع ولي أمره تصحبه الهدية، وكثير من المشايخ يقبلون على الهدايا ويستحثون الناس عليها بطرق غير مباشرة.

وقبول الحيران الجدد يكون في الفترة الصباحية ضمن النشاط اليومي.

الكرامة

كلمة كرامة تعني عند كافة الناس «صدقة» وعند بدء القراءة «الضهرية» أو قبلها يأتي كل حوار بقليل من «الحبوب» أو التمر أو السكر مساهمة منه في الكرامة.

ثم يخرج بعض الحيران الكبار للقرية التي بها الخلوة أو القرى المجاورة
ويطوفون على البيوت يسألون الناس «الكرامة» فيعطونهم ما تيسر. حبوب - تمر -
نقود إلخ.

يجمعون هذه الأشياء ويعودون للخلوة ويضعون ما جمعوه - النقود تذهب
لسيدنا فيصرفها في أغراض تتعلق به وبالخلوة - أما الحبوب فيضعونها في قدر كبير
أو حلة ضخمة ويجعلونها على النار إلى أن تستوي ثم يوزعونها مع التمر على
الحيران. وبعض الأهالي المجاورون للخلوة لهم نصيب في هذه البركة.

كذلك يحمل الحيران حفنة من الحبوب إلى ذويهم فيأكلونها تبركاً وفي رأي
مجتمع القرية «كرامة الأربعاء» أكلها يشفي داء البطن. إلخ. ويتبع جمع الكرامة
أناشيد يوديتها الطلاب أمام الحوانيت والبيوت.

وتستمر الكرامة حتى آذان المغرب ويدخلون من بعد في قراءة العشاء.

أدونا الكرامة.... كرامة نبينا

نبينا محمد. الساكن المدينة

ويقولونها بطريقة جماعية «كورالية» وبأصوات غاية في الحسن والرخامة،
وإن تقاعس أحد ممن يقفون أمامهم أو تهرب صاحبوا فيه بكلمات قارصة فيشوب
إلى رشده ويعطيهم حق الشرافة وهي ضريبة اجتماعية تشجيعية يتكفل بها
المجتمع. وبين الكرامة والشرافة فاصل دقيق.

الما بديننا الشرافة بالعقرب التافهة^(١)

تطقه في نديو تعجل عنقريو

ويودونها بطريقة جماعية فيها رنين وتحدي -

(١) التافهة من التفف اللسع. النديب عظم الساق.

ويظل الطالب ينتقل بين السور إلى أن يصل «عم» وهي من السور التي تكون فيها الشرافة^(١) ثم هنالك شرافات أخرى. أهمها شرافة يسن والكهف، والبقرة تسمى شرافة «الختمة» وهي شرافة كبيرة - تشترك فيها القرية كلها ويولم والد الحوار وليمة ضخمة ويطوف الحوار وزملاؤه على الحي والسوق فيجمعون النقود والهدايا فيأخذ الشيخ منها نصيب الأسد وما تبقى يوزع على الحيران.

وبعض الخلاوي تجعل الشرافة في سورة «لم يكن» وإقرأ وعم وتبارك وقد سمع والواقعة وعلى رأس كل جزء تكون شرافة، وأغلب الذين يفعلون هذا المشايخ الذين تكون خلاويهم في مناطق ميسورة الحال.. وعندما يختتم الحوار القرآن يقولون «شقه» وتسمى الختمة الأولى «الشقة» ثم يبدأ بالعودة وتسمى «العودة المرة» فينزل من البقرة إلى - «الصفات» ثم يرجع إلى البقرة ومن البقرة ينزل وكلما مر على سورة حفظها. ومن أهم مهرجانات الخلوة ختمة القرآن فيجانب الولايم - الموكب الذي يخرج من الخلوة إلى دار الحوار «الخاتيم» وهذا مشهد يهز الوجدان إذ يلبس الطلاب أجمل ما عندهم من الثياب وهم يحملون ألواحهم ويرددون التهليل الداوي فيصطف الناس في الطرقات يبادلونهم الفرحة وزغاريد النساء تشق أجواء السماء وأغلب تهليلهم.

لا إله إلا الله

لا إله إلا الله

محمد رسول الله

لا إله إلا الله

الفقراء عبيد الله

لا إله إلا الله

(١) الشرافة تزويف اللوح عندما يصل الطالب بعض السور وأوائل الأجزاء.

نحن نموت والباقي الله

في ماضي السنين كانوا يزفون المحتفى به على جواد مزين أو حمار..
وتتوالى التهاني على سيدنا ووالده وعلى الحوار ذاته ويعطي سيدنا بقية اليوم
عطلة لجميع الحيران والعطلة في قاموس الخلاوي تسمى «المساحة»^(١) أو البطالة.

الخلوة ومحتوياتها

تبنى الخلوة من المادة التي تبني منها منازل الجماعة — الطين — الطوب الأخضر
— الطوب الأحمر — الحجر — الصوف — النرش وأهل البوادي تكون خلاويهم في
الخيام وظلال الأشجار.

والخلوة في الغالب غرفة مستطيلة ٥×٨ متر مفروشة بالحصير غير الجيد وتحتوي
على سرير صغير «عنقريب» أو فروة وفي ركنها يجعلون مكاناً لوضع الألواح أشبه
بالسرير ولكنه طويل القوائم طوله ١×١٢/١ متراً وقد ينقص ويزيد حسب وضع
الخلوة.. ويعرف هذا الموضع بعدة أسماء.

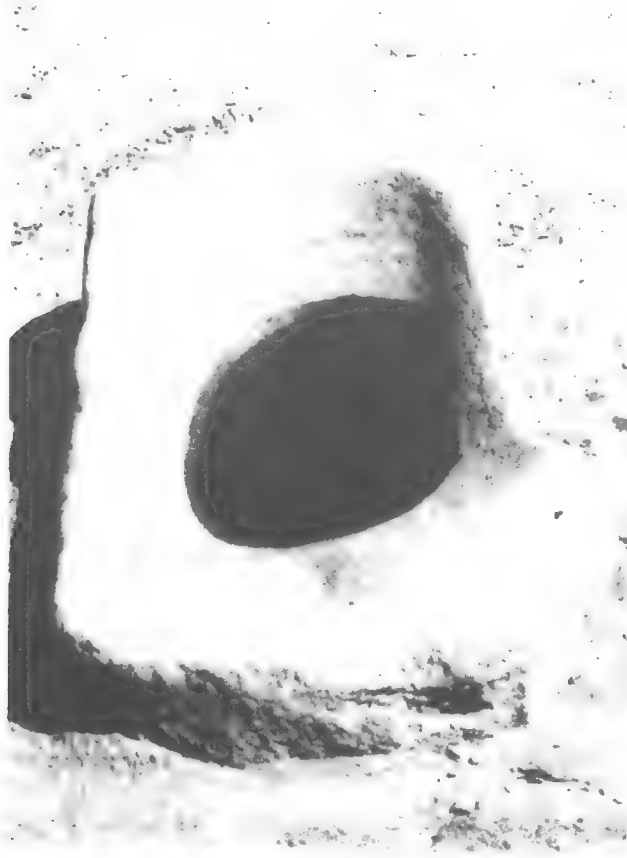
- ١ — الكتو في وسط السودان
- ٢ — الروشان في وسط وشمال^(٢)
- ٣ — الكبس في شمال السودان
- ٤ — السيداب في شرق السودان^(٣)

(١) المساحة — اصطلاح عرفته الخلاوي وهي الإجازة.

(٢) الروشان — روشن فارسيته — عون الشريف قاسم قاموس اللهجة العامية في السودان.

(٣) السيداب — السرير بلغة البحاة.

وفي ركن حوش الخلوة يضعون حجر المحاية وهو المكان الذي تمحى فيه الألواح كل صباح، ويصونونه من القذارة ويعتنون به عناية كبيرة وحجر المحاية يتخذونه من حجر القرانيت أو جرة الفخار وأخيراً صارت صناعته من الاسمنت.



صورة حجر المحاية

الفرعة:-

وفي وسط سُور الخلوة موضع «النار» التي يقرأون على ضوءها.. والنار معلم مهم عند أهل الخلاوي.. وفي ظني أن أكبر نار عرفتها الخلاوي في بلادنا هي نار «أم ضبان» ولعلها أكبر نار موجودة الآن في البلاد الإفريقية. وخارج حوش الخلوة مكان يجمع فيه الحطب يسمى «الشونة» والحطب يجمعه الحيران من

الغابات والأشجار فيحتطبون كل أسبوع.. ويخرجون جماعات جماعات ويسمى خروجهم للاحتطاب «الفرزة» فيفزعون في يوم معلوم وكل حوار يحمل فراراً أو فأساً فيقطعون الشجر شبه الجاف ويحملونه إلى لخلوة ويسلمونه لوكيل الفرزة..

والفرزة أمر ضروري فهي بجانب إيقاد النار تعلم الصبيان حرفة قطع الشجر كما تعلمهم الصبر.. على مشقة جمع الحطب فغالباً ما يكون الحطب في مكان وعر يهابه الحيران إذ هو مكنم للزواحف والعقارب وربما الحيوانات المخيفة.

وخير دليل على مشقة جلب الحطب حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»..

الوكلاء

سار التعليم في الخلوة بنظام العرفاء

هذا النظام الذي لم يعرف في أوروبا إلا منذ أوائل القرن التاسع عشر وكان كشفه ابتكاراً رائعاً في طريق التدريس إذا أمكن به تعلم مئات من التلاميذ في المدرسة الواحدة وبمدرس واحد. إلى جانب مزاياه الاقتصادية كان هذا النظام متبعاً في المدارس الإسلامية قبل أن يعرفه الغرب بقرون طويلة وكان نظام العرفاء موفقاً لأنه نظام اقتصادي ولأن فيه إعداد الريفي لتحمل المسؤولية وتنشئته على الإدارة والإشراف ولأنه يخفف عبء العمل على الفقيه أو الشيخ فيتفرغ لعمل تعليمي آخر وبهذا النظام أمكن أيضاً مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ إذ كان يجعل الفقيه لكل مجموعة متناسبة القوى عريفاً.

ولكل «منشط» في الخلوة وكيل.. الفرزة وكيل الحبوب وكيل الطعام وكيل المحاية وكيل الألواح.. إلخ.

وأكبر الوكلاء من ينوب عن سيدنا في غيابه.. وغالباً ما يكون حواراً راشداً وحافظاً..

الحصص:-

الخلاوي أكثرها يلتزم فترات معلومة للدراسة وجرى العرف أن يبدأ اليوم قبيل الفجر بساعة وهذه الفترة لا يطبقها إلا الحيران الكبار. وتستمر إلى شروق الشمس وتسمى الحصص.

١- الدغشية قبيل الفجر إلى شروق الشمس.

٢- الضحوية من شروق الشمس إلى زوال ظل الصباح.

٣- الضهرية من صلاة الظهر إلى العصر.

٤- العشوية من صلاة المغرب إلى العشاء.

وفي كل حصة ضرب من الدراسة.

الدغشية قراءة الألواح ومحوها.

الضحوية كتابة الألواح وتصحيحها.

الضهرية قراءة حفظ.

العصرية قراءة حفظ.

المغربية «للتسميع» ويسمع «سيدنا» حفظ حيرانه وتعرف «بالعرضة» أو

التسميع فالحوار يمسك لوحه خلف ظهره أو يمسكه بالجنب، ويقرأ من الذاكرة

فإذا لم يحفظ لا يمحو لوحه في الصباح، وحينئذ يسمونه «مَقِيمٌ»^(١) وبعد العرضة

ينصرف صغار الحيران ويبقى أهل الدراسة.. وهم كبار الحيران فيقرأ هؤلاء السبع

وهو سبع القرآن والغالب أنهم يقرأون ستة أجزاء أو خمسة وكلها تسمى «السبع»

(١) مقيم - بايت من عدم الحفظ (مقيم).

وسيدنا حريص على مراقبة حيرانه — فيجعل عليهم وكيلاً يسمى وكيلاً «السُّبع» ويتخبرون وكيلاً السبع لعدة أسباب أن يكون أميناً في خلقه، أن يكون بطيئاً في تلاوته لأن بعض الحيران يدركهم النعاس والكسل فيقطعون القراءة.. أو يسرعون إسراعاً مخلاً.. فالقياس الزمني قراءة الوكيل.

الساعة.

الحصص في الماضي يوقتونها بالظل والشمس فيصلّون على الظل وضوء الشمس والنجم ليلاً، ولما عرفوا الساعة جعلوها على الميقات العربي ميقات ساعة «مكة المكرمة» وهي ما تعرف بالساعة العربية أو التوقيت العربي، وتبدأ الساعة مع شروق الشمس «الساعة ١٢» وتغرب الساعة ١٢^(١).

وهذا التوقيت معمول به في أغلب أماكن القرآن — كأماض وضبان وكدهاس — وود الفادي.. إلخ.

السبع.

درج السلف الصالح على قراءة السبع كل يوم ثم اهتدى بهديهم قراءة القرآن وصار تقليداً في كل الخلاي.

وفي بعض الخلاوي تيسيراً للقارئ يجزئون القرآن إلى ستة أيام كل يوم خمسة أجزاء يقرؤونها بعد صلاة العشاء بقليل إلى الثلث الأخير من الليل.

وتقسيمها على النحو التالي:

١/ من سورة «البقرة» إلى سورة المائدة.

٢/ من سورة المائدة إلى سورة يونس.

(١) الشك في صدق الساعة كان في الماضي ولهم أرجوزة فيها، أما الآن فهم مصدقوها. وما زالت المسابيد الكبيرة في السودان توقت بالساعة العربية مثلاً أم ضبان — كدهاس..... إلخ..

٣/ من سورة يونس إلى سورة مريم.

٤/ من سورة مريم إلى سورة الروم.

٥/ من سورة الروم إلى سورة الأحقاف.

٦/ من سورة الأحقاف إلى سورة الناس.

والسبع يعرفه الدارسون في كل مكان، والتقسيم جد متقارب في أنحاء العالم الإسلامي وأنا هنا أورد ثلاثة نماذج أحسبها كافية لتبيان السبع وما بينها من اختلاف يسير.

السبع:

جاء في الأثر أن الصحابة كانوا يقسمون القرآن سبعة أقسام في كل يوم يقرأون سبعاً والتابعين ومن تلاهم كذلك كانوا يفعلون.. والمدارس القرآنية كلها تعرف قراءة السبع ولكن كثيراً منهم يقسمونه إلى ستة أيام في كل يوم «خمسة» أجزاء ولكنهم يسمونه السبع، والمسايد الكبرى والخلاوي تقسم القرآن لستة أيام ويأتي تقسيمهم على هذا النحو: ^(١)

١/ من أول البقرة إلى ﴿فما لكم في المنافقين﴾ من سورة النساء الآية «٨٨».

٢/ السبع الثاني من سورة النساء إلى ﴿كما أخرجك ربك﴾ الآية «٥» من سورة الأنفال.

٣/ من الأنفال إلى ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ من سورة الحجر الآية «٢».

٤/ من سورة الحجر إلى ﴿قل من يرزقكم من السموات﴾ من سورة سبأ الآية «٢٤».

(١) هذا ما عليه أغلب المسaid التي زرتها.

٥/ من سورة سبأ إلى ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ من سورة الحجرات الآية «١٤».

٦/ من الحجرات إلى سورة الناس.

السبع الكاملـ

قال الشيخ الفكي أحمد أخذنا هذه الأسباع بالسند المتواتر.

١- السبع الأول من سورة البقرة إلى ﴿فما لكم في المنافقين﴾ من سورة النساء الآية «٥».

٢- من ﴿فما لكم في المنافقين﴾ إلى ﴿كما أخرجك ربك﴾ من سورة الأنفال الآية «٥».

٣- من ﴿كما أخرجك ربك﴾ إلى آخر ﴿تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ من سورة الحجر «أول السورة».

٤- من أول سورة الحجر إلى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم﴾ من سورة المؤمنون الآية «١١٥».

٥- السبع الخامس: من ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم﴾ إلى ﴿قل من يرزقكم من السماء﴾ سورة سبأ الآية «٢٤».

٦- السبع السادس من ﴿قل من يرزقكم من السماء﴾ إلى ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ من سورة الحجرات الآية «١٤».

٧- السبع الأخير: من ﴿قالت الأعراب آمنا﴾ إلى سورة الناس وهو آخر أسباع القرآن.

قيد السبعـ

القيد أسلوب معروف عند أهل القرآن فهم يقيدون الآي المتشابهة وغيره

بأراجيز ومنظومات كما أن للتجويد قيوداً وأراجيز معروفة على نطاق كبير في العالم الإسلامي وهذا قيد تصالح عليه غالبية القراء في السودان قيدوا فيه الحروف التي تشير لأسباع القرآن.

فَمَيْسَ شَوْقَ

وهذه الأحرف السبعة يرمز كل حرف منها لسبع من أسباع القرآن وتبدأ بحرف الفاء وهو يرمز لسورة الفاتحة والميم سورة المائدة — وهكذا كل حرف يعني بداية أول سبع..

فَمَيْسَ شَوْقَ..

١ — الفاء سورة الفاتحة.

٢ — الميم سورة المائدة.

٣ — الياء سورة يونس.

٤ — السين سورة سبحة.

٥ — الشين سورة الشعراء.

٦ — الواو سورة الصافات.

٧ — القاف سورة ق.

الرَّبْقُ واللُّغْزُ:

الحيران الخلاوي مسجوعات يسمونها «الرَبْق»^(١) وألغازهم في غاية الطرافة فقد طوع الحيران الحروف المحيائية لأغراضهم الدراسية والمعيشية وعبارتها «دقه إن كضب» — و«علمه الأدب».

تدخل ضمن الربق وكذلك بعض الآيات الصعبة والمتشابهة يضعونها للتعجيز

(١) الربق — عرى ثقلت من حبل طويل تربط فيه صغار البهم استخدمه الطلاب مجازاً فالشعر عندهم يسمى «ربق» لأنه متدان ومتربط.

ومن جملهم المشهورة «فَنَدَحَشْ».

وهذا اللغز أطلقه ظريف في ماضي السنين إذ أتتهم قطعة خبز كِسْرة فلمسها الطالب وقال لصاحبه «فندحش» فعرفوا اللغز واعتذروا عن تناولها وتفسير اللغز
ف ن د ح ش إلخ.

الفاء فطيرة.

النون نية.

الدال دُرَاشَة.

الحاء حَافَة.

الشين شوية.

لغز الحروف

«ورَبَّقَ» الحيران القدامى حروف الهجاء بطريقة لا يدركها إلا من تعلمها فإذا تخاطبوا أو لغزوا عجز السامع عن فهمهم، وهذه صيغة اللغز أو الربق - حسب ترتيب الحروف الهجائية.

أ آيات الله.

ب باب المجالس.

ت توبة العباد.

ث ثائرين.

ج جاك رجل.

ح حرملك.

د دليل القوم.

ذ.....

ر ريب المنون.

ز زين المرضى.

س سايرين.

ش شامشيت.

ص صال المصالي.

ض ضيفك فكر

ط طائر طار

ظ ظهر الشجاعة

ع عين البر.

غ غاب قوسين.

ف فافهمك.

ق.....

ك كاف التشبيك.

ل لم نتج.

م ميم... الجمع.

ن نور الله.

ه هاء الضمير.

و واو العطف.

ي ياء النداء^(١).

(١) غابت عني مسميات بعض الحروف - كالذال والقاف.

ويأخذ المُلغَز «له» الحرف الأول من كل جملة يقولها زميله فإذا أراد أن يقول أنا مسرور «تأتي الحمل على النحو التالي:

آيات الله - نور الله - ميم الجمع - سايرين - ريب المنون، وقد حفظنا هذا الترتيب من شيخنا الفكي مكّي محمد حاج النور رحمه الله وهو من أهالي «الجابرية» جهة الدبة وكل من يحفظها في تلك السن الصغيرة يحسب نفسه من أهل البراعة.. وكنا نتداولها في المناسبات التي تجمعنا مع الحيران الذين يأتوننا من الخلاوي المجاورة خاصة حيران خلوة شيخ القراء الفكي الحسين ود عبد الماجد «بالدامر» وحيران الفكي الحسين هم نموذج فريد بين الحيران.. وكنا نحاول أن نتفوق عليهم بهذا «التلغيز» التعجيزي في نظرنا.. وكم تغلبوا علينا ولا أنسى ذلك الحرج الذي أدخلونا فيه في إحدى المناسبات وكان ضمن الحيران - الشاذلي محمد العيدروس رحمه الله وأحمد محمد الشيخ الأمين وغيرهم..

وكان الشاذلي يحفظ أراجيز شيخنا الفكي الحسين الخاصة بقلقلة القاف فرمانا بواحدة فوجمنا قال:

شجرة القحقح والقحقيقحان

ولا يقحقحها إلا فصيح اللسان

والخلاوي في جهات السودان المختلفة كل واحدة تبتكر أسلوباً يحبب الدرس للدارس فتصنع لهم حملاً مما هو قريب من بيئتهم مثلاً في شرق السودان وهم كما نعرف..

يتكلمون اللغة «الجبجاية» فيضع لهم المشايخ صوراً وأصواتاً قريبة من نطقهم مثال ذلك: باتو - تاتو - ثاتو - جيمو - حاتو - خاتو - واتو - راتو - زيتو - إلخ..

وفي كردفان يضع المشايخ الحمل الهجائية حسب لهجة الدارسين وفهمهم لأدوات البيئة.

كما تفعل المدارس اليوم أ - أسد - ب بقرة - ت تمساح - ث ثور وأحياناً
كما في حلقات تعليم الكبار يضعون صورة الحيوان على وجه صفحة البطاقة وعلى
الوجه الآخر يكون الحرف فإذا صعب على الدارس معرفة الحرف قلب الصفحة
التي عليها صورة الحيوان.

وهذه نماذج لأحرف أهل غرب السودان من البدو.
أ ألف، عود حربة.

ب نقطتها في نايطها - النايط عندهم الحنب.

ت نقطتان في لبها لب التاء.

ث ثلاثة في لبها للتاء.

ج نقطة في قرقورة - المكان الخالي شبه المستدير يعرف عندهم بالقرقور.

وهكذا لكل حرف مما يعرفه الصغار رمزاً من البيئة والقرقور للفاء والقاف والحيم.

وفي وسط السودان إذا أرادوا تقريب المعنى «للحوار» قالوا له:

١/ ألف - عكاز أبوك.

٢/ باء طبق أيمك.

٣/ دال درب حمار أبوك.

٤/ ذال درب حمار أبوك منقوط.

٥/ راء عصاة جدك.

٦/ زاء عصاة جدك منقوطة.

أما البحا فلهم أسلوب ومخارج خاصة لأداء الحروف لأنهم يتحدثون بلهجة
غير العربية فتأتي لغتهم بأصوات وحركات فيها رنين متساوق وهذه طريقة قراءتهم
لحروف الهجاء.

بانا بينا بونا

تانا تينا تونا

ثانا ثنا ثونا

والرائع والشجي حقاً حينما يؤديها الطلبة بصوت جماعي غاية في الحسن.

حفظ القرآن:

ليس حفظ القرآن بالأمر اليسير فلا يحفظه إلا أصحاب العزم، والغالب أن يحفظ الطالب منهم خلال ثلاثة عودات أو أربع والعاجز قد يعود خمس أو ست مرات هؤلاء يحسبون من ضعاف الملكات الحافظة أما المبرزون فيحفظونه من عودتين - فإكمال القرآن يسمى ختمة وعندما يعيد الطالب القراءة مرة أخرى يقال لها «عودة» أما المبرزون جداً فيحفظون من مرة واحدة.

الجامعة:

والحيران الذين يختمون كتاب الله العزيز يتجمعون في خلوة كبرى تسمى «الجامعة»^(١) وفي كل المسايid الكبيرة توجد مثل هذه الجامعة وقد يسمونها «القرآنية» فلا يومها إلا من ختم القرآن وفيها يتدارسون - ويتحاورون ويسمع بعضهم لبعض إلى أن يحين وقت الامتحان.

ويجري لهم الشيخ امتحاناً أسبوعياً وعندما يطمئن لحفظهم يدعو كبار الحفظة ممن يعملون معه في المسيد لسماع الطلبة المرشحين للتخريج.

أما الامتحان الكبير فيجتمع له المشايخ من الخلاوي المجاورة ويحددون يوم الامتحان الذي غالباً يكون يوم الأربعاء.. فيقف الحوار أمامهم، فيطلبون منهم أن

(١) الجامعة - أهل السودان عرفوا جامعتين جامعة الخلوة والثانية جامعة الرعي فراعي غنم القرية يسمى (راعي الجامعة).

يقرأ السور الطوال — وبعض القصار ثم يحددون له الآيات المتشابهات وهي كثيرة في القرآن ثم يمتحن في العلل والطالع والمتصل والمنفصل... إلخ.

وعندما يطمئنون لصحة حفظه يميزونه بحضور المشايخ المهرة وفي الماضي كانوا يحررون له الإجازة ولكنها تركت منذ عهد بعيد واكتفوا بالإجازة الشفهية وهذا ما عليه الخلاوي إلى يومنا هذا، وبعد إجازته من المشايخ الكبار يدعون له بالتوفيق وحسن العاقبة وهذا الدعاء بمثابة الإجازة.

العطلات-

أما العطلات فقد عرفتھا الخلاوي في السودان يومين في الأسبوع الخميس ويوم الجمعة.

ولهم في عيد رمضان عشرون يوماً — عشر قبل العيد وعشرة بعده.
في عيد الأضحى كذلك عشرون يوماً عشرة قبل العيد وعشرة بعده وفي المولد ثلاثة أيام.

ثم إجازات عرضية كالاحتفال بالختمة وما شاكلها.

فيكون جملة الإجازة في العام على النحو التالي:-

في كل أسبوع يومان — في الشهر ثمانية أيام.

في السنة ستة وتسعون يوماً.

مضاف إليها أربعون العيدين.

ثلاثة أيام في المولد.

فجملة العطلات في السنة حوالي أربعين يوماً ومائة كذلك تعطل الدراسة في الخلوة إذا وقع أمر بهم المجتمع — إذا فاض النيل وأصبح خطراً يستتفر له المجتمع فإن الطلبة دائماً في طليعة من يقفون في وجه النيل الطاعني يسدون الثغرات

«ويردمون» المسالك التي ينفذ منها الماء وقد يستمرون أسبوعاً أو أسبوعين ولا ينامون الليل إلا قليلاً وأصوات تهليلهم تشق سكون الليل.

وإذا دهم الحراد الزرع كذلك يستفيد الناس من قوة الحيران وفي موسم الزراعة النيلية أو المطرية إذا حصل عجز في الأيدي العاملة فقوة الحيران لا تبخل بجهدها ولأن المجتمع هو السند للخلوة وهو المتكفل بها فالحيران يبادلونهم الود والعطف.

العقاب:-

العقاب شيء معروف في كل مدارس الدنيا إلا أن بعض الدول في عصرنا هذا رفعت خاصة العقاب البدني.

ولمشايخ الخلاوي طريقة في استعمال الضرب أو الجلد ولهم أراجيز تقليدية محفوظة مثال:

الضرب ينفعهم.

والعلم يرفعهم.

لولا مخالفتهم لم يحفظوا الكتب.

أو القول المتداول بين المشايخ

«أذان الصبيان على ظهورهم» وأيضاً قول الراجز، ووقت ضربهم على الألواح

هو أوان الضرب للفلاح.

والضرب أنواع أشهرها في بلادنا.. الفلقة وأهل اليمن يقولون «الفلكه» وكل

البلدان تعرف الفلقة بنفس الاسم. فقلب القاف كافاً وبالعكس.

والفلقة هي الضرب على الرجلين يرفع الحوار رجله واحدة بعد الأخرى

فيضربه سيدنا حسب مخالفته أو جرمه.

ومن أنماط العقاب وضع نواة التمر بين أصابع يد الحوار ويضغطها سيدنا «وما أمرها في زمن الشتاء» وأشد وأقسى العقوبات «أم سعد الله» وصفتها عود طويل يبلغ متراً ونصف المتر أو مترين ويربط عليه حبل متين.

وتربط رجلا الحوار المراد عقابه بالحبل المربوط في العود ويلف العود على الحبل فيشد الرجلين، ويمسك عود أم سعد الله طالبان شديداً أو أربعة ويرفعون العود فتكون الأرجل في وضع بارز فيضرب سيدنا الحوار - ضرباً شديداً ثم يحلون وثاقه فيجبو على ركبته ويديه إلى أن يصل محله.

لأن الأرجل تكون في حالة «خدر» وألم شديد، هذه «أم سعد الله» ونوع آخر من العقاب لا هو بالضرب ولا هو بالزجر.

يأمر سيدنا الحوار أن يقف على رجل واحدة ويقرأ لوحه حتى يحفظه على هذه الحالة وبعض الحيران الأذكياء ينتهزون غفلة سيدنا فيغيرون الرجل بالأخرى فإذا كشف سيدنا هذه المخالفة كان عقابه مضاعفاً وربما أدى العقاب لمسك اللوح وهي عقوبة أدبية كبيرة، فيصادر اللوح منه عدة أيام. أما أقسى وأشد العقاب فهو مصادرة اللوح «كلية» هذه تطبق عادة في المسائل «اللاأخلاقية» فإذا ارتكب الطالب أو الحوار مخالفة مثل هذه «مسكوا» منه اللوح فلا يملك إلا أن يخرج متخفياً ويظل هائماً على وجهه لأن أي خلوة يتقدم للالتحاق بها تسأله عن لوحه وليس الأمر سهلاً كما تتصور فيندر أن يفلت من هذا العقاب أي حوار مهما بلغ من الذكاء.. إلا إذا خرج من الإقليم كلية وربما طار خبير «مسك لوح» لتلك الأماكن البعيدة إلخ.. أما التوبيخ والزجر فلا حد له ولبعض المشايخ قاموس عريض يردعون به الحيران ومن أقوالهم.

يا ود البُقسْ

يا مطموس يا إبليس

يا حمار يا شيطان.

يا ظربون يا عفريت^(١)

يا ملعون يا جان

يا كلب يا ود الكلب

يا بليد يا حمار يا ود الحمار

وإذا كان سيدنا غضوباً - تجاوز توبيخه وشمل اللعن أبو الحوار وأمه والعقاب الأشد على الحيران الذين «يتشردون» من الخلوة وكذلك يقع على الطلبة المراوغين والكذابين والبليد لا يسلم من التقرع والضرب كل يوم.

القيد

هو من وسائل العقاب في كل الخلاوي وهي على ثلاثة مراحل أولاً: القيد الفردي فإذا ارتكب الحوار مخالفة توجب القيد وقع عليه وأغلب المقيد بسبب الهروب من الدراسة فيأتي ولي أمر الحوار ويطلب من سيدنا تقيده فيقيده من رجليه يحنّزير حديد خاص بالخلوة.

وفي معظم المسائد الكبيرة «حدّاد» يعمل لأهل المنطقة ويضرب القيود للخلوة «بالمجان» تقريباً لله ولشيخ القرآن.

والقيد الثقيل القوي لا يستطيع الحوار كسره ولا الهرب به.

ثانياً: القيد على «الشعبة» والشعبة عمود خشبي يكون في خلوة «لجس الجانحين» وأساساً يستعمل العمود وقاية للسقف ويعرف هذا العمود «بالأمانة» لأنه يؤمن «المِرق»^(٢) وعرش الغرفة من السقوط. فيأتون بالطالب ويجلسونه على

(١) ظربون - أحسبها تركية.

(٢) المرق العمود الذي يحمل سقف البيت.

الأرض عند الشعبة ويفردون رجله حول الشعبة ويضرب له القيد وقيد الشعبة أو قيد العود صعب جداً.

ولا يلبث فيه الحوار إلا يوم أو يومين والقصد منه إرهاب الطالب.

القيد الزوجي: يربط الحوار مع آخر يكون مخالفاً له في كل شيء فتزداد مشاكليهما ومشاكستهما.

وإذا أراد أن يشرب يجر زميله وإذا أراد الدخول في «الخلاء» صحبة زميله وأغلبهم يتصالحون مع بعضهم لأن ظروفهم تقتضي أن يتفقا فينومان سوياً ويأكلان سوياً ويشربان. ومدة القيد الزوجي قد تستمر أسبوعاً أو نحوه.

وأغلب أهل القيد ممن تعودوا الهرب يردعونهم بهذه الوسيلة القاسية والذي يلفت النظر أن أهل القيد كلهم أذكاء فيندر أن يقع الحوار البليد في أسر القيد.

الزي

لخلاوي القرآن زي تقليدي في ماضي الأيام وهو زي يتوافق مع نهجهم في الحياة «التقشف» والتقشف عندهم مخبر ومظهر ومأكل وملبس فهو سمة بارزة فيهم فكانوا يلبسون الثوب العادي وهو شقة من الدمور ويلبسون تحتها قميصاً وسروالاً كلها من الدمور وهو غزل بلدي تعرفه كل الجهات السودانية وحتى الفتح الأخير ١٨٩٨م وبعده كان هذا لباس المشايخ والطلبة. ولثوبهم لبسة خاصة يدرعونه فوق الركبة ويتمنطقون به في شكل الحزام وللصغار من الحيران شقة خاصة من الدمور تسمى «الفتقة» يلبسها الصبي مثل الثوب - وتعقد طرفها خلف عنقه ويلبس الفتقة من غير سروال ولا قميص.

أما النعل فلا يتجاوز الشبط المعروف «بالشقيانة» والثوب والنعل خامتهما من البيئة ولما عرف الناس القماش الخشن «الدمورية» صاروا يلبسونه بدل الدمور

والخلاوي التي تنهج نهج السلف ما زال شعار مشايخها وطلابها الكبار هذا الزي. وهو ملاحظ عند المشايخ المعلمين وإن هجره الحيران في هذا الزمان.

المصحف

وإذا كان المتخرج ممن يجيدون الخط يكلفه سيدنا بكتابة مصحف هدية للخلوة والذي لا يجيد الخط «يدلي» القرآن مائة مرة ويهدي ثوابها لمؤسسي الخلوة وكلا الأمرين ليس شرطاً ولكن أغلب الخلاوي تأخذ به.

ويبدأ الطالب المعني كتابة المصحف بعد الكرامة الكبرى «حفل التخرج» وتكون غالباً في دار الحوار المتخرج. فإذا كان من أبناء المكان أو القرى المجاورة خرجوا للاحتفاء به في موكب يتقدمه الشيخ راكباً وحوله الحيران الكبار وخلفه الصغار. وإذا كان أهل المحتفى به بعيدين عن الخلوة يصحبه جماعة من زملائه فيمضون معه أياماً ثم يعودون. وأغلب الحفظة حتى مطلع الخمسينات يفتحون خلوة على نسق الخلوة التي تخرجوا بها ثم يقلدون الشيخ الذي تخرجوا على يديه في أسلوبهم ونظامهم ومن هنا نشأ التشابه الذي نراه في كل الخلاوي.

المصحف الفحل

أما المصاحف التي كان أهل السودان حريصين على اقتنائها فهي المصاحف المخطوطة وكلها على رواية الدورى عن أبى عمرو بن العلاء وهي قراءة أهل السودان باستثناء نواحي دارفور والجزء الشمالي من بلاد دنقلا والمحس فهؤلاء يقرأون على رواية ورش.

وفي كل مسيد كبير مصحف «عمدة» يسمى بلغة الخلاوي المصحف «الفحل» وهو الذي يعتمدون عليه في ضبط المصحف الجديد وكل المصاحف. والتطور الهائل في مجال الطباعة جعل الحصول على المصاحف المطبوعة

ميسوراً فأخذت المدارس النظامية وغيرها تقرأ برواية حفص ولكن الخلاوي ما زالت قراءتها على نهج الدوري.

والمصحف الذي طبع على رواية الدوري منذ سنوات هو أول مصحف يطبع على رواية الدوري في العالم الإسلامي^(١) وقد لاقت اللجنة المنوط بها طبع هذه الرواية اعتراضاً وتلكؤاً من علماء مصر ولم يحيزوه إلا بعد مشقة عظيمة ورغم هذا لم يخرجوا رواية الدوري كما ينبغي وكما يعرفها أهل السودان، وكان لغياب الأستاذ الشيخ يوسف إبراهيم النور أثر كبير إذ كان على رأس المعارضين، وهو ذو باع طويل في التجويد وعلم القراءات، والقراءة التي نقرؤها من القراءات الصحيحة عند أئمة المسلمين ولا يظن أحد أن السودان وحدهم الذين يقرأون برواية الدوري فهي رواية يقرأ بها خلق كثير من سكان أفريقيا وسطاً وشرقاً وغيرهم..

١/ السودان.

٢/ شاد [الجزء الشرقي]

٣/ أرتريا

٤/ أثيوبيا

٥/ كينيا

٦/ يوغندا

٧/ تنزانيا

٨/ الصومال - رواندا بورندي.. إلخ.

وغير ذلك من بلدان الساحل الأفريقي الشرقي. وعلمت من مولانا القاضي

(١) بأمر الرئيس السابق جعفر محمد نميري وكان على رأس الشئون الدينية الجهة الطابعة صديقنا صاحب العزمات بروفسير عون الشريف قاسم.

يحكى الكبسي شيخ القراءات في اليمن أن أهله كانوا يقرأون بها ثم صاروا يقرأون برواية نافع.

إن في الحفاظ على هذه الرواية حفاظاً على أثر كريم قرأ به الصحابة الأجلاء ولسنا أحرص منهم في المحافظة على القرآن.

وهناك مسعى لتوحيد القراءات على رواية واحدة ظناً منهم أن رواية الدوري تقرأ بها مجموعات صغيرة أو كادت أن تدرس هذه الرواية وهذا - الرأي تسنده بعض الجهات «الإسلامية» وأخشى أن يكون قد غاب عنهم أن - عشرات الملايين ظلت حفيظة أمينة على هذه الرواية. وليست هنالك مدعاة لتبديلها أو تغييرها فالقرآن نزل على سبعة «أحرف» وأول دولة إسلامية طبعت رواية الدوري هي جمهورية السودان «مرتين».

المعلم الواحد

بدأت المدرسة القرآنية الخلوة أول عهدها بمعلم واحد ثم سار الخلف على هدي السلف في كل العهود حتى استقر الأمر على المعلم الواحد.

ويبدو أن القرى التي نشأت فيها هذه الخلاوي كانت صغير حيث لم يعرف المواطنون في تلك الحقب الماضية المدن الكبيرة التي تجيش بالسكان ثم نمت تلك القرى واتسعت بفضل «الخلوة» حيث قصدها الناس من الجهات فصارت مدناً كبيرة ورغم هذه الكثرة فلم يزل المعلم. هو المعلم الواحد «أساساً».

وكان المجتمع عصرئذ يشق في المعلم ثقة كبيرة فهو المعلم والمشير والمستشار في كل أمر ديني. أو دنيوي وبتطاول العهود صار شيخ الخلوة الرجل الأول - في القرية لما يؤديه من واجبات شتى وأعمال نافعة.

وفيما يلي بعض المهام التي يقوم بأدائها شيخ الخلوة.

١/ معلم.

٢/ إمام جمعة وجماعة.

٣/ صلاة العيدين.

٤/ صلاة القيام والتهجد.

٥/ صلاة الجنازة.

٦/ صلاة الخسوف والكسوف.

٧/ صلاة الاستسقاء.

٨/ عقد النكاح.

٩/ تحنيك الأطفال.

١٠/ علاج المرضى.

١١/ ويقوم بدور المصلح الاجتماعي ووسيط لما يقع بين المرء وزوجه وبين الناس جميعاً.

١٢/ كما أنه فارس مصادم يدخل المعارك في ماضي السنين قبل غيره.

كما يتخلونونه مستشاراً في المسائل الزراعية والرعية وينبغي للشيخ أن يلم بمعرفة المواسم الزراعية دخولها وخروجها كما يعرف «الأنواء» وتقلبها والأمور والمسائل التي لا يعرفها. يوجههم لمن هو أدري بما فيقصدونه لمشورته وأداء هذه المهام جميعاً جعلت معلم القرآن بطلاً في رهطه وجماعته.

وقائداً وموجهاً واحتراماً لمكانته صار الناس يسمون أبناءهم على اسم الشيخ من باب البركة والتميم.

الأسماء

درج المجتمع في بلادنا أن تجري الأسماء فيه على نهج «السنة» فعند الجميع خير الأسماء ما عبد وحمد.

وكل مولود في وسط السودان «الذكر» اسمه. محمد ثم يكون عبد الله أو
- عبد الواحد - أو عبد اللطيف أو عبد القادر - واسم محمد يضيفون له صفة من
صفات الرسول الكريم مثل البشير - الهادي - الأمين إلخ..

فيصير اسم - محمد البشير.

محمد الهادي.

محمد المهدي.

محمد الأمين.

محمد الصادق.

أما البنت في وسط البلاد «مطلقاً» اسمها. «فاطمة» ويقولون عند ذبح شاة
السماية «العقيقة» عبارات تقليدية بسم الله والله أكبر ثلاثاً اسم المولودة فاطمة
والاسم السائر رقية - زينب - علوية إلخ...

ثم ينادى عليها باسم التميز أو الكنية أم أحمد أم طعينة أم زين إلخ...

وقد يكون الاسم الأصلي معاً وقد ينادى أيضاً على الولد بالاسم الذي يميزه
وأغلب القرى التي نشأت فيها «خلأوي» القرآن يسمي أهلها أولادهم على اسم
الشيخ معلم القرآن وهذا أمر واضح في كل الأماكن التي درست وتدرس القرآن
فأغلب أهل القرى أسماؤهم على أسماء مشائخهم وفي الماضي غير البعيد يسمون
الولد الأول على اسم الشيخ ويعنى أن اسم الشيخ في كل بيت وعند كل أسرة.

اسم حمد

شاء الله أن كثيراً من معلمي القرآن ممن اسمه «حمد» وأصل الاسم «حَمْد»
بفتح الحاء وسكون الميم والبدال ولكن العامة يصيرونها «استعمالاً» حَمْد بفتح
الحاء والميم.

وكثير من مشائخ القرآن الأبرار الذين قاموا بتدريس القرآن في البدء كانوا
ممن اسمهم «حمد» فكان السبب في انتشار اسم حمد.

ومن ذلك برزت طائفة من المشايخ «الحمديين» وصار لهم شأن حتى اقتدى
بهم الناس.

وتلك طائفة ممن سمي حمداً.

- | | | |
|----|--------------------------------------|--|
| ١ | حمداب دنانة | المحمية مديرية النيل |
| ٢ | حمد أبو شميعة المحسني | المحمية مديرية النيل |
| ٣ | حمد بن عبد الله | مؤسس الدامر مديرية النيل |
| ٤ | حمد بن عبد الله الأغيش | «بربر» مديرية النيل |
| ٥ | حمد بن محمد المشيخي | المعروف بكنية «أم مريوم»
مديرية الخرطوم |
| ٦ | حمد بن حسن وكنيته | «أبو حليلة» مديرية الخرطوم |
| ٧ | حمد بن زروق الحضري | «الصباي» مديرية الخرطوم |
| ٨ | حمد بن حمدان الجعلي | الحلفايا |
| ٩ | حمد بن الفكي عبد الماجد الأغيش | «بربر» مديرية النيل |
| ١٠ | حمد بن محمد الملقب بابن التراي | «مديرية الجزيرة» |
| ١١ | حمد بن الشيخ إدريس الأرياب | شرق الجزيرة |
| ١٢ | حمد العوضاي وشهرته «التجيص» | اسلانج مديرية الخرطوم |
| ١٣ | حمد بن دفع الله المشهور
«بالأصدا» | مديرية الجزيرة |

ونباهة ذكر هؤلاء المشائخ هو سبب انتشار اسم حمد كما ذكرت وجميع

الأسر التي أرادت تعليم القرآن كانت وما زالت تمسك بأسماء المشائخ
«التقليدية» وهذه نماذج من تلك الأسماء في دنقلا نجد من الأسماء.

دنقلا

غلام الله.

جميل الله.

خير الله.

سوار الذهب.

قيلي.

زياده.

ساتي.

عروضة.

الدامر

حمد.

المجذوب.

الشيخ.

الفكي.

النقر.

عيسى.

عبد الله، واشتهر به الشيخ عبد الله «النقر» وكل من يسمى عبد الله فهو
«النقر» وكل نقر هو عبد الله.

جلال الدين.

قمر الدين.

الطيب.

الطاهر.

أم ضبان

١ / العبيد.

٢ / بدر.

٢ / أحمد.

٤ / حسب الرسول.

٥ / الطاهر.

٦ / الطيب.

٧ / عمر.

بربر

الجعلي.

عبد الله.

الأغيش.

عبد الماجد.

ابشر «أبا البشر».

حاج حمد.

سنار

يعقوب.

موسى.

بانقا.

التوم.

فرح.

هجو.

المحمية

نعيم.

الفادني.

سلمان.

سرور.

حمدوبة.

طابت الجزيرة

أحمد الطيب.

نور الدائم.

عبد المحمود.

محمد شريف.

الجيلي.

العيلفون

الشيخ ادريس.

مضوي.

حمد.

الحبر.

بركات.

عركي.

أبو حراز مدني.

عبد الله.

الطريفي.

أبو عاقلة.

حمد النيل.

دفع الله.

الريح.

وهكذا في كل إقليم نجد التمسك بهذه الأسماء وهذا يؤكد حب الناس للخير والفلاح ويؤكد تقدير الناس لمعلم القرآن فالكل يأمل أن يصير ابنه مثل هذا الشيخ.

والذين يقيمون في القرية التي بها الشيخ حينما «يسموا» الابن يأتوا بالمولود للشيخ «فيحنكه» ويدعو له بالخير والفلاح.

ولما اتسعت الخلاوي وصار يومها الطلبة من الأماكن البعيدة ظل نظام الخلوة كما هو معتمداً على المعلم الواحد رغم أن الخلوة قد يكون بها أكثر من معلم.

وكل معلم له نفوذه وسيطرته على جانب من الطلبة والحيران ويعاونه الوكلاء ونظام المعلم الواحد أقره المجتمع وارتضاه وسار عليه مقتنعاً بجدواه.

وظني أن التمسك بنظام المعلم الواحد يعود لسببين الأول - أن المجتمع حربه واقتنع به وبالقطع أن المعلم هو المسؤول عن كل أمر يتصل بطلبته، ونجاحهم وإخفاقهم يعود عليه.

الثاني - أن التعليم في «الخلوة» وقف على تدريس القرآن وحسب، فالخلوة إذاً ليست بحاجة لمعلم الحساب أو الجغرافية إلخ ولهذا السبب وغيره اكتفى المجتمع بالمعلم الواحد وهذا الأسلوب المعلم «الفرد» منتشر في كل الأقاليم الإسلامية بالأخص في القارة الأفريقية.

السلطان المعلم

الاهتمام بالقرآن الكريم وعلوم الشريعة وكل علوم الآلة قديم جداً في بلادنا وكان المعلم على قائمة المجاهدين والفرسان، يتضح لنا ذلك إذا تصفحنا سيرة الرجال الذين أقاموا السلطنة الزرقاء وسلطنة دارفور ومن هؤلاء نذكر..

١/ عمارة دونقس.

كان يعمل قبل تقليده السلطنة معلماً للقرآن الكريم وقد وصفته وثيقة آل الشيخ عيساوي فقالت: «رجل مكتمل الخلق والخلق، قوي البنية زكي الفؤاد شجاع مقدم»^(١) وكان قبل أن يصبح السلطان الأول للدولة السنارية يقوم بتدريس القرآن وعلوم الفقه المتيسرة في ذلك الزمان. وكانت نخلوته عند مصب «خور العلكو» في النيل الأزرق جهة سنار.

٢/ عبد الله جماع.

(١) وثيقة آل عيساوي.. راجع كتاب «حلال المشبوك» للمؤلف.. الناشر الطابع العربي ١٤٠٠/١٩٧٩.

علمت من الرواة، وخاصة الراوية الفقيه الشيخ عثمان اونسة رحمه الله، أن جدهم عبد الله جماع بدأ حياته معلماً وكانت خلوته في نواحي سواكن.

٣/ السلطان الشيخ عجيب بن عبد الله المشهور بعجيب المانجلك.

زعموا أنه مارس التدريس، ولما تولى السلطنة بعد أبيه عبد الله جماع كانت أبرز أعماله. أنصاف المعلم ورفعة شأنه، وهو أول من رتب لهم الرواتب وأقطعهم الأرض، وقد أشرت لهذه الواقعة من قبل. ويبدو أن أسلافنا جعلوا الجهاد أولاً بالعلم ثم بالسلطة.

٤/ السلطان عبد الرحمن الرشيد ١٢٠١/١٢١٥ هـ - ١٧٨٧/١٨٠١ م

كان طالباً يدرس العلم ببلدة كَرِيُو التي تقع شرق مدينة الفاشر والتي كانت أشبه بكلية للقرآن الكريم بدارفور. سمع بمرض أخيه السلطان تيراب، فذهب ليعوده. ومات السلطان تيراب، وتقدم أبناء السلاطين ورشح كل منهم نفسه ليكون سلطاناً، إلا عبد الرحمن الذي صمت ولم يقل شيئاً، وعقد الأعيان ورؤساء الجيش مجلساً يحضره العلماء، وحلفوا أبناء السلاطين بأن يقبلوا بالشخص الذي يختاره المجلس، فقبلوا ذلك. واختار المجلس عبد الرحمن باتفاق الآراء، وهكذا انتقل من حلقة القرآن إلى كرسي السلطنة وعندما استتب له ملك دارفور نقل مقر السلطنة من جبل مرة إلى مكان جديد وأسماه الفاشر وهو المدينة الحالية.

وقد نال السلطان عبد الرحمن الرشيد شهرة عظيمة فقد كان عالماً وعادلاً وصالحاً ومحبباً من الرعية ومحباً للعلم والعلماء، وفي أيامه انتشر العلم في دارفور وقويت شوكة الديانة الإسلامية^(١).

(١) جغرافية وتاريخ السودان - نعم شقير - دار الثقافة بيروت ١٩٦٧.

الباب الثاني

القرآن في دنقلا

ما كتب حتى الآن بالإضافة للروايات الشفهية يكاد يجمع على أن بداية دراسة القرآن المنتظمة كانت في أرض دنقلا العجوز^(١) على يد الشيخ غلام الله بن عايد الذي قدم إليها من اليمن أو من بلدة «زيلع» الواقعة على الشط الغربي للبحر الأحمر وقيل أن رجلاً شريفاً اسمه «عايد»^(٢) خرج من الحجاز مجاهداً ومحتسباً ومعه ابنه أحمد لبلاد اليمن ثم عبرا بحر القلزم^(٣) لبلدة زيلع ومنها سافرا لسواكن ومكثا فيها فترة ما. وقيل أن والده توفي في جزيرة سواكن وقبره ظاهر فيها ثم انحدر أحمد من سواكن لعاصمة البلاد «دنقلا العجوز» كان ذلك في أخريات مملكة المقررة النوبية النصرانية في حوالي ٧٨٠هـ والروايات الشفهية المتواترة تفيد أن الحاج عيسى بن قنديل جد السادة «المجاذيب» أسس الخلوة وبدأ تدريس القرآن الكريم على عهد علوي «النوبة العليا» في نفس الفترة وفي رواية أخرى أن العبابسة بمنطقة الزباطاب بدأوا التدريس على أيام النوبة في الفترة المشار إليها أو بعدها بقليل وكذلك الحال في كردفان ودارفور، وتفيد إحدى الروايات أن الشيخ حمد أبو شميلة المحسني كان سابقاً لهؤلاء إذ أنشأ في حوالي سنة ٨٠٠ خلوته بقرية سقادي «قوز النقارة» في منطقة المحمية المشهورة.

وقد نوه به العالم المجاهد الشريف حمد اب دنانة في مخطوطه ومما يؤسف

(١) دنقلا: منطقة في شمال السودان اشتهرت بتدريس القرآن.

(٢) عايد ربما نقلت على اللسان العامي في دنقلا فصارت عايد بعض العرب يقولون - عايض - عايظ.

(٣) البحر الأحمر.

له أن الشيخ حمد لم يجد الاهتمام اللائق بمكانته عند المؤرخين والكتاب المحليين.

ومما لا ريب فيه أن بداية دراسة القرآن المنظمة والمؤسسة بدأت في وقت متقارب مع مطلع القرن الثامن الهجري وتكاد الأخبار تجمع على أن البداية المنظمة كانت على أخريات أيام حكم النوبة النصارى ولكن هنالك بلا ريب بدايات قديمة جداً ربما ترجع للقرن الهجري الأول وما تلاه من قرون.. ولكن المؤرخين والكتاب لم ينتبهوا لتلك الفترة البعيدة وأحسبهم لم يجدوا دليلاً موثقاً لبداية واضحة المعالم يطمثون إليها.

والناس في ذلك العهد الباكر كانوا على دين الإسلام وكانوا يؤدون الشعائر وكانوا بلا شك يقرأون القرآن ورويداً قويت شوكة الإسلام والمسلمين وبلغت القوة أوجها عندما تحول الحاكم النوبي «عبد الله برشمبو» من المسيحية إلى الإسلام فتبعته الخاصة والعامة وينبغي أن أنه أن دخول الإسلام في دنقلا كان في مطلع القرن الأول الهجري سنة ٣١هـ ودخول النوبة «حكام البلاد» في الإسلام في مطلع القرن التاسع الهجري ٧١٧هـ ودليلنا على ذلك الشاهد التاريخي المثبت في قصر النوبة المنيف بعاصمتهم «دنقلا العجوز» وكان قصراً مخصصاً لتنصيب الحاكم وبه غرف كثيرة كل غرفة مخصصة لأمر من أمور الحاكم وبعد دخول الحاكم «الإسلام» حوّل غرفة في الطابق الأعلى متوسطة الحجم ١٢×٦ متراً إلى مسجد ملحق بالقصر وعند محرابه وضع حجر رخامي مكتوب عليه فتح هذا الباب المبارك للذكر على يد سيف الدين عبد الله الناصر بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٧١٧هـ.

إذاً ستكون بداية الدراسة النظامية هذه مبنية على هذا الشاهد التاريخي من ٧١٧هـ إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري ١٤٠٠هـ.

وهي حوالي سبعة قرون ازدهرت فيها دراسة القرآن وبلغت أوجها في مطلع

القرن العاشر على عهد الدولة الإسلامية المعروفة بالسلطنة الزرقاء^(١) والتي دام سلطانها حوالي ٣١٦ سنة واهتم حكامها بدراسة القرآن وكافة علوم «الآلة» ولا سيما سلطان العبدلاب الذائع الصيت الشيخ «عجيب المانجلك» والمثبت حتى الآن أنه أول من رتب الرواتب للمشايخ وأقطعهم الأراضي وجعل لهم مكانة اجتماعية محترمة كما أسلفت.

الجهاد:

لا ريب أن العالم الإسلامي في ماضي السنين كان جل علمائه أهل جهاد ونضال فحيثما تسامع رهط منهم بيزوغ فجر دولة إسلامية جديدة اتجهوا نحوها مخلصين. فلما علموا بالدولة النوبية في دنقلا أن حكامها قبلوا الإسلام تنادوا واتجهوا نحوها مجاهدين مرابطين وقد استقر أكثرهم وصار جزءاً من أهل البلاد وأذكر بعض أسماء هؤلاء المجاهدين الذين أرسوا دعائم هذا البلد رحمهم الله وأحزل ثوابهم.

١/ غلام الله بن عايد:

٢/ عيسى ودكتو الحضرمي، والذي ينسب إليه إدخال رواية ورش التي يقرأ بها أهل شمال دنقلا وبلاد المحس إلى أرض الحجر، وله ذرية في الجابرية ومشو وزعموا أن الشيخ عيسى الحضرمي قدم من بلاد اليمن وذهب إلى كنو ثم عاد ودخل دنقلا. والمشاركة لهم رحلة في ذلك الزمان تعرف برحلة الأسرار يزورون فيها المغرب - فاس - القيروان - تمبكتو - مراکش وغيرها.

٣/ الشيخ حاج بلول في منطقة الغابة «عرب نارتي» وقد أثر الشيخ حاج بلول تأثيراً عظيماً في تلك الجهات وما زال أبنائه على نفس المنهج ولهم شهرة عظيمة في خط المصاحف.

(١) السلطنة الزرقاء - ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م وهي ثاني مملكة إسلامية بعد دولة الكنوز الإسلامية.

ويعتبر مصحف الشيخ حاج بلول أقدم مصحف وقفت عليه وربما تكون هنالك مصاحف أقدم منه ولكني أشرت إلى إنني لم أعثر عليها وعسى بعد خروج هذا الكتاب أن يمدني مشكورين من يدهم هذه المصاحف النادرة هذا وجاء في خاتمة مصحف الحاج بلول ما يأتي:-

تم الفراغ منه يوم الأحد عاشر شوال سنة سبعين وثمانمائة وكان الابتداء فيه يوم «الأربعاء» مستهل رمضان من السنة المذكورة وفرغ من تبييضه يوم الأربعاء سادس صفر سنة إحدى وسبعين وثمانمائة.

كاتبه ومالكه الفقير إليه. «حاج بلول» بن الفقيه أحمد غفر له ولوالديه جميع المساوي أمين.



هذا التاريخ مثبت على جامع حاج بلول «بمسيد» عرب نارتى - دنقلا

وخليفته اليوم الشيخ محمد سعيد بن حاج بلول

ونسبهم يرجع لبني هلال وقدم جدهم من الحجاز..

٤/ الشيخ مصطفى الحجازي أتى مهاجراً وأقام في منطقة الغابة وقد أطلق عليه

الدناقلة بعض الأسماء المحلية - حجازي تود - وتعني ابن الحجاز..

٥/ نقد الله سولي.

٦/ الشيخ التلمساني المغربي.

٧/ تاج الدين البهاري حجازي عراقي وسط السودان.

٨/ الشيخ عبد الكافي المغربي - وسط السودان.

٩/ الشيخ محمد بن قرم - مصري.

١٠/ حمد ود زروق المغربي - بالصباي - الحلفايا.

١١/ الشيخ محمد بن بحر الفاسي المغربي - وسط السودان.

١٢/ غانم الأحمد الذي قدم من «كَرَنْ» إلى النيل الأبيض اريتيريا.

١٣/ الشيخ الشريف حمداب دنانة - الحجازي - دار الأبواب.

١٤/ الشيخ الحافظ الناسخ محمد أبو نمي وهو من أشرف مكة اشتهر

بحذاقة الخط وكتب عدة مصاحف على رواية الدوري أشهرها المصحف

المعروف باسمه «بونمي» كتبه للسروراب الكتياب حوالي أربعة قرون كما كتب

لأحفاد الشريف حمداب دنانة مصحفاً آخر موجود عندهم بناحية أبو دليق.

١٥/ سيدي المغيرة والشيخ السيد عكاشة قدما سوياً من الحجاز وأقاما في

منطقة صوارده ببلاد المحس وعكاشه صاحب الحمام المعروف بحمام عكاشه أما

السيد المغيرة فقبوره في قرية «عمارة».

١٦/ الشيخ إدريس بن محمود شهرته الشيخ بندق قدم من الحجاز بأرض صوارده.

١٧/ الشيخ عامرت - أو محمد عامر قدم من مكة المكرمة - صوارده.

هذه نماذج فقط أردت التنويه بأن الرجال الذين قدموا مبشرين ومجاهدين في سبيل نشر الدعوة الإسلامية عن طريق تعليم القرآن هم الذين ضيقوا الخناق على الدولتين المسيحيتين المقره في دنقلا وعلوة في وسط السودان وزحف نيران القرآن هو الذي أضعف الدولتين لأن خلاوي القرآن ومن خلفها الفقهاء المجاهدين زحفوا زحفاً منظماً ومن كل الجبهات حتى أطبقوا على سوبا والمقره ولم تلبثا أن سقطتا.

وانتشار خلاوي القرآن بهذه السرعة أمر مدروس ومنظم والروايات المتواترة أن المشايخ الكبار كانوا يشترطون على الحفظة والخريجين الحدد ألا تتلاقى نيران خلاويهم وأن لا ينزل أحدهم مكاناً فيه خطوة وبهذه الوسيلة انتشرت خلاوي القرآن حتى غمت جميع بقاع السودان المأهولة.

وبعد أن سقطت المقره وعلوة صار الأمر في يد العرب المسلمين وشهدت البلاد وبعدها الخلوة والخلوتين والثالثة في القرية الواحدة... إلخ.

رباط وركاب:

قال ود ضيف الله «أما رباط فكان رجلاً مجنوباً زوجه الصوارده «أمة» غروه بها فولدت له سليمان ثم اعترفوا له بالغرور وقالوا له هي أمة فشكاهم إلى القاضي فحكم له بحرية ولده وألزمه قيمة أمه وهذه الواقعة في زمن الفونج ثم أن سليمان خطب ابنة عمه «ركاب» واسمها «جنيّة» فأبته لأجل العبودية وأن قنديلاً العونى عنده ابنة مرضانة عزم لها سليمان فعوفيت فزوجه أبوها إياها فولدت عوناً وولد عون جابر أبو المشايخ الأربعة».

وأيضاً ملك «الكنيسة» عنده بنت مرضانه فشفيت على يده فزوجوه إياها فولدت له «ذهلولاً» ثم أن جنيّة بنت ركاب ندمت على امتناعها مع أنه رجل

صالح والناس رغبوا فيه فتزوجها فولدت له أربع عيال رزين — عبد الرازق — دهمش — صبح فولد «رزين» ناس حبيب نسي، وولد عبد الرازق ناس حسن ولد بليل وولد دهمش الرويداب ناس أبيض ديري وولد صبح ركاية العفاض.

مثل هذه الرواية وردت كثيرا فجد المجاذيب الأعلى كان يعالج أبناء ملوك النوبة النصرى أيام مجدهم كما زعموا أن له عهدا مع ملوكهم وكذلك جد العمراب والإشارة للملك الكنيسة تدل على أن القس كانوا يودون واجبههم الكنسي بعد أن بسط الإسلام تسامحه مع الأديان السماوية الأخرى.. كذلك الشيخ حامد أبو عصا كان يعالج أبناء ملوك النوبة وكثير من الأهالي كانوا إذا مرضت لهم بنت مرضا نفسيا وشفيت على يد فقيه عرضوا عليه زواجها وعت زيجات كثيرة بهذه الطريقة.

ركاب:

ركاب بن غلام الله خمسة أبناء — عبد الله — عبد النبي — وهما شقيقان — وزيد الفريد ثم حبيب وعجيب هؤلاء أشقاء أما عبد الله فولد حاج وحجاج فحاج ولد الدواليب وحجاج ولد ناس ولد أكحل أما عبد النبي فولد الصادقاب وزيد الفريد ولد العكا زاب والتمراب والشبواب وعجيب ولد السدراب ولد أبو حليلة — أما حبيب فأولاده بحلة الصباي بالبحر الأزرق شرق، قبالة جزيرة توتى.

ثم تفرق الركابية في أغلب أنحاء السودان بدءاً بمناطق البديرية والشايقية إذ يرجع لهم الفضل في تأسيس مدرسة القرآن في مملكة «الدفار» وبلاد الشايقية كما سيأتي.. وانتشروا في وادي النيل وخرجت فرقة لكردفان ودارفور والنيل الأزرق والحلفاية ورفاعة والهلالية والقلعة رانج^(١) وتبدى نفر منهم فصاروا أهل رعى وترحال ويعرفون في شرق النيل الأزرق والدندر والرهد وسائر منطقة البطانة

(١) القلعة منطقة بالقرب من جبال الغار.

باسم «الركابيين» ومن أعلامهم في تلك الجهات الشيخ محمد بن عبد الصادق الذي عاش معلماً ومرشداً في تلك الجهات وتوفي ودفن في «المُنْدَرَة» وبسطوا سلطانهم على أرض البطانة الخصبية سنين عديدة ثم آلت سيادة البطانة لقبيلة الشكرية بعد حرب ضروس امتدت سنين بين الركابيين والقونج من جهة والشكرية ومن والاهم من الجهة الأخرى.

والمشهور أن الشيخ غلام الله أنجب ولدين أسماهما - رباط وركاب وإطلاق اسم رباط وركاب يدلنا على جذوة الجهاد المشتعلة في صدر الرجل فكلمة «الرباط» افترعها المسلمون المجاهدون بداية بالمرابطين على الثغور وكذلك اسم «ركاب» يدل على روح الجهاد إذا فالرجل هبط دنقلاً داعياً ومجاهداً ومرابطاً وأول أعماله أنه علم الناس كتاب الله وهذه بداية الجهاد والاحتساب ومن أشهر تلاميذه الشيخ الحليل محمد عيسى سوار الذهب ويعتبر الشيخ محمد عيسى أول من حفظ القرآن على الشيخ غلام الله وأنجب محمد عيسى عشرة من البنين وأنجب كل ولد من أبنائه عشرة أولاد كما تقطع الروايات بذلك وكلهم من حفظة القرآن وأثارهم بدنقلاً العجوز شامخة حتى اليوم.. خاصة خلوة الشيخ محمد عيسى سوار الذهب وكانوا يلقبونه - أبو العشرة جد الميه - كما يُعرفُ بـ «ساتي محمد»^(١)

عبد الله الأغيش:

وأول من حفظ على الشيخ محمد عيسى سوار الذهب الشيخ عبد الله الأغيش جد البديرية «الغيش» ثم توالى الحفظة وكلما حفظ رهط في عهد غلام الله ومحمد عيسى سوار الذهب وجههم المشايخ لجهة ما فانتشروا في أنحاء البلاد ووقع الأمر على الشيخ عبد الله الأغيش أن يسكن بربر وهو إقليم عظيم وعريق وقر

(١) ساتي لقب يرد كثيراً قبل الاسم وهي كلمة دنقلاوية ومعناها سيدي أو شيعي.

قراره في بربر الغريبة المعروفة بمنطقة الغبش وأشعل نار القرآن فيها.

نسب غلام الله بن عايد:

الشيخ أحمد غلام الله بن الشيخ عائد بن الشيخ إبراهيم المقبول ابن الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي بن الشيخ سيدي محمود بن سيدي هاشم ابن سيدي مختار بن سيدي علي عسكر بن سيدي كسكر بن سيدي سراج بن سيدي أبو القاسم بن سيد الإمام زامل بن سيدي موسى الكاظم بن سيدي محمد الباقر بن سيدي جعفر الصادق بن سيدي الإمام محمد تقى بن سيدي محمد نقى بن سيدي الإمام زين العابدين بن سيدي الإمام الحسين.

المسجد الأول:

المتفق عليه حتى الآن أن أول مسجد ابتناه المسلمون هو مسجد دنقلا الذي ذكرته معاهدة البقط، ومن الكتاب الذين كتبوا بتوسع في شأن هذا المسجد الأستاذ عبد الله الشيخ البشير قال: عندما شرعت في كتابة هذا البحث رأيت من الضروري أن أعنى بأول مسجد بني في السودان والظروف التي بني فيها وكنت عرفت من معلوماتي القليلة أن أول مسجد في السودان هو المسجد المنسوب إلى القائد الإسلامي عبدالله بن سعد بن أبي السرح الذي ابتناه المسلمون بناءً على إتفاقية الصلح التي تمت بينهم وبين مملكة النوبة المسيحية في عام ٣١هـ بدنقلا العجوز ولا علم لي في هذا الموضوع أكثر من ذلك ثم يقول خرجت وفي ذهني هذه الأسئلة ماذا جرى لهذا المسجد وماذا جرى فيه أما يزال موجوداً أم أن كر القرون قد أخنى عليه حقيقة أم أسطورة ورحت ألح في السؤال عنه فقصدت أمانة الشؤون الدينية فلم أحظ منها بحواب وليس له وجود في دليل مساجدها رغم أهميته التاريخية العظيمة لأن وجوده يعطي شهادة على أن السودان يعتبر من الشعوب الأولى التي عرفت الإسلام. وكدت أياس ولكن الله أعاضني عن الشؤون الدينية ببعض من أهالي دنقلا

العجوز الذين أكدوا لي أن المسجد موجود وكانت تقام فيه الصلاة إلى عهد قريب حتى أغلقته مصلحة الآثار وأضافوا أنه كان في الأصل كنيسة أحالها المسلمون مسجداً وأفزعني ذلك الأمر وقلت إن صح ذلك فمعناه أن هناك اعتداء وقع وهو لا يليق بالمسلمين الذين يعرفون تسامح الإسلام واحترامه للأديان السماوية.. وفزعت إلى كتب التاريخ عندنا فوجدتها كلها متفقة على هذه الحقيقة المؤسفة.. ثم أن هناك أوامر صريحة لقادة الجيوش من المسلمين صادرة من الخلفاء بأنهم سيجدون قوماً منقطعين لعبادتهم فلا تتعرضوا لهم بأذى ولا تعتلوا على كنائسهم وصلبانهم وقد طبق ذلك في فلسطين على عهد ابن الخطاب وفي مصر ولا يصح أن تكون قد عطلت هذه الأوامر في عهد الخليفة عثمان الذي بُني المسجد على أيامه.

الثانية: أن هذا المسجد تم بناؤه بموجب معاهدة مشرفة للجانبين نتيجة تكافؤ القوى إلى جانب اعتبارات حضارية أخرى كثيرة.. وعليه فلا يعقل أن تقبل مملكة النوبة التي لم تهزم في ساحة القتال أن ترضى بالاعتداء على مقدساتها.. وبرجوعي إلى نصوص الاتفاقية كما سجلها المؤرخون العرب بالإجماع وجدت النص الخاص بالمساجد حيث يقول: «عليكم رعاية المسجد الذي ابتناه المسلمون» والذي يهمني هو كلمة ابتناه المسلمون.. إذن فالمسلمون لم يحيلوا كنيسة دنقلا إلى مسجد ولو أنهم أرادوا لما أتيح لهم بل مثل هذه الفكرة لا تستقيم مع واقع تلك اللحظة التاريخية الخالدة فقلت ربما كان هذا المسجد الذي يتحدث الناس عنه والمدون في كتبنا التاريخية هو مسجد غير الذي أبحث عنه.. ورجع عندي هذا الرأي ولكي أحسم هذا الموضوع أزمعت السفر إلى هناك لأقف على جلية الأمر وحملت أوراقي والأسئلة المصطرة في ذهني..

دنقلا العجوز:

هضبة عالية جرداء تطل على النيل إطلالة مستحكم.. ذات أديم أحمر تمتاز به

عما جاورها خالية من السكان تماماً تقع قرية «الغدار» على يمينها وجزيرة تنقسي على شمالها وصعدنا إليها في مشقة بالغة فهالتنا آثارها التاريخية المتنوعة.. انظر كنيستين عظيمتين كشفت عنهما الحفريات حديثاً.. يرجع تاريخ بنائها إلى القرن السابع الميلادي، يدلان على عبقرية متقدمة في فن المعمار هناك حجر على شكل اسطوانة عجيبة النحت، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد. وهناك آثار مسجد الشيخ غلام الله بن عائد في القرن التاسع الهجري وخلوي محمد سوار الذهب في القرن العاشر الهجري لقد بدت لنا هذه الهضبة بوتقة عجيبة فيها تاريخ السودان الحضاري كله في نسق هو الدولة عينها.

وعلى قمة الهضبة تربع بناء مهيب وجدناه مكوناً من طابقين طوله ٣٨ متراً وعرضه ٢٣ متراً وارتفاعه ١٢ متراً على وجه التقريب فصعدنا إلى الطابق الثاني فالطابق الأول مغلق وقال مرافقنا هذا مسجد دنقلا العجوز الذي كان كنيسة.

ولاحظت محراباً ومنبراً من درجتين ولفتت نظري لوحة رخامية مثبتة إلى يمين المحراب عليها كتابة هذا نصها - فُتِحَ هذا الباب المبارك للذكر، على يد سيف الدين بن عبد الله الناصر بتاريخ ١٦ ربيع الأول ٧١٧هـ فلما قرأتها علمت أن هذا مسجد غير المسجد الأول الذي بنى ٣١هـ. في الطابق الثاني، ولم يكن المبنى فيما قبل كنيسة حولت إلى مسجد بخلاف ما كان العلماء يظنون ومما لفت النظر أن نتائج هذا التنقيب جاءت مؤيدة للشيخ ابن خلدون حيث قال أن كثيراً من التوبيين قد دخلوا في الإسلام منذ عصر «شكند» إلا أن الملك عبد الله برشمبو أول ملك نوبي مسلم قد أقام مسجداً في قصر الملك بدنقلا.

وعلق الأب فانتيني بقوله وقد كان هذا المسجد في ١٦ ربيع الأول ٧١٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٣١٧م وتشير الكتابة التي نقشت على اللوحة إلى هذا المعنى «تحويل هذا المكان إلى مسجد للصلاة».

فبطلت إذن جميع المعلومات التي كانت تقول أنه كان كنيسة حولت مسجداً

أو أنه بني على ظهر كنيسة أو أنه مسجد من طابقين ولم يبق أمامنا إلا البحث عن مسجد المعاهدة.

ورحنا نفتش بين الخرائب باحثين عن المسجد الأول، ما كان لنا من دليل غير نص المعاهدة الذي يقول أن المسجد يقع في فناء المدينة التي تشبه القوس وكنا واثقين من وجود هذا المسجد على وجه من الوجوه للأسباب الآتية:

تم بناء هذا المسجد بشروط موثقة وبلا إكراه ولم نقرأ في مراجع التاريخ ما يفيد أن ملوك النوبة أدخلوا بهذا الشرط مع أنهم أدخلوا بشروط كثيرة من شروط «البقط» اعتبروها مُحجفة وقاموا بالامتناع المسلح.

لم يكن الملوك متعصبين دينياً.

كانت قوة المسلمين تتزايد ولا يعقل من ملوك حكماء أن يستفزوا مشاعرهم بالاعتداء على أمر يعلمون أنه يشير الحفائظ وربما أسفر عن نتائج سياسية غير مضمونة العواقب.

في ظل هذا الاعتقاد أخذنا نسأل أهل المنطقة الذين التقوا بنا وهم يعلمون كل صغيرة وكبيرة عن تلك الآثار أن المسجد الذي بناه المسلمون بموجب البقط لم يفهموا شيئاً عن البقط وعندما سألناهم عن مسجد ابن أبي السرح قالوا لنا أننا نعرف «مقبرة» لعبد الله اب سرحه وكدنا نظير وانحدرنا من أعلى الهضبة مهرولين.. فوصلنا فوجدناه على الصورة الآتية.

مسجد صغير لا تزيد مساحته على ٥×٥ أمتار وارتفاعه البارز من الرمال متر واحد وبه محراب صغير جهة القبلة وفي المحراب نافذة صغيرة ونصف سقفه سليم ومادة بنائه خليط من الحجر الجيري والطوب النوبي القديم ويبدو من بساطته أنه بني على عجل وعلى رأس المحراب يشخص عمودان ومن ورائه من الجهة الغربية سور مهدم مساحته ٢٠×٢٠ متراً وفي كل ركن من أركان السور

حجرة متهدمة وهو يقع في الركن الشمالي الشرقي من هذا السور.

إن تلك المعاينة لم تدع لنا شكاً في أنه هو المسجد الأول في فناء المدينة في مكان منخفض كما نصت الاتفاقية أن صغر حجمه يتمشى مع الواقع حيثئذ لم يكن هنا مسلمون وحتى كنسه وإسراجه قد أسند إلى الحكومة النوبية ثم أنه يشبه في حجمه المساجد الأولى في الإسلام التي نراها حول مكة والمدينة ثم إن النافذة التي لحظناها في المحراب توجد نظائرها في مساجد الجزيرة هذا وأقر يقيننا مصداقية أهل المنطقة الذين يعرفون آثارها جيلاً بعد جيل وليس لهم من المصلحة في إخفائها أثر^(١). انتهى.

زيارة المسجد:

ولما كان الخبر ليس كالبيان فقد ذهبت أنا لدنقلا في ربيع ١٤٠١هـ ومن دنقلا العرضي توجهت جنوباً لدنقلا العجوز وأمضيت وصحبي ليلة عامرة بالأحاديث التاريخية الشائقة في منزل آل القاضي وكان حديثنا يدور حول دنقلا والمسجد وتجمع حولنا نفر من أهل دنقلا العجوز شيوخاً وشباباً وكان أبرزهم الأستاذ محمد الأمين خالد وعبد الرحمن القاضي، ومحمد القاضي وكلهم يعمل بالتعليم والتوجيه الفني في دنقلا العجوز عند تلك الآثار ولهما إلمام بتاريخ المنطقة الأول عن طريق الإرث والثاني عن طريق التعليم المكتسب وقد رافقاني في تلك الزيارة وأفدت منهما فائدة كبيرة وكان ضمن رفقاتنا العم الشايب «قيلي» وصعدنا القصر الضخم الذي بني على ربوة عالية والصاعد للقصر يرى المنطقة شرقاً وغرباً كأنهما تحت قدميه والنيل يمر تحتها في شكل مقوس كأنه الهلال، وهذا يدل على علو هذا المبنى.. ولا أكرر ما ذكره الأستاذ عبد الله الشيخ البشير من وصف

(١) بحث كتبه الأستاذ عبد الله الشيخ البشير العالم اللغوي والشاعر الكبير في محلة الخرطوم العدد الأول

يناير ١٩٨٤م.

رائع ولكنني أضيف لمعلوماته التي ساقها من خلال مقاله ما يلي:

يوجد في الركن الشمالي الشرقي مبنى على شكل مسجد وبدخله قبر والذي قرأ معاهدة البقط يجزم أن هذا المكان هو فناء المدينة الذي أشارت إليه المعاهدة، وفي شمال هذا المبنى وغربه بقليل شرفٌ وجدر متهدمة بنيت بالطوب الأخضر... يقدر الأخوين محمد الأمين خالده، وعبد الرحمن القاضي أن المسجد المعني في الاتفاقية المعروفة هو هذا الأثر.. وعلى كل حال إن كان هذا أو الذي وصفه أستاذنا عبد الله الشيخ البشير في مقاله فإن المسجد الذي «ابتناه المسلمون» واحد من هذين الأثرين وليس ذلك القصر المنيف وهو الذي بناه ملوك النوبة وجعلوه دار حكم والذي جعل من طابقه الثاني القائد سيف الدين الناصر مسجداً.

ووجود المسجد خارج القصر يفند ويدحض ما يتناقله الناس وما قررته الكتب التي تُدرس في المدارس^(١) الابتدائية حيث جاء في كتاب «من تاريخ السودان» للصف الرابع الابتدائي، وقام إمام المسلمين يصلي بالناس صلاة العصر لأول مرة في «كنيسة دنقلا العجوز التي حولت إلى مسجد» وهذا يخالف الواقع وما درج عليه الصحابة كسيدنا عمر بعد فتحه بيت المقدس فإنه أبى أن يحول الكنيسة مسجداً. وليس صحيحاً أن المسلمين بعد فتح دنقلا حولوا الكنيسة مسجداً كما جاء في كتاب «من تاريخ السودان» للمدارس الابتدائية.

وقد شهد بصحة هذا الأب فالتيني في كتابه تاريخ المسيحية^(٢) وهو رجل دارس ومتمكن من مادته وموضوعه ومخلص لدينه.

إذن الباحثون متفقون أن أول مسجد في بلادنا كان مسجد دنقلا العجوز الذي شاع خبره عند كتاب التاريخ وغيرهم وارتبط المسجد بالمعاهدة المبرمة بين القائد المسلم عبد الله بن سعد بن أبي السرح والنوبة..

(١) من تاريخ السودان - صفحة ٣٢ - دار النشر التربوي.

(٢) تاريخ المسيحية في الممالك القديمة - الأب - فالتيني.

أما المسجدان الآخران فقد تعرضت لهما معاهدة عبد الله الجهم مع عظيم
البجا «كنون بن عبد العزيز» نظراً لطول المعاهدة فإني أكتفي بالفقرات المرتبطة
بيحي هذا عندما أتحدث عن المسيد في شرق السودان.

مشايخ دنقلا خارج السودان:

أشهرهم الشيخ محمد أحمد سوركتي الذي نرح إلى الحجاز دارساً ومدرساً
ثم طلبت «مليزيا» معلماً يدرس العلوم العربية والدينية فوق الاختيار على الشيخ
سوركتي.

فسافر إلى بلاد «أندونيسيا» جزيرة مليزيا فواظب على التدريس مجتهداً حتى
عم ذكره جميع الجزر الأندونيسية وبعد أن قويت شوكة أسس مدارس خاصة فعم
نفعه وطار صيته عليه رضوان الله.

وخلف أسرة كبيرة تعرف بآل سوركتي وعلمت أن الرئيس الأندونيسي
«سوكارنو» سمي تيمناً بالشيخ سوركتي والله أعلم.

ثم تلاه الشيخ ساتي ماجد الذي خرج من دنقلا بعد أن حفظ القرآن لمصر
للالتحاق بالأزهر فكان من أسرته ما كان وأنقل في الصفحات التالية ما ذكره
الكتاب عن هذا الداعية.

ساتي ماجد:

إنه واحد من النابهين الذين تخرجوا في الخلوة، ولد الشيخ ساتي ماجد سنة
١٣٠٠ في «الغدار» وهي من قرى دنقلا العجوز بدأ القرآن عند الشيخ عوض في
بلده «الغدار» ثم تحول إلى مسيد الشيخ أحمد أبو زيد وديدي في قرية «رومي»
ومكث حتى أكمل حفظ القرآن.

وزعموا أنه بعد أن فارق مسيد الشيخ أحمد وديدي بقرية «رومي» كتب نوعاً

من السجع حفظ الناس منه تلك المقطوعة التي صارت مثلاً قال ساتي ماجد^(١)
ثلاثة موجودة في رومي.

البُولِي والبليلة والعلوم.

«البولي المكان الساخن أو الرمال الساخنة أو محل النار واشتهرت رومي
بكتبان الرمال التي تحفظ حرارة الشمس حتى الغروب وكلمة «بولي» نوبية - أما
البليلة فهي وجبة رئيسية في مدارس القرآن في السودان تصنع من حبوب اللوبيا
والذرة الشامية.

والمعنى أن في رومي ثلاثة أشياء مضمونة وملموسة البولي «السخانة» والبليلة
والعلم.

وبعد أن حفظ الكتاب الكريم اتجه إلى مصر حيث التحق بالأزهر ولم يمكث
فيه طويلاً. وغادرها إلى أوروبا داعياً لدين الله وأقام في إنجلترا ثم اتجه إلى
الولايات المتحدة الأمريكية فوصل إليها عام ١٩٠٤ - ومكث بها حوالي خمسة
وعشرين سنة وعاد بعدها إلى السودان حيث استقر بدنقلا وهذه ترجمة لحياته
اختصرها الكاتب المؤرخ محمد عبد الرحيم.

ساتي ماجد^(٢)

أو شيخ الإسلام بأمريكا الشمالية

كان هذا أول مجاهد جاهر وناضل بالدعاية لدين الإسلام في قارتي أوروبا

(١) رواية ساتي محمد بن ساتي ماجد وهو محام معروف في أمدرمان.

(٢) ساتي ماجد - ١٣٠٠ هـ - ١٨٨٣ م - ١٣٧٥ هـ - ١٩٦١ م.

و«النداء في دفع الاقتراء» - مطبعة القاهرة. للمؤرخ السوداني محمد عبد الرحيم.

وأمریکا حتی اعترفت به الأخيرة ولقبته «بشیخ الإسلام فی أمريكا الشمالية».

ولد فی دنقلا العجوز سنة ۱۳۰۰هـ - ۱۸۸۳م، كان والده من الزیاداد الذين هم فرع من البدرية أي «عباسية» كما رواه - مؤلف كتاب «صبح الأعشى» فی الجزء الرابع بقوله «أبناء بدير العباسية».

حفظ ساتي ماجد القرآن فی بلدته وهاجر إلى الأزهر بالقاهرة لطلب العلم، وما لبث أن سار إلى انكلترا واجتمع هناك برجلین أحدهما كنزي^(۱) والثاني یماني، فأسس الثلاثة «جمعية للتبشير»، فكانت خطوة أولى من نوعها وشجاعة أدبية مقطوعة النظیر ولحسن حفظهم كان ساتي ماجد خطيباً بليغاً لا يسالي بمنابر الدعاية، كان جهوري الصوت خبيراً بالاقتباس من القرآن الكريم وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان أحد صديقيه یجید اللغة الانجليزية ویعرف آدابها فصاروا یجولون فی الجزر البريطانية، یقوم ساتي ماجد بإلقاء المحاضرات فی أهم المجتمعات باللغة العربية ویرجمها زمیلاه إلى الانجليزية كان أحد المبشرين الإيطالیین بأمريكا ینشر مقالات فی الطعن علی تعالیم الدین الإسلامي ویرسمه بشكل رأس تمساح فاغراً فاه بارز الأسنان، ویصفه بالوحشية وأنه یأمر بأكل لحوم البشر، فتأثر أعضاء «الجمعية الإسلامية» وتشاوروا فی غیر الوسائل لكبح جماح ذلك المبشر فتطوع ساتي ماجد بأن یذهب إلى أمريكا ویرد علی ذلك المبشر فی نفس الجريدة التي اعتاد النشر بها.

ولما كانت حرية الأديان مكفولة هناك ولدعاتها أن یجولوا بالولايات مجاناً طلبت الجمعية الإسلامية التصريح لساتي لیشر للإسلام وتم التصديق له بذلك.

وسافر إلى أمريكا غیر مبال بطول الشقة والمشاق، وكان إذ ذاك یدرس اللغة الإنجليزية حیث أجادها ولما وصل نیویورك وجد هناك خمسة أشخاص - هم

(۱) كنزي - نسبة لقبائل الكنوز - أبناء كنز الدولة كما هو معروف.

القنصل التركي ومترجم القنصلية والسفير التركي ومترجم السفارة وإمامهم - ففرحوا به وصاروا يساعدونه في الرد على ذلك القس الذي أسلفنا الحديث عن تهجمه على الإسلام، فقد أرسل ساتي ماجد مقالاته إلى الجريدة الأمريكية التي كانت تنشر للقس، ولكنها رفضت النشر ضد القس فما كان من ساتي ماجد إلا أن رفع قضية بالمحكمة في نيويورك وطلب إلزام الجريدة بنشر مقالاته في العمود الذي تنشر به مطاعن القس أو الحكم له بمائتي ألف جنيه كرد شرف نظير التشهير بالإسلام والحط من كرامة الشرقيين، فحكمت المحكمة بنشر مقالات ساتي ماجد في العمود الذي اعتادت أن تنشر فيه مطاعن القس. وقامت لذلك ضجة صحفية ضخمة لفتت نظر الحكومة والشعب، فلقبوه «بشيخ الإسلام بأمريكا الشمالية» وسار نحوه الكثير من علماء النصارى لمناظرته في العلوم الدينية.

وبينما هم كذلك إذ حدث كسوف في الشمس حتى رأى الناس النجوم نهاراً فدعت حكومة الولايات المتحدة علماء الأديان إلى اجتماع عام ليعظوا الناس للكف عن المعاصي والتمسك بتعاليم الأديان السماوية لكي يرفع البلاء وقد دعي شيخ الإسلام في نيويورك ليلقي كلمة في ذلك الوقت المحدد اجتمع الناس حتى ضاقت بهم رحاب المكان وأعطى لكل زعيم الوقت اللازم لوعظه.

ونودي القس الإيطالي لإلقاء كلمته وانصب كل وعظه في ذم الشرق والشرقيين والطعن في تعاليم الإسلام ونسب كل ما يقع من البلاء والغلاء إلى الإسلام والمسلمين ولم يقاطعه أحد في شيء من ذلك حتى نهاية حديثه.

ونودي شيخ الإسلام ساتي ماجد ليعظ فتكلم عن الإسلام وهديه بعبارة بليغة ثم عطف واستدعى القس الإيطالي الذي وقف، وهناك وجه إليه أسئلة كان أولها: - أين ولد عيسى في الشرق أم في أوروبا.

- فأجاب القس: في الشرق.. فقال: إذن كيف تحط من كرامة الشرق وهو

الذي أنجب إلهك وإله آبائك.. وهنا دوى المكان «بالتصفيق» إعجاباً وأعقب ذلك بأسئلة أسكتت القس.

ولما انتهى الاجتماع وازدحم الناس في الخروج «طُعن» ساتي ماجد بسكين حتى خرج طرف الرئة من بين أضلاعه فسقط على الأرض مضرجاً في دمه وهرع البوليس والأطباء لأداء واجبهم وعندما أفاق من غيبوبته قال لهم: «إن وجدتم الجاني أبلغوه بأنني عفوت عنه» فدهش الحاضرون لهذه المكارم، وأخذوا من ذلك أن الإسلام هو دين التسامح ودين مكارم الأخلاق فأسلم المئات بسبب ذلك الحادث.

ولما وصل القاهرة أفتى علماء الأزهر له ما عدا «الشيخ مصطفى المراغي» شيخ الأزهر الذي قال له إنك لم تحمل شهادة ولا يصح قيامك بالدعاية في بلاد عظيمة كأمريكا - فأجاب ساتي ماجد بقوله: أرسل معي بعثة من حملة الشهادات وأنا أرافقها للدلالة. فرفض.

نزلت في ضيافته في ديسمبر ١٩٤١ أثناء إحدى رحلاتي لبحث التاريخ فرأيت منه رجلاً طويل القامة كث اللحية متناسب الأعضاء وقوراً وكان كريماً دمث الأخلاق يرتدي الملابس الأفرنكية وعلى رأسه قلنسوة سوداء مما يلبسه العراقيون عادة، ولو كان السودانيون يقدرّون الرجال لأقاموا التماثيل لأمثال أحمد محمد سوركي وساتي ماجد ولكن التاريخ هو الحكم في أقدار الرجال وأبقى لسمعتهم ما دامت الدهور حتى ينفخ في الصور ويعث من في القبور^(١).

نسب ساتي ماجد

١- ساتي ماجد. ٢- ساتي محمد «تودول» ٣- ابن محمد صالح ٤- ابن محمد ٥- ابن ساتي حلاللي ٦- ابن ساتي حمد ٧- ابن ساتي حسين ٨- ابن ساتي

(١) النداء في دفع الافتراء للمورخ محمد عبد الرحيم.

حلالى ٩- ابن ساتى محمد سوار الذهب^(١).

الإمام عبد الرحمن وساتى ماجد

هذا وكانت أخبار الرجل وجهاده وصلت لكثير من الجماعات في السودان ومصر والمغرب والسعودية واليمن... إلخ ولما عاد للبلاد احتفل به الإمام عبد الرحمن المهدي احتفالاً عظيماً ودعى على شرفه جميع أبناء دنقلا على مختلف مشاربهم وكثيراً من الوجهاء وتحدث في الحفل الإمام عبد الرحمن ودعى كل من يستطيع إكرام هذا الرجل المجاهد وأخذت صورة تذكارية لهذا الحفل التاريخي وأنا أثبتها هنا -

الجالسون على الأرض من اليمين

١- العملة بابكر جميل ٢- عثمان ونى ٣- مصطفى النور ٤- يوسف بشير ٥- مهدي الشيخ الطيب.

الجالسون من اليمين إلى اليسار

١- عبد القادر القباني ٢- محمد أحمد مختار ٣- السيد عبد الله الفاضل ٤- السيد عبد الله السيد حامد ٥- السيد علي المهدي ٦- الإمام عبد الرحمن المهدي ٧- ساتى ماجد «المحتفى به» ٨- سيد أحمد سوار الذهب ٩- محمد عبد الرحمن سوركتي ١٠- فضلو شيخ فضلو ١١- خضر محمد الحاج ١٢- دفع الله شببكة الشيخ عبد الكريم والد السيد عبد الرحمن عبد الكريم وإخوانه.

الواقفون من اليمين إلى اليسار

١- السيد السيد الخليفة عبد الله ٢- إبراهيم فتر ٣- الطيب فضل المولي ٤- العوض سلمان ٥- عثمان أحمد النصري ٦- أمين الشيخ الطيب ٧- سعد طاشين ٨- عوض جبريل ٩- عوض سلمان ١٠- مصطفى كاشف ١١- مكى عثمان أزرق ١٢- حسن عبد الكريم ١٣- بشير علي الجلاد ١٤- حامد صالح الملك ١٥- سالم حسن أبو زيد ١٦- عبد القادر خال العيال ١٧- بشري إبراهيم السيد ١٨- باب الله فضل المولي ١٩- محجوب فضل المولي ٢٠- صالح محمد ٢١- عبد الرحمن عثمان الخراط ٢٢- عبد الله إبراهيم عمر ٢٣- وسقطت بعض الأسماء التي لم نتأكد من معرفتها.

(١) كلمة ساتى بلغة الدناقلة تعني سيدنا شيخ القرآن.



هذا وقد كتب الأستاذ عبد الحميد محمد أحمد كتاباً عن الشيخ ساتي ماجد أسماه «شياخة الإسلام في أمريكا» نشرته مصلحة الثقافة ١٩٧٨ الخرطوم وقد جمع الأستاذ عبد الحميد كل الوثائق المتعلقة بالشيخ ماجد خلال خمسة وعشرين سنة من ١٩٠٤ إلى ١٩٢٩ التي أمضاها بالولايات المتحدة وباللغتين العربية والانجليزية.

العلماء الأقدمون:

العالم يزيد بن أبي حبيب الدنقلوي كتب عنه الشيخ المجاهد القاضي محمد الأمين القرشي كتاباً أنقل منه بعض الفقرات.

والأمر كله تزكية لدنقلا وأهل دنقلا لأن يزيداً كان أثره وجهاده خارج دنقلا ولكننا نذكره هنا تبركاً به وبسيره الفخمة.

يزيد في فجر الإسلام والمقريري

ذات يوم كنت أجيل الطرف في كتاب فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين فوجدته يسطر كلاماً عن يزيد هذا يعزوه للمقريري قال بصحيفة ١٨٩ بفجر الإسلام. وممن اشتهر بالعلم في مصر يزيد بن أبي حبيب مولى الأزد مفتياً لأهل مصر وأبوه من «دنقلا».

وفي صحيفة ٢٣٥ ذكره في معرض العلم فقال: وقد اشتهر في مدرسة مصر بعد الصحابة يزيد بن أبي حبيب وهو نوبي الأصل من «دنقله» وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر.

قال الكندي أنه «أول من نشر العلم بمصر» في الحلال والحرام ومسائل الفقه وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر رجلان من الموالي ورجل من العرب فأما العربي فجعفر بن ربيعة. وأما الموليان فيزيد بن حبيب

وعبد الله بن أبي جعفر فكان العرب أنكروا ذلك. فقال عمر بن عبد العزيز ما ذنبي إذا كانت الموالى تسمو بأنفسها (أو يسمون بأنفسهم) صعداً وأنتم لا تسمون.

وكان يزيد عالماً بالفتن والحروب وما يتعلق بفتح مصر وشؤونها وولاتها وهو أحد الأركان الذين نقل عنهم الكندي كتابه «ولاة مصر وقضاتها». وكان من أشهر تلاميذ يزيد هذا عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد.

هذا ما قاله الأستاذ أحمد أمين ناقلاً عن تلك المصادر التاريخية فرجعت إليه في مصادره وتبعت تلك المراجع فوجدتها كما قال.

إكبار وتقدير:

تلك الكلمات العابرة جعلتني أكبر يزيداً^(١) وأمجده أيما تمجيد كيف لا وهو مفتي مصر يختاره إمام الهدى عمر بن عبد العزيز الحاكم الذي يضرب بعدله المثل ليكون مرجعاً دينياً لأهل مصر يفزعون إليه في أمور دينهم فيعلمهم ويرشدهم ويهديهم سواء السبيل ويحل مشاكلهم وليس في عهده فقه مدون يطاله أو مذهب محرر يراجع ولم يقلد أحداً فهو إمام مجتهد مطلق يأخذ الأحكام من الكتاب والسنة وقيس الأشياء على النظائر فكان إماماً للمسلمين في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وتلك منقبة كبرى وفخر عظيم وشهادة تقصر دونها شهادات الجامعات والكليات وكانت داره ندوة الطلبة ومجتمع العلماء فتخرج على يديه عدد لا يحصى.

الليث بن سعد:

الليث بن سعد وما أدراك ما الليث بن سعد ذلك الإمام المجتهد المطلق فقيه مصر وهو في درجة الأئمة المجتهدين الشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حنبل

(١) يزيد بن حبيب تأليف القاضي محمد الأمين القرشي الخرطوم.

وسفيان وغيرهم. وقد كتب عنه ابن حجر العسقلاني سيرة ضافية وذكر فيها تلمذته ليزيد ونقل ابن حجر عن الإمام الشافعي أن الليث أفاقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وفي رواية ضيعه قومه فهم لم يدونوا مذهبه وكان مذهب الليث هو الشرع الذي يرجع إليه أهل مصر ولم يعرفوا غيره حتى جاء الإمام ابن القاسم من المدينة المنورة بعد صحبة طويلة للإمام مالك «وابن القاسم من اسكندرية» فنشر مذهب مالك في ربوع مصر ولم يكن مذهب الليث مدوناً في كتاب كما قدمنا وبعد ابن القاسم حمل لواء المذهب تلميذ مالك الثاني وهو أشهب المصري ومنها تعلم الناس مذهب مالك ورجعوا إليه ثم جاءت المذاهب الأخرى.

إن ذا أمر عجب الإمام الليث بن سعد المصري وهو مجتهد مطلق تلميذ يزيد ابن السودان وسليل دنقله أي ورب. لقد شحذت العزم لمواصلة البحث بقدر الاستطاعة فهناك ما أخذته مختصراً من الكندي.

في كتاب الولاة والقضاة للكندي:

هذا الكتاب تأليف ابن عمر محمد بن يوسف الكندي المصري وهو كتاب قيم يبحث فيه قضاة مصر وولاتها وغير ذلك أهده مستر «كروفت» مدير المعارف السودانية سابقاً إلى مكتبة المعهد العلمي بأمدرمان ووجده يسرد كثيراً عن يزيد هذا فيما يتعلق بأخبار مصر وحروبها. من ذلك قوله حدثني يحيى أبو معاوية التجيبي قال حدثني خلف بن رية الحضري عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال فتحت مصر يوم الجمعة مستهل شهر المحرم سنة عشرين للهجرة وقال حدثني علي بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدي عن عبدالله بن سعيد الأنصاري عن أبيه قال أخبرني بن لهيعة عن يزيد ابن حبيب أن عمرو بن العاص كان بفلسطين على ربع من أرباعها فتقدم بأصحابه إلى مصر فكتب إلى عمر وكان سار بغير إذنه فكتب إليه عمر بن الخطاب بكتاب أتاها وهو أمام العرش فقرأه فإذا فيه «من عمر بن الخطاب إلى العاصي ابن العاصي».

أما بعد: فإنه بلغني أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم وإنما معك نفر يسير ولعمري لو كانوا ثكل أمك لما تقدمت فإذا جاءك كتابي هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع» فقال عمرو والحمد لله أية أرض هذه فقالوا من مصر فتقدم إلى «الغرماء» وهي قرية مصرية بالقرب من بورسعيد وبها جموع الروم فقاتلهم فهزمهم - وقال حدثنا علي بن الحسن بن قديد وأبو سلمة قالا حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح عن ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب - كان عدة الجيش الذي مع عمرو الذين فتحوا مصر خمسة عشر ألفاً وخمسمائة - وقال ليس بين أهل مصر والأساود «يعني السودان» عهد إنما كانت هدنة أمان بعضنا من بعض نعطيهم شيئاً من قمح وعدس ويعطوننا دقيقاً - قال ابن لهيعة سمعت يزيد بن أبي حبيب يقول «كان أبي من سبي «دملقه» يقلب النون ميماً - قلت وهو إبدال معروف عند العرب لقرب المخرجين ودنقلا اسم عجمي وللعرب مجال واسع يحصل فيه التغيير بالتعريب حتى أننا نحن أبناء السودان أحياناً نقلب التاء التي هي هاء السكت ألفاً فنقول «دنقلا» ولنرجع إلى وصل الكلام بعد هذه الجمل المعارضة. قال ذلك المؤلف عن يزيد وغزا عبد الله بن سعد الأساود «السودان» حتى بلغ دمقلة وذلك سنة واحد وثلاثين للهجرة فقاتلهم قتالاً شديداً وأصيب فيه عين معاوية بن حديج وعين أبي سهم بن أبرهة.

يزيد في تهذيب الكمال للعلامة الخزرجي المولود سنة ٩٠٠ هـ

تهذيب الكمال كتاب عظيم صنفه العلامة الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي المتوفى ٩٢٣ هـ استمد من تهذيب الحافظ الذهبي وتقريب الحافظ بن حجر وغيرهما جمع فيه كثير من أسماء رواة الحديث وتكلم عنهم بما قرره رجال الفن ومن ضمن أولئك الجهابذ الأعلام يزيد بن أبي حبيب السوداني قال في صحيفة ٣٧٠ يزيد بن حبيب مولى شريك بن الطفيل الأزدي أبو رجاء.

«كنيته يزيد» المصري يقصد أنه مقيم في مصر لا في غيرها ولعله كان يجهل أنه من السودان عالمها. عن عبد الله بن الحارث بن جزء وأبي الخير اليزني وعطاء وطائفة «يرد من قوله عن عبد الله إلخ» أنه يروى عنهم وهذا اصطلاح خاص بالمحدثين «وعنه يزيد يروى عنه» قال يزيد بن عنسيه وحيوة بن شريح يحيى بن أيوب وخلق «يعني وخلق كثيرون يروون عنه».

قال ابن يونس كان حليما عاقلا وقال الليث يعني الإمام الليث المتقدم ذكره يزيد علمنا وسيدنا.

قال ابن سعد ثقة كثير الحديث مات سنة ثمان وعشرين ومائة ووضع الخزرجي عند الكلام على يزيد حرف «ع» وحرف العين عند رجال الحديث رمز إلى رواية الجماعة أصحاب الكتب الستة. فزاد إعجابي بالعالم الدنقلاوي يزيد الذي يروي له أصحاب الكتب الستة عليه رحمة الله. انتهى.

مسaid دنقلا:

المسaid وخنلاوي القرآن يصعب حصرها لكثرتها وأكتفي بشهرتها.. فقد صار الركابية والبديرية يدا واحدة وأسرة متداخلة في بعضها ورغم أن الركابية يعتريون مشايخ المنطقة فقد ساواهم البديرية بمجدهم واجتهادهم ومعظم الخلاوي في دنقلا يرجع تأسيسها للأسرتين ونشاط الأسرتين لم يتوقف عند دنقلا بل تعداها لجميع السودان — كالشايقية والجعللين والجزيرة «التراي» وأم درمان الشيخ محمد ود البدوي وكردفان ودارفور وغيرها من الأماكن التي اشتهرت بتدريس القرآن.

وأذكر من باب التبرك بعض خلاوي دنقلا — خلاوي رومي خلوة الأشراف بجزيرة لبب — كندمر آل حاج شريف — خلوة ارتدى — خلوة كلمسيد — خلوة اكسد — خلوة آل بجه — بالترعة وهي من أنشط الخلاوي ويرجع تاريخها لأربعة قرون مضت وينسب مؤسسها للحجاز والقيم عليها الآن الشيخ البركة الورع حسن بجه والد

القارىء الشهير محمد نور حسن بجه.. وفي هذه الخلوة أشهر عنقريب «سرير» طولاً وعرضاً وسعة وقد نقل لمتحف الخليفة بأم درمان ولكن الخلوة استعاضت عنه «بعنقريب»^(١) آخر في مثل حجمه عشرة أذرع طولاً وسبعة عرضاً وطول قائم الأرجل ثلاثة أذرع.. وكذلك يوجد مثل هذا العنقريب في جزيرة «بدين» وغيرها واتخذته هذه الخلاوي لينام ويستريح عليه الزوار وبعض طلبة القرآن ومن الخلاوي خلاوي مقاصر وارقو والسير والقولد والخندق والزورات وتمنار.. إلخ.

جزيرة بدين:

بدين تجمع بين المحس والدناقلة والأشراف وهي جزيرة طويلة وعريضة يحيطها النيل من جميع جنباتها وأهم خلاويها:

١/ خلوة الشيخ محمد أحمد بخلة فيدي «تنشي» كانت عامرة وقد قصدها الطلاب منذ عام ١٣٠٠هـ من شتى مناطق دنقلا والمحس وقد تخرج منها البعض الذين اشتغلوا موظفين في عهد الاستعمار في السكة حديد والبريد.. إلخ. توقفت بعد وفاته في أوائل الأربعينيات.

٢/ خلوة الشيخ الحاج فرحان حامد: بخلة أبو حازة «تنشي» توقفت منذ أواخر الخمسينات وكانت بدايتها بعد اضمحلال خلوة الشيخ محمد أحمد كانت لأبناء منطقة تنشى لم ينضم إليها طلاب من خارج الجزيرة وهناك آثار بعض المشايخ وآثار أخرى.

٣/ خلوة الشيخ محمد فقير شيخ طويل بشياخة «شبه» بجزيرة بدين وهي زميلة لخلوة الشيخ حاج فرحان وما زالت آثارهما باقية.. وقد توقفت في أواخر الخمسينات بعد انتشار المدارس النظامية.

(١) عنقريب - كلمة نوبية وينطقها النوبة أنقرى، وهي السرير.

٤/ خلوة الشيخ شوكت بحزيرة «سلنارتي» وقد توقفت في نهاية الخمسينات لعوامل الهدم والفيضانات..

٥/ خلوة الشيخ عبد الله محمد موسى بحزيرة بدين تنشى الشرقية وما زالت قائمة ومستمرة إلا أن الرواد أصبحوا قليلين.

مقبرة مشايخ القرآن:

بين دنقلا العجوز والغدار والقرى المجاورة مسافة يسيرة بضع كيلومترات يقطعها الشخص راجلاً ولكنها في زمان منصرم شاقة بعض الشيء وفي هذه الرقعة وجدنا آثار الخلاوي والمساييد وآثار القبور وكلها حول الشيخ غلام الله بن عايد.. والناس في منطقة الغدار يعرفون كل صغيرة وكبيرة من آثار دنقلا العجوز وجعلوا مقبرة الشيخ غلام الله مدفنة لمشايخ القرآن الكبار الذين كان لهم أثر ملموس.

١/ غلام الله بن عايد.

٢/ الشيخ آدم.

٣/ الفكي عيسى.

٤/ محمد عيسى سوار الذهب.

٥/ ساتي محمد.

٦/ عروضة القارح.

٧/ الحاج الغالي.

٨/ ود عواض.

٩/ ساتي حلال.

١٠/ النور سوار الذهب.

١١/ الشيخ زيادة النور سوار الذهب.

- ١٢ / الخليفة ساتي.
١٣ / محمد شيخ زيادة.
١٤ / النور زياده.
١٥ / ساتي حمد.
١٦ / الشيخ عبد الرازي.
١٧ / ساتي عيسى.
١٨ / محمد شيخ عووضه.
١٩ / عبد الكريم الشيخ عووضه.

المشايع في المحس:

والروايات المثبتة والمتوافرة أن العرب دخلوا منطقة النوبة من البوابة الشمالية مصر وبعض منهم من البوابة الشرقية عن طريق البحر الأحمر وباب المنذب وبعضهم من طريق البوابة الغربية ثم تدافعوا لقلب البلاد وتوزعوا فيها واستقر نفر في ديار المحس بالأخص حملة رسالة التعليم ونذكر منهم بعضاً. كما أفادت المعلومات التي جمعها الأستاذ سيد محمد عبد الله وذكر طائفة منهم استقروا في الشق الأدنى من المحس الذي يعرف باسم «سكوت».

تاج الختم

الفقيه تاج الختم خيرى من أبرز رجال التعليم في إقليم المحس وقد سطع نجمه في منتصف القرن الهجري الماضي ويحسب من أهل الجهاد والبركة وقد درس عليه القرآن معظم المتعلمين والمثقفين من أبناء المحس الذين ارتادوا المدارس النظامية الحديثة وقد نجح وبرز معظم الذين درسوا على هذا الشيخ سيدي تاج الختم.

ومدرسته بقرية «فريق» مركز «دلقو» ولكنها كالعادة لم تكن وقفاً على «فريق» وغيرها من القرى المجاورة بل كانت منهلاً مشاعاً لكل أبناء المنطقة محس ودناقلة وسكوت وغيرهم.

وشيخنا تاج الختم أخذ القرآن في دار الشايقية منطقة (الدويحية) في مسيد عبد الرحمن ود حاج والمدرسة التي درس فيها تاج الختم هي مدرسة دويم ود حاج.

المحس:

تمتد دار المحس على ضفتي النيل الكبير بدءاً من بلدة أبو فاطمة من حدود الدناقلة وتنتهي عند بلدة واوا ثم يلي ذلك الشطر الثاني من المحس وهم سكان منطقة السكوت وليس بينهما من فارق كبير غير الحدود الإدارية أما غير ذلك فهم عنصر واحد من حيث الدماء والأصول والثقافة والعقيدة وسبل كسب العيش وللمحس عاصمة إدارية دلقو وللسكوت عاصمة تعرف باسم «صواردة» وتحد شمالاً منطقة السكوت بما يعرف بأرض الحجر وهي أرض صخرية يشقها النيل في مساره شمالاً ثم تلي أرض الحجر منطقة حلقا..

والمحس من الأسر النوبية السودانية العريقة وهم أصل من أصول النوبة الأقدمين، ثم توافد عليهم العرب بعد الفتح الإسلامي وتم بينهم الاختلاط والتصاهر وهم صادقون إن قالوا نحن «نوبة» فهم يعيشون في أرض النوبة ويتحدثون لغتهم ويتلقدون كثيراً من أعرافهم إلخ وإن قالوا نحن عرب فهم أيضاً صادقون فقد عمهم الإسلام منذ عهد بعيد وتخلقوا بأخلاقه ودخلتهم الدماء العربية وينبغي أن أشير إلى أن غالبية المثقفين من أبناء المنطقة يميلون انتساباً للعنصر النوبي عكس المواطنين الذين يفضلون الانتساب للصحابي الحليل أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي كما يفعل أكثر أهل السودان الشمالي إذ يفضلون الانتساب إلى الأسماء الإسلامية

العربية التي تتصل بالدوحة الشريفة فأكثر أهل السودان «يزعمون» أن أجدادهم ينحدرون من أشراف قريش ولهم وثائق تثبت ذلك وهم صادقون فيما يدعون «وليس بين أيدينا من الوثائق» من يحزم بتلك الصلة لقريش كما ليس لدينا ما يمنعهم من هذا الانتساب..

انتشار المحس:

خرج من أرض المحس الأصل جماعات كثيرة أغلبهم من حفظة القرآن ثم تبعهم جماعات أخرى من التجار والزراع وأهل الصناعات وانتشروا على مجرى النيل - وما من منطقة على مجرى النيل إلا وبها أثر من آثار المحس يتمثل في الجماعات التي هاجرت من الأرض الأصل واستقرت في مهجرها الجديد، نجد ذلك في ديار الدناقلة والشايقة والرباطاب والجعلين ونهر اتبرا. وأشهر تجمع للمحس كان في مديرية الخرطوم فقد عمروا جزيرة «توتسي» الواقعة وسط النيل «كما استقروا في شمبات والصباي والحلفايا» وسكناهم في هذه الجزيرة ينم عن أصلهم النيلي، السكن في الحزر داخل النيل، والسكن في الجزائر وعلى شطآن النيل يوافق طبعهم ويخالف طبع سكان مديرية الخرطوم الأقدمين كالجموعية والجميعاب والبدلاب والجعلين.. إلخ الذين يفضلون سكن الأرض اليابسة من حول النيل. ثم انتشر المحس على النيل الأزرق وعمروا منطقة العيلفون وما حولها ولهم مناطق أخرى تعرف «بقرى» المحس ثم أسسوا «كترانج» وهي بقعة شع منها القرآن والعلم دهرًا طويلًا واختارت جماعة منهم الإقامة في عاصمة البلاد القديمة سنار وذهب بعضهم لجنوب الفونج والنيل الأزرق وتبدى رهط منهم في شمال شرق كردفان «منطقة حمرة الوز وجبل الحرازة»^(١).

(١) جبل الحرازة يقع شمال كردفان والمحس الذين بالحبل أهل بادية ومنهم مزارعون.

المحس والقرآن:

في بلاد المحس عموماً ما من قرية إلا وبها «مسيد» لتعليم القرآن ويستخدمون ساحة المسيد لكل أمورهم الحياتية كمقد القران والاحتفالات الدينية وفض النزاعات وإبرام الصلح إلى آخر ما يهم المجتمع الذي لا يعرف مكاناً عاماً يخرج إليه غير المسيد.

ولا يختلف المسيد كثيراً في بلاد المحس من المسائد الأخرى في نظام الدراسة كما أنهم يقرأون برواية «ورش» السائدة في الجزء الأدنى من الإقليم الشمالي وقد تحدثت عن القراءات في مكان آخر ذاكراً أن قراءة - ورش - انتشرت في دنقلا ومنها شمالاً حتى حدود مصر وظني أن المحس أخذوا من دنقلا فن القراءة إذ كانت الشهرة الأكبر لدراسة القرآن في دنقلا التي تقرأ قراءة «ورش» وربما كانت هنالك رواية أخرى كأبي عمر الدوري التي أقرأ بها الشيخ «عمر الأزرق المجذوب» في ديار المحس وليس بعيداً أنهم أخذوا شيئاً من رواية حفص من طريق مصر ولاسيما فقد دخل بعض المشايخ من مصر لبلاد النوبة من طريق حلفا.

المحس قبيلة من أهل السودان القدماء ويعتبرون من أهم العناصر المكونة للمجموعات النوبية النيلية وتمتد بلادهم على مجرى نهر النيل شرقاً وغرباً ولهم حدود إدارية مع المجموعات الأخرى القاطنة ذات المكان كالدناقلة والحلفاوين وحدهم من الجنوب دنقلا بلدة «أبو فاطمة» وشمالاً تنتهي حدودهم عند بلدة «واوا» وهي حدود إدارية فحسب أما من جهة الشرق والغرب فتفصلهم صحراء عظيمة غير آهلة.

هذا والصلة الأسرية والعرقية والثقافية الممتدة بين المحس والمجموعات الأخرى كالمسكوت والصواردة، ومن أهم الروابط بين هذه المجموعات اللهجة المحلية مع اختلاف يسير بين هذه المجموعات.

المحس والخزرج:

والمحس بلا ريب من المجموعات النوبية كما ذكرت آنفاً وفوق هذا لهم نسبهم، ويصنفهم النسابة المؤرخون بأنهم من المجموعات العربية التي استقرت في أرض النوبة وينحدر المحس أصلاً من قبيلة الخزرج وبعض المحس يكتبون في آخر نسبهم فلان الأنصاري الخزرجي.

لذا شبوا وللمسيد في وجدانهم مكانة بكل ما يحمل من زخم واهتموا به اهتماماً كبيراً فهو بلا ريب أجمل بنايات القرية وأنظفها وأطهرها وقد عرف المحس كغيرهم من أبناء المنطقة فن المعمار منذ عهد أسلافهم النوبة «القدماء» تدلنا على ذلك الآثار المنتشرة والتي يردها علماء الآثار للعهود القديمة بالإضافة للبنائيات المعروفة بـ«دُفَى» وفي ديار المحس أجمل وأروع البنائيات في السودان كما اهتموا بزخرفة وطلاء البنيان من الداخل والخارج أيّاً كان نوعه وكل هذه الخبرة جسدها في بناية المسيد، ويعتبر المسيد المحسي أنموذجاً للمسيد في عموم السودان وهو بلا شك بيت الله في القرية فهو أحق بالتحميل والاعتناء من كل بنيان آخر.

انتشر أبناء المحس كما أسلفت على مجرى النيل وخرجوا جماعات وفرداً في معظم مناطق السودان والشاهد أن أكثرهم خرجوا معلمين للقرآن فرحب بهم المجتمع الكبير بالحفاوة والتقدير وأفسح لهم مكاناً في كل رقعة هبطوا إليها أولاً باعتبارهم حملة كتاب الله.

ثانياً: عرف المجتمع كله فضل المحس فهم أصفى الناس ودأ وأوفاهم ذمة فأكرم وفادتهم وأنزلهم المنزل اللائق وحيثما استقروا نفعوا وانتفعوا.

عكاشه:

سيدي عكاشة ويعتبر من أقدم المشايخ في المنطقة وهو حجازي الأصل «وحسب الروايات الشفهية كان من الصحابة ودخل البلاد عبر البحر الأحمر عن

طريق مصوع داعياً منتقلاً إلى أن وصل دنقلا مع بعض أصحابه وكانت مجموعة من أبناء المنطقة قد أثارتهم دعوة سيدي عكاشة فترهبوا به إلى أن وجدوه يستحم في النيل فرموه ومن معه بالنبال فماتوا وحرف التيار الحثث وطفئت حشة سيدي عكاشة إلى أن استقرت في المكان الذي يعرف باسمه «قرية عكاشة» وليس له عقب معروف.. وأقام الأهالي على شرف ذكره خلوته القرآن والمسجد فبارك الله في المكان حيث استفاد منه كثير من طلبة القرآن.

سيدي المغيرة:

وتزعم الروايات أن سيدي المغيرة أتى بصحبة عكاشة في عهد التابعين وأثر مسيده في قرية «عمارة» وليس له عقب معروف.

الشيخ بندق:

هو الشيخ إدريس بن محمد شهرته في قرية «أبوصارى» قدم إليها من قرية «حميد» حيث أنشأ خلوة لتعليم القرآن «مسيد» ويقال أنه قدم من الأراضي الحجازية واستقر فيها وله عقب في المنطقة المشار إليها ويعرفون بلغة المحس باسم عائلة «كفن اس» ومعناها أحفاد كف.

الشيخ علي عبود:

ظهر فضل الشيخ في بلاد المحس السكوت حيث علم القرآن والعلم وسميت القرية باسمه «عبودية» وتسمية القرى بأسماء المشايخ من باب التكريم تقليد عرفه المجتمع السوداني منذ عهد بعيد وتقع عبودية جنوب - عبري.. وزعموا أنه قدم من مكة المكرمة واسمه كما يقول الراوي - علي بن الشريف بن مكى بن مدني إلخ ويعرف أحفاده ببلاد المحس باسم «أولاد ابود».

فقير عيسى:

قدم الشيخ عيسى من بلاد الكنوز في صعيد مصر ومعه أخواه الشيخ زمراري والشيخ منور واستقر الشيخ وبني خلوة تدريس القرآن والمسجد وشرع يعلم الأهالي أصول الدين ولم تعرف قرية «موركه» بجزيرة «صاي» قبله معلماً وأما أخواه زمراري ومنور فقد أصلا رحلتها جنوباً حيث استقر زمراري في قرية «كرمه» ومنور في بلدة «البرقيق» بدنفلا وكان لهما فضل العلم في المنطقتين.

وتضيف الرواية أن والد الفقير عيسى قدم إلى بلاد الكنوز من الحجاز وقد غرس الشيخ عيسى في أهل المنطقة حب العلم والفضيلة وما زال هذا الروح يسري في أهل المنطقة.

الشيخ الحاج منصور:

قدم الشيخ منصور من بلاد المناصير وتحول في بلاد النوبة وطاب له المقام في المحس «السكوت» قرية «بته» وأنشأ خلوة لتدريس القرآن الكريم في داره وبدأ يعلم الناس الفقه وأصول الدين وما زالت ذرية هذا الشيخ «بصاري» وتعرف بعائلة «منصوري» ولهم فضل وسبق في مجال تعليم القرآن.

الشيخ فلاتي:

عرف الشيخ فلاتي في هذه المنطقة منذ تسعة أجيال وهو أصلاً من منطقة «قامي» وترك بلده الصغير قامي من أجل التعلم فلما نهل منه، عاد لوطنه يعلم أهله ومواطني المنطقة القرآن والفقه، ووقع خلاف بينه وبين أهله بسبب مسألة فقهية إذ يرى كثير من الأهالي عدم إعطاء البنت نصيبها من الميراث ويرى الشيخ فلاتي أن تعطى البنت حقها فلما اتسع الخلاف بينهما هجر بلده «قامي» إلى «حميد» فأسس فيها مسيداً وصار يعلم الناس ويدعوهم للحق والخير إلى أن توفاه الله.

الشيخ عامر :

ولد الشيخ محمد عامر في جزيرة كُلب ونشأ في كنف المعرفة الدينية حيث درس القرآن في خلوة كُلب أكبر خلوي المحس وصار شيخاً ومعلماً بارزاً فلما كبر قدره فكر في بناء دُف في - تبج - فلم يوافق أهالي بحجة أنه «عربي» من أرض الحجر وأن الأهالي لا يثقون في نسبه فلما تبين له ذلك أرسل إلى أخيه في كُلب يطلب شجرة نسبه وخرج مع حامل النسب جمع غفير من الناس زعموا أن أوله في قرية - ابداد - وآخره في خور عكاشه.

فأقر المجتمع بعد أن اطلع على النسب بشرف الرجل وعلو قدره وأنه بالفعل قدم من أرض الحجاز «مكة» وبعدها بنى - الدف - وعاش بقية حياته معلماً وغيرهم كثير - أمثال المشايخ:

١/ خليل أبو بكر.

٢/ ود قوديب.

٣/ سليم آت - محمد أبو سليم - ادي.

الصواردة:

صواردة من أشهر بلاد المحس وتقع في الشق الشمالي الذي يعرف بالسكوت. ولها شهرة كبيرة في وسط السودان ولاسيما في الحقب الماضية من السنين، والمواطنون في أصقاع السودان يعرفون المحس إجمالاً ويميزون - الصواردة من بين المحس ويردونهم إلى صواردة «البلد»^(١) وكانت صواردة منطقة عامرة بالخلوي والمسايد ولأهلها معرفة بصناعة السواقي والمراكب كما يعرفون فن التجارة والذي يهمننا هنا المدرسة القرآنية «المسيد» الذي اشتهرت به صواردة في العهود الماضية ولما استتب الأمن نسبياً بقيام دولة الفونج خرج جماعات

(١) صواردة البلد - أو إلى جدهم صار.

من موطنهم صوارة واتجهوا جنوباً لداخل السودان وتركزوا في القرى «الحواضر» المشهورة في تلك الأيام، شندي - الحلفايا - الخرطوم - سنار وغيرها من الأماكن التي يقصدها أصحاب الرسالة التعليمية وفي الحواضر عصرئذ محال لمن يتغى أن يُعلم الناس أو يتعلم لأن بها كما نقول بلغة العصر الكثافة السكانية والعيش الميسور والأمن، ولم يكن انتشار الصوارة في هذه الأماكن وحدها فقد قصدوا أماكن أخرى من السودان وأقاموا بها وذرايعهم وآثارهم شاهد على ذلك. أما الأماكن الأربعة التي أشرت إليها فهي:

١/ دار الجعلين شندي.

٢/ الحلفاية.

٣/ الخرطوم.

٤/ سنار.

الصوارة في شندي:

دخل الصوارة دار الجعلين مطلع القرن الثاني عشر الهجري كما ذكر الأستاذ عبد الحي الحاج جابر رحمه الله وهو من أعمدة أسرة الحاج جابر. فحوى قوله أن جداهم محمود ولد عبد الرحيم والد الحاج جابر هاجر من صوارة مجاهداً. ينشر القرآن ومكث في منطقة شندي فترة ثم استقر في قرية «الحوير» غرب شندي وشمال النعمة حيث أنشأ المسيد الذي ظل يدرس ويؤدي رسالته حتى يومنا هذا ورغم أنهم صاروا جزءاً من المجموعة الجعلية إلا أن نسبتهم لصوارة معروفة وهم بها معتزون.

سردية:

وذكرت الروايات الشفهية أن جزيرة سردية «وهي من أشهر الجزر في منطقة شندي» عمرها الصوارة في زمان ماض ومنهم أخذت اسمها «سردية» وأصله «صاردية» نسبة للصوارة وكانت مشهورة بالعلم والتجارة وتقصدها المراكب

الصاعدة والنازلة وزارها بعض الأجانب بحساباتها محطاً مهماً قبل شندي كما زارها كثير من علماء السودان ووجهائه - كالسيد الحسن الميرغني «الكبير» والسيد عبد الله بن فحل والد الإمام المهدي ومنها تزوج والدته الإمام المهدي السيدة «زينب بنت نصر» في الشقالوة «والشقالوة وسردية قريتان مكملتان بعضهما لبعض» كما زارها الإمام المهدي في تحواله لطلب العلم وغيرهم - كما أهدتنا «سردية» الشاعر المفوه أحمد أبو شريعة عليه الرحمة.

الخرطوم والصوادة:

يحسب الصوادة من أوائل العشائر التي استوطنت الخرطوم ولا نستطيع أن نحزم إن كان دخولهم الخرطوم مع أبناء عموماتهم المحس أم بعدهم ومن الشواهد الدالة على قدم وعراقة سكان أي منطقة «حول النيل» امتلاكهم للأراضي النيلية الحزر والشواطيء وأكثر الأراضي النيلية يعود امتلاكها لعهد السلطنة الزرقاء قبل أربعة قرون مما يدل على عراقة ملاكها. والصوادة من أكثر المجموعات امتلاكاً للأراضي النيلية في الخرطوم «العاصمة» وكانت رئاسة الخرطوم الإدارية «الأهلية» في بيت الصوادة آل المرضي ود الخضر.

الصوادة في الحلفايا

الحلفايا لا ريب كانت حاضرة البلاد ردياً من الزمان وعرفت «بحلفاية الملوك» نسبة لملوك العبدلاب الذين أسسوا المملكة الإسلامية المعروفة بالسلطنة الزرقاء مع الفونج، ثم قسموا السلطنة جزأين الجنوبي عاصمته سنار والشمالي عاصمته قرّي^(١) ونقل العبدلاب كرسي السلطنة بعد ذلك إلى الحلفاية ومن ثم أطلق عليها اسم حلفاية الملوك.

(١) قرّي تقع شمال الحيلي وتعرف بلغة السكة حديد بمحطة - جبل جاري - حوالي ١٠٠ كيلو من الخرطوم. وكانت عاصمة لمملكة العبدلاب.

وهم قوم منسوبون إلى جدّهم صارّد أو «صاردي» ويذكرون أن صادر هذا أخو جذام وعبد العزيز «محسي» وكلهم من أبناء ذبيان ويرجعون بنسبهم البعيد إلى جهينة وهم كبقية المحس ينتسبون إلى كعب الخزرجي الأنصاري وينتسبون في رواية أخرى إلى عقيل بن أبي طالب. فهم من هذه الناحية إخوان العقليين والعاقلة والعقيلات «العقيلات بمصر».

والصواردة من أقدم العناصر حضوراً في الحلفاية وإليهم تنسب أكبر مقابرها المسماة «بترب» الصواردة. شمال المدينة^(١)، وقد اشتهر الصواردة بالعلم والورع ومن شيوخهم الفقهاء الشيخ حميد الصاردي المولود بالكبر قرب المسلمية الذي أخذ عليه التوحيد والعريّة الفقيه ضيف الله بن علي الفضلي وإليه ينتسب صواردة الحلفاية ومنهم الولي علي بن قنديل الصاردي جد الفقيه علي بن بري لأمه وأم الشيخ حسن ود حسونه صاردية من أمها - ولعل سكناتهم كانت بحي أبي حميدة القديم - شمال الحلفاية أو قرب مقابرهم.

وقد تفرق الصواردة في مختلف جهات السودان وكانت صلاتهم بالجعليين قوية وبالذات «المسيكتاب» حتى ظن كثير من عامة الناس أن الصواردة من الجعليين. ورغم قدمهم في الحلفاية إلا أنهم فيما يبدو قد اضمحلوا بسبب الهجرة إلى «البيكورة»^(٢) والجزيرة عامة وغيرها. ولم يبق منهم إلا عدد قليل من الأسر يتصل معظمها بصلات القريبى والنسب مع مجموعة «البيحياب» الذين ينتسب معظمهم إلى قبيلة الأحامدة «وبعضهم يزعم أنهم من «الحمدة» وهو بعيد ولكن كثير من أهل الحلفاية يتصل بنسبهم من ناحية الأمهات مثلما هو الحال مع المجموعة الحميدانية بالحلفاية فإن كثيراً من أمهاتهم صارديات.

(١) حلفاية الملوك التاريخ والبشر - بروفسر عون الشريف قاسم صفحة ٤٦٠ ويرجع القارىء لشجرة نسب

الصوارد في الكتاب المذكور صفحات ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) بلدة بين مدني والحصاحيصا.

الصواردة في سنار:

سنار هي عاصمة أكبر دولة في تاريخ السودان حيث دام سلطان تلك الدولة ٣١٦ سنة ولما كانت سنار حاضرة البلاد ترامت سمعتها إلى كثير من الشعوب في الشرق العربي والعالم الأفريقي. ودخلها في تلك الحقبة جماعات من العلماء والرحالة والتجار من خارج القطر.

كما أمها كثير من أهل السودان من مدرسي القرآن وأهل العلم وأصحاب الحرف والتجارة. وكان على رأس المعلمين نفر من شمال السودان في مقدمتهم - الصواردة وعمل كثير منهم معلمين حيث فتحوا الخلاوي وأقاموا المساييد لتدريس القرآن وعمل بعضهم في القضاء وأكثرهم عملوا كتاباً للدولة، ونساجاً للمصاحف. وهذا دليل على أنهم قدموا من منطقة عرف أهلها العلم.

ثم تفرقوا في نواحي سنار حتى جبال الفونج وفازغلي وبعضهم توغل حتى بني شنقول^(١) واصوصا ولهم بقايا في تلك الجهات حتى الآن. وفي مكوار^(٢) «سنار المدينة» رهط كبير من الصواردة وعلى أيام الانجليز كانوا لا يسمحون لمن يجلس على كرسي القضاء أو الإدارة إلا لرجل يزكيه المجتمع والمجتمع لا يضع في هذه المناصب إلا لمن تضرب أعراقه في تراب هذا البلد وقد وقع الاختيار لنظارة سنار ولرئاسة محكمتها لأحد أبناء الصواردة وهو الشيخ عثمان علي.

الصواردة في سهم الأرحام

أخذت هذا عن رجلين عارفين أحدهما الفكي عبد الله بقرية «ملولحة» شرق

(١) بني شنقول - أصلها فلشنقول وقلبها اللسان العربي فصارت بني شنقول وهي المنطقة التي ضمت إلى أثيوبيا عند الفتح الانجليزي المصري.

(٢) مكوار هو الاسم الذي عرفت به مدينة سنار (المدينة) أما سنار صاحبة الاسم فهي سنار (التقاطع) اختبرته السكة الحديد.

الحاج عبد الله^(١) ومن الصواردة جماعة بعمارة الحاج طه وقد زرتهم في العمارة وهي جنوب الحصاصيصة واتصلت بأبناء علي طه منهم إبراهيم ومحمود وعبد الرحمن «الوزير»^(٢) وغيرهم.

وقد ذكرتهم مع «المسيكتاب» وذكرت ذكرية «علي طه» بالعاصمة المثلثة. وذكر الكاتب أن جد الصواردة يسمى محمد صارد أو سارد ومن الصواردة آل الأزهرى بتوتى والجوير ورفاعة ومنهم المشايخ الصديق وحسن الأزهرى والأمين وغيرهم ويتصل بهؤلاء ذرية أبي الروس^(٣) بالعاصمة المثلثة. ومنهم أولاد المرضي وأولاد القلب حدثني بهذا الخليفة إبراهيم القلب ب - بري الخ.

المحس في أنحاء السودان:

حسبما توصلت إليه أن قبيلة المحس من أكبر قبائل شمال السودان وخرج كثير منهم من أجل نشر المعرفة وما من منطقة أو قبيلة في أطراف النيل إلا وبها أثر من آثار المحس.

أما أكثرهم فقد نفذوا إلى قلب البلاد الخرطوم والنيل الأزرق والنيل الأبيض وغير ذلك من الأمكنة التي أشرت إليها من قبل وبعد حديثنا عن المحس في الشمال ننتقل إلى محس وسط السودان وتخيرات علماء من أعلامهم لا يختلف عليه علماء ومثابرة وجهاداً هو سيدي «أرباب العقائد».

يهتم أهل السودان اهتماماً كبيراً بالنسب ولاسيما ما يربطهم بالأصل العربي

(١) ملوحة - والحاج عبد الله قرنتان الأولى شرق النيل والأخرى في الجزيرة.

(٢) الأستاذ عبد الرحمن علي طه معلم بارز، تولى وزارة المعارف - التربية والتعليم - قبل الاستقلال ومؤلف كتاب [السودان للسودانيين].

(٣) آل أبو الروس من قدامى سكان الخرطوم حي المقرن.

سهم الأرحام في السودان - تأليف عثمان حمد الله مكتبة القاهرة - علي يوسف.

الإسلامي وما من بيت كبير إلا وبه شجرة نسب. ولعل تعلقهم بالنسب يرجع لسببين.

الأول: ناحية إسلامية إذ الاتصال ببيوت الشرق الإسلامية يكسبهم وضعاً اجتماعياً ممتازاً ويكون لهم تقيّة من كثير من الشرور التي تأتي من القبائل المشهورة بالإغارة والسطو فقد درج المجتمع القديم في السودان ألا يغير على مال ولا عرض من لهم صلة بآل البيت وكان ذلك في غضون القرون الثلاثة الثامن والتاسع والعاشر «الهجري» وتعرف تلك الفترة بفترة «القيمان» مفردها قوم - وذلك قبيل قيام السلطنة الزرقاء - وعهد القيمان كان عهد غارات وثارات واتفقت الجماعات القبلية ألا تمس العشائر والقبائل ذات الأصل «الشريف» بأي أذى احتراماً لصلتها بآل البيت ولهذا السبب وغيره جعلوا «وسماً» خاصاً بالأشراف وعرف الوسم بين الناس قديماً وحتى وقتنا الحاضر باسم «العرج» صفته هكذا (ك) يوضع ميسماً على بهائم الأشراف فإذا أغار الصعاليك (الهمبابة) على حي أو مكان تحاموا الإبل التي تحمل هذا الوسم وإن أعلنوها مساءً وعرفوا في الصباح أن وسمها «العرج» ردوها إلى أهلها. وظل وسم الأشراف محل احترام جميع القبائل ولا يستطيع أحد تقليده فهو خاص بهذه الأسرة فقط ولا يقبل المجتمع أن يقلده كائن من كان من العشائر الأخرى.

السبب الثاني:

أما السبب الثاني فهو عربي بحث وما زالت بعض القبائل والشعوب في بلادنا فيها نبض جاهلي «المفاخرة بالنسب» ولذلك يحترز كتاب الأنساب في كل نسب يكتبونه أن يذكروا طالب النسب بأي القرآن وبالقول المأثور ويكتبونه في صدر الصحيفة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له الوجود القديم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين - أما بعد فاعلموا أيها الإخوان أن حفظ الأنساب أهم شيء عند المتقدمين والإهمال فيه نقص وعيب للمحتهدين - ويذكرونه بقوله تعالى - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

وبعضهم يكتب قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾.

وكلهم متفقون على إيراد القول المأثور عن سيدنا عمر رضي الله عنه «تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم».

هذا والمحس الذين نزحوا من الشمال اهتموا كغيرهم بتوثيق النسب رغم أنهم لا يتلاحون به كما تفعل القبائل شبه البدوية في وسط البلاد، وأورد ههنا نسب أحد علماء المحس الذين اتفق المجتمع على احترامه وتوقيره بحسبانه شيخاً متجرداً وزاهداً فوق أنه أحد المشايخ الذين حرصوا على نشر القرآن وهومن المحس الذين استوطنوا قلب البلاد ذلكم هو الشيخ العالم أرباب العقائد^(١) وقد ورد باسم «محسن» في بعض النسب الذي أورده - «ماك مايكل» في كتابه «العرب في السودان» وكذلك ورد اسم «محسن» في النسب الذي أورده الشيخ الفحل ابن الفكي الطاهر في كتابه «تاريخ وأصول العرب في السودان» ص ١٠٣ ولعل

(١) أحمد بن علي بن عون بن عامر بن صبح بن فلاح بن شرف الدين ابن محمد المقلب «بمعجم» بن زايد بن محمد المعروف بـ «محس» ابن الملك سعد بن الملك جميل بن الملك حسن بن الملك أحمد بن الملك أمير بن عبد الكريم بن عبد الله - بن يعقوب بن جابر بن سعد بن موسى بن إدريس بن جميل بن سالم بن عبد الرحمن بن علي بن سلمان بن محمد بن زايد بن عمارة بن خارجه بن عبادة بن أبي بن كعب الأنصاري الخزرجي «والقاري» الشهير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مات عام ١٩ هجرية في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الراجح في ضبط هذا الاسم هو «محس» كما ذكر المؤلف عاليه لأن العربية لا تقر أن تكون النسبة إلى «محسن» «محسي» «ومحس» بتحريك المهملتين لقب غلب على محمد بن الملك سعد «ومَحَسَ» في لغة العرب تعني حمل في الحرب وأقدم. ومحس الأديم دبغه وألانه. والمحسي والمتحمس هو المقدام الشجاع. ولعل محمداً بن سعد كان مقداماً شجاعاً محساً - أو كان دابغاً للجلود وأستبعد هذا لأن الرجل كان من علية القوم ومن أسرة مالكة فلكن يكن مقداماً شجاعاً يحمل في الحرب من غير تهيب أخرى من أن يكون «دباغاً» وعليه فإن محمد «محس» تعني محمد «أقدم» في الحرب وحمل «وذلك مثل إبراهيم «جعل» فالنسبة إلى «جعل» جعلي والنسبة إلى محس «محسي» هذا وقد جعل الشيخ الفحل من «محسن» بن «مرزوق» والراجح من الروايات التي تحفظها الوثائق أنه ابن الملك سعد. والله أعلم أي ذلك كان.

١/ ومعروف عند المؤرخين وعلماء الاجتماع أن من تقاليد النوبة الذين كانوا يسكنون جنوب مصر وشمال السودان أن يورثوا الملك لابن أختهم ويبدو أن عبد الكريم بن يعقوب قد تزوج بنت أحد ملوكهم فولدت له «اقبر» الذي صار «ملكاً» ثم تعاقبت ذريته على الملك حتى أفضى الأمر إلى الملك «سعد» الذي ولد له محمد المعروف بـ«محس».

٢/ تقول بعض الروايات التاريخية أن «عبادة» ابن أبي بن كعب رضي الله عنهما دخل منطقة النوبة في حملة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح في خلافة سيدنا عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث. وقد ذكر سيدي الأستاذ الشيخ عبد المحمود أن خارجة بن عبادة هو الذي استقر في بلاد النوبة حينما دخل في صحبة قيس بن سعد الأنصاري الذي ولاه الإمام علي كرم الله وجهه على مصر. ومن مصر دخل خارجة إلى بلاد النوبة والله أعلم.

ومن هذا النسب نعلم أن الشيخ «أرباب العقائد» ينتمي إلى «المحس» كقبيلة

من قبائل السودان والتي هي فرع من عرب «الضباينة» التي سكنت منطقة النوبة بين الشلال الثاني والشلال الثالث من شمال السودان. وقد سمي هذا الفرع من عرب الضباينة بـ«المحس» لانتمائهم إلى «محمد محس» بن الملك «سعد» فهم على هذا عرب ينتمون إلى قبيلة الخزرج التي تنتمي إلى «قحطان» بن «يعرب».

وقد زعم بعض مؤرخي الفرنجة^(١) أن المحس لا صلة لهم بالعرب فهم خليط من النوبة سكان تلك المنطقة والزنوج. وهو زعم باطل ولكن ما ينبغي تقريره أن فرعاً من الخزرج دخل شمال السودان مع حملة «عبد الله بن أبي السرح» في عهد سيدنا «عثمان بن عفان» واستوطن المنطقة واختلط بسكانها الأصليين وهم نوبيون من أصل حامي وتزوجوا بهم. وكعادة النوبة في توريث الملك لابن الأخت حتى أفضى الأمر إلى «سعد» والد «محمد سعد» الجد الأعلى لقبيلة المحس المستعربة.

هذا وقد نزح بعض هؤلاء المحس في بداية القرن الثامن الهجري من شمال السودان إلى مناطق مختلفة في السودان وتفرعوا إلى شعب وبيوت.

وقد انتشر الجردقاب في كل من كردفان وجبل الجازاة وصحراء الكبايش وجبرة وسنار وتوتي والغيلفون. ومن فرع الجردقاب نجد «البركاب» نسبة للشيخ «بركات» والداخلاب ويتركزون في بري وتوتي والغيلفون وقرية النوبة على النيل الأزرق.

الصباح:

وهم رهط الشيخ «أرباب العقائد» ونسبتهم إلى صبح «العوناب» ونسبتهم إلى عون بن عامر بن صبح، ويسكنون الآن في بري المحس وتوتي والحلفاية والبشاقرة وما حولها.

(١) المستر «هل» في كتابه «العرب في السودان» والمستر «بوركهات» كما نقل عنه ماكمايكل في كتابه «تاريخ العرب في السودان».

المحمداب، الامحداب، والكبانية

وهم رهط الشيخ «خوجلي أبي الحاز» وقد غلب مؤخراً اسم «الخوجللاب» وقد استوطن «الخوجللاب» وهم فرع غالب من «الامحداب» جزيرة توتي وحي القبة من مدينة بحري. ومنطقة الخوجللاب في شمال الخرطوم بحري وفيهم بيوت في حلفاية الملوك وشمبات.

وهنا عدد من فروع المحس مثل المكيناب والمشرقاب والمنيناب والحاجاب والفلاتاب. وقد انتشروا على شواطئ النيل الأزرق وتعددت ذرايعهم ولا أقصد بهذا السير وراء الإحصاء والتدقيق في الأنساب وإنما أردت أن أشير إلى أصول الشيخ «أرباب العقائد». وللأصول والنسب احترام كبير في بلادنا فالمعلم صاحب الأصل والنسب ينصاع إليه المجتمع ويظنون به خيراً.

الشيخ أرباب العقائد

ميلاده:

ولد الشيخ «أرباب العقائد» في جزيرة توتي عام ١٠١٧هـ وما يوافق عام ١٦٢٠ وذلك في عهد الشيخ «محمد العقيل» بن الشيخ «عجيب» المانجلك بن الشيخ «عبد الله جماع» وقد كانت مشيخة «محمد عقيل» على «قرى» من عام ١٠١٥ إلى ١٠٤٥ هجرية ما يوافق ١٦٠٨م إلى ١٦٣٨ وقد ولد الشيخ «أرباب العقائد» بعد عامين من تولي الشيخ «محمد العقيل» مشيخة «قرى» وذلك عام ١٠١٧هـ ما يوافق ١٦٢٠ و السلطان الفونج يومئذ هو السلطان «رباط» بن السلطان «بادي» المعروف بـ«سيد القوم» وكان عمر الشيخ «إدريس» يوم مولد الشيخ «أرباب العقائد» ١٠٦ عاماً. وقد توفي سيدي «الشيخ إدريس الأرباب» عام ١٠٥٩هـ وعمر الشيخ «أرباب العقائد» اثنان وأربعون عاماً «٤٢ عاماً» فيكون الشيخ «أرباب العقائد» معاصراً للشيخ «إدريس ود الأرباب» على تقدم في سن الشيخ «إدريس ود الأرباب».

حفظه القرآن ودراسته الفقه وعلم العقائد:

حفظ القرآن على والده وهو في العاشرة من عمره ثم تخرج في علم الفقه بعد دراسة المختصر والرسالة وشرح الزرقاني على الموطأ على يد العلامة الشهير الشيخ «الزين» بن العلامة الشيخ «محمد صغيرون».

والمراجع التي كتبت عن تاريخ السودان في القرن الحادي عشر الهجري على ندرتها قل أن تخلو من بعض الإشارة إلى الشيخ «أرباب العقائد» وقد ترجم له الشيخ العلامة «محمد النور ضيف الله» في بضعة أسطر ولكنها حافلة بالذكر الجميل.

وقد استمر الشيخ «أرباب العقائد» في جزيرة توتي يث العلم وينشر العقيدة الإسلامية ويلقن كتاب الله عز وجل. ثم انتقل إلى الضفة الجنوبية من النيل الأزرق حيث مبنى مديرية الخرطوم اليوم وهناك أسس «خلوة القرآن» وبنى داراً للطلاب امتدت حتى المكان الذي يقوم عليه جامع فاروق اليوم وهناك رواية لا أذكر مصدرها تقول:-

أن مسجد فاروق يقوم على مسجد أرباب العقائد ولذا كثيراً ما يطلق عليه اسم الجامع العتيق. الأمر الذي يستحق التدقق للوصول إلى الحقيقة. ولا عجب فقد سبق القول أن طلابه كانوا من الكثرة بحيث يقدرون بألف طالب في الحلقة. وتزوج الشيخ «أرباب العقائد» عام ١٠٤٤ هـ امرأة من «البشاقرة» وأخذ الشيخ «أرباب العقائد» يواصل الدرس وتعليم الطلاب حتى عام ١٠٨٥ هـ وفي هذا التاريخ عزم الشيخ على الانقطاع إلى الله والخلوة وقد بلغ من عمره ثمانية وستين عاماً فانتقل إلى منطقة تقع جنوب غربي وعلى مسافة لا تزيد على الميلين شرقي النيل الأبيض - جنوب اقتران النيل الأبيض بالنيل الأزرق. والمنطقة يقال لها «الكرتوب» وسميت بذلك لأنها كانت «قمامة» أهل المنطقة يرمون فيها ما ينفق من دوابهم فوصفت بذلك.

١/ هنالك بعض الدراسات الحديثة تحاول أن تجعل «الكرتوب» أصلاً
«للخرطوم» مدخلين عامل التحوير في تطوير الألفاظ غير أنها محاولات فيها
الكثير من الاعتساف «والتكلف» الخرطوم اسم حديث يرجح أنه أطلق على منطقة
«المقرن شرق» عام ١٢٥١هـ مستمد من شكل خريطة المنطقة التي تشبه
«خرطوم الفيل» وقد اتخذ خرطوم الفيل رمزاً لمحافظة مديرية الخرطوم.

ومكث الشيخ «أرباب العقائد» في منطقة الكرتوب «خمس سنوات» قضاهما
متقشفاً صائماً قائماً. ولكن الشيخ «أرباب العقائد» بشهرته وبعد صيته لم يكن
ليخلو خلوة تقطعه من الناس بحيث لا يلتقي بهم بل أن عدداً من طلاب العلم قد
علموا مكانه وبعد معرفتهم مكانه وفدوا عليه يتغنون منه العلم والمعرفة رغم خلوته
- على أن عزلة الشيخ «أرباب العقائد» وانقطاعه عن الناس لم يدم طويلاً. فما
مضت عليه خمس سنوات حتى طلب منه السلطان «أونسه الثاني بن ناصر» أن يفد
إلى البلاط السلطاني في سنار عاصمة سلطنة الفونج فكان هذا الطلب إيذاناً بأن
يقطع الشيخ عزلته ويذهب إلى سنار. وقيل أن سبب دعوة السلطان «أونسه»
للشيخ «أرباب العقائد» للأسباب الآتية:

الأول:

أن الشيخ «أرباب العقائد» اشتهر بالعلم وقوة عارضته في العقيدة فأراد
السلطان أن يستفيد من هذه الطاقة العلمية الجبارة وهذا المعين الثر تزييناً لمجلسه
وارواء للمتعطشين للعلم، باستقدام جهازة العلماء مثل الشيخ «أرباب العقائد».

الثاني:

كان أول سني حكم السلطان «أونسه الثاني» عام قحط وجذب أصاب فيه
الناس ما أصابهم من جراء هذه المجاعة. فأكلوا كل ما يمكن أكله واضطر الكثير
منهم إلى أكل «لحم الكلاب» فعرفت هذه السنة وهي ١٠٩٠هـ بسنة «أم لحم»

وكانت المجاعة عامة حيث اضطر الشيخ «أرباب العقائد» للنزوح إلى سنار رجاء للحياة الكريمة. وقد نزح كثير من العلماء غيره. وكلا السببين وارد في الحسبان.

وما يهمنا أن الشيخ «أرباب العقائد» ذهب إلى سنار عام ١٠٩٠هـ ومكث في منطقة سنار اثني عشر عاماً. وقد تلقى عليه العلم في هذه المدة العديد من الرجال ولم يزل مجاهداً لنشر كلمة التقوى وبث العلم حتى توفي عام ١١٠٢ هجرية في عهد السلطان «بادي الأحمر بن أونس» ودفن حيث مات في سنار التي كانت عاصمة دولة الفونج. هذا وقد كان عمر الشيخ «أرباب العقائد» حين توفي خمسة وثمانين عاماً.

وقد وهب الله للعلامة الشيخ «أرباب العقائد» قلباً منيراً ونجوداً وانقطاعاً للعلم مما أهله للتفوق في العلوم الإسلامية بعامة وعلم العقيدة الإسلامية بخاصة. ولعل في شهرته بأنه «أرباب العقائد» ما يدل دلالة واضحة على ما بلغه الشيخ من شأو في هذا العلم ومن التزام بمقتضيات هذه العقيدة ولوازمها حتى صار بذلك دلالة متحركة وآية بارزة ومعلماً شاخصاً للعقيدة الإسلامية.

وقد عرف الشيخ «أرباب العقائد» بلقب آخر لا يقل روعة وعمقاً وإثارة عن سابقه. ذلك هو شهرته بـ«أرباب الخشن» وقد عللت خشونة أطرافه بكثرة الوضوء وإسباغه في مكاره الأحوال من غير ترفه من الشيخ بما يكسب بشرته ليناً أو نعومة.

ولقد كان لشهرة الشيخ «أرباب العقائد» بالعلم أثرها الكبير في استقطاب التلاميذ حوله حيث وجدوا فيه العالم الذي يتدفق علماً. وقد اتخذ من منطقة الشاطئ الجنوبي للنيل الأزرق مما يقابل توتي مركزاً دراسياً فوفد عليه الطلاب من دار الفونج «منطقة سنار وما حولها» ودار برنو وشاد وإفريقيا الوسطى «السودان الغربي قديماً» وقد كانت حلقاته تضم «ألف» طالب كما ذكر الشيخ «محمد بن ضيف الله في الطبقات» ومن أشهر تلاميذه الذين صاروا شيوخاً

للإسلام من بعد ولهم أثر كبير في نشر الإسلام والثقافة العربية في السودان:

الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن «أبو الحجاز»

الشيخ فرح ود تكتوك

الشيخ محمد بن ضيف الله

الشيخ محمد بن حنيلك

الشيخ حمد ود أم مريوم

الشيخ القرشي الصلحابي

الشيخ هارون بن حصي

وكلهم عاشوا في عهد أول حكومة إسلامية في السودان. هي دولة الفونج ولا تزال آثارهم ومعالمهم التي أقاموها على طريق الحق تهدي السالكين وتنير طريق السائرين إلى يوم الدين إن شاء الله.

حمد ود أم مريوم

محمد بن علي المشيخي المشهور عند الناس بود أم مريوم، أمه محسية مشرفية من بنات ود قдал وأبوها ود كشيبي، وهو مسلمي الأصل ولد بجزيرة توتي سنة ١٠٥٥ هجرية، حفظ الكتاب عى الفقيه أرباب الخشن «أرباب العقائد» وقرأ عليه التوحيد وابن عطاء الله، وأتم ختمين لخليل عند الفقيه حمد أرباب.

كان الشيخ حمد آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر لا تأخذه في الله لومة لائم، كان عنيفاً على الحكام وكان يقول «أول أمري أقوال وثاني أمري أفعال وثالث أمري مقاصد، فأما الأقوال فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ذلك أن يأمر من تاب على يديه ألا يزوج ابنته أو موليته لفاسق كالحالف بالطلاق والغاصب وأكل الربا ومن ذلك أنه قطع مخالطة الرجال مع النساء وأمر بغض النظر وأمر

بقطع كلام النساء من حيث يسمع الرجال كلامهن خيفة الفتنة، وأنه أمر بترك «بكاية النساء» وقال ذلك هو السنة، ومن ذلك أنه يقول لمن جاءه لحفظ القرآن لا يجوز لك أن تقرأ وأنت جاهل بفرائض العين، فرض الله عليك أحكام الوضوء والصلاة ومعرفة الله وأما القرآن فنافلة إلا أم القرآن خاصة في الصلاة فإنها فرض، ومن ذلك أنه يأمر الإنسان بمواصلة أرحامه ويأمره ألا يتكلف للأضياف بل يعطيهم «ما فضل» من نفقة عياله ومن ذلك أنه يشترط على «الواقع عليه» من السلطنة وغيرها أن يصلوا الأوقات الخمسة معه هم ونسائهم وأتباعهم ومن لم يفعل ذلك يطرده، تبعه على ذلك جماعة من المحسن منهم الفكي محمد ولد صباحي، وولده وأخوه وأولاد عيسى رحمه والفكي عباس والفكي شكر الله ولد منوفاً والفقيه محمد ولد زمر وابنه وجماعة كثيرة من بني جرار، كان يأمر فيمثل لأمره ويقول فلا يسأل عن دليل ويأتي بالجواب فلا يجسر أحد على مراجعته، وأتباعه في ذلك من النساء أضعاف الرجال وأكثرهن من عرب فزارة.

وقول الشيخ وثاني أمري أفعال منها، لبسه للحبة والمرقعات ونسج «عناقرية بالليس»^(١) وجعل «الخريم»^(٢) طعاماً له يتقوت به، وقال لأجل علل ثلاث، هضم للنفس، وقلة الحلال في زماننا واتباع السلف الضالّح، ومنها أن السلطة وضعت على زراعته نصف الخراج فأخرج لها نصف الخراج ومن القنقر والقرون، وحمل محصل الضرائب ذلك وقدمه للشيخ عجيب ود العجيل، فقال له دا شنو، قال جابو فقير يقال له «ولد أم مريوم» فقال الشيخ عجيب الدار تصدقنا بها عليه، ومن أفعال الشيخ ولد أم مريوم أنه بنى له حائطاً بين زراعته وزرع جاره حتى لا يقع ثمر زرع جاره في أرضه. ومنها أنه كان كثير الرحيل بين الديار إذا نزل داراً وكثر فيها الناس يرحل عنها، ومنها أنه كان إذا أراد بناء البيوت يأمر بقطع المروق والشعب

(١) شجر متسلق معروف.

(٢) الخريم ثمر شجر الحراز.

والرصاص ويصر على مساواتها في الطول والعرض وإذا ما وجد في واحد منها
اختلافاً أمر بقطع غيره خوفاً التأثير على النساء ويوت نسائه يساوي بينها في
الأرض وفي الوضع كهيفة بيوت أمهات المؤمنين.

ومن أفعاله إقامة الحدود الشرعية في أهل بيته وغيرهم وأن ابنه الشفيح تزوج
على «فوق» زوجته القديمة وآثر الحديد عليها يومين أو ثلاث «فشعبه وأرمدته»
وغز عوداً في الشمس ربطه فيه أياماً وقال عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة
وفعل قبل ذلك بآخرين، ومن أفعاله أن بني حرار يأتونه كل سنة بركة مواشيهم
نقداً فيشتري بها الرقيق ويعتقه.

توفي الشيخ حمد سنة () ودفن بأبي نجيلة المقبرة المشهورة جنوب حلة
خوجلي رضي الله عنه.

ورثته إحدى تلميذاته من قبيلة فزارة بالشعر الدارج قالت:

أهونا أبو دلقاً مرقع
العنده الرأي والصح المفقع
أهونا المنع المناكر والكباير
أهونا العلى الفزاريات فقاير

هذا وقد اهتم الشيخ حمد بتعليم النساء اهتماماً كبيراً وجعل لهن خلوات
ومساكن على شط النيل الأزرق من «جنينة الخواجة» إلى مكان كبري النيل
الأزرق الحالي وإدارة الواورات النهرية ويعتبر الشيخ حمد نموذجاً لمن خرجهم
المسيد.

الباب الثالث

البديرية

رغم أن الشياخة القرآنية بدأت بالركابية فإن البديرية لا يقلون عنهم من حيث الأداء والانتشار والجهاد.

وعلى رأس البديرية العالم الفذ سيدنا محمد عيسى سوار الذهب وأولاده العشرة وقد ترجم له ود ضيف الله قال - محمد بن عيسى بن صالح الجعلي البديري المشهور بسوار الذهب وأمه اسمها «حقيقة» قرأ «خليل» على أبيه الشيخ عيسى فأخذ عنه ختمة تامة، والثانية إلى الحنائز^(١) وبعد وفاة أبيه درس وقرأ علم العقائد والمنطق وعلم القرآن على المصري، ثم انتشر علم الشيخ محمد عيسى سوار الذهب في جزيرة الفونج وممن أخذ عليه علم التوحيد الفقيه حسن أبو شعر شيخ أولاد بري^(٢) وأخذ عليه علم القرآن وأحكامه الشيخ عيسى ولد كنو وعبد الله الأغيش والد الغبش ونصر الترجمي والد الفقيه أبو سنينة شيخ أربحي^(٣) والفقيه عبد الرحمن أبو ملاح وأبو ملاح والد الشيخ خوجلي «أبو الحاز».

ومن زملائه وأصحابه نذكر الشيخ عووضة شكال القارح والشيخ عبد الله راجل قرّي والشيخ عبد الرحيم والشيخ محمد ولد العباسي راجل وهيب وأنقاوي والشيخ حمد ولد أبو حليلة الركابي وهؤلاء وغيرهم أخذوا عنه العلم إلخ..

(١) باب الحنائز في الفقه المالكي عن طريق خليل.

(٢) أبناء بري - إبراهيم وعلي من العلماء الأبهكار.

(٣) أربحي مدينة رائدة في العلم والمعرفة والعمران ومن معانيها عند التربة والدناقلة - المكان خارج المدينة بمعنى سكن البدو.

وديار البديرية تمتد من دنقلا العجوز شمالاً إلى الدبة جنوباً. وحجر الحد بين البديرية والشايقية في قرية «الباسا» جنوب الدبة أما عاصمة البديرية فهي «العفّاض» وما من قرية في هذه الرقعة إلا وبها مسيد وخلوة قرآن. قوشايي - تنقسي - البار - جلاس - الغريبة - أم درق - مورة - كورتى - البرصة - وهي موطن آل الشيخ العجيمي وهم علماء سنة وأهل جهاد.

ثم انتشر البديرية في منطقة الشايقية ودنقلا وديار الجعليين ووسط السودان والحزيرة وكردفان ودارفور والنيل الأزرق - وأماكن أخرى كثيرة.

وللبديرية فضل كبير على الأماكن التي درّسوا فيها، وكان حكام الفونج والعبدلاب يسعون لهم ويتوددون لهم ليرحلوا إلى مناطقهم حباً في علمهم، كما أن وجودهم في أي منطقة يكون صمام أمان للحكام بالمنطقة التي يقيم فيها كبار مشايخ البديرية تكون مهابة ومحمية من كثير من الشرور والغارات التي تشنها القبائل بعضها على بعض ورغم أن فضل البديرية لا يحصى فإنني أورد مثلاً لمسيد رائد.

مسيد الغريبة - ١٨٨٨هـ

الغريبة قرية ذات وزن ثقافي وتاريخي وأسري. الفضل راجع في هذا إلى القرآن وإن كان لكل قرية أو مدينة سمة اشتهرت بها فإن قرية الغريبة شهرتها بالقرآن وقد دوى فيها صوت القرآن الكريم في سنة ثمانية وثمانين وثمانمائة هجرية. ففي تلك السنة قدم «علي الحاج بلال» البديري الدهمسي وتذكر إحدى الوثائق أن الشيخ علي الحاج بلال قدم مع آبائه من جهة الغرب ونزلوا سنار وكان في معيتهم بعض الحفظة والفقهاء لإرشاد الناس هنالك. ثم وقع خلاف بينهم وبين سلطان سنار فبارحوا سنار متجهين شمالاً إلى أن حط ركبهم في هذه المنطقة «الغريبة»^(١) ثم بدأ الشيخ علي الحاج بلال إشعال نار القرآن الكريم ثم عم ذكر

(١) الغريبة قرية مشهودة بالقرب من كورتى.

الرجل وعلو همته كل أنحاء الإقليم فقصده الطلبة والحياران من كل الجهات وصار اسم الحاج بلال واسم الغريبة على كل لسان.

ثم تلى علي الحاج بلال أولاده وأحفاده واستمرت الدراسة حتى يومنا هذا.

والأسرة لا ريب أنجبت الحفظة والفقهاء الذين حافظوا على نهج آبائهم، وآل الحاج بلال من الأسر القليلة التي اهتمت بالكتابة والتدوين وهذا ثبت بأسماء المشايخ الذين تعاقبوا على «حمل السوط»^(١) الدراسة وهي مرصودة في ثبت خاص نقرأه على النحو التالي:

الاسم	من - إلى	المدة بالسنة
١ الشيخ علي الحاج بلال	٨٨٨ - ٩٤٨	٦٠ سنة
٢ الشيخ عز الدين علي بلال	٩٤٨ - ١٠٠٣	٥٥ سنة
٣ الشيخ علي عز الدين	١٠٠٣ - ١٠٦٣	٦٠ سنة
٤ الشيخ حامد الشيخ علي	١٠٦٣ - ١١١٨	٥٥ سنة
٥ الشيخ محمد حامد	١١١٨ - ١١٧٣	٥٥ سنة
٦ الشيخ معروف محمد حامد	١١٧٣ - ١١٨٨	١٥ سنة
٧ الشيخ حامد الفكي محمود	١١٨٨ - ١٢٢٨	٤٠ سنة
٨ الشيخ محمود الفكي حامد	١٢٢٨ - ١٢٧٣	٤٥ سنة
٩ الشيخ نور الدين محمد	١٢٧٣ - ١٢٧٤	١ سنة
١٠ الشيخ أبو زيد محمود	١٢٧٤ - ١٣٢٩	٥٥ سنة
١١ الشيخ محمد صديق المفتي	١٣٢٩ - ١٣٥٩	٣٠ سنة
١٢ الشيخ سر الختم محمد أحمد	١٣٥٩ - ١٣٨٣	٢٤ سنة
١٣ الشيخ القاضي نور الدين	١٣٨٣ - ١٣٨٩	٥ سنة
١٤ الشيخ أحمد عبد الرحمن محمد غير	١٣٨٩ - ١٤٠٨	

(١) حمل السوط كتابة عن القيام بالتدريس..

والشيخ الفقيه عبد الرحمن محمد خير المشهور «بالصيادي» هو الشيخ الحالي^(١) الذي يشرف على هذه المدرسة القرآنية «خلوة الغرية» وقد أمضى تسع عشرة سنة في التدريس نرجو له العافية وسداد الخطى.

وهو الشيخ الذي نقلنا عنه هذه القائمة من المخطوطة الأصلية، هذا ولما كانت الغرية شعارها القرآن منذ ذلك التاريخ البعيد فقد رسخ في قلوبهم حب القرآن يدرّسونه ويُدرّسونه وتخرج منها الكثير وكانت تتلقفهم الخلاوي الأخرى لأنهم خريجو خلوة الغرية ذات السمعة الكبيرة وقد انتشروا في أماكن كثيرة من البلاد ونذكر في هذه القائمة بعضاً من ذلك النفر الذي درّس في أماكن أخرى.

عدد	اسم المعلم	الخلوة	المكان
١	الشيخ أبو كسبة	درّس في خلوة الدويحية	الدويم
٢	الشيخ معروف	درّس بعده في خلوة الدويحية	الدويم
المدة عشرين سنة			
٣	الشيخ محمد الفكي حامد	درس في خلوة الدويحية ٢٠ سنة	الدويم
		كما درس في خلوة العامراب	
٤	الشيخ الفكي نور الدين	درس في خلوة أبورنات	
٥	الشيخ محمد صديق	درس جزيرة التلبناب	
٦	الشيخ أحمد معروف	درس في خلوة	كورتي
٧	الشيخ عثمان محمد نور الدين	درس في خلوة	كورتي
٨	الشيخ الفكي المفتي	درس في خلوة	كورتي القويز
٩	الشيخ عبد الواحد أحمد	درس في خلوة	كورتي

(١) رواية شيخ المسيد الحالي. الشيخ عبد الرحمن الصيادي.

١٠	الشيخ محمد الفكي المفتي	درس في خلوة	كورني القويز
١١	الشيخ عبد الواحد أحمد	درس في خلوة	كورني الفريق
١٢	الشيخ أبو زيد محمد	درس في خلوة	جلاس أم دروق
١٣	الشيخ عثمان عبد الله	درس في خلوة	الأراك
١٤	الشيخ محمد الأمين	درس في خلوة	الأراك
١٥	الشيخ عثمان الصافي	درس في خلوة	حزيمة
١٦	الشيخ محمد الأمين	درس في خلوة	الزومة
١٧	الشيخ عبد الله أحمد حفصة	درس في خلوة	الزومة
١٨	الشيخ سيد أحمد التهامي	درس في خلوة	
١٩	الشيخ علي محمد سعيد	درس في خلوة	مروى شرق
٢٠	الشيخ الحسن محمد نور الدين	درس في خلوة	بربر مديرية النيل
٢١	الشيخ الفكي حامد	درس في خلوة قوز البساير	ريفي شندي
٢٢	الشيخ الحاج أحمد بن	درس في خلوة أو سلي	مركز مروى
	الحاج قرني		
٢٣	الشيخ سر الختم الصافي	درس في خلوة كسلا	البحر الأحمر
٢٤	الشيخ أحمد الفكي المفتي	درس في خلوة ودسلفاب	الحزيرة
٢٥	الشيخ سليمان ود حامد	درس في خلوة	الدويم

هذا وعددهم عموماً كبير وقد درّسوا في كل أنحاء السودان وكلهم من حفظة خلوة الغرية القديمة وأحفاد الشيخ علي الحاج بلال.

هذا وقد وجدنا في الكتب القديمة مختصر الإمام خليل في الفقه على مذهب مالك كاتبه محمد بن سراج الدين بن الشيخ علي الحاج بلال.

وقد ذكر في ختامه أنه أكمل كتابته في يوم الثلاثاء خامس شهر شوال سنة ٩٧٢هـ.

وقد قال في لفظه أنه قد كتبه وفقاً لإخوانه وأبنائه أبناء الشيخ علي الحاج بلال
على لفظه أيضاً وجدنا ثلاثة كتب مع هذا الكتاب لم نحصل على تاريخها لطول
الزمن وهي الآن موجودة عندنا بالمسجد ومعها مخطوطات كثيرة.

وجرى العرف والتقليد أن يتوزع أبناء القرية طلبة القرآن ويتولون طعامهم
وشرابهم وكل متطلباتهم وهذه قائمة بأسماء الطلبة وأسماء أصحاب البيوت التي
تقوم بإطعامهم وهي من باب التمثيل لا الحصر.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام
على من لا نبي بعده
الغدير شيخ صالح قاضي
أما بعد لما ولاني أفندينا ولي نعمنا
اسماعيل بن باسنا أمراد فطاحيلاد الشا
يعقوب وفي بلاد دغلة الي حد كوري
وفواجيها بالاشا والغضا للفقير حامد
ابن محمد بن الحاج حامد البلالاي في الاحكام
الشرعية الموافقة للسنة المحمدية بخير
ذلك ثلاثة وعشرين خلون من شهر صفر
من الهجرة

تحررت الوثيقة بتاريخ صفر ١٢٣٧ هـ

العدد	أسماء الطلبة	المكان	المتكفل
١	الحاج هارون محمد	نيالا	أحمد عبد الرحمن محمد خير
٢	سليمان هارون محمد	-	عبد الرحيم القاضي
٣	سليمان عمر	-	أحمد خالد أحمد
٤	عيسى عبد الله آدم	-	خليفة سر الختم
٥	إسحاق عبد الله آدم	-	محمد محمد سعيد
٦	صالح إسماعيل دام	-	عثمان عبد الرحيم
٧	موسى عبد الله إبراهيم	-	عبد الله أحمد عبد الله
٨	موسى زكريا	-	محمد الحسن أحمد
٩	إبراهيم النور	-	مالك محي الدين
١٠	دام عثمان	-	محمد الياس
١١	يوسف أحمد	-	أحمد سليمان
١٢	علي محمد	-	علي احمودي
١٣	علي محمد	-	عبد الرازق الحسين
١٤	عثمان إبراهيم	-	الحسن الحسين
١٥	علي أحمد عبد الرحمن	-	محمود أحمد محمد خير
١٦	بشير يوسف	-	محمد خير عبد العاطي
١٧	إدام إبراهيم	-	أحمد محمد عثمان
١٨	التوأم جابر	-	محمد محمد عثمان
١٩	السيد عامر عبد الله	-	الياس محبوب
٢٠	أحمد محمد حامد	-	نور الدين شمس العلا
٢١	خالد عبد الله محمد	-	إبراهيم محمد عثمان
٢٢	سعيد ابكر سعيد	-	حسن الفكي
٢٣	آدم ابكر سعيد	-	محمد وداعة الله حسين
٢٤	نور الدين عامر عبد الله	-	محمد وداعة الله حسين

٢٥	حامد حمدان	-	-	الحسانى علي حسين
٢٦	مضوي عبد الله	-	-	عبد الرحمن الخليفة
٢٧	محمد آدم الحاج	الزربية	کردفان	حامد معروف
٢٨	مسلم محمد أحمد	-	-	حامد عبد الرحيم
٢٩	محمد الصافي جودة	-	-	عبد الوهاب علي فضل
٣٠	الأمين ناصر	النهود	-	عمر هاشم
٣١	محمد أحمد	-	-	عثمان حسن
٣٢	آدم قوني يعقوب	سنار	الأوسط	محمد حسن
٣٣	نصر الدين محمد أحمد	شندي	النيل	أحمد عز الدين
٣٤	عثمان خميس فهري	الكرمك	الأوسط	عبد السلام عز الدين
٣٥	عابدين يوسف سليمان	-	-	خليفة محمد سعيد
٣٦	محمد الخير علي	بوحات	الشمالي	محمد سر الختم
٣٧	حماد الخير علي	بوحات	الشمالي	سليمان احمودي
٣٨	بكري عبد الله	-	-	محمد أحمد نور الدين
٣٩	حسن جبريل	-	-	حامد حمري
٤٠	كرار عثمان مختار	-	-	محمد الحسن عبد الله
٤١	محمد محمد أحمد	القرير	الشمالي	عبد الحليم عطية الله
٤٢	علي محمد أحمد	-	-	الفكي محمد الفكي
٤٣	آدم حمد محمد	-	-	محمود فضل الله
٤٤	حسن علي شبت	الدبة	-	عباس الفضل
٤٥	بشير يوسف آدم	القرشي	الأوسط	حماد النذير
٤٦	محمد سر الختم معروف	الغرية	الشمالي	إبراهيم محمد حامد
٤٧	يوسف محمد يوسف	النهود	کردفان	جاد كريم فضل المولى
٤٨	قريب الله محمد	النهود	کردفان	حمزة سعيد
٤٩	حسين آدم حسين	النهود	کردفان	الضو فضل المولى

٥٠	علي أحمد عبيد	التهود	كردفان	صلاح الدين محمد خير
٥١	علي إبراهيم	الضعين	دارفور	عبد الرحمن علي محمود
٥٢	عوض الله عبد العليم	الكباشي	الخرطوم	أحمد الشيخ
٥٣	عبد الحميد حمد عبد الرحمن	الكرمك	الأوسط	عبد الحميد محبوب
٥٤	حسب الرسول سالم	الأبيض	كردفان	عوض بخيت
٥٥	أبو بكر هارون	نيالا	دارفور	شمس العلا عبد الرحمن
٥٦	أحمد آدم دنقس	تشاد		محي الدين مالك محي الدين
٥٧	ادريس سعد	التلولي	غسرب	عثمان حسن المأمون
			افريقيا	
٥٨	الأمين حماد	بوحات	الشمالي	محمد أحمد نور الدين
٥٩	حماد الخير علي	بوحات	الشمالي	علي عبد الله
٦٠	نصر الدين عبد الله	الحزيرة	الأوسط	طه محبوب
٦١	أبو بكر عمر الحاج	الحزيرة	الأوسط	بلال عبد الله
٦٢	حماد محمد دقش	الحزيرة	الأوسط	عوض عبد الرحمن
٦٣	التجاني أحمد	نيالا	دارفور	علي نفقة المسجد
٦٤	زكريا موسى	-	-	-
٦٥	محمد عيسى	-	-	-
٦٦	عبد الكريم محمد	-	-	-
٦٧	حامد إسحاق	-	-	-
٦٨	ويحيى عبد القادر	-	-	-
٦٩	الشريف محمد	-	-	-
٧٠	فضيل عبد الكريم	-	-	-

الشايقية

الشايقية قبيلة مشهورة موطنها الحالي مركز «مروي» وتقع ديارهم التقليدية بين المناصير من جهة الجنوب والبديرية من جهة الشمال وتعتبر أدق. حدهم من الشمال قرية «الباسا» ومن الجنوب قرية «أمري» وهم فرع من قبيلة «جعل» الكبرى التي تسكن فروعها وبطونها من جنوب أم درمان «الجموعية» إلى دنقلا وعرف الشايقية بين القبائل بأنهم ذوو طبيعة عسكرية ومنذ وطئت أقدامهم أرض دنقلا «منطقة مروي» ونزحوا إلى دارهم الحالية من منطقة الجعليين «منذ عهد بعيد» وحينما كانوا جزءاً من «جعل» كانوا أهل فروسية وطموح عسكري. ويحكى أنهم عندما دخلوا دنقلا «وطنهم الحالي» جاءوا بمعداتهم العسكرية الخيل - والرمح - والسيوف - وكل أدوات الفتك الشائعة في ذلك الزمان. وكانوا يطلبون من أهل دنقلا «النوبة» أن يعطوهم «التنقيير»^(١) و«الكليقة»^(٢) وبعد فترة ادعوا أنهم أهل حق في الأراضي والسواقي. كفله لهم «التنقيير والكليقة».

الشايقية عند الشيخ الفحل

شايق بن حمدان بن صبح أب مرخة المدفون فوق رأس جبل «العرشكول» كان شايق رجلاً شجاعاً وكان ذا قوة من خيل ورجال وله أحد عشر ولداً مثله في الشجاعة. وكانت نفسه تنوق إلى الملك فلما تولى أخوه غانم الملك، توجه لجهات دنقلا ونزل بين أولاد صالح ملك البديرية وأولاد منصور ملك المناصير. وكان شايق لا ترضى نفسه الزراعة أو معالجة البهائم فلما نزل البلاد فرض على كل ساقية اردبين من القمح وخروفاً وظلوا يعيشون على هذه الحال ولما توفي شايق سار أولاده سيرة أبيهم وشملت غاراتهم بلاد النوبة من بعد أرض

(١) التنقيير - كلمة نوبية - معناها الطريق بين الزرع

(٢) الكليقة - كلمة نوبية - معناها حزمة القش.

الحجر، ثم كردفان، وأغاروا على حيرانهم وأبناء عمومتهم البديرية»^(١) وحكى لي أصحاب المعرفة أن الشايقية أغاروا ذات مرة على بلدة «العفاض» فخرّبوها واعتدوا على مسيد وعائثوا فساداً في المسيد، وكسروا الألواح وأوقدوا بها النار. كما أغاروا على المناصير والحسانية الدناقلة والمحس حتى أرض الحجر ولم تسلم منهم أطراف كردفان ولا أبناء عمومتهم الجعليون وطبيعتهم المشار إليها كانت لا تدعهم يميلون إلى الدراسة والاستقرار والزراعة وكانوا يسخرون «طبقة معروفة» لتقوم نيابة عنهم بالعمل في الحقل.

والزراعة والرعي وحصد التمر حتى «الغناء» الذي برع فيه الشايقية في زماننا هذا ما كانوا يمارسونه بل تقوم به الطبقة «المستغلة» والمسخرة وما زالت بقاياهم التي تمارس فن الغناء موجودة ويطلقون على (المغني) منهم كلمة «ملك» ولعلها تعويضاً عاطفياً واجتماعياً للمغني؟؟

لهذه الأسباب وغيرها لم يقبلوا على الدراسة مثل حيرانهم البديرية والركاية والدناقلة وكان طموحهم معلقاً بالعسكرية منذ عهدهما القديم وإلى أيامنا الراهنة وأغلب فتيانهم الذين يخرجون من دار الشايقية إلى مصر أو وسط السودان في أيام ماضيات يعملون بالعسكرية «ضربة لازب» وقد تمكن منهم الروح العسكري وإلى زمان قريب كان شعار العسكري على مستوى «الحكومة» أن يرسم أو يصور وعلى خديه الشلوخ الأفقية المعروفة «بشلوخ الشايقية» ولحق حبهم العسكرية أطفالهم فهم حينما يلعبون يرسم الواحد منهم أباه بزي عسكري أو عسكري على ظهر بعير «هجانى» يرسمونه على الحيطان وفي البيوت، وهذا يدلنا على أن العسكرية غاية عند الجيل القديم وكل يتمنى أن يكون ابنه عسكرياً.

ثم مال الشايقية على دراسة القرآن.. وبرعوا فيه وتفوقوا وكثير من مشايخ القرآن والعلم درسوا في دار الشايقية عند المشايخ المشهورين.

(١) انتهى حديث الشيخ الفحل.

الشايقية والقرآن

صار الشايقية بعد أن ملكوا الجزر والسواقي وأرض الكرو^(١) كالمستقرين ثم انعطفوا نحو البطولة الجديدة المتمثلة في «مشايخ القرآن» فمال أغلبهم نحو المشايخ وتقربوا إليهم واستمالوهم وأهمهم الجماعات التي أوقدت نار القرآن أولاد جابر في الجزء المعروف «اشش» من جزيرة ترنج وقد سكن أولاد جابر دار الشايقية في غضون القرن العاشر الهجري في الحدود الجنوبية.

وعلم الناس جميعاً والمشايخ خصوصاً صدق نية الشايقية فأقبلوا نحو ديارهم ركاية وبديرية وأشرف من طبقات المشايخ. وكانت دار الشايقية عامرة بالخير فاحتضن الشايقية أهل القرآن كما رفعوا من قدر المشايخ وجعلوهم في مقدمة كل أمر من أمور الحياة الدنيا والأخرى وجعلوا لهم نصيباً في كل موسم زراعي كما خصصوا لهم أرضاً زراعية تخترق السواقي والأراضي الزراعية كلها وتعرف تلك الأرض بـ«العراضة» لأنها تمتد بعرض السواقي فيفلحها طلبة القرآن. حسب كل موسم زراعي. وعموماً فقد رفع الشايقية من قدر المشايخ وطار اسمهم إلى جميع أنحاء البلاد فقصدتهم الطلبة من كل الجهات ونسوق مثلاً بالطالب «عبد الله العركي» الذي درس عند الشيخ عبد الرحمن بن جابر.

عبد الله العركي

الشيخ عبد الله العركي جد العركيين وهي أسرة معروفة درس في بلاد الشايقية ترجم له ود ضيف الله قال أمه اسمها «هدية بنت عاطف» جميعاية ولد «بأبيض ديري» وحفظ الكتاب على أبيه وسافر ومعه من الطلبة عبد الرحمن النويري ولما رجع عبد الرحمن النويري إلى أهله بالصعيد بعد سبع سنين. سأل الشيخ دفع الله العركي عن ابنه عبد الله. فقال له عبد الرحمن النويري ابنك «يحش القش» لشيخه

(١) الكرو - كلمة نوية - وتعني الأرض التي تلي أرض السواقي من جهة اليابسة.

قراءته متقطعة فغضب الرجل غضباً شديداً وسافر لدار الشايقية من فوره.

فوجد ولده شایل شبكة ومنجلاً يحش القش لخیل شیخه ولما وصل ذهبوا له فأبى أن يأكلها وبات «القَوَى» فلما علم الشيخ عبد الرحمن قال دفع الله ما رأنا أهلاً للخدمة فناداه وأطعمه بيده وعاد هو وابنه مكرمين إلى أن وصلا بلدة «الهلالية» المشهورة وهذه الحكاية وغيرها تكشف لنا جانباً هاماً في المسيد وهو ممارسة العمل والتربية بجانب الدراسة والطالب المذكور من أشرف القوم ولأسرته مكانة رفيعة في مجال القرآن والعلم ورغم ذلك أرسله والده لدار الشايقية التي طالت شهرتها جميع أطراف البلاد ورغم مزاعم الطالب عبد الرحمن النويري فإن عبد الله العركي كان حافظاً وموهلاً وأبقاه الشيخ عبد الرحمن بن جابر حباً فيه وكلفه بهذه الأعمال من باب التربية وكسر النفس وكثير غيره يعملون في المساید والخلاوي التي يتعلمون فيها فيصقلهم هذا العمل ولاسيما أبناء كبار المشايخ الذين يؤمنون هذه المساید وفي نفوسهم شيء من الكبرياء والترفع الخفي.

مشايخ القرآن في الشايقية

* أولهم أولاد جابر^(١).

وهم كما تفيدنا الروايات المكتوبة والشفاهية أنهم أول طلائع معلمي القرآن وتلاهم البديرية وهم بلا ريب مكملون لأولاد جابر الركابية وقد نوهت في مكان آخر أن الركابية والبديرية اتحدوا وانسجموا حتى لتحسبهم أسرة واحدة وأرض الشايقية أصبحت مستقرة وآمنة والعيش فيها صار ميسوراً وأهلها بالطبع أهل كرم، ثم توافد المشايخ نحو بلاد الشايقية من كل فج.

وهذا ثبت بأسماء الأسر المعلمة التي دخلت دار الشايقية واستقرت فيها وصارت جزءاً منها طبعاً وسلوكاً.

(١) أولاد جابر - علماء فقهاء - معلمون ولهم شهرة عظيمة.

١- أولاد جابر الركابية.

٢- البديرية.

٣- الدويحية.

٤- العراقاب.

٥- الحواجنير.

٦- الحمد توياب.

٧- الكوارير.

وغيرهم. كل هؤلاء استوطنوا دار الشايقية فأقبل الناس نحوهم من جميع الجهات. وصار اسم هذا النفر من المشايخ واسم الشايقية على كل لسان وبعد سنة مائة وألف ١١٠٠ هـ صار مركز القرآن عند الشايقية وكل أبناء الجهات الأخرى يسافرون إلى الشايقية للدراسة وجاء زمن على الناس من لم يقرأ في الشايقية يكون حظه قليلاً (خبر كان) من القبول.

ود عدلان:

الشيخ محمد ود عدلان الحوشابي من قلب الشايقية من أبناء حواش جد «الحواشاب» وهو أبرز فقهاء الشايقية وصفه ود ضيف الله بأنه شيخ الإسلام والمسلمين وخاتمة المتكلمين المجتهدين للدين، حج إلى بيت الله وحاور به وقرأ علم الكلام والمنطق والأصول على الفقيه «عبد الله المغربي» عالم المدينة^(١) ثم رجع إلى وطنه «تنقاسي» وأوقد نار القرآن ونار الكرم ونار العلم المعقول وكانت فيه «نقابة» الطلبة كما يقولون.

وانتفعت الناس بعلمه وتصانيفه وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار حتى دار «برنو» ومن تصانيفه شرحه الكبير على «أم البراهين» وأسماء «حجة العارفين»

(١) عبد الله المغربي - عالم المدينة المشهور في ذلك العصر.

وَأَلَّفَ كِتَابَ الْعَقِيدَةِ^(١) وَأَسْمَاهُ «تَحْفَةُ الطَّالِبِ» وَأَشَارَ فِيهِ بِاتِّبَاعِ النَّهْجِ السَّلَفِيِّ
السَّنِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

سَعْدُ الْكُرْسَنِيِّ:

أَصْلُهُ مُسْلِمِي وَشَاقِي قَرَأَ الْقُرْآنَ وَأَحْكَامَهُ عَلَى الْفَقِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَلَدِ اسِيدَ فَدَعَا لَهُ
عَلَى قَرِيحَةٍ صَادِقَةٍ تَوَلَّى تَدْرِيسَ الْقُرْآنِ بَعْدَ مَوْتِ شَيْخِهِ بَنُورِي وَرَحَلَتْ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ
الْأَبْوَابِ وَأَرْضِ الصَّعِيدِ وَدَارِ دَنْقَلَا وَأَرْضِ الشَّاقِيَّةِ وَكَانَ شَدِيدَ الرِّيَاضَةِ لِحِيرَانِهِ حَرِيصاً
عَلَى مَعْرِفَتِهِمْ لِلشَّدِّ وَالْمَدِّ - وَالْهَمْزَةِ - وَالْقَلْقَلَةِ - وَالْإِظْهَارِ وَالْإِدْغَامِ وَالغِنَةِ - وَمَعْرِفَةِ الْوُقُوفِ
مِنْ تَامٍ وَكَافٍ وَحَسَنٍ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ هَذِهِ الْأَحْكَامَ فَلَيْسَ بِدَرَسٍ عِنْدَهُ.

شَيْخُ الْأَعْسَرِ:

ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَمْدَتُو كَانَ مِمَّنْ جَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ «وَالْعَمَلِ» اتَّبَعَ سَبِيلَ
السَّادَةِ الْأَقْدَمِينَ.

وُلِدَ بَنُورِي وَتَفَقَّهُ عَلَى أَبِيهِ وَذَكَرُوا أَنَّ إِنْجَابَ أَبِيهِ كَانَ كُلَّهُ بَنَاتٍ «مَاسِكَاتٍ»
الْفُقَرَاءُ وَأَنَّ وَاحِدَهُنَّ مِنْهُنَّ أُخْرَ عَشَاءَهُ عَنْ وَقْتِهِ الْمَعْتَادِ لِفَرْضٍ غَيْرِ شَرِيفٍ وَفِي آخِرِ
الْلَّيْلِ طَلَبَ عَشَاءَهُ فَلَمَّا نَاولَتْهُ الْبَنَتُ عَشَاءَهُ مَسَكَ يَدَهَا وَبَعْدَ هَذَا الْحَادِثِ أَغْلَقَ
الشَّيْخُ الْأَبْوَابَ بَيْنَ بَنَاتِهِ وَالطَّلَبَةِ وَمَنَعَ الْأَجَانِبَ مِنَ الدَّخُولِ عَلَى نِسَائِهِ.

عَبْدُ اللَّهِ صَابُونُ

الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ صَابُونُ أَنْمُودَجٌ لِلطَّالِبِ الْمُجَاهِدِ أُرِدَ سِيرَتُهُ كَمَا تَرَجَمَهَا وَد
ضَيْفُ اللَّهِ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ صَابُونُ وَهُوَ مَمْلُوكٌ لِمَرْأَةٍ مِنْ نَاسِ «الْقَلِيعِ» حَفِظَ الْكِتَابَ
وَلَا زَمَ الْفَقِيهِ عِمَارَ أَخَذَ عَلَيْهِ أَكْثَرَ فَنُونِهِ وَبَرَعَ فِي النُّحُوِّ وَالصَّرْفِ وَاللُّغَةِ وَالْمَعَانِي
وَالْبَيَانِ وَابْتَدِيعِ وَعِلْمِ «الْعُرُوضِ» وَكَانَ شَاعِراً مَاهِراً.. وَصَانِعاً جَلَاداً وَخِيَاطاً - وَلَهُ

(١) الْعَقِيدَةُ - وَشَهْرَتُهَا عَقِيدَةُ وَدِ عَدْلَانُ، شَرَحَهَا وَحَقَّقَهَا فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدُ عَلِيُّ الْبَشِيرِ مِنْ بَلَدَةِ وَدْرَاوَةِ.

معرفة بالخط الذي لا يضع مثله إلا «الأروام» وعمله كل ليلة يقرأ ثلث القرآن ويملاً الأسبلة التي هي في القرية جميعها نحو عشرة مساجد أو تزيد وعمله بالنهار يحضر درس العلم عند شيخه ويُدرّس غيره وعامة نهاره إما أن يكتب الكتب احتساباً لله أو يخط «المطبوق»^(١) أو الجوخ أو يسجل الكتب وكل ذلك احتساباً لله تعالى وأنه أعزب لم يتزوج وأعطاه شيخه ابنته «أم ناس ضوين» فامتنع وقال العبد ما يأخذ سيدته وقال الفقيه ما وجدت لها كفواً غيره.

أولاد جابر:

تعرض الشيخ أحمد عبد الرحيم الفكي في مخطوطه لأولاد جابر «الجابر» في العصر الحديث فبدأ بالحديث عن أحفاد البولاد أو البواليد كما أسماهم فقال أن ذرية إبراهيم البولاد هم جميع «الجابر» الموجودين حالياً بقرية البواليد بالضفة الغربية للنيل جنوب شندي.. وكان جدّهم هاجر من دار الشايقية إلى الأبواب لتعليم الناس بهذه الجهات كما رحب به الشيخ عجيب «المانحلك» فأهدى له أرضاً شاسعة ما تزال في يد أحفاده، كما عمّر المسجد وأحيى نار القرآن وعلم الكبار والصغار وخلفه من بعده ابنه عبد الرحمن.

ثم أسس أولاد جابر في منطقة الجعلين ثلاثة مساجد كلها عامرة ثم ينتهي المخطوط بأنهم تفرقوا في البلاد فسكنوا أماكن مثل الجزيرة نسري.. والكمر والجابر^(٢) وحجر الطير والبواليد وسانوه والحريف. كذلك اتجه نفر من الجابر جنوباً فأقاموا في ود رملي كالفكي حاج حمد بن عثمان وهناك بعض الجابر بالعاصمة وبعضهم في قرية - أم سنط - جنوب مدينة ود مدني وفي أم «دقرسي - شمال الجزيرة»..

(١) المطبوق - نوع من النياب يشبه اللحاف، ويسمى الهلس - والحلس.

(٢) الجابر - ينسبون إلى أولاد جابر وقد نزحوا في زمان مبكر لهذه المنطقة.

كذلك اتجه جماعة منهم إلى كردفان وبارا وفي دارفور نجدهم في نيالا
والفاشر ومنهم رهط سكن النيل الأزرق جهة ود النيل..

وبعد مطلع القرن الحادي عشر الهجري انتشرت الخلاوي في كل جهات
الشايقية وما من قرية إلا وبها خلوة أو خلوتان وهذا غير المسaid والخلاوي في
نوري وتنقاسي ومساوي والأراك والقرير والزومة والبركل والكاسنجر والمقل
إلخ.. وهذا مثال. وربما سهوت عن المسaid والخلاوي الكبيرة فالمعذرة أسوقها
لمن يهمهم الأمر.

الباب الرابع

مسيد الدامر

مدينة الدامر من الناحية التاريخية بدأت قبل مئات السنين. فإذا أردنا أن نبين تاريخها يمكننا أن نتخذ طريق الأجيال. فالمؤرخون عندما يعوزهم الدليل الوثائقي يلجأون لهذه الوسيلة «حساب» الأجيال فالجيل عند بعضهم ثلاث وثلاثون سنة وعند بعضهم «خمس وثلاثون سنة» إلخ.. فإذا أخذت نفسي كمثال لهذا الجيل يمكن أن أسرد تاريخ أسرة المجاذيب التي بدأت بهذا الوضع الأخير، الوضع الديني المعروف الآن. والبداية كانت في قرية صغيرة تبعد عن الدامر حوالي كيلومترين الآن «الشعديناب».

وكانت سابقاً تعرف بـ«دور» أما الجد الذي بدأ إشعال نار القرآن وبناء المسيد فهو الحاج عيسى بن قنديل بن عبد العالي بن عرمان.

ومن جيلي أنا المتكلم حتى الحاج عيسى بن قنديل بيننا ثلاثة عشر جيلاً^(١).

أنا مجنوب بن عبد الله النقر بن أحمد بن جلال الدين ابن عبد الله بن حمد بن محمد المجنوب بن علي بن حمد بن عبد الله بن محمد بن الحاج عيسى فإذا جمعنا عدد السنين هذه الأجيال صارت نيفاً وأربعمائة سنة — إذاً يمكننا القول أن نار القرآن بدأت قبل أربعمائة سنة مع بداية السلطنة الزرقاء أو قبلها وارتبط اسم الدامر بالتاريخ الديني في السودان. فالحاج عيسى رجل اشتهر في المنطقة وكان له نفوذ وجاه وقد رحل إلى الحجاز وتلقى العلم هنالك ثم رجع إلى بلده وابتدأ

(١) المتحدث النسابة - الأستاذ الشيخ مجنوب النقر فقيه وعالم وقانوني متمكن من رواية التاريخ توفي منذ خمس سنوات رحمه الله.

بنشر الثقافة الإسلامية وكان يلقي الاحترام والتقدير من كل القبائل. وتولى نشر الرسالة من بعده أحفاده وعلى رأسهم ولده محمد بن الحاج عيسى ثم تلاه حفيده عبد الله المشهور بعبد الله راحل «درو» ثم خلفه حمد بن عبد الله المؤسس الحقيقي لمدينة الدامر «دامر حمد» ومع بداية التأسيس رحل من منطقة الشعدينا ب إلى الدامر واتخذها محلاً للعبادة وتدرّس القرآن وأسس فيها المسجد المعروف باسمه مسجد حمد وبدأ في نشر القرآن والعلم وبدأت القبائل تتجمع من حوله ومع تكاثر القبائل نشأ السوق وهو سوق الدامر المشهور في السودان وخارجه ولاسيما في مصر فقد اتخذته المصريون منذ عهد سقاً لجلب حرائر الإبل واستعمالها في حراسة الحدود «خفر السواحل» وسبب نجاح هذه السوق واشتهاره يرجع الفضل فيه إلى المسجد فقد وفر له الحماية والأمن فازدهر، والأسواق عصرئذ لا تزدهر إلا في ظل حماية قوية. ويرجع السبب لضعف الحكومة إذ لم يتوطد ركنها بعد. إذ كانت الدولة السنارية غضة لينة فكان الحكم في أيدي القبائل ومشائخها وتعرف هذه المرحلة باسم «القيمان». وفي تلك الفترة كانت الأسواق كلها عرضة لهجمات القيمان وقطع طريق القوافل الداخلة والخارجة من الأسواق.

وتحت مظلة المجاذيب وقوة شوكتهم وحماية المسجد نشأ السوق فقصدته الناس من كل الجهات.

الدامر في نظر الأجانب

من أوائل السواح الأجانب الذين زاروا الدامر وشهّلوا بمجلدها وكتبوا عنها منوهين. الرحالة جيمس بروس الذي زارها في أكتوبر ١٧٧١ وكسب عنها في كتابه المعروف باسم «اكتشاف منابع النيل» قال «جئنا إلى الدامر مدينة الفقيه ود المجنوب وهو [قدّيس] من الطراز الأول عند الجعليين الذين يعتقدون أنه يصنع المعجزات ويعالج من الكساح والعمى والجنون ومن ذلك فإنهم يخافونه خوفاً شديداً».

وتسير القوافل التجارية تحت أمان المجاذيب في طمأنينة يأمنون قطاع الطرق..

كما زارها الرحالة الألماني بيركهارت^(١) سنة ١٨١٤ ووصفها بأنها مدينة كبيرة بها حوالي خمسمائة منزل وليس بها مبان خربة وهي بالقياس لبربر نظيفة وشوارعها منتظمة وأن أهلها المجاذيب من عرب الحجاز وهم في الأغلب الأعم فقهاء وقد جباهم الله مقدرة على كشف الحجب وقوة خارقة للعادة فوق طاقة البشر ولا يستطيع كائن من كان أن يقاوم سحرهم.

ويقرر بيركهارت في كتابه «رحلات في بلاد النوبة».

وكان للمجاذيب مكتبة كبيرة كما كانت حلقات العلم فيها تضارع حلقات الأزهر وكان المجاذيب يعلمون التلاميذ تلاوة القرآن وتجويده وיעدونهم الحفظة كما كانوا - يلقون عليهم المحاضرات في التفسير والتوحيد ومساجدهم يلجأ إليها أبناء السبيل والغرباء.

وسألني الفقيه الكبير وكان على هيئة ووقار ويلبس عباءة بيضاء عن وطني ودراستي وأي كتب قرأت.

هولت

كما ذكرها هولت في حديثه عن النظافة والتعليم في السودان. وقال: وهو يتحدث عن مملكة الفونج: - «كان أشهر مركز تدريس بها مدينة الدامر حيث أسس المجاذيب خلال القرن الثالث عشر ما يمكن أن يسمى جامعة إسلامية كانت خلالها على اتصال دائم بمركز الثقافة والعلم في الحجاز والقاهرة».

وقد وفر المسيد، للسوق كل أسباب النجاح والاستقرار وفوق الحماية وفر

Burch Hardt - Travels in Nubia Murray (London 1822). (١)

لهم الكاتب. والكتابة في الأسواق ضرورة لتوثيق البيع والشراء كذلك قامت المحاكم وقيامها واحد من أسباب الاستقرار في هذا السوق كذلك - أفاد موقع الدامر الجغرافي الذي أعطاه عدة ميزات أولاً: تقع بين نهريين كبيرين النيل ونهر أتبرا. ثانياً: موقعها بين طرق رئيسية فالطريق من الدامر يذهب إلى مصر عبر بربر وطريق آخر لسواكن فالحجاز ومنها يخرج الطريق إلى شندي الخرطوم فسناو ويخرج منها طريق عبر البطانة إلى القضارف ومن غربي النيل يأتيها الطريق المتصلة بكردفان ودارفور وأفريقيا والمنطقة التي تقع فيها مدينة الدامر تعرف عند المؤرخين القدامى «بالأبواب» وفي تعليل اسم الأبواب. قالوا «لكثرة الطرق فيها» وتلتقي عندها معظم الطرق وتتفرع عنها.. وقالوا سميت المنطقة بدار الأبواب نسبة للأبواب النيلية وهي شلالات صغيرة تقع بين شلال السبلوقة ومقرن أتبرا وعددها ستة شلالات وأصحاب المراكب الكبيرة يسمون مسارب المياه بين تلك الشلالات «الأبواب» واحدها «باب» فالمر بين الشلال والشلال هو الباب ومن هنا جاء الاسم والشاهد أن الأبواب الستة تقع في هذه المنطقة المعروفة بأرض الجعليين حديثاً والمشهورة بدار الأبواب قديماً والله أعلم.

ثم أذن الشيخ حمد بن عبد الله لابنه عبد الله النقر بإنشاء مدرسة قرآن مستقلة فكانت خلوة عبد الله مستقلة بكيانها وقد درج السلف الصالح على أخذ الإذن من الشيخ الكبير إذا أرادوا تأسيس خلوة أو مسيد فيأذن الشيخ ويعلن مباركته ورضاءه وأغلب الذين يطلبون الإذن بإيقاد نار القرآن يكونون من تلاميذ الشيخ المعني. ويضربون موعداً ليوم إشعال نار القرآن الجديدة والتقليد أن يأخذ الشيخ الجديد الشعلة «من نار القرآن» «الأم» من المسيد في موكب حاشد يتقدمه حامل النار وخلفه الشيخ والطلبة يحملون ألواحهم ويلوحون بها وهم يرددون الحدااء المعروف بالتهليل..

لا إله إلا الله
الفقراء عبيد الله
لا إله إلا الله
نحن نموت والباقي الله
لا إله إلا الله
محمد رسول الله
لا إله إلا الله
الفقراء عبيد الله

وقد يكون المكان بعيداً فيمشون اليوم واليومين تحت مظلة هذا الكرنفان «والتقابة»^(١) مشتعلة بينهم إلى أن يصلوا المكان المحدد لإيقاد النار فيتقدم الشيخ الكبير ويسمي الله ويضرم النار الحديدية بين التهليل والتحميد والتكبير وزغاريد النساء وقرع الطبول والدفوف.

ثم يحتفلون أياماً بهذه المناسبة ويعود الطلبة من حيث أتوا بذات الموكب الحاشد الذي تظله الرحمة وتحفه أفئدة سكان القرى الواقعة بين المكانين وإن كان المكان المراد فيه إيقاد نار القرآن بعيداً يحملون عوضاً عن النار رماداً.

ويلقى الموكب في ذهابه وإيابه آيات البشر والترحاب وتتنافس القرى في إكرامه بنحر الذبائح وإقامة الولائم إلى أن يعود موكب الطلاب لمكانه، وظل نقل النار من النار عند السلف وقد حكى أشياخنا أن الشيخ حمد ود المجلوب درس في خلوي الغبش «بربر» على الشيخ حمد بن عبد الماجد ولما أكمل دراسته

(١) التقابة - من التقاب عود النار.

تنقبت النار فأنما أتقبتها تنقيباً، وأتقبتها إيقاباً وتنقبت بها، مسكت بها تمسكاً وذلك إذا فحست لها في الأرض ثم جعلت عليها برأ وضراماً والتقاب والتقوب ما أتقبتها به وأشعلها به دقاق الميدان. راجع لسان العرب الجزء الأول.

استأذن شيخه في حمل «التقابة» ليشعلها في الدامر وزعموا أن شيخ الغبش تردد كثيراً بحسبان أن الدامر هي المعلمة والرائدة ولكنه تحت إلحاح تلميذه قبل. فسار موكب الشعلة من الغبش إلى الدامر تحوطه نظرات الإكبار والإعجاب.

ثم انداحت موجة الخلاوي حول الدامر من مدد هذا المسيد غربي النيل وشرقه خلوة الفكي الصادق بن الفكي حمد والفكي عبد الماجد بن محمد المجذوب ومساجد أخرى أشعلت نار القرآن في نهر اتبرا وكنور والجباراب والموسياب والحصاية وانتشرت بركات مسيد الدامر لأماكن أخرى كسلا - القضارف - سقادی - بربر وغيرها.

وسرت سمعة مسيد الدامر إلى الحجاز واليمن مع الحجيج وزارها نفر من الشيوخ الأفارقة من بلاد شنقيط ونيجريا وتمبكتو مقيمين وعابرين وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة وتركوا آثاراً تتمثل في كتب التوحيد والفقه والخط المغربي الذي ما زال بعض شيوخ الدامر يحتفظون به ويحذقونه.

ونلاحظ أن التعليم في هذه المساييد يبدأ هكذا.

أولاً: القرآن الكريم حفظاً وتحويداً. ثانياً: الفقه والعلوم الإسلامية علوم الفقه الإسلامي. على المذهب المالكي وعلوم التوحيد والعقائد وعلم العربية بمختلف أنواعها كالنحو والبلاغة ورحلة الدراسات الأخرى تأتي بعد أن يتخطى الطالب المرحلتين السابقتين وتكون له رغبة في الدراسات العليا الخاصة لها وجهات وجه نظري ووجه عملي أما الوجه النظري فهو بيان الحقائق وكان يعتمد فيه على كتب الإحياء للغزالي والسكندري والتنوير إلخ... مع المجاهدة وهي تزكية النفس بصورها المختلفة وتتم هذه العملية بواسطة مشايخ معينين يكونون قد سلكوا وزكوا أنفسهم.

أما الوجه العملي فيتمثل في العبادات من صلاة وصوم وذكر وقيام ليل وبر وكرم إلخ..

وإذا قسمنا الدامر لثلاث مراحل نجد الفترة الأولى هي فترة - درو - والتي بدأها الحاج عيسى بن قنديل وهي جمع الناس وتعليمهم القرآن.
الثانية فترة الازدهار وهذه ظهرت في غضون السلطنة الزرقاء.
الثالثة ظهر فيها تقيص نسبي وهي مرحلة الفتح التركي - ١٨٢٠ والذي اتخذ منه أهل المسيد موقفاً معارضاً.

الأمر بالمعروف

إنه من أعظم الواجبات الدينية بعد الإيمان. إذ ذكره الله تعالى في كتابه ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾. آل عمران.

كما أمر تعالى في قوله ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ آل عمران.

كما قال تعالى ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ الحج.

الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» - مسلم.

كما قال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» - الترمذي.

وعندما دخل الأتراك ووصلت طلائعهم بربر.. عقد مشايخ الدامر اجتماعاً عاماً ضم كل المشايخ وأهل الحل والعقد وتوصلوا لقرارات فحواها.

أولاً: الأتراك يحكمون بما يسمى «القانون» وهو مخالف للشريعة التي يتمسك بها أهل المسيد.

ثانياً: الأتراك يبيحون «الربا» ولهذه الأسباب وغيرها قرروا معارضتهم بل واستعدوا لحربهم وجعلوه واجباً دينياً ولذلك أعدوا العدة للحرب وبالفعل وقعت بينهما معركة معروفة تسمى واقعة «الكويّب»^(١).. ومات فيها خلق كثير من أهل العلم والقرآن كالشيخ قمر الدين ود حمد والد العلامة محمد المجذوب بن قمر الدين والفكي الطيب شيخ العلامة كما استشهد فيها أبناء رقية الأربعة والشيخ محمد أب صرة والمجذوب ود علي وعدد كبير من الفقراء ورغم أن المجاذيب خسروا المعركة بسبب السلاح الناري فقد غنموا مدفعاً نقله من بقي منهم لمسيد الدامر ثم أخذه السعداب جماعة الملك نمر لشندي.

ثم دارت معركة أخرى غربي الدامر تعرف بواقعة «تاقب»^(٢) ومات فيها جمع غفير منهم.

ثم بدأ تخريب الدامر فهجر الناس المسيد والبلد وأسسوا مسايد وخلّوا في قرآن في أماكن أخرى. الفكي ابن الفكي عبد الله النقر أسس مسيداً في كسلا والفكي الأزرق بن الفكي أحمد في الصوفي والقضارف إلخ.. ونلاحظ أن هذا الخراب كان مع بداية العهد التركي وصحب ذلك فترة ركود شملت المسيد والسوق والبلد كلها.

وبعد فترة استأنف المسيد نشاطه من جديد وما زال شعاره الأمر بالمعروف. وما زالوا عند رأيهم في تحكيم الشريعة. ومدينة الدامر منذ إنشائها كانت تحتكم إلى الشريعة وكان فيها رهط من المحتسبين كان آخرهم شيخنا القاضي قمر الدين بن الفكي أحمد رحمه الله.

ووظيفة هؤلاء المحتسبين ملاحقة المنكر والمخالفات الشرعية وكان لمسيد

(١) رواية الأستاذ مجذوب النقر. أما منطقة الكويّب فهي بالقرب من ملتقى النيل بنهر أتبره. وهي معروفة الآن باسم الكويّب.

(٢) تاقب - قرية ومكانها غرب النيل «قصاد» الدامر.

الدامر تأثير على الإمام المهدي فالإمام المهدي تلميذ الشيخ محمد الضكير بن عبد الله بن خوجلي والشيخ محمد الخير [الضكير]^(١) درس القرآن والفقه عند الفكي الأزرق وكان محمد الضكير قوي العزم وقد نقل هذا السلوك لمنطقة بربر وطبقه في مسيد أهله الغيش وتأثر الإمام المهدي بشيخه محمد كثيراً وظهر هذا السلوك في شخصية الإمام المهدي وأشهرها اعتراضه على الاحتفال بختان أنجال شيخه محمد شريف بن نور الدائم وهي حادثة مشهورة عند كافة الناس وفي سنة ١٢٨٦ وقعت للشيخ محمد أحمد بن عبد الله قبل المهديّة حادثتان في الخرطوم الأولى عندما كان سائراً في شوارع الخرطوم مع زملائه نادتهم [بغى] من «بغايا» الخرطوم بألفاظ قبيحة ودعتهما إلى منزلها فالتفت المهدي إلى أحد التلامذة الذين كانوا معه. وقال: ماذا تقول هذه، فقال له دعها يا مولاي هذه امرأة «بأغية» فقعده المهدي القرفصاء وأمسك على رأسه بكلتا يديه وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. إلى هذا الحد وصلت الخرطوم ثم نهض قائماً. وقال: إن شاء الله سيكون زوال هذا الفساد على يدي.

الأمر الثاني: أنه صادف في نفس الوقت وفاة محمود حنجانجي.. وهو من كبار الأهل فسوت النساء الصف وارتبطن بالحبال وكشفن رؤوسهن فنهاهن المهدي عن ذلك فلم ينتهين ووضعن على رؤوسهن الرماد والتراب وصرن ينحن عليه في شوارع الخرطوم وخرج المهدي من الخرطوم إلى الجزيرة «ابا»^(٢).

هذه مجرد إشارة لأثر الدامر على الشيخ محمد الخير وبالقسط فإن الإمام المهدي تأثر بشيخه.

المهديّة والأمر بالمعروف

وظلت مسايد الدامر تؤدي رسالتها التعليمية والدينية مثلما بدأت والمجاهد

(١) الضكير - بمعنى - الذكر الفحل وضكير تصغير ضكر «ذكر».

(٢) مخطوط نادر عثرت عليه بمكتبة مولانا صديق المحب بأم درمان العباسية خور أبي عنحة.

من أوائل الجماعات التي استجابت للمهدية وقد رفع الإمام المهدي شعارات الدين والشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصادف هذا ما يدعو له أهل الدامر فانخرطوا معه والتزموا بالمهدية التزاماً كاملاً ولما عرف المهدي صدق القوم عقد أول راية للجعليين للحاج علي ود سعد^(١) وجعل مقرها الدامر.

ولما عارض عبد الله ود سعد خليفة المهدية وعصى. انحازت له أغلبية الجعليين الذين خاطبهم في شأن «ظلم الخليفة» أما أهل الدامر فإن مشايخهم اجتمعوا وتوصلوا لفتوى اطمأنوا إليها دينياً فحواها أن الحاكم الشرعي لا يصح عزله باتهامه «بالظلم» وثبتوا على بيعتهم وما زالوا.

وكان أشد أهل الدامر اعتراضاً الشيخ الأمير حاج حمد ود منصور^(٢) إذ وقف ضد عبد الله ود سعد بكل صلابة ووصلت أخبار أمير الدامر حاج حمد لحملة كشنر بعد حين وكان من أوائل الرجال المطلوب القبض عليهم ومنحاكمتهم. وكان الأمير حاج محمد من الرجال الذين اشتركوا في موقعة النخيلة المشهورة.

وانجلت المعركة بعدم توفيق جيش المهدية وأسر الأمير محمود ود أحمد وكثير من الأمراء وأرسلوا إلى رشيد بمصر أما الأمير حاج حمد فإنه بعد انحلاء المعركة كتب عدة رسائل يحرض الناس فيها للتحفز للقتال وجمع الصفوف فوقعت بعض رسائله في يد اللورد كشنر. الذي جد في القبض على الأمير حاج حمد فأسروه وشكلوا له محكمة عسكرية وطلبوا منه أن يتبرأ من بيعة المهدي فأغلظ في الرد على المحكمة وأصر إصرار من باع نفسه في سبيل عقيدته وكان يرد بين الحين والآخر كلمة: مهدية - مهديّة. فرفعوا المحكمة وأرسلوا له الوساطات فلم تثته عن موقفه الصلب ثم انعقدت المحكمة وأصدرت حكمها بالإعدام رمياً بالرصاص وتوضاً الأمير حاج حمد ود منصور وصلى ركعتين واستعد

(١) حاج علي ود سعد - شقيق عبد الله ود سعد الأكبر.

(٢) حاج حمد - فقيه البلد وشيخها وصاحب راية المهدية بعد حاج علي ود سعد.

للموت فربطوه في جذع «دومة» بالمسيد على ركن الخلوة الجنوبي الشرقي وأطلق الجند إحدى وعشرين طلقة فصعدت روحه الطاهرة ودفن في جبانة الدامر عند الركن الجنوبي الغربي رحمه الله وأجزل مثوبته.

ويعتبر الأمير حاج حمد بن منصور أول شهداء الاستقلال وإن تناسى المؤرخون موقفه الباسل والأمير حاج حمد أنموذج لخريجي المسيد وينبغي أن نذكر رهطاً من شيوخ القرآن الذين ساهموا بحظ وافر في هذا المجال معارضة الحكم الأجنبي.

الفكي حمد بن المجذوب والفكي عبد الله النقر والفكي أحمد أبو جدري والفكي قمر الدين الفكي المكي الذي اشتهر في القضاة والفكي الأمين والشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين وهو من أبرز رجالات العلم فقد درّس في المسجد النبوي تسع سنوات وتلمذ على يده الكثير من الحجازيين والشوام والعراقيين واليمنيين كما قضى بسواكن سنتين ونصف وقد ساهم في تغيير الوضع الاجتماعي والديني بأسلوبه الأخاذ وبصيرته النافذة وعلمه الجم وله عدة مؤلفات منها شرح المنهاج نقد كتب الشافعية مناسك الحج كما ألف في اللغة العربية..

وشرح كثيراً من قواعد النحو وألف كتاباً في مصطلح الحديث وله ديوان شعر معروف، ومن الرجال الذين تأهلوا في مسيد الدامر العالم الشاعر الشاعر الشيخ الطاهر المجذوب صاحب الإمام المهدي وهو من أبرز حملة شعار «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» واشتغل بالسياسة وناهض الحكم التركي وتلمذ عليه جماعات كثيرة من أهل شرق السودان أبرزهم الأمير عثمان دقنة المشهور بأمير الشرق.

كما اشتهر ابنه محمد المجذوب المعروف باسم الشيخ ود الشيخ الطاهر وكان من - أعلم أهل السودان في وقته - حفظ البخاري عن ظهر قلب وله أشعار مطبوعة وله فتاوى مشهورة ومخطوطات كثيرة عند أبناء أخيه في مدينة «اركويت» بشرق السودان.

وكتب الشيخ بن الشيخ الطاهر كتاباً رد به على العالم المشهور الشيخ «علي عبد الرازق» بعنوان «تضييق المآزق في الرد على، علي عبد الرازق» فند فيه ادعاء الشيخ علي عبد الرازق فيما ادعاه عن المعراج وإنكاره لواقعة العروج وشطحة الشيخ علي عبد الرازق مشهورة وهو من علماء الأزهر.

وكتب قصيدة مشهورة بعنوان «ثريا» وهو الذي رد على الشيخ الفهاشم الفلاتي الذي كتب قصيدة بالحروف المهملة لم يكن فيها حرف منقوط وقد تحاماهما كثير من الفقهاء والشعراء في مجلس الشيخ محمد ود البدوي بأم درمان.

الفهاشم الفلاتي

جاء الشيخ الفهاشم الفلاتي في طريقه إلى الحجاز ونزل ضيفاً على الشيخ محمد البدوي شيخ الإسلام وعرض عليه قصيدته «المهملة»^(١) التي يمدح فيها النبي «ﷺ» وليس بها حرف منقوط وكأنه يتحدى أو يختبر العلماء بالسودان قائلاً للشيخ ود البدوي: هل يبلادكم من يستطيع تشطير هذه القصيدة فأرسل الشيخ ود البدوي إلى الشيخ بن الشيخ الطاهر المحذوب^(٢) «بحمري»^(٣) عارضاً عليه طلب الشيخ الفهاشم ووصل «الهجاني» وألقى الشيخ يشترك مع تلاميذه في بناء «راكوبة». فأعطاه رسالة شيخ الإسلام. وقبل أن يفرغ الهجاني من تناول الطعام والقهوة انتهى الشيخ من تشطير القصيدة - أي أنه أخذ صدر البيت الأول من قصيدة - الفهاشم. ووضع له عجزاً ثم وضع صدراً لعجز البيت الأول - وهكذا فإذا قرأت صدر البيت الأول ومعه عجز البيت الثاني وصدر البيت الثالث وعجز البيت الرابع وبهذا النهج إلى آخر القصيدة تكون قد قرأت قصيدة الفهاشم.

(١) المهملة - والمهمل يعني الحروف غير المنقوطة.

(٢) شهرته الشيخ بن الشيخ الطاهر واسمه أصلاً محمد المحذوب بن الشيخ الطاهر.

(٣) حمري منطقة بأعالي نهر أتيرا.

وإذا قرأت صدر البيت الثاني وعجز البيت الثالث وصدر البيت الرابع وعجز البيت الخامس وبهذه الطريقة إلى آخر القصيدة - تكون قد قرأت قصيدة المجذوب وإذا قرأت القصيدة كوحدة بين الشاعرين تذوقت المعنى كأن الشاعرين شاعر واحد - وقد سموها «عرش بلقيس» كأنه هو «.....» وحمل الهجاني رسالة الشيخ وعاد بها إلى الشيخين الكبيرين الشيخ ود البدوي شيخ الإسلام والشيخ الفا هاشم الفلاتي فكان تعليق الشيخ الفا هاشم بعد اطلاعه على تشطير الشيخ إن هذا الشيخ لبحر علوم متدفق ولو أن المذاهب الأربعة اندرست لأحيها هذا الشيخ.

القصيدة:

ألاً واصل الله السلام المرددا	لأكرم رسل الله طراً وأسعدا
وأوسع آلاءً وكُمِّلَ طُوله	لأوسع كل الرسل سعداً وأحمدا
محمد الصدر المعلى مكارماً	ومصلح حال الكل أحمر أسودا
رسول له الآمال أطّر حالها	ممهد أحكام الإله موطدا
مدمر أعداء المصور للورى	حسام لردع الملحد الصلد أرسدا
وصول لأرحام رسول مطهر	وموئل ماسور الهدى رام مَعْرَدا
مسهل آمال ومصلح صالح	وكم سامدٍ لولاه أهلكه الردى
هو الدر حد السر رد علومه	هو الروح أعلى الرسل أكرمهم هدى
ومسعد عاص دار حول مدامه	ومحمود أعمال كما هد ماردا
حسام علا هام العدو وطله	مطاع كلام ساد كُلاً وسودا
هو الأصل لوح الكل أصلح صالح	هداهم هدى الإسلام كهلاً وأمردا
وأكمل محمود وأعلى محامدا	وأسمح مسؤول وأظهر مولسدا
همى راحه ماء لأهل وداده	وارواهمو مما هماء وأسعدا

وعن عطاه للملا كل عاد	كما رمحه صد العدو وأصعدا
وما أمه السؤل إلا وأوردوا	ركاماً هما صاروا له الكل وردا
ولا رامه الرواد إلا أراهمو	موارد طول سحه عم سرمدا
معالمه أمدى المعالم كلها	ولم لا وهو طه إمام أولي الهدى
مراحمه كم عم هاطل رعدما	مطامعه أحلى وأسهل موردا
وعلم هداه مسعد كل سالك	مسالكه راعي الصراط الممهدا
ممد لأرواح العلا طوع أمره	وصارم أهل اللوم والوهم والردا
سلام كروح المسك والعود روجه	لأحمد ما صاح الحمام ورددوا
إله السماء والى مراحم طوله	له الدهر ما سح السماء وأرعدا
مع الآل والأهل الحداد سلاحهم	لأعداك حد السم هلكاً واكدوا
ورھط رأوك الدهر مرأى وأرصدوا	لأهل الهوى صلاحهم لاح والهدى

نظام التعليم عند المجازيب

بداية النشاط التعليمي للمجازيب تعود إلى الحاج عيسى ابن قنديل الجد الأكبر للمجازيب الذي تروي الروايات الشفهية بأنه أنشأ خلوة للتعليم في قرية الشعديناب بالقرب من مدينة الدامر الحالية.

وتعتبر الخلوة أساس النظام التعليمي المجنوبي ويطلق عليها «نار القرآن» وبدأت كنشاط منظم في عهد حمد بن عبد الله - مؤسس الدامر والذي كان يقوم بتدريس صبية الرعاة وأهالي الدامر دروس القرآن الكريم. وبعد نمو الدامر توسعت الخلوة وأصبح بين أحشائها طلاب من مختلف بقاع السودان بعضهم لا يعرف اللغة العربية الأمر الذي أدى إلى تقسيم طلاب هذه المرحلة لشرح المواد الدراسية للطلاب.

واستفاد المجازيب من طلاب المرحلة الوسطى «نار العلم» القادمين من

مناطق مختلفة في التدريس والإشراف على أبناء قبائلهم في مرحلة الخلوة.

ولم يكن النشاط في هذه المرحلة يقتصر على الدراسة بل إن الطلاب كانوا يساهمون في زراعة الأراضي للمجاذيب وهبات الخلاوي من الأراضي التي يدفعها الملوك والأغنياء.

وكان الطالب يملك حق العمل في الأراضي الأخرى أو الاحتطاب أو توفير بعض المال الذي يتوق إليه رغم مجانية الإعاشة والسكن في خلاوي المجاذيب ومن أبرز شيوخ هذه المرحلة الشيخ «الحاج علي بن أحمد» معلم المجذوب الصغير ومحمد الخير، أحد شيوخ المهدي والشيخ الطيب بن الفقيه عبد الله النقر في أخريات القرن الثامن عشر.

ورغم أن مرحلة الخلوة تستمر ثلاثة أعوام إلا أنها تعطي إجازة لطلابها لكن حفظ القرآن وتجويده ومعرفة القراءة والكتابة تعد جوازاً للمرحلة الوسطى [نار العلم] ويقول الأستاذ مجذوب النقر أن شرط الثلاث سنوات لم يقف عائقاً يحرم من الانتقال للمرحلة الوسطى بفضل نظام الإعادة الذي انتهجه المجاذيب.

وفي المرحلة الثانية من السلم التعليمي نجد مرحلة «نار العلم» وقد ظهرت في حياة حمد المجذوب عندما بلغت الدامر أوج ازدهارها.

وتهتم هذه المرحلة بدراسة الفقه والعلوم الدينية والعربية والشعر والأدب العربي وتعتمد على الإشراف المباشر لمدة سبع سنوات يعطى الناجحون في نهايتها إجازة تتيح لحائزها تدريس المدارس الفقهية المختلفة ومن أمهر أساتذة المرحلة الوسطى «نار العلم» حمد بن المجذوب وابنه الفقيه عبد الله النقر وحفيده الطيب بن أحمد^(١).

ومن أشهر علماء القرن الذين درسوا في هذا المكان العلامة الشيخ

(١) الدكتور كرسنى محلة الثقافة السودانية، السنة الخامسة العدد السابع عشر.

مجنوب بن جلال الدين والشيخ قمر الدين بن أحمد جلال الدين.

ومن الذين درسوا في خلوة السيد العالم الفذ اللغوي النحوي الشاعر عبد الله الطيب والشاعر الكبير محمد المهدي مجنوب، وذكر الأستاذ محمد المهدي المجنوب خلوة «أبونا» عبد الله النقر في مقدمة ديوانه (الأول) نار المجاذيب قال:

رأيت طفولتي الباكرة على ضوء هذه النار المباركة ونظرت إليها وسمعت حديثها وعلمت وانتشيت وغيت.

أوقدها الحاج عيسى ود قنديل والسودان في ملك «العنج» النصاري من أهلية فالتفت في ليل «درو» الساكن تلقي ذوائبها الذهبية على الحيران تحلقوا حولها وعانقوا الألواح ورتلوا القرآن سهر حولها الفرسان والفقهاء يسبحون وينشدون سماحة بين الناس وأمناً وأريحية قروناً طوالاً حتى الساعة. ودفع بي أبي إلى ضوء هذه النار فرأيت وجه شيخني وسيدي شيخ الفقراء الورع الحافظ محمد ود الطاهر.

وخرجت مع الحيران إلى «الفزعة» لنحتطب وفي قبضتي الصغيرة «فرار»^(١) وماء من بحر النيل في زجاجة خضراء وتغوص أقدامنا في كثبان الرمل المسر؟ وتعلق أعيننا بزرقة النيل ورؤوس الدوم والنخيل ونرى طفولتنا في السدر الظليل ونعود للنار بالعشر والسلم وتطعمنا النار مغرب كل أربعاء كرامة من بليلة اللوييا المبارك وعيش الريف الحلال.

قوز العلم

على عهد باكر والخلوة في عنفوان صباها كان اهتمام المشائخ في المقام الأول أن يحفظ الطالب أكبر قدر من أي الكتاب دون التفات لضبط وتجويد ثم أحس جمهرة الفقراء أنهم في حاجة شديدة لضبط القرآن وتجويده ففرعوا إلى بعضهم بعضاً يعلم أحدهم الآخر أصول القراءة والضبط.

(١) الفرار - فأس صغير.

الشيخ صغيرون

محمد بن سرحان العودي وأمه فاطمة بنت جابر قرأ على أخواله أولاد جابر خصوصاً خاله اسماعيل وحدث شجار بينه وبين أبناء خؤولته بسبب المنافسة اضطره لأن ينزح لأرض «الأبواب» ديار الجعليين ومما حركه للرحلة ومغادرة دنقلا أن الملك عدلان ود أية بعدما قتل الشيخ عجيب المانجلك في كركوج «الحريف شرق».

سافر بجيوشه إلى دار دنقلا فلما جاء «حفير مشو» عزله الفونج عن الملك وولوا بدله الملك «بادي سيد القوم» فحينئذ طلب منه الملك المخلوع عدلان أن يسافر معه لأرض الصعيد وقال له الشيخ صغيرون «بَلِّحْكُمْ»^(١) ثم قدم بعده إلى أرض الصعيد بأمه وإخوانه وزوجاته وأولاده وفي الطريق اختلف طلبته. أهل السافل قالوا ينزل معنا. وقال مثلهم أهل الصعيد فقال لهم الشيخ صغيرون سوف أختار الله. ثم خرج يحمل ركوته «إبريقه».. ولما رجع من الخلاء أخبرهم أنه اختار «قوز المطرق» جنوبي شندي وقوز المطرق كما يقولون كان به رهط من الجعليين الحاكمين. والحاكمة كانت تسمى عند قدامي الجعليين «المطرق» وتعني صولجان الملك وكانت مملكة الجعليين تتكون من ستة مطارق واحدة منها في هذا القوز الذي سمي بها «قوز المطرق» وبعد نزول الشيخ صغيرون به سمي «قوز العلم» لأن الشيخ صغيرون كان أول من أوقد نار العلم جوار نار القرآن وقد أمره رجل صالح أن يدرس في هذا المكان وغرس له عصا في الأرض وقال له اجلس في هذا المكان والشعبة التي غرسها بقيت «دهراً» طويلاً على حالها إلى أن تأكلت بطول السنين ولما أصبحت هيكلاً نخرأ أحاطوها بحجر محوف مثل الماسورة وهي الآن أمام موقع الخلوة.

جلس صغيرون في هذا المكان ثلاث عشرة سنة بذلاً وجهداً إلى أن توفاه الله

(١) ألحق بكم - من اللحاق.

ودفن بالقرب من مكان خلاويه وصغيرون هذا من أبكار الرجال الذين درسوا التوحيد ومن تلاميذه الكبار الشيخ دفع الله ابن الشيخ أبو إدريس العركي والفكي عبد الرحيم ود بحر وأولاد بري علي إبراهيم والشيخ تور المتنا الكاهلي وغيرهم وصغيرون لم يقف على المعرفة التي تلقاها من خولته إنما هبط مصر وجلس مع طلبة الشيخ «البنوفري» فتنبأ له بالنبوغ في الدراسة.

ومن المشايخ الذين اهتموا بتدريس التوحيد كما ذكر ود ضيف الله الشيخ محمد عيسى سوار الذهب وتلميذه النابغة الفكي عيسى ود كنو وكان يدرس بمسجد «حفير مشو» بدنقلا.

مسيد الجوير

مسيد مشهور جداً في منطقة شندي وقد أسسه الشيخ محمود الصاردي الذي قدم من شمال السودان لدار الأبواب^(١) أرض - الجعليين ويعرف المسيد وخلاويه باسم أولاد جابر. ولما كان البيت بيت قرآن وعلم فقد جعلوا ثبناً لمشايخ المسيد أولهم المؤسس.

- ١- الشيخ محمود بن عبد الرحيم أبو رجلين.
- ٢- الشيخ الحاج جابر وهو الذي تسمت به الأسرة آل الحاج جابر.
- ٣- الشيخ محمد.
- ٤- الشيخ عبد القيوم.
- ٥- الشيخ عبد الله.
- ٦- الشيخ محمد.
- ٧- الشيخ المأمون.

(١) دار الأبواب اسم من أسماء منطقة الجعليين ولا تستعمل عبارة دار الأبواب في زماننا هذا إلا عند من يعالجون الكتابة في المصنفات إلخ..

وما زال هذا المسيد عامراً بخلاويہ وضيوفه والناس تقصده من كل الجهات.
ولفت نظري أن كتب تأسيسه بالتاريخ الميلادي بلافتة تلاحظها العين من بعيد
١٦٥١م.

وهذا أمر لا يستقيم مع رسالة هذه المساید والخلاوي ورغم احترامنا للتاريخ
الميلادي كان ينبغي أن يسبقه التاريخ الهجري الذي نشأت في كنفه هذه المدارس
القرآنية فإن عام ١٦٥١م يقابله ١٠٦٢ هـ.

الكتّاب

ما ذكر اسم الكتّاب إلا تذكر الناس دراسة القرآن فقد اشتهرت هذه الجماعة
من بين أبناء عمومته بحفظ الكتاب الكريم. ومر عليهم زمان كانت القرية تحفظ
القرآن على بكرة أبيها.

ورغم انصراف أهل الكتّاب للتجارة والزراعة فإن رهطاً كبيراً منهم يحفظ
القرآن. زراعاً وتجاراً ورعاة ويرجع اسم الكتّاب إلى جدهم أحمد الملقب بأبي
كتاب أو «أبو كتي» ومنه اشتقوا اسم «الكتّاب» أما جدهم الأكبر فيسمى
عبد الله أبو خمسين - وزعموا أنه لقب بذلك عقب معركة دارت بين أهله
والفونج^(١) في «العقبات»^(٢) وهي المنطقة الواقعة بين الهوبجي ومنطقة ود حامد
على الضفة الغربية للنيل وتحسب المنطقة من أرياف مدينة شندي.

كان عبد الله أبو خمسين يقيم وأسرته في «العقبات» حينما نزل بهم جيش
الفونج بقيادة الفارس المشهور «ود كوينه» حط ود كوينه في الضفة الشرقية وأبو
خمسين وجماعته في الضفة الغربية وكان جيش الفونج كبيراً فاحتال عليهم أبو
خمسين وأوهمهم أن جيشه يفوق جيشهم مرات..

(١) تعرف الواقعة بواقعة «ود كوينة».

(٢) العقبات منطقة معروفة تقع جنوب المتمة بالضفة الغربية.

وكان لديه خمسة خيول «فقط» فصار يوردها النيل وقبل أن ترتوي يصدونها عن الماء وبعد برهة يغيرون من هيئتها ويوردونها ثانية وهكذا أوردوها عشر مرات فصارت في نظر العدو خمسين فارساً فأفزعهم هذا المنظر وانطلت عليهم «الخُدعة» وقفلوا راجعين من غير قتال. فلقب منذ ذلك الحين بعبد الله أبو خمسين.

ولد عبد الله أبو خمسين ابنه أحمد وبعد أن شب شغفه حب الكتاب «المصحف» وصار يربطه في عنقه أينما ذهب وصار مشهوراً به فلقبوه بأبو كتيب ثم رخموا الكلمة فصارت «أبو كتي» وأصبح أبو كتي جد الكتياب وبه اشتهروا. وله يعود فضل تأسيس مسيد القرآن وذكروا أن والده أبو خمسين كان - يحفظ - القرآن وأن ابنه أحمد حفظ عليه في المكان المعروف «بالعقات» وقيل أن أبو خمسين عاش ومات في تلك المنطقة. والعقات عَمَرَهَا من قبلُ العالمان المشهوران علي وإبراهيم أبناء بري.

وما زالت آثارهم دالة عليهم.. أما مسيدهم فقد أحنى عليه الدهر وصار أثراً بعد عين، وقد ارتوى كثير من الرجال العظماء من فيض أولاد بري كما أشار إلى ذلك صاحب الطبقات مراراً. وعبد الله أبو خمسين أنجب ولدين غير أحمد أبو كتي هما بله وأبو حرية وأنجب بله فرعاً يعرف بـ «البلياب» جزء استقر بمنطقة البطانة شرقي مدينة رفاعه أما الأخ الثاني أبو حرية فنسله موجود في قرية الحرياب الواقعة غربي شندي بين قريتي - الجلاب وطيبة الخواض.

انتقل أبو كتي من العقات لمكان أسرته الحالي غرب المحمية وكان رحمه الله ورعاً وماهرراً في الحفاظ والتجويد وأول ما استقر بنى المسيد وبني الخلوة وذلك في سنة ١٠٨٢هـ حسب التاريخ المثبت عند مشايخ الكتياب ثم تشعب من هذا المسيد عدد من المدارس القرآنية والخلوي الصغيرة ومنذ ذلك العهد وإلى يومنا هذا ظل المسيد يؤدي رسالته دون كلل أو إبطاء وتبعته المدارس المتفرعة منه كذلك.

وقيل إنها اثنتا عشرة مدرسة وقيل أزيد من ذلك.

وأصبح أهل الكتياب أهل ذكرى حسنة ووثق فيهم الجمهور وصاروا يدفعون أبناءهم لمسيد الكتياب^(١).

والمسيد في هذه المنطقة وغيرها لا يكلف الطالب بأي عبء مالي أو غيره فطعامه وسكنه وكساؤه يقوم به أهل القرية التي بها المسيد وهذا أمر بدهي في كل المساييد.

مقبرة الحفظة

ولعلها المقبرة الأولى في السودان أو في إفريقيا وربما لا يوجد لها نظير في بلاد المسلمين الأخرى - فقد خصص أهل الكتياب جزءاً من مقبرة «أبو كتي» الكبرى - خصصوا مكاناً لمقابر حفظة القرآن الكريم لا يفصل بينهم أي قبر لم يحفظ صاحبه القرآن وقد دفنوا أربعين شيخاً من الحفظة الآخرين في رقعة واحدة لم يتخللهم أحد. غير حافظ لكتاب الله.

وعلمت أن أهالي جبل «مرة» بدارفور فيما مضى خصصوا مدفنة لحفظة القرآن الكبار الذين يعرفون «بالقونية» مفردها قوني^(٢) وهو الحافظ الماهر المجود لعلوم القرآن وذلك في مقبرة ملوك الفور الشهيرة بمنطقة «طرة».

وأنجبت الكتياب أفذاذاً من العلماء الشعراء وينبغي أن نشير هنا للمرحومين - التجاني يوسف بشير - ومحمد عبد الوهاب القاضي ومحمد سعيد الكهرنجي والأستاذ عبد المنعم حسب الله وغيرهم من نابغي الجيل.

(١) رواية الشيخ عبد الرؤوف عبد الوهاب القاضي شيخ خطوة الكتياب.

(٢) كلمة قوني تطلق في السودان الغربي على العالم المتبحر في علوم القرآن وظني أنها كلمة برناوية - نسبة لقبيلة البرنو بنيحيريا.

المسيد اليوم:

ما زال المسيدان الكبيران مسيد سيدي الشيخ عبد الله الكتيابي ومسيد الشيخ عبد الرؤوف عبد الوهاب القاضي يوديان رسالتهما بالإخلاص والتجرد الذي اشتهرت به أسرة الكتياب وازداد إقبال الطلبة عليهم في هذا الزمن. وقد لاحظت وأنا أزور الكتياب أسماء قراء القرآن ورواته وبالمسيد ثلاث عشرة خلوة جاءت تسميتها هكذا.

قراء القرآن:

- ١/ خلوة ابن كثير.
- ٢/ خلوة عاصم.
- ٣/ خلوة أبي عمرو.
- ٤/ خلوة نافع.
- ٥/ خلوة الكسائي.
- ٦/ خلوة ورش.

رواة القرآن:

- ١/ خلوة الدوري.
- ٢/ خلوة هشام.
- ٣/ خلوة قنبل.
- ٤/ خلوة السوسي.
- ٥/ خلوة ابن ذكوان.
- ٦/ خلوة قالون.
- ٧/ خلوة حفص.

وأطلقوا هذه الأسماء على الخلاوي من باب التيمن والاعتراف بفضل الأولين
من القراء والرواة رحمهم الله.

السروراب الجعليين المحس

حينما يثبت أهل مسيد «ما» نسبهم فإنهم يفعلون ذلك على سبيل التوثيق.
الوثيقة التالية أخذتها من الشيخ عبد الرحمن محمد أحمد محمد نورين من
أهل مسيد السروراب بمنطقة الكتياب وعجبت أن الوثيقة عولت على التاريخ
الميلادي مخالفة بذلك ما درج عليه أهل المسيد والخلاوي في كتابة التاريخ
الهجري ومن قبل لاحظت أن أبناء الحاج جابر وأصلهم صوارة كتبوا تاريخ
مسيدهم بالعام الميلادي.

الوثيقة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أما بعد. فهذه نسبة
السروراب أولاد الحاج «حَمْدُوبَه» واسمه أحمد ولكن أهله المحس حوروا اسمه
ليكون «حَمْدُوبَه» وهو أول من جاء إلى بلاد «الأبواب» وكان يحفظ القرآن
وعلم كثيراً من أبناء المسلمين وهو ينتقل من مكان إلى آخر إلى أن استقر في بلاد
«الأبواب» السروراب غرب بلدة المحمية.

استقر بها وعمر المسيد والخلوة وقام بتدريس القرآن ثم تلاه ابنه الشيخ سرور
جد السروراب وهو أول خليفة بعد حمدوبه وتوفي حمدوبه سنة ١٣٥٢م^(١)
واستمر الشيخ سرور إلى أن توفي سنة ١٤٠٣ وتلاه الشيخ محمد وفي عهد الشيخ

(١) حصلت على هذه المعلومة قبيل انتهاء هذا الكتاب وإذا تبعنا هذه الوقائع التاريخية يتضح أن مسيد
السروراب يعد من أقدم المسائد والله أعلم.

محمد كتب المصحف المشهور باسم «أبو نُمي» وهو أشهر مصحف في المنطقة وكتابه هو محمد أبو نمي ابن السيد أبو الفضل بن السيد يحيى بن السيد أبو الفضل ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن السيد طه بن الشريف الحسيب النسيب مجاهد «النبراوي» بلداً والشافعي مذهباً غفر الله له ولوالديه وتم نسخ هذا المصحف الشريف في يوم الاثنين وقت الضحى نهار عشرة من شهر رجب سنة ست وستين وألف من الهجرة وبعد ذلك توفي الشيخ محمد سنة ١٤٦٢ وقام بالمشيخة بعده ابنه الشيخ تاتاي الذي توفي سنة ١٥٠٧ وبعده قام بالإقراء أخيه الشيخ سرور إلى ١٥٦٧ وتلاه أخوه الشيخ حمدوبه الذي توفي سنة ١٦٤٧ وبعده الشيخ عبد الرحمن إلى ١٦٦٧ وتلاه الشيخ عبد الرحيم المتوفى سنة ١٧٣١ وبعده ابنه الفكي الأمين إلى سنة وفاته ١٧٨٦ وقام بالخلافة ابنه الفكي نورين إلى سنة ١٨١٢ وبعده ابنه أحمد سنة ١٨٩٦ وتلاه أخيه الشيخ عثمان إلى سنة ١٩٧٠ وقام بعده ابنه الشيخ محمد وتوفي سنة ١٩٧٧ وقام بأمر الخلافة ابنه الشيخ تاتاي بن الخليفة أحمد وهو الآن خليفة السيد.

هذا ما وجدناه في التاريخ من الأجداد والله الموفق نقل هذا التاريخ من أصله -
الشيخ عبد الرحمن محمد أحمد نورين ابن الفكي الأمين.

حلف اب دنانة:

الناس عموماً خاصتهم وعامتهم في هذه المنطقة يجمعون على صحة نسبة «بنات» الشريف حمد اب دنانة وأن كل واحدة منهن أنجبت علماً من الأعلام المعروفين ورغم هذا الإجماع ووثيقة مولانا الشيخ أحمد الشريف المهدي إمام جامع الخرطوم «سابقاً» وكتابة الشيخ عبد الله ود الهاشمي^(١) فلاني كثير الشك في هذه الرواية التي لا يد للشيخ أحمد فيها ولا لمن حدثوني فهم سمعوا من

(١) كتاب هداية الوهاب في أنساب العرّاب، تأليف الشيخ عبد الله الهاشمي.

آبائهم وأجدادهم هذا النسب فهم يروونه كما سمعوه وكل الروايات متفقة على أن الشيخ حمد اب دنانة أنجب سبع بنات هن:

١- أمونة.

٢- حليلة.

٣- ود يت.

٤- رابحة.

٥- عائشة.

٦- مكة.

٧- فاطمة.

وابناً واحداً هو الحسن البيت. وشكّي مبني على عدة أسباب.

١/ حمد اب دنانة يقيم في منطقة الجعليين بلدة «المحمية» والذين صاهروه يقيمون في مناطق نائية بالنسبة لمواصلات ذلك العصر فال سوار الذهب في دنقلا وكذلك آل عبد الله الأغيش أما الركابية وآل عبد الصادق فمنطقتهم أعالي نهر الرهد وأطراف البطانة جهة القلعة «رانج» المطلة على القضارف.

والبعد في ذلك الزمان مانع كبير.. كيف رأى الأزواج بنات الشريف حمد ولم يرد في كل الروايات أن واحداً من الأزواج رأى بنات الشريف حمد ولم يثبت أنهن رأين أزواجهن.

وكذلك لم نسمع رواية تفيد أن واحداً من «أزواج» بناته درس عنده أو كانت لأهله صلة بالشريف حمد.

وإذا افترضنا أن الشريف حمد هو الذي اختار هؤلاء الرجال أزواجاً لبناته فأين لقيهم وكيف تم الاختيار.. وفي ذلك الوقت المبكر لا يتم الزواج إلا بين الأقارب وخاصة بنت العم وإذا أخذنا في اعتبار أن ليس للشريف حمد أبناء عمومة فالأولى

حسب العرف السائد أن يزوج بناته لتلاميذه أبناء المنطقة فقد عرفهم وخبرهم فهم الأولى بذلك.

٣- ولم يحدثنا راو أو متكلم عن «أبناء» بنات الشريف السبعة الآخرين هل أنجبت كل واحدة ولداً فقط أم أنهم أنجبوا أولاداً كثيرين وما عدد ذلك الولد وأين هم وأين ذرايرهم الآن. لا حديث عن ذا ولا ذكر فلم يتبّه راو واحداً للأبناء والبنات الآخرين فكل الرواة يقفون عند البنات السبعة اللاتي ولدن كل منهن ولداً واحداً وهذا أمر نادر الحدوث أن تلد كل واحدة ابناً واحداً ويصير علماً من أعلام البلاد. هذا وربما كان لهن أولاد ولكن الرواة أهملوهم وركزوا على هؤلاء الأعلام.

الحلف الدنانىـ

وتقديري أنه ربما كانت هنالك صلة بين المشايخ عمر ود بلال والشيخ شرف الدين بن محمد فكروا المعروف «براجل انقاوي» بحكم الصلة الأهلية فبين عمراب «المطمر» والزيداب مسافة قريبة.

أما الصلة بين المشايخ الأعلام فهي لا تعدو أن تكون حلفاً «عريباً إسلامياً» وفي ذلك الوقت كان الناس بحاجة لمثل هذا الحلف الذي يحمي عرضهم وأرضهم وعقيدتهم ويُمكن لهم في بلاد العنّج هذه.

فكان أن خرجوا بهذه الحبكة التي أنمرت هذا الحلف الذي شمل معظم المناطق الحية التي يتجمع فيها وحولها الجمهور وكان ثمرة هذا الحلف المصادقة والمراحمّة التي انبثقت منها هذه المودة التي يستشعرها أبناء هذه الأسر رغم أن بعد الزمان بينهم وبين أجدادهم الذين تفصلهم وإياهم مئات السنين وقد حفظ هذا الحلف كيان المجتمع حتى يومنا هذا.

وفي رواية أن الشيخ عبد الله العركي أيضاً ابن خالة هؤلاء المشايخ.. ولكن

رواية نسبة العركي ضعيفة فلم أسمعها متكررة ولم ترد في وثيقة الشيخ أحمد ولا كتاب الشيخ الهاشمي العمرابي وغيرهما من الذين يحتفظون بشجرة الأنساب، التي أرخت لنسب بنات حمد اب دنانة والله أعلم.

هداية الوهاب:

تحدث الشيخ ود الهاشمي عن نسب جده الشيخ عمر بن بلال من «أمة» قال وأما نسبه من جهة أمه فأقول أن أمه كانت تدعى «وديت» بنت الشريف حمد ابو دنانة بن الشريف سليمان أبو الريش ساكن بيلا صاحب الغار المشهور بالسودان ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن بكري بن السيد عبد السلام بن السيد داؤود بن السيد سليمان بن السيد كمال الدين بن السيد جلال الدين بن السيد علي الهادي بن السيد حسن العسكري بن السيد محمد الجواد بن السيد علي الرضا بن السيد موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي زين العابدين بن السيد الحسين بن السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ.

وأن السيدة وديت هذه والدة الشيخ عمر بن بلال وهي إحدى بنات الشريف حمد أبو دنانة السبعة وهن.

الأولى وديت والدة الشيخ عمر بن بلال.

الثانية أمونة والدة الشيخ محمد عيسى سوار الذهب.

الثالثة رابحة التي أنجبت الشيخ شرف الدين.

الرابعة عائشة أنجبت الشيخ عجيب المانجلك.

الخامسة فاطمة المرضية الملقبة بصلحة أنجبت إدريس ود الأرباب.

السادسة مكة أنجبت الشيخ محمد الهميم ولد عبد الصادق.

السابعة حليلة أنجبت عبد الله الأغيش.

وذلك مروي عن الفقيه العباس بن محمد الهادي نقله عن الفقيه حجازي الولي
الصالح بن الفقيه دفع الله نقله عن الشيخ الطيب بن البشير.

أبناء بنات الشيخ اب دنانة عند ود ضيف الله -

ود الأرباب

قال ود ضيف الله في ترجمته له - ولد رضي الله عنه في العيلفون وقيل الحليلة
شوحطت سنة ٩١٣هـ وتوفي ١٠٦٠ عن عمر ناهز الـ ١٤٧.
محمد بن عبد الصادق بن ماسر الركابي لم يذكر شيئاً عن تاريخ ميلاده
ووفاته.

محمد عيسى سوار الذهب.

قال امه اسمها «حقيقة» وعند الرواة الآخرين اسمها أمونة. أخذ عليه القرآن
وأحكامه على عيسى ولد كُتُو وعبد الله الأغبش ونصر الترجمي ود الفقيه أبو
سنية شيخ اربجي والفقيه عبد الرحمن أبو صلاح والد الشيخ شرف الدين أبو
جمال الدين بن محمد فكرون.. ولَدَ الشيخ شرف الدين بمويس ثم انتقل ودفن في
انقاوى جهة الزيداب.

عبد الله الأغبش:

البديري الدهمسي، حفظ الكتاب على الشيخ محمد سوار الذهب توفي ودفن
في بربر.

لم يزد ود ضيف الله عن هذا في ترجمته لهؤلاء الرجال ولو كان هذا حقيقة..
لنبه إليه الشيخ ود ضيف الله وهو أقرب منا إلى ذلك العهد وكان ود ضيف الله
رحمه الله يهتم كثيراً بالترجمة لهؤلاء الأعلام.

والموضوع في ظني محبوبك بواسطة تلاميذ الشيخ اب دنانة فمن لم يكن جده

اب دنانة بالحسب والنسب فليكن جده الشيخ حمد اب دنانة مجازاً وسلامة
القصد والنية متوفران.

مسيد الأغبش:

من أقدم المساجد وأشهرها في وادي النل أنشأه الشيخ عبد الله الأغبش بن
محمد ماجد المشهور «بكندمر»^(١).

وتتفق الروايات أن تأسيسه تم في القرن العاشر الهجري.

وتأسيسه الأول كان على شاطئ النيل الغربي قبالة بربر القديمة «المنخيرف»
ثم نقل من شط النيل حوالي نصف كيلو وعللوا نقل المسيد أن الشيخ عبد الله
الأغبش رأى في المنام أن يصلي في هذا المكان.. فقرر نقل المسيد لهذه البقعة
المعروفة وحمل كل حفظة القرآن معه حجراً ووضعوا الحجارة على دائرة وتسمى
دائرة الحجارة هذه «المزروب» ثم توسع المسيد من بعد، فصار له عدة خلوي
وبنايات أما المزروب فقد خصصوه مصلى على الموتى وأصبحت الصلاة على
الجنائز داخل المزروب تقليداً..

وظلت نار القرآن مستعلة في هذا المكان من غير توقف إلى عهد المهدية
وانضمام الشيخ محمد الخير إليها وبعد رجوع محمد الخير من الأبيض حيث بايع
المهدي في «بقعة» الأبيض حضر وفي يده الإمارة على بربر. وبعد وصوله بأيام
جند طلبة القرآن والعلم لفتح مدينة بربر وأمر أهل البلد أن يرحلوا إلى الضفة
الشرقية للمشاركة في الجهاد وتنفيذاً لأمر الأمير رحل كل أهل منطقة الغبش وتلك
هي الفترة التي تعطل فيها المسيد وخمدت نار القرآن التي ظلت مشتعلة قروناً
عديدة.

وبعد المهدية دخل الغازي البريطاني ورجع بعض الناس الذين يهمهم أمر

(١) كندمر - اسم اشتهر به آل الشيخ عبد الله الأغبش في دنقلا.

المسيد كالشيخ الأمين وأوقدوا نار القرآن مرة أخرى ولكن الدراسة لم تستمر كثيراً.

لأن «الغبش» خرجوا من المهديّة وليس لديهم شيء يصرفون منه على الطلاب فقد بذلوا كل ما يملكون في سبيل نصرّة المهديّة.

والذين تولوا الخلافة في هذا المسجد وجلسوا لتدريس القرآن.

١- الشيخ الفقيه عبد الله الأغيش.

٢- الشيخ الفقيه حمد ولد عبد الله الأغيش.

٣- الشيخ الفقيه عبد الماجد ولد حمد توفي ١١٢١.

٤- الشيخ الفقيه حمد بن الفقيه عبد الماجد قرأ عليه «حمد ولد المجذوب» وأخذ منه شعلة القرآن إلى أن أوصلها الدامر في كرنفال مشهود.

٥- الشيخ الفقيه محمد بن حمد بن الفقيه عبد الماجد.

٦- الشيخ الفقيه خوجلي بن محمد بن حمد بن الفقيه عبد الماجد.

٧- الشيخ الفقيه محمد بن خوجلي.

٨- الشيخ الفقيه الأمين - «وهو معاصر للشيخ محمد الخير وفي عهده قامت

الثورة المهديّة وتعطل المسجد وبعد المهديّة رجع وأوقد نار القرآن من جديد في زمن صعب ولكنه لم يعمر طويلاً.

الفقيه الشيخ سعد بن أحمد بن الفقيه الأمين تولى الخلافة بعده الفقيه عبد

الماجد بن الفقيه الأمين - وكان يقوم بالتدريس ومعه الشيخ محمد الأمين محمد

الخير وكثر عدد الطلاب في زمنهما ثم أخذ يتقلص عدد الطلاب بعد رحيل الشيخ

محي الدين إلى بربر ووفاة الخليفة عبد الماجد.

غذاء الطلاب وضرورياتهم:

كان غذاؤهم من «سواقي» الغبش وكان عددها ٨٠ ساقية وكانت تصلهم إعانات من الموسرين من أبناء الغبش المسافرين في بقاع السودان كالجزيرة «الصعيد» وكردفان وفي العهد التركي كانت تصل للطلاب إعانة سنوية من الحكومة.

مسيد راس الوادي:

بربر مدينة قديمة في تاريخها وقد زارها وهاجر إليها جماعات من معلمي القرآن وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الأغيش صاحب المسيد الأشهر «مسيد الغبش» وبالقرب منه مسيد كدباس.. مقرر الشيخ أحمد الجعلي والشيخ أحمد الجعلي رحمه الله من أبرز شيوخ القرآن وقد انتخبه خليفة المهدي «أيام حكمه» شيخاً على مشائخ القرآن لدقة حفظه ومهارته في تجويد القرآن.

وكدباس اليوم ١٤٠٩ هـ يوجد بها أكبر مجمع لحفظ القرآن في المنطقة ويليهما مسجد الشيخ ود الفكي علي المشهور باسم مسيد «الحلفا» وغير ذلك كثير.. ومن الكثير هذا اخترت:

رأس الوادي الجزء الجنوبي من مملكة الميرفساب وحاضرتها قرية «السُّلْمَة» جنوبي بربر ويعتبر هذا المكان قديماً جداً ووجدت شاهداً مادياً في يد الخليفة العبد. إذ زرت في منتصف شهر شعبان سنة ١٤٠٢ هـ وأطلعني على المخطوط الذي أُرِخ للمسيد، وبدأ المخطوط بسلسلة النسب ثم جاء ذكر المسيد وتاريخه أثناء السياق.. وبدأ المخطوط هكذا.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

وبعد فلنذكر ما عَقِبَ شهيد كربلة «كربلاء» الإمام الحسين السبط بن علي كرم الله وجهه. من سيدة نساء العالمين السيدة فاطمة الزهراء أما ابنها الحسين فلم يعقب من الأولاد الذكور إلا الإمام علي زين العابدين إلخ.

وسرد الكاتب النسب إلى أن وصل إلى السيد حمد.. ويبدو أن المخطوط اهتم بأنساب «الكمالاب» الذين يتصل نسب مؤسس المسيد بهم قال:

إن السيد محمد قدم من فاس لزيارة الرسول ﷺ، ولما قضى زيارته أراد الرجوع إلى مدينة فاس، وقد تزوج من الأشراف القاطنين يومئذ «بالبحيرة»^(١) وكان في زمن السلطان بَيْرص «بَيْرس» وقد انتقل من البحيرة.. وأعقب من الولد السيد كمال الدين والسيد كَميل الدين والسيد أحمد الذي «نبتوا» منه الجعافرة والسيد حماد بفضاء (ادفو) والسيد أحمد «بالسليمية» ومن ذريته عبد الكريم الجرجاوي والسيد «جهين» بالأرض الوسطى بجوار طحطة «طهطا» والسيد عيسى بمدينة القيروان وإن السيد كمال الدين له ثلاثة أولاد ذكور أحدهم السيد المشهور بِشَنْدَق.. والثاني شَبُو والثالث انشيك^(٢).

تفرع منه جميع الشندقاب ومن أولاده السيد علي أسد أعقبَ السيد عبد الله والسيد عبد الله أعقبَ السيد محمد والسيد عبد القادر، سكتته وذريته على شاطى

(١) البَحيرة - بلدة بمصر.

(٢) شندق - شبو - انشيك - يعتبر هؤلاء الرجال أجداد قبيلة المرغوماب بأرض البطانة (أم شديدة) ويتداخل نسبهم مع الكمالات.

بحر النيل ببلدة تسمى - رأس الوادي وفي سنة ٨٦٩هـ أسس مسجده في تلك
البلدة في زمن الأرباب الصايم^(١).

وولد الصائم محمد الغنامي ذريته قاطنون بتلك البلدة وهم أهل أصلها وأن
محل المسيد يسمى حلة «الدَّيْكر» بالسعداية وله من الأولاد السيد المكي جد
المكياب^(٢).

سكنته وذريته بحر النيل ببلدة تسمى
رأس الوادي وفي هراي ٨٦٩ هـ هجرة قد
أسس سيدي بلكة البلدة في زمن الأرباب
الصايم وأولده واحد أولاد الصايم في هراي
ذريته هم قاطنون بتلك البلدة وهم
سكنها وان محل السيدي يسمى حلة الديكر
بالسعداية وله من الأولاد السيد المكي وان
هو الذي يقرباه المكياب وهو عقيب
الفقيه السيد مصطفى والسيد مصطفى
عقب الفقيه السيد عبد الله
وأخيه السيد عجيب وعجيب شقيق

نص الوثيقة التي أرخت قيام هذا المسيد

(١) رأس الوادي هو الجزء الذي يلي بربر جنوباً وله إدارة منفصلة تمتد حتى نهر أتبرا.

(٢) المكياب - آل الشيخ الخليفة العبد محمد النور.

الرباطاب

الرباطاب قبيلة نابهة الذكر وتقع بلادهم بين مملكة الميرفاب «جنوباً» والشايقية «شمالاً». هذا في التاريخ القديم حينما انشطر رباط وشايق من بني عمومتهما الجعليين القاطنين في منطقتهم المعروفة - بدار الأبواب - وكان بين الرباطاب والشايقية منطقة تكثر فيها الشلالات والصخور فلم يعمرها - لا - الشايقية ولا الرباطاب وظلت خالية من السكان إلى أن رحلت إليها قبيلة «المناصير» فعمرتها وبعد استقرار المناصير. صار الحد التقليدي للرباطاب جنوباً «السنقير» وشمالاً «شامخية» ثم ظهرت مدارس القرآن فانهاز إليها المجد والبطولة والنبيل فشمّر المجتمع عن ساعد الجد وعمر المسيد والخولة وكان الرباطاب في الطليعة.

العباسة

وظهرت في بربر أسرة الغبش وفي بلاد الشايقية أولاد جابر وفي دار الجعليين المجاذيب وفي بلاد الرباطاب ظهرت أسرة «العباسة» وإليهم ينسب الفضل في إنشاء الخلاوي والمساييد ونشر التعليم في دار الرباطاب باديء ذي بدء والروايات الشفهية تؤكد أن مدارس العباسة والمجازيب والبديرية والركاية كانت على عهد المسيحية ويزعم الرواة أن رهطاً من العباسة خرج من دار الرباطاب مهاجراً ومبشراً حتى استقر في جنوب كردفان تقلى «الجمال الشرقية» وسميت المنطقة باسم «العباسية» نسبة لهذه الأسرة وتزوج الشيخ العباسي من بنت مك «تقلى» وأنجب منها جد الملك «جيلي» وحسب عرف القوم صار السلطان و«المكوكية» من أسرة جيلي وما زال آل جيلي هم واجهة الجبال الشرقية المعروفة بتقلى العباسة والله أعلم.

أدوار الخلوة ووظائفها في المجتمع التقليدي

تنتشر الخلاوي في منطقة الرباطاب انتشاراً واسعاً وتكاد تكون لكل قرية في المنطقة خلوة خاصة بها. لكن هذه الخلاوي تتفاوت في أهميتها وأدوارها. وتبدأ الخلاوي من نواة في الحلة أو القرية تقوم بإيواء الضيوف، وتدرّس مبادئ القرآن والكتابة. وتمثلها خلاوي سِينَس والباقيِر وانجِرِي وكُرْقَس الجزيرة، وعشرات الخلاوي الأخرى المنتشرة في قرى المنطقة. وهناك خلاوي أكبر حجماً وتجمع أكثر من وظيفتين حين تقوم بجانب الضيافة وتعليم القرآن بالعلاج والتوثيق، والمحاية وتمثلها خلاوي العابداب والخلوة «أم راو» وخلاوي مُقَرَّات والحجّير. وهناك خلاوي ذات تأثير أكبر ووظائف أكثر تعدداً وتخدم مجموعة من القرى وتمثلها خلاوي القلوباب في «الطُوبينة» وخلاوي الشكّاكيك والسّنيناب في مَرُو وخلاوي العبيداب في عتمور وهي تقوم بوظائف التعليم والضيافة وحل المنازعات والقضاء ولكنها تقتصر أن تكون خلوة شاملة في بعض الجوانب وخاصة النفوذ السياسي العام.

ويمكن القول بأن الخلاوي تتدرج من نواة صغيرة حتى تصل إلى مرحلة الخلوة الشاملة، وهذه مرحلة قل أن تصل إليها خلاوي كثيرة في المجتمع التقليدي وتختص بهذا الدور خلوة واحدة رئيسية تمارس نفوذاً عاماً على جميع المنطقة وهي خلوة الدراسة.

سنتهم بالدور الذي تقوم به هذه النوعية من الخلاوي كمصدر أساسي للدراسة. وقد اخترت لهذا البحث خلوة «العبابسة» في «ندی» وهي من هذا النوع الشامل ويعترف لها المجتمع في منطقة الرباطاب عامة بالسبق والريادة.

الأدوار التي تقوم بها الخلوة في المجتمع التقليدي

الدور السياسي والاجتماعي

أول أدوار الخلوة أنها برلمان المنطقة المعبر عن آراء سكانها في مشاكلهم الاجتماعية العادية وهي مكان حل المشاكل الفردية والعامة أو المشاكل السياسية التي تهم جميع الأفراد وتدل المعلومات المتاحة حول الخلوة أنها كانت طوال تاريخها الدار التي يتجمع فيها سكان المنطقة المحددة لمناقشة الأحداث وتبادل الآراء وعرف الناس في ديار الرباطاب بجانب أسرة العباسة أسرة «البوشاب» وغيرهم من بناء النهضة التعليمية.

ثم عمرت في دار الشايقية وفي بربر والجعلين وصار المؤرخون يركزون على هذه الخلاوي والمساييد وأهملوا من غير قصد خلاوي الرباطاب ذات التاريخ البعيد.

وفي عصرنا الحاضر يسر الله ابناً من أبنائهم كتب بحثاً بعنوان المؤسسة الدينية التقليدية دورها ووظائفها في مجتمع الرباطاب نال به درجة علمية رفيعة جزاه الله خيراً..^(١)

نهاية الكنيسة في المنطقة وبداية ظهور الخلاوي

يصل الأب فانتيني^(٢) في دراسته للكنائس في السودان إلى قناعة بأن الكنيسة المسيحية لم تنهر انهياراً سريعاً وإنما ماتت موتاً بطيئاً. وأن آثار الكنائس تدل على أن انتهاء دورها كان تدريجياً ومن المحتمل أن بعض الخلاوي نشأت في

(١) الأستاذ الدبلوماسي أحمد المتخصص، كاتب هذا البحث.

(٢) فانتيني قسيس وكاهن مشهور وله مساهمات كبيرة وهو إيطالي الجنسية ويقيم في الخرطوم.

أواخر عهد الكنائس المسيحية وأنها استطاعت أن تعيش في المنطقة قبل أن تندثر الكنيسة المسيحية وتكون الغلبة للمؤسسات الإسلامية.

وتشير بعض الوثائق المتاحة إلى أن أجداد أسرة العباسية دخلوا المنطقة أثناء حكم العنج «المسيحية» وأنهم استطاعوا أن يضعوا أقدامهم في بعض الأماكن في المنطقة. وهذا يعني أن مجموعة مسلمة استطاعت التغلغل التدريجي، ومن ثم دخل الإسلام في المنطقة عن طريق هذه العناصر في الفترة التي كان العناصر المسيحية تحكم فيها ومن الواضح أن نمط السكن في الفترة الأخيرة من العهد المسيحي كان ينحو نحو سكنى الجزر الحصينة وإفراغ الضفتين الشرقية والغربية من السكان. وهذا «الفراغ» الذي حدث في ضفاف النيل وخاصة الضفة الشرقية أصبح جاذباً لعناصر جديدة أغلبها من المسلمين وتدلنا أسماء الأماكن الحالية في المنطقة لهذه الظاهرة حيث أن أسماء الأماكن كما أشرنا سابقاً في الضفة الشرقية أسماء عربية وأسماء الجزر تغلب عليها الأسماء «النوبية» البحتة والضفة الغربية فيها نسبة قليلة من الأسماء العربية وغالبيتها أسماء نوبية وهذا يعني أن الأقليات المسلمة استطاعت أن تنشئ مؤسساتها الدينية في وقت كانت فيه الكنائس تؤدي دورها نحو السكان المسيحيين وتنشط وسط رعاياها ويبدو أن التعايش بين المؤسسات المسيحية والإسلامية تم دون صراع حاد بينهما.

وبطول الزمن بدأت المؤسسة الإسلامية تجذب أعداداً متزايدة من السكان المحليين إليها. وعلى حساب الكنيسة حتى جاءت المرحلة التي أصبحت فيها الكنائس نفسها أماكن عبادة إسلامية حيث أسلم رعاياها - ويعطينا مصير الكنائس المسيحية ثلاثة أنماط للتغيير يمكن تلخيصها فيما يلي:

١/ هناك كنائس هُجرت تماماً وأصبحت آثاراً يحتفظ لها الذهن الشعبي بذاكرة ما. وقام هذا بديلاً لها في المنطقة أو القرية بمؤسسة إسلامية منذ البداية وكان مؤسسوها في الأصل مسلمون لم يشأوا الارتباط بمكان الكنيسة وهذه

النوعية من الخلاوي تمثلها ندى والطوبى والغار وأغلبها يتشرب في الشاطى الشرقى وقد ارتبطت بشخصيات إسلامية نازحة إلى المنطقة ونمط خلاوي العبابسة «ب» النمط الثانى هو نمط الكنائس التى تحول دورها الدينى فى فترة ما من كنائس مسيحية إلى مساجد إسلامية واستعمل نفس المبنى ليقوم بهذا الدور دون حساسية تذكر. ويمثل هذا النمط كنيسة «ارثل» التى أصبحت جامع «البوشاب» وكنيسة الكرو التى أصبحت مسجد «ود صالح» الآن. وهذا النوع يوجد فى الجزر وفى الضفة الغربية.

ج - والنمط الثالث هو الغالب ويتمثل فى آثار الكنائس التى فقدت استمراريتها كمبان تؤدى دوراً دينياً ولكن ما زال العامة يكون لها احتراماً. وتضم هذه الفئة كنيسة «قنديس» المشهورة عند الأثريين التى أصبحت مزاراً للولى «أبو خف» وكنيسة «دم النور» التى أصبحت مزاراً «لحمدت الله».

وتدل هذه الأنماط الثلاثة على حركة إسلامية مختلفة فى هذه المنطقة حدثت بطريقة فيها الكثير من الأخذ والعطاء والتغلغل التدريجى فى المؤسسات المسيحية حتى تمت فيها الغلبة للمؤسسات الإسلامية لقد احتضن المجتمع خلال تاريخه الطويل المؤسسات الدينية وأفرد لها دوراً خاصاً فى بنيته الأساسية وورثت الخلوة هذا الدور من المؤسسات الدينية.

وتجدر الملاحظة هنا أن المسجد كمظهر إسلامى أدى وظيفة محددة لم يملأ الفراغ الذى تركته الكنيسة بوظائفها المتعددة فقامت الخلوة بملء هذا الفراغ والقيام بهذا الدور الهام.

الباب الخامس

المسيد في شرق السودان

شرق السودان لا تنصرف إلا على ديار «البجا» الواقعة غرب البحر الأحمر وشرق النيل الكبير ونهر أتبرا وتحد شمالاً بمصر وجنوباً بالحبشة وبالقطع لا أستطيع تغطية هذه المساحة الكبيرة من هذه الديار وحسبي أمثلة بعينها وهي الأماكن التي زرتها توكر^(١) ونواحيها - سواكن - وبورتسودان - كسلا - همشكوريب - سنكات اركوريت إلخ..

وأهل شرق السودان البجاة بشتى قبائلهم من أكثر الجماعات السودانية تعلقاً وحباً للقرآن والبجاة لا ريب تأثروا بالعرب قبيلة «بلى» قبل البعثة المحمدية وقد أورد الشيخ الأستاذ محمد الأمين شريف مؤرخ شرق السودان نقلاً عن ابن حوقل - أن البجاة عرفوا قبيلة «بلى» قبل عام الفيل بثلاثة قرون - والبجاة حتى اليوم يتنادون أو يطلقون على أي «عربي» كلمة «بلويت» نسبة لقبيلة «بلى» أما لغتهم هم فهي - تبدوايت - مقابل «بلويت» العربية.

وقبيلة بلى ارتادت ديار البجاة بقصد المنافع والتجارة، وبجزوغ فجر الإسلام توافدت قبائل أخرى لشرق السودان من طريق ينبع إلى عيذاب ومن طريق جدة وفرسان إلى توكر وسواكن وعقيق^(٢).

(١) توكر - هو النطق الصحيح لهذه المدينة وليس طوكر. وقد أبدل المصريون أيام حكمهم الثاني التاء طاء وفعلوا ذلك في أماكن كثيرة.

(٢) عقيق - منطقة ساحلية تقع جنوب توكر.

وكانت عذاب مدينة عظيمة في ذلك الزمان وقد وصفها المقرئزي أن بها
سبعمائة مسجد^(١).

وكلمة بجاة أو بجة كما تعبر الكتب القديمة لا يستعملها أهل شرق السودان
ولا يحبونها لأنها أطلقت عليهم من الخارج فهم قبيل شتى لكل اسم و ديار
وحدود.

أولهم - هندنوة [٢] بني عامر [٣] أمرار [٤] أشراف [٥] أرتيقة [٦]
بشاريون [٧] حلنقا [٨] كميلاب [٩] ملهكتتاب [١٠] حباب. آتمن وغيرهم.

المسايد

أكبر وأشهر مسجد في ديارهم يعرف باسم «امسقد إبر» ومعناها «المسيد
الكبير» وهو قديم ومشهور وقام بتدريس القرآن دهرًا طويلًا وما زال أصحابه
الملهكتتاب^(٢) يمارسون التدريس وجماعات أخرى كثيرة تقوم بتدريس القرآن
بجد وعزم شديدين كقبائل الأشراف، والحلنقا آل سيدنا مالك، وآل الشنقيطي،
في توكر، وآل ود حاشي، في قوز رجب، والمجاذيب في القاش، وسواكن
واركويت وانعقد لواء تدريس القرآن الآن عند سينا علي بيتاي لا في الشرق وحده
بل في جميع أصقاع السودان.

واستأذن في استعمال كلمة «بجاة» التي أصبحت الأكثر استعمالاً عند غالبية
المتحدثين والكتاب وغيرهم. والبجاة نشأوا على الحرية والكبرياء وفي أكثرهم
خنزوانة شديدة فهم لا ينكسرون لبشر قط اللهم إلا من لهم صلة بالقرآن
كالمشائخ والفقهاء ولا سيما الأشراف منهم.

(١) نقل عنه نعم شقير - صاحب كتاب جغرافية وتاريخ السودان هذا الخير.

(٢) الملهكتتاب - بلغة البجا بمعنى سكان المكان الوسط.

أشرت لهذا السلوك لأدلل على حب البجاة للقرآن وحاملي القرآن وأضيف أنهم لا ينزعون سلاحهم ولا يتخلون عنه إلا إذا أقبلوا على «فقير» أو معلم قرآن أو رجل شريف متفق على شرفه.

قبائل الأشراف

وقبيلة الأشراف قبيلة يجاوية من صميم أهل الشرق ولكنهم امتازوا على غيرهم بتعلقهم بالقرآن فقد ظلوا يحملون راية التدريس منذ قرون ولا سيما نساؤهم فأكثر مشائخ القرآن عندهم «نساء» يدرسن البنين والبنات في سن مبكرة ولما يقاربون سن المراهقة يفرقون بينهم فتصير البنات لخللاوي النساء ويذهب البنون لخللاوي الرجال. وهذا تقليد عرفته الخللاوي الكبيرة في وسط السودان ولكن شرق السودان امتاز بهذا الأسلوب والقراءة المختلطة ثم التفرقة في سن معينة.

إذن يتوجب عليّ أن أتحدث عن هذه العشيرة الأشراف الذين جاء جدهم الشريف «محمد» الداعي إلى سواكن في منتصف القرن العاشر الهجري وطلب الزواج من الأرتيقة ولكنهم طلبوا منه أن يثبت صحة نسبه.

فرجع إلى الحجاز. ثم انتهز فرصة الحج فالتقى بعدد من أعيان سواكن فأثبت أمامهم صحة نسبه ثم عاد إلى سواكن فتزوج من إحدى حفيدات - محمد جمال الدين - أمها بنت الشيخ [بوداي] من الهدندوة «الشرعاب» التي كان مصراً على تزويجه منها، وينقسم الأشراف إلى عدة فروع. ويسكن معظمهم في مدن وقرى شرق السودان ويعملون بالتجارة والزراعة ويسكن قسم منهم في منطقة «خور بركة»^(١) فيسمون أشراف خور بركة ويسكن قسم آخر في منطقة «عتباي» ويسمون أشراف عتباي^(٢).

(١) خور بركة - جنوب منطقة توكر ويتصل بارتيريا.

(٢) عتباي - منطقة معروفة في شمال ديار البجا.

لقد اهتم الأشراف بالتعليم الديني كثيراً ولهم مكاتهم الكبيرة في نفوس الناس جميعاً، باندغامهم في أهل الشرق اكتسبوا لغة الأم فصاروا يتحدثون «التبدوويت» كغيرهم كما أن زعيم مثل زي عموم البجاة في زماننا هذا.

ولغة الأشراف هي اللغة البجاوية بجانب العربية ولهم نقيب في سواكن وعندهم تجمع سنوي يأتيه الأشراف من كل المناطق وهو حولية الشريف محمد جدهم الأكبر، وتم اختلاط وتزاوج بينهم وبين الأرتيقة مما قرب بين القبيلتين فتعاطفاً وتآزراً.

وعند الأشراف شجرة نسب لم أر لها مثيلاً وهي متجددة كل حين إذ يضيف لها الشريف «النقيب» أي مولود جديد وحتى الذين يعيشون خارج المنطقة يرسلون أسماء أبنائهم الجدد فيضيفها للنقيب كل حسب فخذ وفروعه ولا أحسب أن هنالك شجرة تدانيها في السودان أو غيره من البلدان التي تهتم بالنسب.

سواكن

ذهبت إلى سواكن في شعبان ١٣٩٧هـ وهي مدينة تاريخية عظيمة وزارها على عهد عمارها كثير من الرحالة مسلمين وفرنجة وعلى رأسهم الرحالة ابن بطوطة والألماني بركهارت.

وقد عمرت سواكن وطار صيتها بعد تدمير مدينة عيذاب^(١) وظلت سواكن عروس البحر الأحمر باعتبارها أفضل ميناء حتى أن البحارة أطلقوا عليها «بندقية» الشرق وبعد عمارها المشهور بدأ يدب في جسدها الموت حيث قررت الحكومة نقل المكاتب والميناء وكل أسباب العمران إلى مدينة بورتسودان فشبت بورتسودان وشاغت سواكن إلى أن أدركها العجز التام فنخر الموت مبانيها

(١) عيذاب - مدينة دارة - على شط البحر الأحمر في الشمال الشرقي من البلاد.

وبصارت أطلالاً. وتحت عمائرها وأزقتها بقية من فضل أهلها الأوفياء كالعمدة الأمين محمود أرتيقة من أصحاب مجدها. ولقيت فيها العم الشيخ حسن محمود بوداي وغيرهم من الشيوخ الذي تجاوزوا السبعين والثمانين من العمر كنت أقصد من هذه الزيارة مشاهدة أماكن الخلوي التي اشتهرت في سواكن وقادني العم حسن بوداي وهو العليم الخبير بأسرار سواكن والأماكن والخلوي في الجزيرة^(١) وخارجها حيث زرنا أماكن الخلوي الآتية:

[١] خلوة الشيخة بخيتة أحمد في الساحل جوار قصر الشناوي.

[٢] خلوة الشيخة فاطمة أحمد ايرا في حي المشيل.

[٣] خلوة الشيخة فاطمة علي طويل في حي اللّي لي.

[٤] خلوة الشيخة خديجة إسماعيل في حي اللّي لي وفي سنكات أخيراً.

تلك كانت أهم الخلوي التي زرتها وفي كثير من القصور والبيوت توجد هذه الخلوي الخاصة وقد اشتهرت بها سواكن ومثلها في العالم الإسلامي كثير. كذلك لقيت رهطاً من الشيوخ الذين درّسوا عند هذه الشيخات أمد الله في أيامهم.

اسم الشيخة	اسم الطالب	وضعه الاجتماعي الآن
الشيخة بخيتة	الأمين محمود أرتيقة	عمدة سواكن
الشيخة بخيتة	حسن محمود بوداي	صاحب ماشية
الشيخة بخيتة	فاطمة محمود بوداي	ربة منزل
الشيخة بخيتة	مريم محمود بوداي	ربة منزل
الشيخة بخيتة	أحمد الأمين موسى	تاجر بورتسودان

(١) الجزيرة - سواكن الأصل تسمى الجزيرة.

الشيخة بخيطة	محمد طاهر الأمين ارتيقة	شيخ كبير
الشيخة بخيطة	أبو زينب محمد يوسف	شيخ كبير
فاطمة أحمد ايرا	الأستاذ حامد أبو علي	موجه فني معاش
فاطمة علي طويل	إبراهيم فضل محمد	ضابط جمارك معاش
خديجة اسماعيل	الأمين محمود ارتيقة	عمدة

هذا بعض ممن لقيتهم وغيرهم كثيرون بل كل الجيل الذي درس في المدارس العليا وكلية غردون كل هؤلاء درسوا أول هذا القرن في خلاوي الشيوخات ومن قبلهم كثير وكما ذكرت فإن تعليم الصبيان مطلقاً تقوم به نساء الأشراف، وكان التعليم مختلطاً كما أفادنا الشيخ حسن محمود بوداي الذي درست معه أخته فاطمة بوداي ومريم بوداي وهن من الشيوخات الحاذقات كل ذلك في حالة الصغر.

هذا ولمعلمات القرآن كما للمعلمين منزلة خاصة واحترام كبير وللشيوخات أسماء وألقاب بلغة القوم:

١/ شيخة تون.

٢/ فقية تون.

٣/ سيدنا تون.

٤/ فكي تون.

كما زرت مع أستاذنا محمد الأمين شريف رحمه الله والعم الشيخ حسن بوداي سواكن مرة أخرى حيث وقفت على بعض المدارس التي تمزج بين القرآن والفقه.

مدارس الشيخ محمد المحذوب بن قمر الدين^(١) وما زالت تؤدي فيها

(١) مدرسة المعاذيب وهم أسباط الشيخ محمد المحذوب بن قمر الدين من ابنته عائشة وعقبه في شرق السودان من ابنته تلك.

الصلوات ويتعبد فيها الزهاد ويخلو فيها أهل التلاوة.

كما زرت مدرسة الأشراف ومسجدهم وهو من المساجد التي تقوم بتدريس القرآن والفقه. وفي قلب جزيرة سواكن مساجد كثيرة أهمها الشافعي المالكي الحنفي الحنبلي وأهل سواكن يتعاملون في أحوالهم الشخصية ويتقاضون على مذهب الإمام «الشافعي» خلافاً على ما هو عليه عموم أهل السودان الذين يأخذون بالمذهب «المالكي» الذي يناسب أحوالهم أما محاكم الدولة فالقضاء فيها على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان وهذا أثر من آثار الحكم التركي الذي حمل أهل البلاد على الاحتكام للمذهب الحنفي، كما وقفت على الزوايا التي أنشأها بعض العلماء.

١/ زاوية الأبرار.

٢/ زاوية الأسرار.

٣/ زاوية الأنوار.

وقد أسسها السيد محمد عثمان الميرغني الختم وهو عالم مشهور، وله تلاميذ في السودان ومصر واليمن والصومال والحجاز. وفي مدرسة الأنوار درس القرآن مولانا السيد علي الميرغني وفي زاوية الأنوار درست النساء وكان السيد محمد عثمان الميرغني كثير الاهتمام بتعليم النساء القرآن وأمور دينهن.

والزوايا موزعة كالآتي:-

١/ الأسرار في القييف (الشاطيء) خارج الجزيرة.

٢/ الأبرار وسط الجزيرة.

٣/ الأنوار خارج الجزيرة أيضاً.

كذلك توجد زاوية عامرة وهي زاوية الأشراف المعروفة باسم الشريف السيد

عبد الله يسن علي كرار وقد أشرت لزواية المجاذيب آنفاً وهي عامرة جداً بالنسبة لهذه الزوايا.

والقراءة في سواكن على رواية الدوري قراءة أبي عمرو بن العلاء وهي إحدى القراءات الصحيحة عند أئمة المسلمين، ولا يظن أحد أن أهل السودان وحدهم الذين يقرأون برواية الدوري، يقرأ بها خلق كثير.

وغير ذلك من بلدان الساحل الأفريقي، وقد علمت من مولانا القاضي يحيى الكبسي شيخ القراءات في اليمن أن أهل اليمن كانوا يقرأون بها ثم صاروا يقرأون برواية نافع.

إن في الحفاظ على هذه القراءة حفاظاً على أثر كريم قرأ به الصحابة الأجلاء فلسنا أحرص منهم في المحافظة على القرآن وهناك مسعى لتوحيد القراءات على رواية واحدة تسندها بعض الجهات الإسلامية وأخشى أن يكون غاب عليهم أن عشرات الملايين ظلت حفيظة أمينة على هذه الرواية.

وليست هنالك مدعاة لتغييرها فالقرآن نزل على سبعة أحرف فبأية قراءة قرأنا سلمنا.

المسجد في شرق السودان

وفي شرق السودان مسجداً قديمان أحدهما في أقصى ديار البجة جنوب خور بركة ويقع اليوم في المنطقة الارترية ويعرف عند المؤرخين باسم مسجد «هجر» وينطقها البجة وبني عامر «هقر» بالقاف العامة.

والمسجد الآخر يقع شمال غرب سواكن وعرف باسم مسجد «صبيحات» ولا معنى لكلمة «صبيحات» في لغة البجا وربما هو اسم حرفه العرب من كلمة محلية ولكن المحل يعرف عند البجا باسم «نوبت».

ودفعني البحث أن أشد الرحال لشرق السودان وانطلقت من جيبب صحت
شيخى العالم المؤرخ محمد الأمين شريف صاحب المخطوطة «الثقافة الإسلامية
فى شرق السودان».

وامتطينا عربة كبرية تكرم بها علينا قائد معسكر جيبب وفى اليوم العشرين من
شهر رجب ١٣٩٧هـ خرجنا صوب منطقة «نوبت» وتبعد من سنكات وجيبب
حوالى ستين ميلاً قطعتها العربة المتينة فى حوالى تسع ساعات إلى أن وصلنا
المنطقة المعنية وهى خالية من السكان إلا بعض بيوت بعيدة من المكان وعن
طريق الصدفة مرت بنا قافلة فمالوا نحونا وحيونا أطيب تحية وصنعوا لنا القهوة
البجاية الشهيرة.

وبعد استحمامة قصيرة قصدنا مكان المسجد المعروف باسم «صباحات» مع
شخصين من أبناء البجا الذين لقيناهم كما أشرت بمحض المصادفة وأكدوا أنهم
سمعوا من آبائهم أن هذه الجدر المتساقطة هى مسجد قديم ولا يعرفون أكثر من
هذا فحمدنا لهم هذا الرأي.

ولا شك عندي أن هذا الكم المتساقط من الحجارة هو المسجد المعنى
والمبنى مستطيل حوالى أحد عشر متراً وعرضه حوالى أربعة أمتار مبني بالحجر
القرانيت ومكان المحراب واضح وكذلك بابان مكان الباب الجنوبي أكثر وضوحاً
وعثرت بين الأحجار المتساقطة على حجر رخامي طوله حوالى قدمين ونصف
القدم.

والذى لفت نظري حروف عربية محفورة بآلة حادة كالسكين ولم أستطع
قراءتها قراءة صحيحة وحملتها معى إلى الخرطوم وأعطيتها لشعبة الآثار بجامعة
الخرطوم وأخطرت مصلحة الآثار والمتاحف بهذا الحجر الذى عثرت عليه فى
ذلك المكان.

وفي زيارة سابقة قام بها أستاذنا محمد الأمين شريف عثر على حجرين بهما كتابة واضحة وسلمهما لحاكم الشرقي وحولهما الحاكم بدوره لمتحف شرق السودان وهما الآن بكسلا.

أما الحجر الذي حملته معي فقد قرأه بعد مدة طويلة الأستاذ الدكتور أحمد محمد علي الحاكم وكانت عليه تلك العبارات ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

وحول المسجد في منطقة «نوبت» مجموعات لحجارة مرصوفة رصفاً منسقاً في شكل دائري كأن صانعها مهندس ماهر.

وتعلو من سطح الأرض حوالي متر وعشرين «سنتاً» ولم أدر كنه هذه الحجارة ولكن علمت من شيخنا شريف ومن العرب الذين لقيناهم في ذلك المكان أن تلك الأكوام ربما كانت مقابر وقال واحد إنها بيوت!!

وفي تقديري أن البيوت لا تحتاج لهذا الكم الكبير من الحجارة ولا أجد سبباً يجعلهم يتجشمون جمع هذه الأحجار للبيوت.. أما كونها مقابر فهل هي للمسلمين أم لقوم غابرين لم يكن دينهم الإسلام.

وعلمت أن جماعات من الفرنجة كانت تزور هذا المكان وزعموا أنهم أجروا بعض الحفريات وهذا مبلغ علم محدثي.

ويذكر «بلوس» أنه عثر على مقابر أولئك الأمويين على طول الطريق الذي سلكه من بلاد النوبة حتى ميناء باضع.

فضلاً عن هذا فإن الأبحاث «الأركيولوجية» أثبتت وجود جاليات إسلامية في منطقة خور «نوبت» الواقعة على بعد ٧٠ ميلاً غربي سواكن.

إذ عثر على شواهد قبور عربية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادي ٧٦٠م وهو تاريخ يتفق وهجرة الأمويين إلى أوطان البجاة مما يدعونا

إلى الاعتقاد أن هذه القبور تنسب إلى أولئك الأمويين الهارين إلى هذه الأوطان.

هذا وقد ثبت وجود جاليات إسلامية في منطقة خور «نوبت» غربي سواكن ودل البحث الأثري على وجود مسجد في سنكات يرجع تاريخه إلى سنة ٨٣١م^(١).

وقد لاحظت منذ خمس عشرة سنة حجارة قرية من هذه الأشكال ولكنها غير مستديرة كما في نوبت وتلك الحجارة رأيتها في جبل «الحرازة» وهي منطقة يسكنها النوبة الدواليب وغيرهم^(٢).

واشتركت في حفر أجراه الأثري المعروف الدكتور حاكم يساعده الأستاذ فتح العليم عبد الله شمبو مساعد أستاذ بشعبة الآثار^(٣) وبعد كشف كومة الحجارة ظهر تحتها قبر واتضح أن طريقة الدفن غير إسلامية. إذ اتضح أن الرأس المدفون يقابل مغرب الشمس ويقدر الأستاذ أحمد حاكم أن تاريخ هذه القبور يرجع لألفي سنة ويسمى الأهالي هذه الأحجار المتراكمة وهي مئذنة عديدة «الكيمان» وبالقرب منها أفران لصهر الحديد والذي ساقني لذكر هذه الأحجار هو ما رأيت في «نوبت».

والشاهد عندي أن الأثر المتساقط في نوبت مسجد إلا أن تثبت الحفريات أمراً غير ذلك وهذا احتمال بعيد.

ثم ذهبت عن طريق بورتسودان فسواكن وتوكر ومنها جنوباً لمنطقة مَحَرُ ولما تجاوزنا منطقة عقيق اعترضنا بعض الجماعات الأثرية المقاتلة «بزيهم العسكري وأسلحتهم النارية» وعلمنا منهم أن الطريق لهجر غير مأمون وأنهم في

(١) تاريخ التعليم في السودان يحيى محمد إبراهيم دار الجيل بيروت.

(٢) النوبة الدواليب - وهم نوبة شمال كردفان وليسوا نوبة جنوب كردفان!!!

(٣) فتح العليم عبد الله شمبو: الآن محاضر أول ورئيس قسم الدراسات البيئية بجامعة أم درمان الأهلية.

هذه الأيام على خلاف مع أحد الفصائل التي تقيم معسكرها في منطقة هجر فلا يأمنون سلامتنا، وعدت مكسور النفس بعد ذلك الحماس الذي كنت أحسه وأنا مقبل على منطقة هجر.

هذا كان جهدي في التحري من صحة ما ذكر وكتب عن هذين المسجلين. ويفيد الأستاذ نعم شقير أنهما بنيا في عهد الخليفة المأمون أول القرن الثالث.

المسجد والتعليم

يعتبر مسجد دنقلا المشار إليه آنفاً ومسجداً هجر وصيحات بديار البحأ أقدم المساجد التي عرفت بها بلادنا في تلك الفترة البكرة والإسلام ما زال غصاً.

وأضيف للمساجد الثلاثة رواية ذكرها الشيخ «عبد الرحيم أبو حليقة» من أهالي «كلومسيد» عندما سأله عن تاريخ بناء مسجد كلومسيد قال: ما سمعناه عند أسلافنا أن مسجداً هذا يعتبر أقدم المساجد في دنقلا بل أقدم من مسجد دنقلا العجوز وشاهده أن حملة المسلمين أتت من الشمال وكلومسيد أدنى وأقرب من دنقلا العجوز وبينهما مسافة بعيدة وأن المسلمين لما دخلوا أقاموا هنا ثم ساروا جنوباً وفيه صليت أول «جمعة» في بلاد النوبة دنقلا.

هذا الرأي واحد لم أجد من يشبهه وهو رأي سماعي فقد سمع أبو حليقة هذه الرواية من آبائه ثم مضت فترة طويلة لم يظهر فيها مسجد يشار إليه، وفي غضون القرن السابع الهجري تدافع كثير من المسلمين نحو السودان، فأقاموا المساجد وهي وقتئذ لا تكلف جهداً كبيراً فكانوا يننونها بما تيسر من المواد المحلية كالبروش والجريد والشعر ثم الطوب الأخضر والطوب المحروق ولا ريب فبناء المسجد مظهر مادي هام في تاريخ الجماعة الإسلامية، ثم ظهرت مساجد هنا وهناك وهي ليست كمساجد العصر بل دون ذلك بكثير وكان التقشف في بناء

المساجد عند السلف ضرب من الورع، وكثير منا شاهد مساجد الصحابة في المدينة المنورة فهي بنايات من الطين المسقوف بجريد النخل وقد رأيت مساجد مماثلة في الجمهورية العربية اليمنية ولا سيما مسجد أبي موسى الأشعري في مدينة زبيد وكلها مساجد متقشفة.

حديثي عن المساجد تمهيد للحديث عن التعليم فالمسجد بلا ريب كان المكان المخصص للدراسة على أيام رسول الله ﷺ والصحابة الكرام. وقد جاءت أحاديث ومأثورات في أن الدراسة كانت بالمساجد.

وظيفة المسجد التعليمية

واستمر المسجد مكاناً لتعليم القرآن والحديث فإذا كان المسجد قد صار منذ نشأته في الإسلام مكاناً للتعليم فذلك لأنه كان من المستحيل التفرقة بين ناحيتي العقيدة والعمل في الدين الإسلامي ولم يفرق الإمام مالك بين العبادة والدرس فكلاهما عنده سواء في القيمة لأن الدرس والتعليم في نظره نوع من العبادة والسودان عرف المسجد منذ عهد الإسلام الباكر كما بين لنا تاريخ فتح بلاد النوبة سنة ٣١ هجرية وأثبتت عن ذلك معاهدة (البقيت) المعروفة عند المثقفين بمعاهدة «البقط» التي تضمنت ذكر المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينة دنقلا.

المسجد في اللغة

المسجد الذي يسجد فيه وقال الزجاج كل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ألا ترى أن النبي ﷺ قال: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

والمسجد بالفتح جبهة الرجل حيث يصلي لدى السجود وقوله تعالى ﴿إِنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ - قيل مواضع السجود من الإنسان - الجبهة والأنف واليدين والركبتان والرجلان.

وقال الليث في قوله وإن المساجد لله - قال السجود مواضعه من الجسد والأرض مساجد واحدها مسجد فأما المساجد من الأرض فموضع السجود نفسه.

وظيفة المسجد التعليمية

لم يكن بدءاً في تاريخ الإسلام أن يحتل المسجد في السودان هذا المكان كمعهد للتعليم فلقد كان المسجد منذ ظهور الإسلام مكاناً للعبادة ومكاناً للدين ومكاناً للفتوى والقضاء ولقد شابه المسجد في وظيفته التعليمية مدارس الكنيسة والأديرة عند المسيحيين. وكان الرهبان ورجال الدين هم المعلمون والوعاظ في القرون الوسطى نعم كان التعليم بعد ظهور المسيحية وأثناء القرون الوسطى دينياً قام به القساوسة في مدارس اللاهوت بالشرق ومدارس الكنائس بالغرب - وكانت الأديرة ومدارسها معاهد لتعليم الصبيان الراغبين في الرهبنة ومبادئ القراءة والكتابة والحساب والعقيدة والغناء الديني. وقد بقيت مدارس الأديار المعاهد الوحيدة للتعليم تقريباً حتى القرن الحادي عشر الميلادي. كما بقيت التربية في أوروبا بلا تغيير يذكر حتى القرن الثالث عشر وكان كل دير «مدرسة» وكانت التربية تحت إشراف رهبان ورجال الكنيسة.

وفي الإسلام اتخذ الصحابة والتابعون من المسجد المكي والمدني أماكن الفتوى وتفسير القرآن ورواية الحديث ولما انتشر القرآن والإسلام خارج جزيرة العرب أصبحت مساجد الأمصار كالمسجد الأقصى والجامع الأموي ومسجد بغداد والبصرة والكوفة ومصر والقيروان وفاس وقرطبة وغيرها معاهد للتعليم. وكان رسول الله ﷺ اتخذ المسجد منذ بدء الإسلام مكاناً للدراسة.

وبتقدم الزمن تكاثرت المسلمون وكثرت بالتالي المساجد فحيثما حلوا كان المسجد وقد ذكروا أن في مدينة «عذاب» سبعمائة مسجد فإذا كان هذا في مدينة واحدة فمعناه أن بلادنا عرفت مساجد كثيرة.

فالمسجد في ذلك الوقت الباكر كان مكاناً لأداء الصلوات والعبادات وكل ما يهم المسلمين ومظهراً معنوياً فوجود المسجد معناه الأمن والطمأنينة وتمكن الإسلام. لذا ركزت المعاهدات كلها على الحفاظ على المساجد واحترامها وتقديسها.. إلخ.

ومن العسير أن يجد المرء مخطوطاً أو وثيقة تحدد أول من درس القرآن في تلك الفترة المتقدمة.

ولكننا نجد بعض الروايات التي تدل على البدايات المنظمة والجادة كانت في القرنين التاسع والعاشر وفي تقديري أن هنالك بدايات متفرقة ومتقطعة لم يأبه لها المؤرخون وأكثر المساجد والخلاوي التي ظهر أمرها في تلك الحقبة.

الركابية

المجازيب

البديرية

الدناقلة

المحس

البجا

الفور

ثم تكاثرت المساجد وصارت الكبيرة منها تعرف بالمسجد أو الجامع ثم غلب اسم المسيد على الأماكن التي عنيت بتدريس القرآن بادئ ذي بدء.

الحلقة والبجا

أطلق المؤرخون العرب كالمقرئزي وابن عبد الحكم وابن حوقل اسم البجة على الشعوب الحامية التي تسكن الصحراء الشرقية الواقعة ما بين البحر الأحمر والنيل وتبدأ بلادهم من عيذاب في ناحية الشمال.

وجزاء من قبائلهم على تخوم بلاد الحبش تسمى البازا ويقول المقرئزي عندما
كثر العرب في معدن العلاقي وعيذاب تزوجوا من «الحدَّارِب». شوكة القوم
ووجوههم وهم أشجع البجة قاطبة.

ونستطيع أن نؤكد أن روايات ابن حوقل واليعقوبي وغيرهم أن الخلنقة أول
مجموعة إسلامية عربية نزلت على ساحل البحر الأحمر الغربي في بلاد الحبشة،
والبجة منذ فجر الهجرات العربية الإسلامية الأولى وسرعان ما اندمجت في الكيان
البحاري الكبير بالتزاوج والاختلاط واستطاعت هذه المجموعة أن تبني كياناً
إسلامياً في بلاد كان فيها للوثنية ركاًمٌ وأخاديد.

(وأيضاً) نجح الخلنقة في أن يجعلوا بينهم وبين القوم نسباً وصهرأ ومودة
جعلت القوم يبادلونهم الاحترام.

خلاوي الخلنقة

في العهد السناري والتركي كانت منطقة التاكا تعج بالمساجد وبعد المهدية
تغير الوضع الاجتماعي فظهرت الخلاوي في أحياء الخلنقة وكان الحي عندهم
يسمى الدَّوَّار^(١).

١/ خلوة سيدنا مالك أبو بكر.

٢/ خلوة الشيخ إسماعيل شكور.

٣/ خلوة الشيخ محمد الأمين داشي.

٤/ خلوة الشيخ عمر الخليفة.

٥/ خلوة الشيخ الصافي محمد نور.

(١) الدَّوَّار - الحي وأهل السودان يسمون المناطق التي يقطنونها بالدار - مثلاً دار حامد - دار محارب - دار

فور إلخ..

٦/ خلوة الشيخ إبراهيم عبد الله الحاج.

هذه من أشهر خلاري الحلقة وهم من الجماعات التي نفرت من التعليم المدرسي الذي أتى مع الاستعمار الانجليزي ويقول مؤلف كتاب الحلقة^(١):

أما الحلقة فما انفكوا متمسكين بعهد الخلاوي والمساجد ولم يتجهوا إلى المدارس وللتعليم الحديث بسبب ما رسخ في أذهانهم بأن هذا علم يؤدي إلى الكفر والإلحاد.

الأسرة والطالب

المجتمع السوداني كان وما زال يحتفي بطلبة القرآن وقرائه وأقام علاقة وأسس عرفاً حميداً ظل أثره باقياً حتى يومنا هذا وهو أن يأخذ كل رب دار في الحي أو القرية طالباً أو طالبين وربما أكثر حسب سعة البيت ويسار أهله ويضمهم صاحب الدار لأولاده ويتكفل بإطعام الطالب أو الطلبة في كل الوجبات بالإضافة لكسائه أو كسائهم ومصاريفه في حالة السفر أو سفرهم. وهذا التقليد عرفه وسط السودان وشماله وشرقه.. إلخ.

وهذا ثبت بأسماء الطلبة وكفلائهم أخذته من مدينة كسلاحي الحلقة. أولاً خلوة الشيخ إبراهيم عربي الصافي.

اسم الطالب	اسم الكفيل
١/ عثمان ادريس	اشبو محمد سني
٢/ محمد آدم	اشبو محمد سني
٣/ محمد عيسى طاهر	محمد طاهر عواض
٤/ صالح إبراهيم	محمد الحسن أحمد

(١) الأستاذ عثمان أحمد عيسى - مطبعة جامعة الخرطوم. ١٥ شوال ١٤٠٦ هـ الموافق يونيو ١٩٨٦ م.

الشيخ إبراهيم العربي	٥/ عثمان محمد علي عثمان
أحمد حسين خليل	٦/ داود عزاز
أحمد حسين خليل	٧/ حسن محمود بشير
خطوة الشيخ إبراهيم شكور:	

اسم الطالب	اسم الكفيل
١/ إدريس محمد	الشيخ إبراهيم شكور
٢/ إيماني عثمان أحمد	الشيخ إبراهيم العربي
٣/ إيماني أحمد أوهاج	الشيخ إبراهيم العربي
٤/ إبراهيم أدروب إبراهيم	الشيخ إبراهيم العربي
٥/ بشير محمد أحمد	الشيخ إبراهيم العربي
٦/ محمود محمد أحمد إبراهيم	الشيخ إبراهيم العربي
٧/ محمد موسى عنان	الشيخ إبراهيم العربي

حروف الهجاء عند البجة

البجا في شرق السودان لغتهم «تبدأويت» وهي لغة الرطانة السائدة في شرق السودان ويتحدثون العربية ولكن ليست بالطلاقة التي يجدونها في لغة الأم «تبدأويت» ولهذا السبب عسر الحرف العربي على لسان صبيانهم فقد ركز المشائخ على استنباط أسلوب فيه نغم شجي متساق ركزوا فيه على حركات ثلاثة الفتحة والكسرة والضمة وقد اشتهر أهل شرق السودان بجمال الصوت ولا سيما حينما يقرأ الصغار الحروف الهجائية بطريقتهم المشار إليها:

أ	أنا	إينا	أونا
ب	بانا	بيننا	بونا
ت	تانا	تيننا	تونا
ث	ثانا	ئيننا	ثونا
ج	جانا	جيننا	جونا
ح	حانا	حيننا	حونا
خ	خانا	خيننا	خونا
د	دانا	ديننا	دونا
ذ	ذانا	ذيننا	ذونا
ر	رانا	ريننا	رونا
ز	زانا	زيننا	زونا
س	سانا	سيننا	سونا
ش	شانا	شيننا	شونا
ص	صانا	صيننا	صونا
ض	ضانا	ضيننا	ضونا
ط	طانا	طيننا	طونا
ظ	ظانا	ظيننا	ظونا
ع	عانا	عيننا	عونا
غ	غانا	غيننا	غونا
ف	فانا	فيننا	فونا
ق	قانا	قيننا	قونا

ك	كانا	كينا	كونا
ل	لانا	لينا	لونا
م	مانا	مينا	مونا
ن	نانا	نينا	نونا
هـ	هانا	هينا	هونا
و	وانا	وينا	وونا
ي	يانا	يينا	يونا

هذا وعلمت أن أهل الرطانة «الطلبة» من سكان شرق السودان وشماله يرسخ الحرف العربي في ذهنهم أكثر من الذين يتحدثون العربية بالسليقة وربما كان هذا الرأي مهماً لكن الأغلب، أن أهل الرطانة يقر الحرف عندهم. في تقديري لسببين الأول حرصهم على تعلم العربية من خلال حروف الهجاء. ثانياً لشعورهم بالضعف في ألسنتهم.

خلاوي توكر

زرت مدينة توكر في ٢٠ جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ وهي من الأماكن التي لها سمعة كبيرة في حفظ وتحفيظ القرآن وقراءتهم كقراءة أهل السودان على رواية الدوري.

وخلأوي توكر وأريافها خلأوي حية وحاشدة بالطلبة والحيران بنين وبنات زرت منها الخلأوي الآتية:

١/ خلوة سيدنا هاشم عبد القادر الشنقيطي^(١).

٢/ خلوة الشيخة زينب أحمد أونور^(٢).

(١) الشنقيطي - بحاوي من أصل شنقيطي وهو شريف.

٣/ خلوة سيدنا علي حسين محمد محمود^(١).

٤/ خلوة سيدنا أبو عيشة علي كرار^(٢).

٥/ خلوة سيدنا باية محمد جيادا^(٣).

مسيد همشكوريب بيتاي

سيدنا الشيخ علي بيتاي صاحب أكبر وأشهر مسيد في شرق السودان «الان» ثم اتسعت دائرة ضوء المسيد حتى عمت أجزاء كثيرة من البلاد. والحديث عن المسيد بالضرورة يقودنا لمؤسسه سيدنا الشيخ علي بيتاي الرجل المجاهد حقاً.

ولد سيدنا الشيخ علي في يوم الأربعاء ٢١ سبتمبر ١٩٣٠ هكذا وجدناه مكتوباً بالتاريخ الميلادي علماً بأن أصحاب مدارس القرآن في كل أنحاء السودان يؤرخون بالعام الهجري ويثبتون تاريخ ميلاد البنين على سجل المصحف بالتاريخ العربي وربما وجدنا العذر لمؤرخي تاريخ ميلاد الشيخ إذ أن أهل سيدنا علي لم يكونوا من أصحاب المسيد ولذلك اعتمدوا التاريخ الميلادي وهم صادقون فيما ذهبوا إليه.

رأى النور سيدنا علي في منطقة همشكوريب^(٤) التابعة لمديرية كسلا في الجهة الشرقية الشمالية من الإقليم وتعرف المنطقة بـ ريفي الحدود إذ يتاخم ريفي الحدود المشار إليه إقليم أرتريا. أما أسرته الصغيرة فهي قبيلة «بقلد» وهم بطن من

(٢) الشيعة زينب من الهدندوة.

(١) علي حسين من قبيلة بني عامر.

(٢) أبو عيشة علي كرار - من قبيلة الأشراف.

(٣) باية - من الفلانة.

(٤) همشكوريب - معناها بالعربي الكور الحاف - والكور هو سرج الحمل كما في الفصحى.

قبيلة أجمله «أو أدْمَلَه» وتعرف قبيلة أجمله عند الناطقين بالعربية باسم جميلاب - ومعظم القبائل وسط السودان وشرقه وشماله يلحقون كلمة اب في آخر اسم جد القبيلة «مثلاً» من كان جدهم حامد يقرنون معها كلمة اب - فيصير الاسم «حامداب» هكذا يُخرَج الاسم في معظم مناطق السودان وكل قبائل الوسط، والشرق إن تحدثوا بالعربية جعلوا المقطع اب في نهاية اسم الجد. إلخ..

وقريب من هذا مشهور في البلدان العربية «مثلاً» في المملكة العربية السعودية يقولون آل علي آل إبراهيم ولكنهم يدغمونها استعمالاً وكتابة فتصير العلي والابراهيم.

والعرب في بلاد شنقيط يقولون أحمد ولد علي ولد حمد - وفي السودان نستعمل نفس التخريج «ولد» ولكن الأهالي رخموها استعمالاً فصارت «ود».

آب

انتبه لهذا المقطع الكاتب الشامي نعم شقير صاحب كتاب جغرافية وتاريخ السودان وهو كتاب جامع لتاريخ السودان على ما به من أخطاء وأغلاط تحافي الواقع والحقيقة. كتب نعم شقير عندما تحدث عن «البجاة» قال وأما لفظ «اب» الذي ينتهي به اسم «العبدلاب» وغيرهم من القبائل العربية فهو مأخوذ من البيجاوية ومعناه عائلة أو قبيلة.

وتناقل هذا القول «الخاطيء» بعض الكتاب وزعموا أن المقطع اب، يجاوي والشاهد أن البجاة لا يستعملون المقطع اب إلا إذا تحدثوا بالعربية أما في لغتهم «التبداويت» فلا توجد كلمة آب - نلاحظ ذلك في أسماء القبائل الكبرى عندهم.

١/ هددوا.

٢/ امرار.

٣/ حلقا.

٤ / اتمن.

٥ / ارتيقة.

٦ / ابشارا.

وهذه أسماء بعض القبائل الرئيسية وفي البطون والفخوذ لا نجد أثراً لكلمة اب وأحسب أن «أب» تخريج محلي أتت به بعض القبائل ثم انتشر استعماله عند الغالبية في وسط وشرق وشمال البلاد أما القبائل العربية في غرب السودان. فلا تعرف هذا المقطع ولا تستعمله إلا نادراً.

العبادة

ولنا مثال في قبيلة العبادة فهم يستعملون كلمة اب في أول اسم من باب الكناية في بادىء الأمر ثم صارت دالة عليهم من دون العشائر والقبائل الأخرى فحيثما وجدت رجلاً اسمه - اب حسن - اب علي - اب رباح - اب قاضي - اب حسين - اب أحمد فأغلب الظن أنه من قبيلة «العبادة» وهم منتشرون في جنوب مصر «أسوان» وشمال السودان ويندر أن تجد عبادياً ابن «بلد» لا يتركب اسمه من اب، اللهم إلا الجيل الحديث الذي نشأ في المدينة وقياساً على ما تقدم فظني أن اسم «اب» الذي يأتي في آخر النسبة للقبيلة هو مقطع عربي خاص بالقبائل العربية التي استقرت في حوض النيل ومن بعد شاع بين القبائل الأخرى.

والحميلاب هندنوة والهدندوة أكبر القبائل البيحاوية في شرق السودان وفوق كثرتهم وقوتهم فهم أهل منعة وصرامة. وقد أعانتهم بيئتهم القاسية على التخلق بالشدة والصرامة التي جعلتهم يميلون لاستعمال القوة في أدنى الأسباب، وليست هذه الصفات وقفاً على الهدندوة إنما تنطبق على أغلب قبائل البجة وأكثر قبائل البجة تطرفاً «بقلد» أهل سيدنا الأقربين.

الصعاليك في السودان

في السودان طبقة من الفتيان «البدو» الذين يحترفون «الصعلكة» وسلوكهم مثل صعاليك العرب ويعرفون في السودان باسم «المهاجرة» واحداها مهاجر - كما يعرفون بـ النهاضين واحدا «نهاض» والآن صارت تدل عليهم عبارة الهمبابة، وهي الأكثر سيرورة.

ذكرت الصعاليك لسبب وجيه جداً عندي. فالصعلوك في القبائل البدوية لا يحسب من الأبطال إلا إذا أغار على إبل الهدندوة ولذلك يسعى أكثرهم لبلوغ هذه الغاية ويعرضون أنفسهم للموت والهلاك في سبيل هذا الشرف والسبب في ذلك أن الهدندوة وعموم البجاة يحمون أموالهم وإبلهم بأعز ما يملكون وإثأغار عليهم أحد قلما يفلت منهم فهم مستعدون ومتحفزون الليل والنهار لصيد الغارة والفتك بمن تحدثه نفسه بالطمع فيهم. وأشهر قبائل الهدندوة تطرفاً كما ذكرنا «الجميلاب» وقد أشعلوا حرباً مع بني عامر وغيرهم من قبائل الشرق ولكن سيدنا علي الذي جمع الناس على القرآن والحب ودفن الماضي قد آخى بين الناس كما آخى الرسول ﷺ بين الأنصار والمهاجرين.

وعاشوا كأنهم أسرة واحدة بالخصوص بني عامر وقبائل البراعة والزيميات والبراطيخ من الرشايدة. كان مالهم ودمهم حلال عند الهدندوة فزالت هذه الأسباب بعد دعوة سيدنا علي بيتاي التي تمسك بها أغلب أهل الشرق.

نشأة سيدنا علي

نشأ سيدنا علي بيتاي في هذه البيئة الحافية الصلدة ولما بلغ الخامسة دفع به والده لمسيد سيدنا الشريف محمد طاهر صاحب «سوت» جهة مدينة «هيا» فبدأ بتعليم حروف الهجاء وتخطاها إلى قصار السور ولما بلغ سورة «القارعة» ترك الدراسة وانطلق مع أهله الهدندوة في تلك الصحارى وبعد فترة التحق بمسيد

«الكميلاب» في منطقة توكر وقرأ إلى سورة ﴿والسما ذات البروج﴾ ثم انقطع عن الدراسة وكان متميزاً على جميع أقرانه في أحواله الخاصة.

السياحة والغيوبة

ثم هام في الفلوات والجبال وبعدها دخل في حالة «لا وعي» لمدة ثلاثة أعوام أفاق منها على رؤية صالحة وأنقل هنا طرفاً من الكلام الذي كتبه سيدنا نفسه نقلاً عن كتابه «الهداية إلى الطريق المستقيم»^(١).

قال - وأخيراً رأيت الرسول ﷺ مناماً فوق الجبل، الذي من جهة القبلة لمسجد «همشكوريب» وقال لي أمتي أمتي ورددها سبع مرات «أمنوا حاضرهم ونسوا آخرتهم» قل لهم توبوا إلى الله واقرأوا القرآن وأمسكوا التهليل وعين لي مكاناً للمسجد بالوقوف فيه وقال لي «أعطيتك إرشاد القرآن» وبعد ذلك أفقت من هذه الغيوبة كالمتنبه من النوم، وكان الحنظل والعشر عندي مثل العسل. وبعد إفاقتي من الغيوبة أدركت مرارتها وذهبت عني الوحوش والناس جميعاً بعد حديثي لهم وخافوا من الآخرة وتابوا وتصافحوا وتعافوا مما حصل بينهم في الماضي وعملوا «المساجد» كل من سمع كلامنا ويسر الله لهم ذلك. فقرأوا الكتاب في مدة قليلة ذكوراً وإناثاً والناس جميعاً دخلت في قلوبهم خشية الله وسعوا للآخرة، والذين أخذوا بنصائحنا وجهناهم كلاً إلى ما يلزمهم في الشريعة الحنيفة فأمرنا بستر النساء وأن يقوم كل بواجبه المعروف في الشريعة وعندئذ قامت قيامة الاستعمار وقالوا أن الرجل مدعي «النبوة» وأنتم إذا وافقتموه تهلكون فلا تقربوه وقالوا أن كل أتباعه هالكون وقالوا أيضاً للدولة إنه ادعى «النبوة» وكان ذلك في عام ١٩٥٤ وكنت موجوداً معهم وكانوا لا يأتوني ولا يسألوني عما أدعو إليه الناس فأخذت الحكومة التحقيق معي. ولم يفكروا في الذي وجهت الناس إليه في أمور

(١) تأليف الشيخ علي بيتاي.

دينهم ولكن ذلك ساعد في الإرشاد إذ صار الناس يأتون إلينا بكثرة حين سمعوا «تشويهااتهم» ليروا الحقيقة ويسمعوا ما ندعو الناس إليه فيعرفون الحقائق ويرجعون ثم تفد إلينا وفود أخرى أيضاً لأجل التأكد والاستفادة من هذه الإرشادات فيقيمون المساجد بين ذويهم بنصائحنا وتعليماتنا وقد يسر الله لهم ذلك. والدولة عندما كثرت الأقاويل لديهم أخذتني وعملت معي تحقيقاً وأخذت الحقائق مني ووضعتني في السجن ثم الزنزانة ثم المنفى من عام ١٩٥٤ - ١٩٦٠ وصار الاستقلال فعاملونا معاملة حسنة وأخذوا منا الحقائق وساعدونا في الإرشاد ولا زالوا يساعدونا بكل خير من تعيين الأئمة والمؤذنين للمساجد والوعاظ وتقرير الإعانات السنوية وعملوا ما نحن عليه وما ندعو إليه وما أحدثنا في الناس من التغيير.

نسب سيدنا علي بيتاي^(١)

نسب الشيخ علي بيتاي من جهة أبيه هو الشيخ علي بن السيد محمود الملقب ببيتاي بن علي بن محمد بن علي بن انفيين بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن علي بن عيسى بن محمد الباقر (عثمان) بن الشيخ عجيب المانجلك بن الشيخ عبد الله جماع «لجمعه بين القبائل العربية» وهذا النسب كتب سنة ٩٤٦ هـ بالحرمين الشريفين كما في كتاب «السمرقندي» وعليه سبعة عشر ختماً من أختام الأشراف الموجودين في ذلك الزمان بالحرمين وهم من نفس البيت، وعندما قَدِّمَت العرب الشيخ عبد الله جماع في السودان بعد سنة ٩٠٠ هـ كان ذلك التقديم لقرب نسبه من المصطفى ﷺ وشريف السواكني الحاكم عليها ذلك الوقت. الذي كان يدعى «أبو نُمي» كان من بني عمومته شريف مكة وبيت الشيخ عبد الله يعرف ببيت «بركات» بمكة وهو الذي تزوج في السودان أي

(١) النسب من الضرورات في نسيج المجتمع خاصة لأهل المسايد فهو يرفع من قدرهم في نظر المجتمع.

السيد عبد الله من السيدة عائشة بنت حمد أبو دنانة المشهور في السودان.

أول قيامي بهذه الدعوة بين أهالي وقبيلتي «بقلد» فالتفوا حولي وتابوا وقاموا معي بكل الاهتمام والرعاية ثم قام معي أهل أمي قبيلة «رَدَى» وهي قبيلة عريضة وأهل شجاعة وكرم ثم قامت معي قبيلة «قرعيب» وهي قبيلة عريضة وأهل شجاعة ولهم فينا قرابة من جهة أمهاتنا وبيننا مصاهرة ثم قبيلة «شرعاب» وهذه أيضاً قبيلة عريضة وبعد هذا جاءني رجل صالح من الحدود الأرترية وهو من قبيلة بني عامر ومعه وفد كبير من أتباعه من الهدندوة والبني عامر هو الشيخ محمد عثمان المشهور «بالمدائح» النبوية ثم توجهت لنا كل القبائل بالدعوة للوعظ والإرشاد فوجهناهم بإنشاء الخلاوي وبالتوبة النصوح.

وقد نشأت وتربت على يد أخي محمد أحمد يتشاي كذلك كان معي في بداية دعوتي وهو رجل ذو فراسة عريضة ورأي ثاقب وعقل راجح وقوي والوقوف بجانب الله وتقوى وورع وشفوق ودؤوب في إرشاد الأمة وإصلاحها ويتحمل عني مشاق الدعوة وكذلك معي السيد حسين أوهاج حسن، وكان أبوه من الصالحين العالمين وأيضاً (آدم علي فكي) وكان أبوه من الصالحين المتقين كان ذلك عندما كنت أسافر بالجمال المسافات الشاسعة.

إليكم جميعاً أسوق هذا الحديث إن كان لي «علم» فهو من فضل الله ليس بالتعلم وإنما بالخبرة والتجربة في الحياة ولذلك تجدني كثير السؤال عما مضى وما يكون اليوم ولقد نشأت بشرق السودان وتمنيت أن تزال كثير من العادات وأشفتت عليهم ولقد رأيت وسمعت الكثير من شتى المناطق في السودان علمت أن الجهل هو سبب الشقاء وأردت لهم التعلم لتحسن الحالة الاقتصادية والدينية لديهم وبحسب ذلك فقد أرشدتهم ونصحتهم حتى ظهر في الجهل والإجرام خير كثير إذ تركوا مباهاة الجاهلية ونسوا الأحقاد وخلافات الماضي فصاروا إخواناً في دين الله رغم ألوانهم وتباين مشاربهم على هدي كتاب الله على مشارف المدارس العليا والمعاهد جنباً إلى

جنب مع نار القرآن فيتسابقون إلى معرفة أحكام دينهم وتعلمت النساء أمور دينهن حتى نجد فيهن من يفتين في «الميراث» مثلاً ويحفظن ويعلمن القرآن الكريم مصحوباً بالعمل حيث لا يتفجع علم بلا عمل فدعونا العرب الرحل لتأسيس خلاوي القرآن والاستقرار لها ولنا تجربة في ذلك وقد يسر الله لهم أي الأعراب حالهم الدنيوية إذا كانوا يعانون من شظف في العيش وقساوة في الحياة. والاقتصاد أساس الاستقرار وهو الاعتماد على النفس وترك الكسل والبطالة والسعي في كسب الرزق وقد عرفت الحكومة أماكن هؤلاء العرب الرحل وهم بالمثل عرفوا فائدتها إذ قدمت لهم الخدمات الصحية بدلاً من موتهم في باديتهم بالأمراض الفتاكة ومجالس القرى تبحث في شؤون وقضايا الوطن ولكل مسجد إمام ومؤذن ومن يتمنى ما ذكرناه في بلدة بصدق نية نحن مستعدون للخدمة لوجه الله تعالى وما توفيقى إلا بالله.

حينما اشتدت حركة الدعوة وانتمى إليها عدد كبير من أهل البوادي من كل القبائل واشتد حماسهم للدين الإسلامي تحسراً على ما سبق من عمرهم وطمعاً وحباً للحياة الدينية الجديدة وقد كانت تأتي إلينا الوفود وما زالت وتطلبنا أن نذهب معهم إلى أهليهم للاستفادة من الوعظ حتى توغلنا داخل الحدود الأرترية.

همشكوريب

على بعد ٢٠٠ كيلومتراً من كسلا وعلى مقربة من الحدود السودانية الأثيوبية وبين الجبال وفي أحضان أشجار الدوم تقوم قرية همشكوريب في أرض قاحلة شحيحة الأمطار والعشب ومياه الشرب، ويحترف سكانها الرعي لقليل من الأبقار والأغنام وعلى هذا جاءت حياتهم قاسية وتركت هذه القسوة بصمتها على الناس فاشتهروا بقسوة الطباع وشدة الشكيمة والخروج على كل قانون وشرعية يزهقون النفس لأوهى الأسباب حيث القتل بطولة والسرقة شرف وقطع الطريق والسلب والنهب ممارسات يتغنى بها مجتمعهم في فخر واعتزاز.

سارت الحياة على هذا إلى أن شاهد سيدنا علي بيتاي تلك الرؤية المنامية التي حولت هذا المجتمع الشرس إلى مجتمع يعيش في محبة ووثام نابع من خلق القرآن ومما قاله الرسول ﷺ لسيدنا علي بيتاي في تلك الرؤيا «أعطيتك إرشاد القرآن» وانطلق الشيخ من تلك اللحظة يعمل لقيام خلاوي القرآن الكريم ولإصلاح ذات البين بين الأفراد والقبائل.

أوقد سيدنا علي بيتاي نار القرآن أول حلقة قرآنية حوالي ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٥٥م ثم أوقد الثانية والثالثة والرابعة إلى أن بلغت في وقت وجيز أربع عشرة «تُقابة» وتعادل التقابة الحلقة وتضم ما بين الثلاثين إلى الخمسين طالباً.

وتحولت همشكوريب الأم إلى مجتمع إسلامي تام ومتوهج قولاً وعملاً إذ بلغ عدد سكانها ما يزيد على الثلاثين ألفاً وبلغ عدد الدارسين والدارسات من الرجال والنساء والصبيان والصبايا نحو ٨ آلاف كلهم يسعون لغاية واحدة وهي حفظ القرآن الكريم الرعاة والزراع والتجار والصناع كلهم هدفهم القرآن الكريم يبدؤون قراءة القرآن بالخلوة من بعد صلاة الصبح ويجلسون في حلقات ويتوسط كل حلقة شيخ وتضم الحلقة مختلف الأعمار والجنسيات الجميع يقرأون في حرارة حتى بدء وقت الضحى حيث ينطلق أصحاب العمل إلى أعمالهم ويبقى الطلاب في الخلوة يكتبون على ألواحهم أو يحفظون وفي المساء يتجمع كل سكان القرية حول حلقات القرآن مرة أخرى والحياة لا تسكن ولا تهمد إلا في الثلث الثاني من الليل أما الثلث الثالث فيبدأ الطلبة التلاوة حتى آذان الفجر وهكذا يجتمعون في الله ويتفرقون في الله.

وسرعان ما انتشرت خلاوي القرآن في قرى المنطقة ثم تخطتها إلى ما وراء جبال البحر الأحمر ثم ظهر ضوء حلقاتها في شرق السودان ثم عم الضياء وغمر أغلب أنحاء السودان وبرزت خلاوي علي بيتاي في مناطق القصارف والدامر وأمدرمان وشمال كردفان وجنوبها هذا وسيدنا علي يحجب بقاع السودان النائية

بهمة وحماسة عظيمين ينشئ ويدعو ويشجع على قيام خلاوي القرآن ويلبي دعوات الداعين لذلك، مهما بعدت الشقة وعظمت المشقة.

وصحبت هذه الدعوة القرآنية دعوة إلى العمل بما جاء به القرآن الكريم والبدء بإصلاح النفس في هدوء والتزام، وكان يقول النظافة من الإيمان - نظف جسمك - وثوبك - تعلم القرآن الكريم واللغة العربية لتعرف دينك وإخوانك المسلمين. دع الشجار فإنه يقودك إلى السجن وإلى الغرامة حيث تستفيد الحكومة وتخسر أنت إختوتك ومالك ووقتك ونفسك وقد تكون قاتلاً أو مقتولاً وكان لقوة شخصيته وقوة منطقته وبساطة أسلوبه فعل السحر عند سامعيه وسرعان ما استجاب له خلق كثير وخمد الكثير من نيران الفتن وتعاثى الخصوم ولما قوي ساعده وانتشرت تعاليمه أغاظ هذا العمل بعض الأفراد فنقل الوشاة الخبر إلى الحكومة وبالرغم من سلمية الدعوة التي لا سلاح عندها غير المصحف واللوح والإبريق فقد استدعته السلطات الانجليزية وأملت عليه ثلاثة شروط:

١/ أن يمر على الخلاوي التي أقامها ويفرقها.

٢/ أن يلوذ بالصمت وألا يث آراءه بين الناس.

٣/ ألا يتحدث برؤياه للرسول ﷺ.

ورفض الشيخ الإذعان لذلك وصدرت الأوامر بنفيه وتحديد إقامته وهكذا قضى نحو من ٦ سنوات رهن السجون والإقامة الجبرية في سبيل دعوته الإصلاحية ثم أطلق سراحه وسمح له بالعودة لبلده.

عاد الشيخ وأتباعه إلى همشكوريب وازدهرت فيها الحياة القرآنية والإصلاحية وشاهد الناس أمامهم مجتمعاً خالياً من الجريمة لأنه نبذ ما يقود إلى الجريمة من سرقة وخمر وزنا وقمار وكل ما يقود إلى إتلاف المال والصحة فأقلع مجتمعها عن المكيفات المتعارفة فيه كالسجائر والسعوط التي توقف التجار عن استجلابها

ويعيها في حوانيتهم وخلت شوارع همشكوريب من الشرطي والخفير لأن إنسانها أصبح رقيقاً على نفسه وبعيداً عن الجريمة.

وكان جهاد سيدنا علي بيتاي قائماً على تعليم القرآن وحول مائدة القرآن بسط دعوته الإصلاحية واستطاع أن يجلس ألد القبائل خصومة مع أعدائهم بالأمس وأن يزيل ما بين القبائل من أحقاد وثارَات وأن يمحو الكثير مما يتمسك به المجتمع من اختلافات في الجنس واللسان واللون. ومما حققته خلاوي سيدنا علي بيتاي في محيط التربية والتعليم وتنمية المجتمع.

١/ أنها جمعت بين التعليم والتربية.

٢/ وأنها محت الأمية بين النساء والرجال بأسلوب سهل زهيد الثمن.

٣/ تدرجت بحفظة القرآن حتى مستوى الجامعات داخل السودان وخارجه.

٤/ خرجت الآلاف من حفظة القرآن الكريم.

٥/ الدارسون بها قوة منتجة تدرس وتعمل.

٦/ أثبتت قوتها الروحية برجوع أبنائها الذين أتموا دراساتهم العليا داخل السودان أو خارجه إليها وفيهم الطبيب والمهندس والمعلم وفني التكنولوجيا الحديثة وهم في حماسة للبذل والعطاء وولاء فريد لمجتمعهم القرآني.. وإنها لمراقى للنجاح لم تبلغها مثيلاتها من المؤسسات القرآنية.

وفي يوم ١٨/٩/١٩٧٨ أسلم الشيخ علي بيتاي الروح لبارئها في المستشفى العسكري بالخرطوم بعد مرض لم يدم طويلاً ونقل جثمانه إلى همشكوريب القرية التي بلغ صيتها أقاصي العالم الإسلامي وكانت آخر كلماته في دنياه «عليكم بكتاب الله وسنة رسوله وقراءة القرآن».

همشكوريب واحة القرآن^(١)

بدأ الشيخ دعوته بسؤالين كان يلقيهما على تجمعات الناس عدة مرات هل تعلمون «من أخوكم! ومن عدوكم!» ويتولى الإجابة بنفسه بعد تكرار السؤال «أخوكم كل مسلم» وعدوكم «الشيطان» فقدت إحدى القبائل زعيمها وأرادت اختيار من سيتولى شياخة القبيلة واختلفوا على فريقين كل يسمي شخصاً، وبعد جدال طويل قرروا أن يحتكموا للشيخ علي بيتاي، فقال لهم هذه المرة سأقضي بينكم أما مستقبلاً فولوا عليكم «التقي الذي ينبذ التعصب القبلي».

يعيش الهدندوة الآن والبني عامر في شرق السودان والفور والزغاوة في غرب السودان والشلك والدينكا في جنوب السودان مع الماريا من أرتريا جنباً إلى جنب في إحاء ومحبة في رحاب القرآن بهمشكوريب وخلوي أخرى.

ويطيب للبعض الحديث عن ضرورة التحديث لخلوي همشكوريب والسؤال ما معنى التحديث وخلوي همشكوريب بوضعها الحالي تمثل قمة ما توصلت إليه النظريات التربوية من ذلك.

١/ أن الخلوي همشكوريب تجمع بين التربية والتعليم.

٢/ استطاعت خلوي همشكوريب أن تمحو الأمية عن الرجال والنساء معاً وبأسلوب فريد وبأسهل الوسائل وبدون تكلفة تذكر.

٣/ خلوي همشكوريب تطبق أساليب التربية والتعليم فالدارسون قوة منتجة بجانب انشغالهم بتلقي العلم.

٤/ استطاعت خلوي همشكوريب التدرج بحفظة القرآن بها حتى مستوى الجامعات فقد تخرج الكثير من طلاب همشكوريب من الجامعات الإسلامية في

(١) همشكوريب - واحة القرآن تأليف الأستاذ محمد شريف فضل - ذو القعدة ١٤٠٨ هـ الموافق

١٦/٧/١٩٨٨ - كسلا السودان.

السودان ومصر والمملكة العربية السعودية وعادوا بدورهم لتحفيظ القرآن ولأداء ما عليهم من دين معنوي.

والغريب في الأمر أن تدرجهم التعليمي حتى المستوى الجامعي لم يفصلهم عن الانتماء للأرض والأهل فما بهرتهم أضواء المدن التي تلقوا فيها دراساتهم الجامعية. ومن الجامعيين الذين عادوا للتدريس في الخلوة نذكر محمد اوهاج ومحمد علي محمد دين. فأي حادثة أو تحديث وراء هذا.

لقد قام الشيخ علي بيتاي ومن بعده شقيقه الشيخ الطاهر بيتاي بالدور الكبير والجهد الأعظم. وذلك بتعديل حياة الناس من الترحل إلى الاستقرار ومن الهمجية إلى الحضارة ومن ظلام الأمية إلى نور العلم وجمع الناس حول القرآن. وبعد ذلك يأتي دور جميع الحاديين على الإسلام وعلى نشره وتيسير حفظ القرآن وفهم معانيه سواء كانوا من الأفراد أو الهيئات أو المنظمات وإلى كل هؤلاء وجه الشيخ علي بيتاي النداء التالي «أناشدكم أيها العلماء والصلحاء والعاملون لخير الإسلام أن تسعوا معي للاستفادة من هذه النفوس البشرية المهيأة لقبول الإرشاد والتوجيه والتنوير بنور القرآن والسير على سنة الرسول ﷺ بهذا أحمل إخواني العلماء مسؤولية ذلك أناشدكم بالله أيها العلماء أن تقبلوا على توجيه إخوانكم لترك المتع التي يتمتع بها ساكنو المدن كالمراوح والمكيفات ومطايب الأكل وغيرها من الملذات لانشغالهم من الجهل والظلام والضلال إلى نور العلم والهداية إلى الطريق المستقيم.

الباب السادس

الخلوة والمهدية

دراسة الإمام المهدي

لا ريب أن التعليم السائد في بلادنا هو تعلم الخلوة فكل المتقدمين تخرجوا في هذه الخلوة قبل أن يعرفوا المدارس الحديثة ومن ضمن هؤلاء الإمام محمد أحمد المهدي بن عبد الله.

قال الراوي^(١) وبعد وفاة والده عبد الله ارتحلوا أولاده إلى كرري فأقاموا بها طويلاً وقد بدأ المهدي القرآن في الخرطوم على الشيخ شرف الدين عبد الصادق ثم على الفكي محبوب الحبشي «معتوق شجر الخيري» وتلميذ الفكي الأمين ولد أم حقين ثم في خلوة بري علي الفكي خوجلي ولد المبارك وفي سنة ١٢٧٧ أخذ على الشيخ محمد شريف نور الدائم ثم درس علوم الدين على الشيخ الأمين الصويلح بكترانج^(٢) وفي سنة ١٢٧٩ هجرية تآقت نفسه لتلقي العلوم بالأزهر الشريف فقام على النية وعندما وصل بربر ذكر ذلك للشيخ السعاني ولد فزع أحد تلاميذ الشيخ محمد خير عبد الله خوجلي فقال له إن شيخنا له إمام تام بعلم الفقه وتدرسه وله اطلاع واسع وربما يغنيك عن الذهاب لمصر. فسمع المهدي رأيه وتأخر عن الذهاب لمصر وأكب على طلب العلم عند الشيخ محمد الخير فمكث عنده ثلاثة سنوات. ثم طلب منه أن يأذن له في الذهاب إلى كرري لكي يتزوج ثم

(١) كاتب هذه المخطوطة لم يذكر اسمه.

(٢) كترانج - قام مجدهما على القرآن وتقع على النيل الأزرق شرق قرية المسيد.

يعود ومعلوم ما كان من حالة المهدي مع الشيخ محمد خير فإنه كان امتنع من أكل الطعام الذي يقدم للطلبة وكان يأكل فقط مما يصطاده من السمك. حتى علم بذلك الشيخ محمد الخير فعاهده بأن الأكل الذي يأكله من محصول ساقيته^(١) التي ورثها عن والده فطاب المهدي نفساً بذلك وصار يأكل من محصولها إلى أن عاد إلى كرري وتزوج بالوالدة فاطمة بنت حاج وذلك في سنة ١٢٨٢هـ.

امتناع المهدي عن الطعام

والسبب في امتناع المهدي عن أكل طعام الشيخ محمد الخير فقد روى لنا الشيخ محمد أحمد حاج عطوة^(٢) أنه قال كنا في طلب العلم ثلاثة تلاميذ «سويّاً» وخصص لنا الشيخ محمد الخير أكلاً خاصاً وألزم زوجته لخدمتنا والثلاثة هم:

١/ محمد أحمد المهدي.

٢/ الطاهر تاتاي.

٣/ محمد أحمد الحاج عطوة.

وكان الطاهر تاتاي كثير الهزار فقال للمهدي من نوع الهزار إن شيخنا محمد الخير طعامه كله من «ماهية الحكومة»^(٣) فعند ذلك توقف المهدي عن أكل الطعام بعد سماعه لهذا الكلام حتى عاهده الشيخ محمد الخير على كتاب الله العزيز بأنه لا يأكل من مرتب الحكومة وإنما يأكل فقط من خراج ساقيته التي ورثها عن أبيه وبذلك طاب المهدي نفساً.

ثم ارتحل المهدي لكرري ومنها بدأ يدرس العلم في الخرطوم فهياً الله كثيراً

(١) الساقية أداة معروفة في حوض النيل وهي وسيلة كسب العيش قبل قرون عديدة.

(٢) ود حاج عطوة مغربي كان يقيم المكايلا ب صاحبة بربر وهو جد الفقيه الشيخ محذوب جلال الدين.

(٣) ماهية الحكومة - كانت الحكومة التركية تدفع مساعدات لبعض المساييد ومن ضمنها مسيد الغبش والله أعلم - راجع التربية في السودان لعبد العزيز عبد المحيد.

من الناس لحضور درسه لسعة اطلاعه وغزارة مادته ويحكى أنه كان شغفاً بالعلوم العقلية وقيل كان يهوى من علوم الدين - علوم التفسير والحديث وقالوا وجدنا بخط المهدي نفسه أنه قرأ كتاب «الشمس البازغة» عشرين مرة وتفسير الجلالين سبعة وأربعين مرة.

ثم أقام فترة في الخرطوم وخرج منها متوجهاً إلى الجزيرة «ابا» وأقام فيها فترة أعد فيها نفسه وتهياً روحياً ونفسياً ومادياً وفي غرة شعبان سنة ١٢٩٨ الموافق ٢٩ يونيو ١٨٨١ أعلن المهدي عليه السلام دعوته التي أراد بها إعادة الشريعة والتعاليم الإسلامية سالف مجدها وفي منتصف شعبان بايعته الجموع الزاخرة التي توافدت على الجزيرة «ابا» بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً وبه إماماً ومهدياً وعلى زهد الدنيا وعلى الجهاد في سبيل الله.

ومنها اندلعت شرارة الثورة المهدية التي عمت البلاد كلها والروايات المتواترة تذكر أن الإمام المهدي «وكان عهدئذ يعرف بالشيخ محمد أحمد» يتعفف من كل شيء فيه ريبة وكان يرتاب في كل أمر يفعله «الترك» ويشك ويزداد شكاً كبيراً في مصدر أموال الدول من حيث الوجهة الشرعية وهذا يدلنا على ورع الإمام المهدي وعفته.

وتزعم الروايات أنه كان شديد الزهد متوكلاً على الله ومن زهده وتوكله وورعه بعد أن توقف من أكل طعام شيخه كان يصطاد السمك من النيل ويشويه ويأكله ويؤكد الرواة أنه كان يرمي [السنارة] من غير طعام والسنارة جرى العرف وفن الصيد أن يجعلوا فيها - طعاماً - من صغار السمك أو اللحم أو الديدان أو خشاش الأرض - وكلها تجذب السمك فيلتهمها فتغرس السنارة في خيشومه ثم يسحبه الصايد.

فالمهدي أبي أن يضع «الطعم» في السنارة وعندما سأله عن فعله هذا قال أخشى أن أغش السمك.. إلخ.

المهدية والمسيد

فيما سبق تحدثت عن دراسة الإمام وأوردت بعض المشائخ الذين درس عليهم القرآن. وبعد الدراسة تهيأ للتغيير الذي ينبغي أن يحدث في البلاد ووطن نفسه على إزالة الحكم التركي الذي ملأ البلاد ظلماً وجوراً وكان سبيله إلى وصول ذلك الهدف «الإسلام» فقامت دعوته على أسس وقواعد إسلامية وهو خبير عليم بأن هذه الأمة لا يستقيم أمرها إلا بالرجوع إلى الإسلام.

فجدد في أسلوب الدعوة وجمع الناس على المحجة البيضاء فتبعه الناس واستجابوا لداعي الله ووجد العديد من المعارضين حتى من أهل الطرق الصوفية وعلى رأسهم شيخه محمد شريف والشيخ برير إلخ وكان يعتمد على شيوخ المسaid والخلوي وبعض القادة الاجتماعيين كشيوخ القبائل ونحوهم.

ولكن اعتماده الأكبر على المشائخ فكاتب أصحاب المسaid والعلماء والفقهاء وتودد إليهم.

ومن المعلوم أيضاً أن المهدي كاتب بعض المشائخ وطاف على بعضهم ودليلى ذهابه لكردفان الذي أورده مخطوط «رود العجب» قبل أن يكون المهدي فيما بعد.

سافر إلى كردفان^(١) قبل ظهور المهدية مرتين ففي المرة الأولى سافر من الجزيرة ابا لكردفان ولكنه لم يصل الأبيض ورجع من دار الجوامعة بعد مقابلة الشيخ المنا وذلك في سنة ١٢٩٧هـ.

أما السفرة الثانية فقد رُوي لنا أنه قام من الجزيرة «ابا» في شهر محرم سنة ١٢٩٨هـ ووصل إلى بارا في أواخر صفر سنة ١٢٩٨ بعد أن مر على جميع المساجد وأهل الدين المشهورين في طريقه. ثم مكث ببارا^(٢) بقية شهر صفر وفي

(١) كردفان إقليم مشهور واسع خصيب يقع في غرب السودان.

(٢) بارا - بلدة لها مساهمة كبيرة في تاريخ السودان.

ربيع الأول قام «لأسحف»^(١) وبات بمسجد الفكي مساعد حامد.. ثم قابل أخاه عثمان ولد حامد الذي كان ناظرًا ثم «رفته» الأتراك وتعين بدله جابر الطيب وفي الصباح قام إلى الأبيض فنزل على «الخليفة محمد سوار الذهب».. ثم خرج «لجنوب كردفان» في ١٥ ربيع ١٢٩٨ واجتمع في تقلى^(٢) بالملك ادم ام دبالو في جبل كراية ثم قفل راجعاً إلى الجزيرة أبا وأثبتت الوثيقة أسماء الرجال الذين صاحبهم المهدي في رحلته تلك وعددهم مائة وعشرون رجلاً.. وأغلبهم من أهل القرآن ونذكر منهم:

- ١/ الخليفة عبد الله.
- ٢/ أحمد شرفي وابنه محمد.
- ٣/ عبد الرحمن حاج علي.
- ٤/ الشيخ إدريس الشاعر.
- ٥/ الشيخ محمد سعد الدويح.
- ٦/ الشيخ عبد الله الدويح.
- ٧/ الشيخ ضي الدين الدنباوي.
- ٨/ الشيخ الأمين محمد أبو سنينة.
- ٩/ الشيخ آدا الأعيسر.
- ١٠/ الشيخ العيسايي.
- ١١/ الشيخ العبيد العيسايي.
- ١٢/ الشيخ محمد بلال.
- ١٣/ الشيخ بركات محمد سعيد.

(١) أسحف - في غرب السودان (كردفان).

(٢) تقلى إحدى بلدان جنوب كردفان.

- ١٤ / الشيخ الرفاعي محمود.
- ١٥ / الشيخ جلال الدين أحمد الأنصاري.
- ١٦ / الشيخ مكّي علي أبو شنب العركي.
- ١٧ / الشيخ القاضي محمد بادي.
- ١٨ / الشيخ مكّي.
- ١٩ / الشيخ أحمد الأزهري.
- ٢٠ / الشيخ الفكي عربي الهواري.
- ٢١ / الشيخ ود اب صفية الصديق وأخيه عبد الكبير.

وغير هؤلاء من أهل المسايّد الذين اقتنعوا بصدق هذه الدعوة..

أوردت هذا للدلالة أن خلاوي القرآن والمسايّد كانت سنداً وعاملاً هاماً في نجاح المهديّة وقليل من هذه المراكز الدينيّة من شذّ ولما اشتدّت الدعوة للجهاد تعطلت المدارس القرآنيّة في أغلب أنحاء القطر لأنّ المشايخ والتلاميذ انخرطوا في سلك الجهاد وبعد انتقال الإمام المهدي للرفيق الأعلى آل الأمر لخليفته عبد الله بن السيد محمد فأمر باستئناف دراسة القرآن..

الخلوة والمهديّة

فترة التعبئة التي نهض فيها الإمام محمد أحمد المهدي توقف نشاط الخلاوي رغم أن معلّمي القرآن معفوون من الخروج للجهاد وانخرط جلّ المشايخ وطلبتهم مع المجاهدين ولما استقام أمر الدولة التفت خليفة المهدي عليه الرحمة وأمر بإيقاد نار القرآن في مسجد الإمام المهدي «جامع الخليفة».

ووجه الأنصار ببداية تدريس القرآن وأن يُعلّم من يَعلم الذين لا يعلمون وعثرنا على الوثيقة التالية التي أرخت لبداية تدريس القرآن في مكتبة شيخ العلم المجاهد أحمد العجب وهذا نص الوثيقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم أما بعد:
فقد ثبت بتاريخ أول يوم محرم سنة ١٣٠٣هـ أن خليفة المهدي عليه السلام
بحضرة الخلفاء والأمراء بالبقعة المباركة بدأ قراءة القرآن يوم «الأربعاء» بأربعة
ألف وخمسمائة لوح. وأمر الإخوان أن يعلموا الأحباب قراءة الفاتحة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين آية وشكلة وسورتين من القرآن «المعوذتين» وأمر
الصبيان بالقراءة من أ ب ت ث إلى إلخ.. وقامت خمسمائة حلقة في بطن الجامع
يقرؤون حزب القرآن صباحاً ومساءً مع راتب الإمام المهدي عليه السلام وفي سنة
«خمس» نبه جميع الناس، وكان ذلك بمسجده بجامع المهدي وأمر بالتهليل
والتكبير وتلاوة القرآن وفي شهر رمضان يصلون سبعون ألف «فروة» ليلة بعد
ليلة، ثلاثين يوماً.. شهد بذلك محمد بن البصير وشهد بذلك إبراهيم عالم وشهد
بذلك موسى التكنية والقاضي الهادي وموسى بن عقلة، حسبوا ووجدوا كافة
الفقراء هذا العدد بالتمام، وفي كل سنة يختمون القرآن ستة ألف «مذلى» وفي
البقعة المباركة ثمانمائة مسجد لقراءة القرآن وتستلم من بيت المال ثمانمائة
«ريال» للفقراء الذين يعلمون الصبيان القرآن من ابتدائه.. هذا التاريخ الصحيح نقله
الشيخ أحمد ود سعد خدام الجنتاب النبوي..

وهذه الوثيقة لا تحتاج لشرح فقد وفق الشاعر أحمد ود سعد في هذا وكان
من المخلصين للمهدية وقد أفادنا وأفاد الأجيال بهذا العمل الجليل «كتابة الوثيقة»
والناس عهدئذ كانوا على درجة عالية من الورع شاهدنا على ذلك استشهاد أحمد
ود سعد بأربعة رجال عدول شهدوا على صحة رواية ود سعد وهم من
الشخصيات المشهود لها بالصدق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المولي الأكرم والصلوة على سبطنا
محمد وآله مع التسليم اعلموا فقد
ثبت بتاريخ أول يوم محرم سنة ١٢٨٥
أن خطبة الميرزا علي عليه السلام
تخلو من المفاخر والأمر بالمعروف
المبارك ابتداء قراءة الفقرة أن
يوم الأربعاء أربعة آلاف
وخمسمائة وروح الامراض
أن يعلموا الأحياء قرابة الناقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله رب العالمين وآية تسطير
وسورتين من الفقرة أن (المعوذتين)
والصبيان بالقرعة من باب ث
البراءة وخمسماية حقه في بطن
الجامع يترؤف حزب القروان صبا
ومساء مع رتبة الميرزا علي عليه السلام
في سنة ٥ بيه جميع الناس وكان ذلك
بجامع الميرزا واما الضليل والتكبير
وملاوة الفقرة أن وفي شهر رمضان

هذا النازح الصريح قد نقله
شيخنا محمد بن خدام الجلباب النوري

يملكون سبعون ألف فرقة ليلة بعد
ليلة ثلاثين يوما وشهد به أك
محمد بن البجيرت وشهد به أك
أبراهيم بن عالم وشهد به أك محمد
الكنجيني والفاهشي الرازي وهو بها
ابن عقله حسبو أو وجدوا كافيته
الغفراء هذا العدد الخاتم وحي
كل سنة يخفون الغفراء ان شئت
الاف مد له فجاءت الغفراء المباركة كفاية
عسجد لغفراء الغفراء ان حرسنكم من
سب المال سخانة رجال الفقراء ان من
يعطون الصبيان الغفراء من ان يديه

وبعد انحسار دولة المهديّة الرسميّة اضطربت الدراسة بعد دخول الجيش الغازي ولكنها ما لبثت أن عادت بعد فترة وكانت أكبر الخلاوي حلوة الجامع في ذات المكان «جامع - الخليفة» بأم درمان ولكنها تقلصت لنيف وستين حلقة دراسية تلاوة وتحفيظاً.

ومن كبريات الخلاوي حلوة شيخ الدين بن الخليفة ثم انتشرت الخلاوي في جميع أنحاء المدينة خاصة «الزرايب» وهي نظام السكن الذي ابتدعه الوافدون المجاهدون إلى أم درمان فقد سكنت كل قبيلة في ناحية من المدينة وأحاطت محل سكنها بزرية ثم زالت الزرائب بمرور الزمن وحل محلها الأحياء الحالية.

١/ ود نوباوي.

٢/ أبوروف.

٣/ بيت المال.

٤/ أبو كدوك.

٥/ أبو عنحة.

٦/ زرية الكاشف.

وبعد زوال الدولة المهديّة جاء الحكم الثنائي وتوزع الناس وتفرقوا وعادت كثير من القبائل لوطنها الأصلي وبقي من بقي وكان أول ما فعله المواطنون في أم درمان بناء الخلاوي قبل بناء الدور.

والخلاوي هي الإرث الباقي من الدولة المهديّة الإسلاميّة التي تخرج قائدها وخلفاؤه والمجاهدون والفرسان من أحشاء هذه الخلاوي وقد بلغت مئات عديدة ولكن بمرور الزمن وانتشار المدارس الحديثة ضمرت الخلاوي ولكنها رغم انتشار التعليم الأكاديمي ظلت باقية.

ويندر أن تجد إنساناً فوق الأربعين لم يدرس فيها وهذا ثبت بالخلوي التي
ظلت باقية حتى الأربعينات بمدينة أمدردمان.

- ١/ خلوة ود القاضي - شارع كرري.
- ٢/ خلوة الكتياي - حي البوستة.
- ٣/ خلوة أبو شنب - حي الشهداء.
- ٤/ خلوة بولس - حي بيت المال.
- ٥/ خلوة الفكي إدريس - حي الركابية.
- ٦/ خلوة الفكي الماحي - حي ودنوباوي منزل الشيخ عثمان صالح.
- ٧/ خلوة ود عبد الماجد - حي الهجرة.
- ٨/ خلوة ود ارو - حي ود ارو.
- ٩/ خلوة السيد علي الميرغني - حي بيت المال.
- ١٠/ خلوة السيد عبد الرحمن المهدي - حي ودنوباوي.
- ١١/ خلوة الشيخ قريب الله - حي ودنوباوي.
- ١٢/ خلوة حسن سوار الذهب - حي ودنوباوي.
- ١٣/ خلوة ود المكاوي - حي الركابية.
- ١٤/ خلوة ود السيد - حي السوق شمال.
- ١٥/ خلوة الكوباني - حي ابي روف.
- ١٦/ خلوة بشارة - حي ابي روف.
- ١٧/ خلوة الشيخ حسن - جامع أمدردمان الكبير.
- ١٨/ خلوة الشيخ صالح العبادي - حي أبي روف.
- ١٩/ خلوة ود المنا - حي بيت المال.

- ٢٠/ خلوة الفكي وهب الله - حي ودونوباوي منزل الحاج سعد.
- ٢١/ خلوة حسن محمد خير - حي سوق الأربعاء.
- ٢٢/ خلوة الفكي محمد أبو جنازير - حي القلعة.
- ٢٣/ خلوة الفكي محمد المبارك - حي الهجرة.
- ٢٤/ خلوة الشفيع - حي الهجرة.
- ٢٥/ خلوة عثمان ونى - حي سوق الشجرة.
- ٢٧/ خلوة الفكي الحسين - حي ودونوباوي.
- ٢٨/ خلوة محمد الحسين - حي الهجرة.
- ٢٩/ خلوة قدح الدم - حي الموردة.
- ٣٠/ خلوة الفكي خضر - حي «ريد».
- ٣١/ خلوة - مرفعين الفقراء - حي العباسية.
- ٣٢/ خلوة ناصر - حي القلعة.
- ٣٣/ خلوة الفكي أزرق - حي العصاير.
- ٣٤/ خلوة السيد المكي - حي السيد المكي.
- ٣٥/ خلوة الشيخ ميطي - حي الركابية.
- ٣٦/ خلوة الشيخ الريح - حي أبوكدوك.
- ٣٧/ خلوة مكي حسن حسين - حي الموردة.
- ٣٨/ خلوة خليفة الياس - حي الموردة.
- ٣٩/ خلوة ود قلينج - حي الموردة.
- ٤٠/ خلوة الفكي حسن - حي الفيل الموردة.
- ٤١/ خلوة ود النور - حي ودونوباوي.

- ٤٢ / خلوة ود البنا - حي ود البنا.
٤٣ / خلوة الفكّي عبد الباقي - حي سوق الشجرة.
٤٤ / خلوة يوسف كردفاني - حي أبي روف.
٤٥ / خلوة النور عنقرة - حي شارع الهجرة.
٤٦ / خلوة محمد عبد الرحمن ساتي - حي ود ارو.
٤٧ / خلوة مصطفى عطا الله - حي ود ارو.
٤٨ / خلوة البلة حمزة - حي ود ارو شمال.
٤٩ / خلوة علي المهدي - حي بيت المال.
٥٠ / خلوة الحجا - حي شمال السوق الشجرة.

ورد في هذا الثبت بعض أسماء رجال وجهاء وأصحاب يسار وقد ذكرناهم أما الخلوة التي يسبقها اسم الفكّي فهي منسوبة للفكّي مؤسسها.. وبعض الرجال ينشئ الخلوة حباً في نشر المعرفة وابتغاء الأجر والثواب وبعضهم يؤسسها وجاهة لأن الشخص المحترم في مطلع هذا القرن هو الذي يني الديوان الفخم ودار الضيافة وتكتمل الوجاهة بإنشاء الخلوة سواء في الدار أو خارجها.. ومن الرجال الذين أسسوا الخلوة السيد بولس وهو مسيحي من مواطني أمدرمان وخلوته تقع بين بيت المال وحي أبي روف وبالقرب من شاطئ النيل.

هذا مما استطعت جمعه من خلاوي أمدرمان وقد اندثرت اليوم أكثر تلك الخلاوي وربما فاتني ذكر بعض الخلاوي المهمة فليعذرني من لم أذكر خلوته أو خلوة أسرته.. ولتكن هذه الخلاوي المذكورة نيابة عن الخلاوي التي لم أستطع الوقوف عليها وقد جمع هذا العدد من باب الذكرى والتبرك..

الخط عن الإمام المهدي

حرص الإمام المهدي على المستوى الرفيع في كل شيء وكان يوجه أحبائه ليحسنوا في كل وجه من الأوجه حتى الشكليات فيكتب لهم مثلاً في الحرص في إجادة الخط فيقول:

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد:

فمن عبد ربه محمد المهدي بن عبد الله إعلاماً منه لجميع كتاب أحكام المهدية وأنصار الدين - أما بعد فالذي نعلمكم به أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ بحيث فهمتم فلا بد من تحسين الخط وتجويفه وعدم تغيير الحروف وقلب معانيها.. فقد أهلك الله المغيرين ودمرهم فاتركوا خطهم ولا تسلكوا سنتهم وأظهروا السين من بسم الله الرحمن الرحيم والشين من الشيطان الرحيم وأعطوا الحروف حقها كما أنزلت وحسب ما عهد فيما السلف، وتعليق الكاف والهاء على هذه الهيئة فإياكم وكتابة الترك ثاني مرة واجتهدوا في أخذ حذرکم منها كي تعودوا بأيديكم على كتابة القرآن الكريم الذي أنزل بها واحفظوا أمرنا هذا واعملوا به للجميع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سنة ١٣٠٠هـ.

مسيد أم ضبان:

يحسب من أشهر المساید في وسط السودان ولا أتجاوز الواقع إن قلت أنه المسيد الأكثر شهرة على أيامنا هذه.

والحديث عنه في هذا الفصل ينقسم إلى ثلاثة أوجه الأول سيرة الشيخ محمد أحمد بدر مؤسس المسيد.

الثاني تاريخ المسيد.

الثالث أثر المسيد التعليمي والتربوي.

ولد الشيخ محمد أحمد بدر المسلمي البكري^(١) بمنطقة شندي^(٢) في قرية «الحوارة» وهي من القرى الدارسة «اليوم» فقد اجتاحتها النيل في «موسم الفيضان» قبل سنين طويلة.

أمه السيدة رية بنت أبو زيد وأمها تدعى «عزلة» وكانت رية وأمها متمسكتين بأهداب الدين ولهن صلات ود مع المساييد والخلاوي المشهورة في ذلك الزمان، وعلاقتهمأ أخص بمسيد الشيخ حسن ودحسونة ويحكى أن السيدة رية لها شخصية متميزة وكانت مضرب المثل في قوة الشخصية وسداد الرأي وكانت تطلق على ابنها «لقب» العبيد وبعد برهة طغى اسم العبيد على اسم محمد وصار اسم شهرته «العبيد ود رية» لما لأمه من مكانة مرموقة وكان الشيخ شديد الاعتزاز بأمه ولما سئل عن شيخه الذي درسه القرآن قال «شيخى» «أمي» كانت تعلمني القرآن وأنا سارح مع الغنم» ولما صار شاباً وجد أهله يرتحلون مع ماشيتهم وأغنامهم طلباً للماء والكلاء..

متنقلين في سهل «البطانة» الشمالية واستقروا فترة من الزمان في «قوز رجب»^(٣) ثم خرجوا منها منساحين صوب الجنوب الغربي من أرض البطانة وكان بجانب دراسته القرآن يرفع الغنم ويفلح الأرض.

وفوق هذا أخذ نفسه بالشدة والمجاهدة وكان يمضي الأيام والليالي صائماً قائماً حتى نحل جسمه وصار أصدقاؤه «يعدون» أضلعه ومفاصل ظهره من شدة الضعف والهزال ولم يزل هذا ديدنه حتى بلغ مبلغاً روحياً عظيماً.

(١) نسب الشيخ ود بدر يمتد عبر المسلمية إلى سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

(٢) شندي - في شمال السودان ١٥٠ كلم من الخرطوم وهي حاضرة الجعليين.

(٣) قوز رجب - بلدة مشهور بأعالي نهر أتبرا.

وبعد هذه السباحة اتجه نحو الشيخ «عوض الجيد» فأخذ عنه الفقه والعربية ثم خرج حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر المصطفى ﷺ والسفر وقتل ضرب من الجهاد والابتلاء، والسلف الصالح في بلادنا بخاصة الذين قادوا النهضة العلمية القرآنية أدى أغلبهم فريضة الحج في ذلك الزمان المتقدم وصار الحج إحدى شروط الجهاد فوق أنه فريضة ولكن من أركان الإسلام، وقد نلاحظ من خلال هذا الكتاب أن المشايخ المتقدمين حجوا والسودان تحكمه الدولة المسيحية «علوة» فالحج اختبار لعزائم الرجال، وبعد عودته من الحج انقطع إلى الله تعالى وزهد في تركه الأسباب الدنيوية وصرف همه للعبادة والتأمل.

وبعد برهة أوقد نار القرآن المعروفة «بالتقابة».

أخلاق الشيخ:-

التزم الشيخ العبيد الأخلاق الفاضلة وتمسك بأهداب السنة في كل خطواته وكان شعاره الزهد، والتوكل على الله واتباع ذلك البطش والكذب بيديه فكان يتولى الزراعة بنفسه والرعي وسقي الماشية وإكرام الضيف.

الحكمة:-

وفوق هذا فقد ألهمه الله الحكمة في الأقوال والأفعال فكلامه يخرج كالدر في قالب من الحكمة الجزلة مسجوعاً ومنغماً.. والناس يتلقون كل كلمة «وحديث أو حكمة» بتناقلها الخاصة قبل العامة حتى شاعت في أكثر بقاع السودان في وقت وجيز..

وروى تلاميذه أنه قال سألت الله أن يستجيب لي ثلاث دعوات.

الأولى أن يعطيني لسان أبوي الشيخ فرح ود تكتوك.

الثانية أن يعطيني كرم أبوي الشيخ إدريس.

الثالثة «غنى» أبوي الشيخ حسن ود حسونة.

وكان الرجال الثلاثة من ألمع مشايخ السلف الصالح وقد سبقوا الشيخ العبيد بحوالي قرنين من الزمان وعرف الشيخ فرح بسماحة الأخلاق وطراوة اللسان وصياغة الحكمة التي يستسيغها العامة والخاصة وكثير من أقوال الشيخ فرح تنسب للشيخ العبيد كما تنسب أقوال الشيخ العبيد للشيخ فرح للتقارب الشديد بينهما في النهج والأسلوب.

أما الشيخ إدريس ود الأرياب فقد بز أهل عصره في السخاء والكرم وهو أمر معروف عند كل الناس أما الغنى «الثراء» فقد وقع على الشيخ حسن ود حسونة وقد استجاب الله بفضله ومنه وحقق له دعوتين أما الثراء فلم يتحقق للشيخ فكل درهم يقع في يده كان ينفقه في التو والحين فلم يدخر مالا ليحسب نفسه من الأغنياء «ويحسبه الناس».

طائفة من أقواله وحكمه:

كان أحد الحكام الأتراك يميل نحو التدين وكان يزور الشيخ العبيد الفينة بعد الأخرى وبعد ظهور المهدي أرسل الحاكم التركي رسولا يسأل الشيخ العبيد عن رأيه في المهدي فرد الشيخ بطريقته المعروفة:

كان مهدي جيد لينا

واكان ما مهدي شين لينا

سمع الشيخ العبيد أن رجلاً متحمساً قاوم الجيش التركي فتصدت له قوة جيش الحكومة وقتلته وأنصاره فلما سمع الشيخ العبيد الخبر تأسف وترحم على الرجل وقال قولته المشهورة:

أخونا فلان أذن قبل دخول الوقت

وفي رواية - صلى قبل دخول الوقت
ومن أقواله:-

نعمة الأمير إن زار الفقير
وبئس الفقير إن زار الأمير

القادر ما تقادرو
الاضيق ما تعاذروا
وما تشهد على الماك حاضروا

العنده حبة من الرئاسة
ما تكمل معاه الفراسة

الماعنده ضهر
وما بحمل السهر
ووشو مافيه قهر
هو اليجز ومرتو التهرز

توضا صحيح
صل صحيح
وإن سألك قول قولاً نصيح

ومد إيدك لا تكون شحيح

شوف يوم القيام اكان ما تستريح

وسئل عن القرآن فقال مقولة مشهورة بين تلاميذه حتى يومنا هذا. قال حفظ القرآن يحتاج للصبر والمثابرة - وضرب مثلاً برجل اشترى أربعة نياق من السوق كل واحدة من جهة.

إن لم يصبر عليهن رعيًا وشرابًا ومواظبة فإنهن متى ما وجدنَ الفرصة هربن. كل واحدة لأهلها فالذي يصبر عليهن حتى «يأتلفن» ويصرن نفساً واحدة لا تستطيع إحداهن مفارقة أخواتها وهكذا سورة القرآن من يراها ويصبر عليها تلتئم ولا تتفرق أبداً «وتستقر» في فؤاده.

وقال عن المرأة

- المرأة الكاملة

مقنناً سابل

وحسناً ضابل

ووشاً للرجال ما يقابل.

ثم الطاعة وحفظ اللسان؟؟

- النساء ثلاث - مرة ونص مرة وأثر مرة.

الأولى المرة من العتبة وإلى ورا.

والثانية نص المرة للحيران تمشي بالضرأ.

والثالثة المي مرة «ناس السوق جايين خبرا»

إنشاء المسيد

أوقد نار القرآن وبدأ التدريس سيدي الشيخ العبيد ود «رية» باديء ذي بدء في مكان يقال له «النخيرة» تبعد حوالي ٤٠ كيلومتر من موقع مسيد أم ضبان الحالي من جهة الشرق وكان يتنقل بطلبته من النخيرة إلى بقعة أم ضبان حوالي ٢١ سنة. ثم استقر في هذا المكان والذي عرف «بأم ضبان» فيما بعد.

أم ضبان

جاء في كتاب قلائد الدر^(١) اسم البقعة «أم ذبان» بعضهم قال أم «ضوبان». سألت «الخليفة يوسف» رحمه الله عن حقيقة اسم «أم ضبان» في صبيحة الثاني عشر من ربيع الأول ١٤٠١هـ قال:-

كان الشيخ ود بدر ينزل من قرية النخيرة ويصعد حوالي ٢٠ سنة وكان تلاميذه يردون النيل بيئاتهم بمُشرع المحس بالقرب من العيلفون^(٢) ثم يصدرون جهة الشرق بضع كيلومترات وكان بالمكان شجرة «طنذب» يسكنها ذباب «النحل» وحول «الطنذبة» سهل فسيح طيب النزل. فكان الشيخ ود بدر يشير عليهم بأن ينزلوا سهل الشجرة «أم ضبان» وصاروا يترددون على المكان إلى أن ألفوه وطاب لهم المقام وحفروا البئر الحفير^(٣) ثم تساقطت شجرة الطنذب وبادت وبقي اسمها فقط، وصار الناس كلهم يقولون «أم ضبان» نسبة للشجرة آنفة الذكر.

والعرب تسمي النحل «الذباب» جاء في لسان العرب في مادة النحل «النحل

(١) قلائد الدر - تأليف الشيخ صالح بن الشيخ تاج الدين الرازقي. طبع بمطبعة سليمان داود منديل بالعزطوم في أول محرم ١٣٤٩هـ.

(٢) مُشرع - المشرع مورد الماء.

(٣) الحفير - حوض ضخم تتجمع فيه مياه الخريف حتى يحول الحول.

ذباب العسل» وأهل السودان لا ريب أخذوا لغتهم من أصولها العربية التي انحدرت لهم من أسلافهم الأقدمين. وقد وصف عترة بن شداد العبسي^(١) ذباب النحل في معلقته قال^(٢):

وخلا الذباب بها فليس يارح غرداً كفعل الشارب المترنم
وعامة العرب يسمون النحل الذباب - فلا مُشَاحَّة إذا استعمل الشيخ العبيد وتلاميذه كلمة «ذباب» أو ضبان كما في اللسان العامي.

الوجه الثاني: أن أكثر المشايخ الذين أسسوا المسيد وخلوة القرآن عرفوا بالزهد والتقشف وتحقير النفس ووفق هذا الأسلوب كانوا يسمون الأماكن التي نزلوا فيها وعمروها بأسماء تنم عن الزهد وإنكار الذات.

١/ الشيخ العبيد يسمى - أم ضبان.

٢/ الشيخ إبراهيم الكباشي سمي - أم زُقان.

٣/ الشيخ عوض الجيد سمي - عفينة.

وهذا أسلوب شائع في بلادنا تسمية الأماكن بأسماء حقيرة هضماً للنفس وقتلاً لحب الظهور فيها.

ولما أوقد الشيخ العبيد نار القرآن كان في يمينه الفكي محمد بن الحاج ١٢٦٤ وقد مسك «السوط» من يد الشيخ العبيد ثم تلاه:

١٢٦٥ الفكي بلة بن الفكي محمد.

١٢٦٦ الفكي محمد ابن الفكي بلة.

١٢٦٧ الخليفة أحمد بن الشيخ.

(١) النحل - لسان العرب - الجزء الرابع عشر صفحة ١٧٢.

(٢) شرح المعلقات للزوزني.

١٢٦٩ الفكي بلة بن الفكي محمد مرة ثانية.

١٢٧٣ الشيخ علي الكرار بن الشيخ.

١٢٧٤ الفكي عبد الرحمن بن الفكي محمد المهلاوي.

١٢٨٥ ومكث المهلاوي إحدى عشرة سنة.

١٢٨٥ الشيخ الطيب بن الشيخ.

وفي هذا العام استقر الأستاذ العبيد في أم ضبان ومكث ابنه الطيب حوالي عشر سنوات وقيل إحدى عشرة.

١٢٩٦ الشيخ العباس بن الشيخ العبيد.

١٣٠٢ واستمر ستة أعوام.

١٣٠٦ الفكي عبد الرحمن بن الفكي أحمد حنقول

ثم خمدت نار القرآن كما أشرت بسبب المجاعة سنة ٦ وعاد التدريس في نهاية ١٣٠٧ - ١٣٠٨ في بداية هذه السنة تولى التدريس الفكي محمد الحاج نور إلى ١٣١٢.

ثم الخليفة حسب الرسول بن الأستاذ ويحسب الشيخ حسب الرسول من أمهر قادة التدريس من ١٣٢٢ إلى ١٣٤٩ وهو تاريخ بداية تأليف هذا الكتاب^(١).

ونار القرآن لها خمس وثمانون سنة حتى تاريخ تأليف هذا الكتاب ١٣٤٩ منها ٣٧ في حياة الأستاذ وإحدى وعشرون منها بين النخيرة وأم ضبان ومنها ثمانية وأربعون بعد وفاته نسأل الله أن يمدّها بأوفر مدد من عنده.

(١) كتاب قلائد الدر تأليف الشيخ صالح تاج الدين.

المسيد اليوم

هذا واتسع المسيد بعد أن كان بضعة أكواخ وخلوي صغيرة إذ تحول الآن لتصبح أم ضبان مدينة على أيماننا هذه، وقد كان أكثر عمرانها على عهد الخليفة يوسف بن عمر بن الشيخ العبيد فقامت في أكتاف المسيد كل أسباب المدنية.

١/ الكهرباء.

٢/ الماء.

٣/ المستشفى.

٤/ المدارس الأكاديمية العليا بنين وبنات.

٥/ الشرطة.

٦/ القضاء.

٧/ المجلس الإداري.

٨/ الأندية الرياضية والثقافية والاجتماعية إلخ..

٩/ ثم معهد تجويد القرآن والدراسات الإسلامية الأخرى.

١٠/ العيادة النفسية بمعاونة المسيد ورعايته.

أثر المسيد التعليمي

كان مؤسس مسيد أم ضبان كما أشرت شيخاً بارعاً حصيماً وكان عليه رضوان الله ورحمته خبيراً بأدواء النفوس وعلاجها فكان يقوم بجانب تدريس القرآن بتدريس الفقه وإصلاح ذات البين بين الناس وذكر مؤلف كتاب «قلائد الدر» أن الشيخ العبيد كان يقسم يومه على النحو التالي:

الوظيفة الأولى

من صلاة العشاء الأخيرة إلى حلول فجر اليوم الثاني يخلو إلى الله يقرأ القرآن ولا يكلم أحداً ولا يكلمه أحد بكلام الدنيا.

الوظيفة الثانية

من بعد النافلة «صلاة الضحى» إلى منتصف النهار يدرس الفقه ويشرح لكل حسب قدرته الذهنية ويضرب مثلاً لكل حسب حرفته الحراث، بحراثته، التاجر بتجارته، الحزار بجزارته، الحايك بحياكته إلى آخر أنماط الناس، ويفوص في المسألة حتى يجلي عبارتها لأهل الأفهام الغليظة.

الوظيفة الثالثة

من صلاة العصر ينظر في حوائج المسلمين فإن وجد شيئاً قضاؤه وإلا عاد إلى قراءة كتب الفقه.

الوظيفة الرابعة

من صلاة العصر إلى اصفرار الشمس يواصل قضاء حوائج الناس من إصلاح ذات البين وإغاثة الملهوفين ومعالجة المرضى وغيرهم ويتفقد الأرامل والمساكين إلى غروب الشمس وفي كل وقت كان يطبل على طلبة القرآن وتفقد أحوالهم وحائهم على الحفظ والتجويد.

الوظيفة الخامسة

بعد المغرب إلى آذان العشاء يطوف على منازل الضيوف ويتفقد عشاءهم إلى أن يصلي العشاء الأخير كان هذا دأبه إلى أن توفاه الله.

جهاد الشيخ العبيد

ولما ظهرت دعوة الإمام المهدي عليه السلام للملا كان الشيخ العبيد من المؤيدين لها بعد أناة وإعمال نظر ولما كانت للشيخ مكانة عند أهل المعرفة فقد خاطبه الإمام المهدي بعدة رسائل وكان يسكت عليها وفي أثناء الفترة التي كان يرأسه فيها الإمام المهدي قال الشيخ العبيد قولته المشهورة وهي عبارات باللغة العربية الدارجة المسموعة ما زال الناس يرددونها.

أكان مهدي جيد لنا

وكان ما مهدي شن لنا

وكان الشيخ العبيد يدرك أهمية التربية البدنية الروحية ولذلك حث أولاده وتلاميذه على الجهاد والانخراط في سلكه وكان الشيخ العبيد يحرص على أن يشارك أولاده في وضع الخطط القتالية ويحثهم على الفوز بالشهادة وهذه فقرات من رسائل الإمام المهدي إلى الشيخ العبيد.

منشور المهدي إلى الشيخ العبيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد.

فجزيل السلام من عبد ربه الوائق بمولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى حبيبه العبيد بدر وكافة من كان لله وبذل نفسه في نصرة الدين في عباده المؤمنين.

أنتم أهل دراية وقد علمتم أن القلب إذا خلا من غير الله يمتلئ نوراً ويفيض منه إلى خلق الله ولا شك أن الرباني المتمسك بالله كأمثالكم شأنه هكذا ولا سيما هي عدم الخشية من أحد غير الله.

فإذا بلغك جوابي هذا فشمروا وقوا عزمك في الله وشد حزام العزم والحزم

واجمع همك في الله وأرسل لجميع أتباعك وأحبابك وأهلك وعشيرتك في الله وجاهد في معاداة الكفر واقطع السكك وبارز بالعداوة ظاهراً وباطناً بالقتل والأسر والرباط والحصار ولا تتوقف أبداً لأمر ما إن كنت ممثلاً مصداً بمهديتنا افعل ذلك ولا تبالي. حكم ما فعل محمد الطيب البصير وإن خشيت فانضم إليه فلا يكون رضائي عليك إلا بفعل ما أمرتك من أحد الأمرين. فلما انحلى الأمر وسطع البرهان جمع الشيخ العبيد أولاده وأتباعه بعد أن أغار جيش الترك على العيلفون وقتل من فيها وخربها ثم اتجه نحو أم ضبان قرية الشيخ العبيد.

فوضع الشيخ وأبناؤه وتلاميذه خططهم الدفاعية والهجومية وكانت الواقعة المعروفة باسم واقعة «الكرنوس» في سبتمبر ١٨٨٤.

وقد شارك الشيخ في وضع الخطة وكان «التكتيك» أن يلاقوا الجيش التركي خارج أم ضبان بمحل الكرنوس وكان قائد المعركة المقدم [سعد] وهو أصغر القواد سناً. وكان تقسيم الجيش على هذا النحو:

١/ اليمين المقدم سعد.

٢/ الميسرة الشيخ الطاهر بن الشيخ العبيد.

٣/ القلب الكرار وحسب الرسول أبناء الشيخ العبيد.

وانتصروا انتصاراً باهراً في هذه المعركة.

المسيد والجهاد

وسيرة هذا الرجل الشيخ العبيد نموذج لسيرة معظم مشايخ المسيد فهم بجانب رسالتهم التعليمية قد خبروا الجهاد في كل صوره منذ عهد الفونج وإلى قيام المهديّة فكل القادة وأصحاب الهمم العالية ممن تخرجوا في المسيد وانطلقوا منه، والأمل ما زال معقوداً على المسيد في إصلاح الحال الذي آل إليه مجتمع اليوم.

هذا وقد مدح الشيخ العبيد ومسيده كثير من الشعراء والكتاب وهذا جزء من قصيدة الشاعر إدريس جماع عن نار القرآن في هذا المسيد.

يا عابداً سهر الدجى	والناس غرقى في المنام
أنت الكريم ابن الأكارم	والإمام ابن الإمام
يا ابن من هزم الطفأة	بسر ربه والحسام
ذكرت مواقع جحفل	يعلو سناها في الغمام
بالشرق أشعلها بنوه	مكبرين بلا سقام
دحروا العداة الكافرين	لأجل دين لا يضام
أشعلت للقرآن ناراً	لا تكف عن الضرام
نار تبدد جهلهم	والجهل أشبه بالظلام
وجمعت طلاباً من الشيخ	الكبير إلى الغلام
وجلست تنصت خاشعاً	والناس حولك في ازدحام
ما بين طالب حاجة	يرجو ندادك ومستهام

هذه القصيدة نظم الشاعر «إدريس جماع» في الخليفة حسب الرسول محمد أحمد بدر^(١).

ود أب صالح

الشيخ ود أب صالح مسيده من أنشط المساييد الآن وله مساهمة كبيرة وذكر حسن وقد خرّج آلافاً من الحفظة الذين تبوأوا مناصب هامة في مجال التعليم، والمسيد موقعه قلب البادية الشرية جنوب ود حسونه وشرق «أم ضبان».. وذكر هذه الأماكن كمثال لأن نقل المسيد من مكان إلى مكان له أسباب

(١) رواية الأستاذ صالح بانقا (ابن البان).

وأهداف. فمسيد ود حسونه والشيخ أرباب العقاید.

والشيخ أحمد ود عيسى والعبيد ود بدر وحمد بن عبد الله صاحب الدامر كل هذه المسايد تنقلت من مكان إلى آخر لأسباب منها - البعد عن المشاغل التي تزحم وقت الطلبة ومن أسبابها ضيق المكان فبعض المسايد ضاقت سعتها فأثروا تغيير الموقع لمكان أرحب.

للأسباب التي أشرت لها ورأى المشايخ أن الطالب المجتهد يحرص على الوصول إلى هذه الأماكن البعيدة، ومجيئه ههنا دليل على صحة عزمه وانقطاعه للدرس والتحصيل.

الاستقرار

ومن أهم الأسباب التي أظهرت حكمة المشايخ التي عرفها الناس فيما بعد، أن الانتقال بالمسيد من مكان إلى آخر فيه دعوة صريحة إلى الاستقرار. إذ كان المجتمع السوداني يتكون من فئتين. مزارعين على شواطئ النيل ورعاة رحالة يجوبون البوادي والفلوات.

وكان أغلب الأهالي لا يعرفون الاستقرار ولا يؤمنون به فدعاهم المشايخ إلى الاستقرار حول هذه الأماكن فقبلوا الاستقرار. في حمى المسيد فأول شيء فعله المشايخ حفر البئر، «والمماهل» الكبيرة التي تعرف بـ«الحفير» وهو حوض ضخم يمتلئ الماء فيه سنة كاملة وعند كل مسيد حفير ضخم كان وما زال، وبعد بناء سور المسيد والمصلى والخلوة وغرف الضيوف، يأمر الشيخ ببناء البيت وهو من الأشياء التي لم يعهد لها المجتمع الرعوي خاصة البيت «المستديم» وكانوا يسمونه «المربعة» إذ لم يعهد المجتمع الرعوي وعموم أهل الضهاري بناء المساكن المستقرة فلما رأوا هذه البيوت - سموها المربعة لغرابتها عليهم.

التقليد

ثم تبع التلاميذ مشايخهم فقلدوهم في بناء المربعة وحفر البئر والاستقرار حول المسابد ثم كبرت القرية. وهكذا كلما حط شيخ في مكان ما حفر البئر أو الحفير وبني المربعة فيتبعه التلاميذ وكافة الناس وهكذا بدأت نواة القرى والمدن، وكثير من القرى والمدن تنسب لمشايخ القرآن^(١).

العلاج

لا ريب أن المسلمين واجدون في كتاب الله كل شيء يحتاجونه وفي كتاب الله العظيم الآيات الشافيات التي تغسل ما في النفوس من كدر وهم وغم. وكذلك يجدون في الأحاديث الشريفة أسباب العلاج كلها فمن لم يتيسر لهم في الكتاب يجدون شرحه في الحديث.

ثم أقوال الصحابة وما أجمع عليه السلف الصالح.

وفوق هذا فقد يجمع الشيخ بين العلاج القرآني والتطبيب بالأعشاب والكبي بالنار والفصد بالموسى.

وأكثر المشايخ يحذقون هذه الحكم ففي كل مسيد حكماء من غير مشايخ القرآن يشجعهم المسيد على الإقامة في كنفه. فالمواطن المريض يقبل على المسيد وهو مطمئن النفس فكل علاج يتلقاه يستجيب له ولو كان «ماء» من بئر المسيد فهي بلا ريب تؤثر في المريض الذي يظن فيها الخير، وما زال كثير من الأهالي رغم تقدم الطب وكثرة المستشفيات لا يذهبون إلى الطبيب المتخصص إلا بعد أن يأذن لهم شيخ المسيد.

وأهم ما اشتهرت به المسائد في السودان علاج الأمراض النفسية والعقلية التي تعرف عند العامة بـ«الحن».

(١) أم ضبان - طابت - طيبة - إلخ...

وأهل القرآن الخلف لا يهتمون بعلاج «الحن» ولكن لا يخلو المسيد من بعض المشايخ الذين يعالجون هذه الأوجاع النفسية بمقدرة وثقة عظيمتين.

التربية

والمسيد متاحة فيه وسائل التربية فتعليم الحرف مع القراءة متوفر في المسيد وتعليم الزراعة ومعاملة المجتمع كلها ميسورة في المسيد. وفوق هذا فكل أدواء الناس الاجتماعية والاقتصادية والعائلية تحسم في المسيد، برضا كامل.

وقد لاحظ الاستعمار الانجليزي أن أهل السودان يوقرون المسيد ومشايخ المسيد وكل من ينتمي لأسرة المسيد فعين منهم إداريين- برتبة «ناظر»^(١) وهي وظيفة اجتماعية كبيرة - فالناظر يتمتع بسلطتين.

١ / إدارية.

٢ / قضائية.

وفوق ذلك سلطات اجتماعية أخرى يكسبها من وضع أسرته التي استمدته من المسيد.

التمباك

هو أصل «الدخان» كله، وهو نبات يزرع في كثير من بقاع المعمورة ويشققون منه عدة أصناف «السجائر» المتعددة والتبغ بكل ضروبه إلخ..

وفي منتصف القرن العاشر الهجري اختلف الناس في بلادنا. أحلال التمباك أم حرام وانقسم الناس يومئذ قسمين. قسم يقوده الشيخ إدريس بن الأرباب وهو القسم الذي أفتى بحرمة التمباك مطلقاً.

(١) الشيخ الطيب ود بدر.

القسم الثاني يقوده شيخ معروف في المجتمع السناري يدعى الشيخ الشريف عبد الوهاب «راجل أم سنبل» ثم اجتماعا عند الشيخ «عجيب المانجلك» سلطان الدولة وتناظرا ولما لم ينحسم الأمر أرسل الشيخ إدريس تلميذه «أحمد ولد عقرب» في معية الشيخ حمد أبو حليلة وعلي أبو نافلة وهما ومن معهما كانوا في طريقهم إلى الحج والحج في ماضي السنين وقبل إنشاء ميناء سواكن كان عن طريق صعيد «مصر» «كرسكو» من أعمال أسوان - فمدينة «القصور» عند البحر الأحمر ومنها إلى الميناء الحجازي «ينبع» فلما دخل ود عقرب مصر ذهب إلى الأزهر وهو يحمل رسالة الشيخ إدريس ابن الأرباب إلى الشيخ الأجهوري ولم يستطع ود عقرب مقابلته لكثرة الناس حوله من باشوات وسناجك وعلية القوم إلخ..

فترصده يوم الجمعة فلما قرأ «المكتوب» رماه في وجه ود عقرب وقال له كلاماً فظاً فغضب ود عقرب أشد الغضب.

وفي يوم الجمعة القادم قام الشيخ إبراهيم اللقاني خطيباً وبعد الاستفتاح قال مخاطباً الشيخ الأجهوري يا شيخ علي الدخان أتت به النصارى من بلاد الفرنجة وافتنن به المسلمون وأنت أفتيتهم بالإباحة وهو حرام لأنه بدعة ولأنه سرف ولأنه محروق، ثم نشب شجار بين المغاربة والشيخ الأجهوري ثم رأى الشيخ الأجهوري رؤية «منامية» فلما أصبح أصبح طلب أحمد ود عقرب رسول الشيخ إدريس وكتب له كتاباً أفتى بحرمة «التبأك» وأرسل مع الكتاب عدة هدايا أهمها بلغة عصرنا «الميدالية» وهي موجودة الآن بالعلفون عند أبناء الخليفة بركات وهي ميدالية من الفضة المطعمة بالذهب والنحاس وشكلها مخروطي وعليها تاريخ الإهداء ٩٧٦ هـ وتعرف باسم «الأجهورية».

والشيخ إدريس قام مجده وعلا اسمه بإيقاده نار القرآن وهذه الواقعة تشير إلى أن أصحاب المساييد والخلاوي أهل دراية ومعرفة ولا أحسب أن جماعة في ذلك

التاريخ ناقشت الدخان والتبأك مثلما ناقشه مشايخ القرآن بالسودان في ذلك الزمان المبكر ٩٦٠هـ.

وها هو العالم كله يناقش اليوم قضية التبأك «التدخين» وقد سبقهم أهل المسيد بأربعة قرون فتأمل..

العلاج التقليدي

ومثلما ناقشت المسايڊ والخلاوي الدخان في وقت مبكر فقد انتبه علماء نفسانيون أجلاء انتبهوا قبل غيرهم من الأطباء وربطوا بين العلاج الحديث والعلاج التقليدي وعلى رأس هؤلاء الأطباء العلامة الموسوعي البروفسير التجاني الماحي وكان يرحمه الله كثير الترداد على المسايڊ والخلاوي وقد وطد صداقات مع هؤلاء المشايخ بالأخص آل أحمد طه البطحاني الشيخ البخاري والشيخ الحسين وغيرهم.

ثم تلى التيجاني الماحي تلميذه النابهان بروفسير طه بعشر وحسبو سليمان ومشيا على أثره وارتبطا كثيراً بمسيد «أم ضبان» وهو مسيد عظيم قدم ويقدم للناس خدمات جليلة منها العلاج النفسي ولما توثقت الصلة بين المسيد وبروفسير بعشر وبروفسير حسبو نتج عنها افتتاح مصحة عقلية أو نفسية داخل مسيد أم ضبان في سنة ١٩٦٥م وكان يزورها كل أسبوع طبيب متخصص وكان شيوخ المسيد يعالجون وفق أسلوبهم وبذلك يدخل الطب الحديث إضافة جديدة تكمل ما بدأه الطب التقليدي وظل الأطباء يروحون ويغدون لمسيد «أم ضبان» وبعد حين افتتحوا عيادة نفسية في المسيد تشرف على المرضى ومن تتطور حالته يرسل للمستشفى الكبير بالخرطوم بحري..

الأطباء الأجانب

وكلما زار بلادنا وفد من الأطباء زاروا مصحة مسيد أم ضبان وكلهم أبدوا

إعجاباً بهذا العمل الرائد المتقدم، هذا وقد أوصت المؤتمرات الحديثة بربط العلاج التقليدي بالعلاج الحديث وللأطباء النفسانيين صلات مودة مع جميع أصحاب المسaid التي تعالج المرضى - كمسيد الشيخ المكاشفي ومسيد «طابت»^(١) الشيخ عبد المحمود وأحدث مصحة نفسية افتتحت منذ ثلاث سنوات في «طبية الشيخ»^(٢) عبد الباقي» أقامها الشيخ أبو عاقلة وخصص لها مباني حديثة وداراً للأطباء من أحدث الدور.

لا ريب هذا عمل عظيم وكبير ومتقدم جداً ويحسب هذا العمل في كفة المسaid الراجحة والآن أصبح العالم كله يسير بخطى حثيثة نحو العلاج الطبيعي ونحو الأعشاب ونحو كل ما هو فطري.

ومسaid القرآن أعدت هذه الأماكن للأطباء وخصصت لهم المآكل والمشارب من غير مقابل وهذا عرف سائد في جميع المسaid كما أنها تقبل المرضى وذوي المرضى مهما كثروا فهي مستعدة لإيوائهم وإطعامهم وكسائهم وإن دعا الحال فإن «مصاريفهم» عليها من غير من ولا أذى، وفي نظر المجتمع أن المسيد بيت من بيوت الله، فمن أقام فيه فلا يتعرض للإهانة ولا للمذلة فهو يقيم في مكان آمن معترف به اجتماعياً وأخلاقياً وفوق ذلك الاعتراف الديني وهو الأساسي.

والجو العام في المسيد يعين المرضى على الشفاء فكل شيء يعين المرضى أصوات مرتلي القرآن أصحاب الأناشيد وغيرهم ممن يعطرون هذه الأماكن بأصواتهم الشجية الندية، ومن قبل لفست نظر العالم لهذا الجانب المفكر الروسي «بابلوف» وتحدث عن الإثارة والاستجابة عند المرضى في الأماكن التي تشبه المسيد.

(١) طابت أسسها الشيخ الأستاذ عبد المحمود نور الدائم وتقع غرب مدينة الحصاصيصا بخليفتها اليوم العالم

الفاقي أبي البركات سيدي الشيخ الحيلي بن الشيخ عبد المحمود الحفيان.

(٢) طبية - قرية قام محلها على قراءة القرآن أسسها الشيخ عبد الباقي المركي.

الشريف محمد الأمين الهندي

دراسة القرآن في عهدهما الأول كانت وفقاً على حفظ آي الذكر الكريم دون إتقان للتجويد والضبط.

وجاء أخيراً نفر من المشايخ بفن التجويد ذكر طائفة منهم ود ضيف الله ومن أبرزهم أسر معروفة على نطاق القطر - كمجاذيب الدامر والسواراب والغبش وأولاد جابر وآل وديدي وغيرهم.

وكان هؤلاء المشايخ يضبطون تجويدهم مقلدين السلف في تأليف المنظومات ومن أبرز المنظومات قديماً منظومة الشيخ الدنفاسي^(١) تلميذ الشيخ عبد الله الأغبش.

مهتمين بأسلوب ونهج التجويد النظامي كالحرازي والحزري والشاطبي إلخ...

والمشايخ المشار إليهم كانوا على عهد المملكة السنارية المعروفة بالسلطنة الزرقاء.

وكان جهدهم موزعاً هنا وهناك بسبب سوء المواصلات وضعف النشر ثم خرج على مجتمع المشايخ رجل وهبه الله عزيمة صادقة وقريحة صافية هو الشريف محمد الأمين الهندي.

نشأته:

نشأ الشريف محمد الأمين في ديار العقلين بين الدندر والرهدي محل يقال له «راشد» ثم بدأ دراسة القرآن على يد والده الشريف يوسف ثم أكمل القراءة على يد الشيخ أحمد ديباي بالمفازة ثم درس عند الفكي اسيد ثم ارتحل الطالب

(١) منظومة مشهورة نصها في كثير من المسائد وهي كما المنظومات التي تحري على بحر الرجز.

محمد الأمين إلى جهة القضايف^(١) وواصل الدراسة عند الشيخ محمد الأزرق المجذوب ثم رجع إلى سنار ودرس قليلاً عند ود صبر ثم ذهب للفكي أحمد ود كنان المشهور.

والتقل والانتقال من شيخ إلى آخر تقليد معروف عند طلبة الخلاوي في السودان بقصد البركة والترويح فكلما سمع الطالب بشيخ ماهر شد الرحال إليه مهاجراً وقد قر في ذهن الطلبة أن التقل يعين على التحصيل الجيد.

ومن بعد الشيخ كنان، شد الرحال لمصر حيث درس فيها علوماً شتى أهمها علم البلاغة والفقہ على يد الشيخ عليش والباچوري الصغير والشيخ العدوي وخرج من مصر «نحو أسوان بلدة «ادفو» التي طار خبر شيخها الورع «أبو دريقة» وهو حافظ وحاذق للتجويد ومكث عنده مدة طويلة نهل فيها من فيض علم الشيخ أبو دريقة. ثم خرج الشريف محمد الأمين «حاجاً» ثم عاد لمصر وبعد أن حذق التجويد عاد إلى السودان وكانت مدة سياحته وهجرته لطلب العلم خمساً وعشرين سنة.

وكان للشريف خلوة في السروراب^(٢) ثم أم طريفي ومرنات واستمرت - الدراسة في تلك المواضع حوالي سبع وعشرين سنة وطار اسم الشريف محمد الأمين في كل أصقاع البلاد فقصده الطلبة من جميع الجهات وتكاثروا عليه حتى ضاق بهم المكان وصاروا يتعرضون للأزمات المعيشية من وقت لآخر.

ثم استخار الله ونقل المسيد إلى منطقة الرهد ومنطقة الرهد اشتهرت بالخصب ووفرة الحبوب التي هي ضمان أكيد لاستقرار الدراسة ومكث في حلة الشريف يعقوب حوالي أربع عشرة سنة ثم ارتحل وطلبته لمكان يعرف بـ«نواره»

(١) القضايف - مدينة كبيرة اشتهرت بإنتاج الحبوب.

(٢) السروراب - فرع من قبيلة الحموعية اشتهرت بالعلم والصلاح.

وبلغ اسمه القمة في نواره وهي قرية تقع على شط نهر الرهد والعيش فيها رغد والأمن والاستقرار مبسوطان ثم طار اسم نواره إلى جميع الجهات وبلغ الشيخ في نواره مبلغاً عظيماً من نباهة الذكر وسعة الأفق وتحلت نفحاته وفاض علمه في تجويد القرآن وبلغ عدد الطلبة في عهد نواره الآلاف العديدة.

ويدلنا على ذلك عدد «تفاقيب»^(١) القرآن التي أشعلها لتحفيظ وتجويد القرآن وقد أحصاها بعض الرواة فوجدوها خمسين تقابة لطلبة القرآن وبلغت تفاقيب التجويد ثلاث عشرة حلقة ولكل حلقة شيخ وتلاميذ.

والتفاقيب تُشعل ليلاً وقد ذكر لي الرواة أنه حينما تشب نار هذه التفاقيب تضئ القرية كلها. والنساء يغزلن القطن ويضفرن السعف على ضوء هذه النيران وهن في منازلهن وذكروا أن مشهد نيران نواره من بعيد ومن - قريب يخلب اللب ويثير النفس وظلت نار الشريف محمد الأمين مشتعلة نحو الخمسين سنة من السروراب إلى الشريف يعقوب ولم تخبو نار الشريف إلا بعد أن هاجر لمبايعة الإمام المهدي سنة ١٢٩٩ محاولاً اللحاق به في «بقعة» الأبيض ولما وصل الشريف وتلاميذه بلدة الرهد أدركته المنية ودفن في منطقة الرهد التي تقرب من مدينة الأبيض رحمه الله وأجزل مثوبته.

أشهر مشايخه:

في سرد سيرة الشريف محمد الأمين ذكرت المشايخ الذين تتلمذ عليهم في السودان ومصر ولكن هنالك شيخ كبير له أثر على الشريف محمد الأمين وهو الشيخ عبد الله الصليحي البرقاوي^(٢) والصليحي من مشايخ التجويد المبرزين في زمانه وكان الشريف برأ حفيماً بشيخه ولا سيما بعد أن أدركه الكبر وبلغ حبه

(١) تفاقيب - مفردتها تقابة.

(٢) الصليحي - أحد مشاهير علماء تجويد القرآن.

وتقديره لشيخه أنه كان يرقد على الأرض عند سرير أستاذه - والصليحابي كان مريضاً بداء السلس^(١) ويخرج كثيراً بالليل وكان الصليحابي كفيفاً وكلما قام من مرقده وضع رجله على ظهر الشريف محمد الأمين فيهب الشريف ويذهب به إلى «الخلاء» وفوق هذا كان يغسله ويغسل ملابسه وملابس زوجته. كل هذا من ضروب الوفاء والبر بالشيخ.

مؤلفاته:

وضع الشريف محمد الأمين الهندي خلاصة تجارب عمله في مجال التجويد في كتب ما أحصى منها عشرة مؤلفات أذكر منها:

١/ مجموعة البيان.

٢/ عقيلة أتراب القصائد.

٣/ العانة.

٤/ مقدمة الأحكام.

٥/ الفوائد في علل الهمزة والزوايد وغيرهن.

وربما أخطأ الرواة فأضافوا له ما لم يولفه ونسي بعضهم مؤلفات الشريف وكل المؤلفات مخطوطة ومفرقة بين أيدي تلاميذه الأبقار وهم ضنينون بها ويحسبونها بركة ولا يخرجونها للناس إلا عند الضرورة.

وأحسب أن لهذه المؤلفات قيمة علمية وتاريخية وأثرية ويوجد منها القليل طرف حفيده الشريف الصديق يوسف الهندي خليفة والده الشريف يوسف الهندي في مكتبه بـ بري الشريف.

(١) السلس - البول السكري وقيل مرض البول المتقطع.

خلاوي البدو

المدارس المتنقلة التي تتبع العرب الرحل تسمى خلاوي وهي كالخلاوي المستقرة في القرى والمدن من ناحية الدراسة إذ الغاية فيها قراءة القرآن وحفظه حفظاً كاملاً أو مجزئاً.

وكما رعى المجتمع الزراعي المستقر المدرسة القرآنية رعى المجتمع البدوي الخلوة وأولائها الاحترام والتقدير وبينها وبين الخلوة العادية اختلاف بسبب نمط الحياة الترحال والهجرة التي تصبغ حياة البدو فهم أبداً مترحلون ولهم ثلاث رحلات في السنة.

١- الخريف.

٢- الدرت.

٣- الصيف.

ولكل رحلة أهمية وخاصة. فرحلة الخريف تبدأ مع تباشير الخريف وفي «نوء» يعرف بالذراع.

وتسمى هذه الرحلة الشوقار^(١) أو الشوقارة والشوقار أول نبت يخرج في الخريف فيتبعه البدو مع ماشيتهم فترعاه ويظلون يتابعون الشوقارة إلى أن يستوي الكلاً فيضربون خيامهم لمدة ثلاثة أشهر أو أزيد.

«ب» «الدرت» لهجة محلية والدرت هو الموسم الذي تنضج فيه ثمار النباتات ويبدأ قبيل الشتاء وقد يطول ويقصر حسب تقلبات الرياح.

«ج» الصيف - تسمى رحلة «الدمر» وتعني كلمة الدمر الفترة التي يمضيها البدو الرحل على الآبار والمناهل الثابتة كالحفير والأضأة إلخ..

(١) الشوقار - نبات يظهر أول الخريف (فصل الرشاش) ويرتاده العرب أهل البهائم رعيًا. ومنه استعاروا شوقار البكاء وهو الوفد الذي يذهب إلى العزاء.

والمشايخ الذين يتبعون العرب في ترحالهم هذا، جماعة ممتازة محتسبة أجرها على الله، وقد تميزت على غيرها بالصبر والأناة، يميل إليهم العرب ميلاً عظيماً ويحترمونهم ويرغبون في الارتباط بهم بالزواج فينتج عن ذلك مودة ورحمة تجعل الشيخ منسجماً مع المجتمع البدوي.

والشيخ بجانب وظيفته الأساسية «معلم» فهو طبيب وفقير وواسطة خير وشرطي لحفظ الأمن فالبدو عندما ينشب بينهم خلاف لا ينصاعون إلا لكلمة «الشيخ» أكثر من كلمة الدولة الرسمية.

نظام الدراسة

الدراسة في هذه الخلوي ميسرة ولا يُضيق على الطلبة بل برضائهم ورغبتهم وينزل أحياناً الشيخ عند رغبات آبائهم ولأستاذنا المرحوم حسن نجيلة ذكريات عطرة^١ إذ كان يدرس أبناء البدو في مدرسة شبه نظامية ولكنها متقلبة مترحلة حيثما ذهب البدو فهي معهم^(٢).

فالشيخ معلم القرآن يكتب للحوار لوحه ثم يخرج الصبي مع البهائم لرعيها ويعود مساء لعرض ما حفظه وهكذا دواليك.

الفكي علي صالح

وأضرب مثلاً بالشيخ الفكي علي صالح وهو من أبرز مشايخ العرب الرحل وكان نشاطه حوالي ١٣٣٥ هـ بيادية البطانة «المغاربة»^(٣) التابعة لعمودية العمدة «فج النور حسن» وغيره كثيرون.

(١) انظر كتاب ذكريات في البادية لحسن نجيلة.

(٢) وللشيخ إبل خاصة تعمل متاعه ومتاع طلابه.

(٣) المغاربة - قبيلة - كبيرة ينسبون للشيخ أحمد زروق المغربي الفاسي.

الشراء

والبدو قوم جبلوا على السخاء فكانوا يتبارون في إكرام مشايخ القرآن حتى أصبح بعض المشايخ من أثرياء البادية فالشيخ طيلة الأيام تتقاطر عليه الهدايا وبعضهم يساعده الحظ فيتزوج في القبيلة وينجب فتكون القبيلة له سنداً ودرعاً وهو بالتالي يذود عنهم برأيه وفقهه.

الباب السابع

المسيد في دارفور^(١)

أهل إقليم دارفور من أميز المجموعات السودانية التي تتمسك بالقرآن دراسة وحفظاً وذلك منذ عهد بعيد ولم يدانيهم أحد في زماننا هذا إلا قبائل شرق السودان.

وحينما أتحدث عن دارفور فإنني أعني المجموعات التي تقطن هذا الإقليم وكلمة دارفور تعني خليط التحالفات الأسرية والعرقية التي حافظت على نسيج وحدة السلطنة الإسلامية قروناً عديدة.

ورغم أن الإقليم سمي باسم الفور إلا أنه يضم كل القبائل والعشائر التي أقامت مجدها على الإسلام من خلال المسيد وأخص بالذكر الفور والتنجر والزغاوة والبرقو والفلاتة والمساليت والقمر والبرقد والرزيقات والهبانية وكل القبائل العربية وغير العربية وما ذكرت وما لم أذكر فكلهم شركاء في هذا الفضل الذي يقوم على دراسة القرآن وأبناء دارفور ويليهم أبناء كردفان هم قوم كل المساييد في جميع أنحاء السودان ولهذه الجماعات صبر وثبات شديداً على لأواء الغربة ووحشتها وقد زرت أكثر المساييد في حوض النيل فوجدت قوام المساييد هم أبناء دارفور ولا ريب فإن القرآن أثر على سلوكهم فهم على المستوى العام أصدق الناس لساناً وأرفعهم سلوكاً وأزهدهم في عرض الدنيا.

وإذا كانت المساييد تطورت واتسعت في أنحاء السودان فإن في دارفور نهضة

(١) دارفور الإقليم الغربي في البلاد ويتأخم تشاد وأفريقيا الوسطى وليبيا.

جديدة مماثلة يقودها الشيخ أبو القاسم التجاني في منطقة «أم دوين» شرق مدينة الجنية.

المسيك

وكما يعرف أهل السودان قاطبة بل العالم العربي الإسلامي وحتى أهل الأندلس قديماً وحديثاً يعرفون معنى «المسيد»، أما أهل دارفور فلأنهم قبلوا دال المسيد كافاً فصار عندهم «المسيك».

بعد زيارتي لبعض أجزاء من دارفور توفرت لي معلومات عن المسيك وخلوة القرآن.

ولكني وجدت كتابات كتبها أبناء دارفور وهم بلا ريب أفضل مني معرفة بمجتمعهم الذي فيه يعيشون.

التعليم في دارفور

ارتبط تأسيس سلطنة دارفور بالتعليم الإسلامي خاصة قراءة القرآن وفتح من أجل ذلك الخلاوي وأرسلت بعثات لتلقي التعليم الإسلامي في بلاد مراکش ومصر وبلاد الحرمين وقد عملوا على استجلاب علماء من الخارج لتأسيس الخلاوي وهم ما يعرفون اليوم «بالواحية» في إقليم دارفور ثم بعد ذلك رحبوا ترحيباً كاملاً بعلماء برنو الذين نزحوا من غرب إفريقيا وأحسنوا وفادتهم واقتطعت لهم مساحات من الأرض تعينهم على التعليم عرفت «بالحواكير» ثم أن الفور عملوا على نشر تعليم القرآن الكريم نشرأً واسعاً في كل أرجاء السلطنة وذلك بفتح الخلاوي ولعل من أهم وأقوى مظاهر هذا الاتجاه نحو التعليم، هو هذه الصلة الحميمة التي تربط بين مؤسسات الحكم ومؤسسات التعليم.

الخلوة أو المسيد هما اسمان لمؤسسة واحدة وهي بمثابة المؤسسة التعليمية

الأساسية وهذه المؤسسة مقصورة على الذكور فقط لأن الإناث ممن يرغبن في التعليم يدرسن في المنازل أو بالاحتكاك المباشر بالفكي. يقيم الفكي لنفسه داراً بمساعدة المهاجرين خارج القرية وحول بيته منازل صغيرة للمهاجرين وتسمى عادة «قرى المهاجرين» وهي من المعالم البارزة في قرى الفور ويقال أن ثلاثة أشياء ضرورية لإنشاء أي قرية تعيين الشيخ^(١) والإمام^(٢) والبئر التي تشرب منها القرية.

الطفولة المبكرة

يبدأ اهتمام الأسرة بتعليم أطفالهما في زمن مبكر ومن حسن تربية الأطفال أن يعلمهم والدهم مبادئ الكتابة ويرغبهم في التعليم كمرحلة تمهيدية للذهاب بهم إلى الخطوة بعد ذلك^(٣).

الطفولة والصبا، الهجرة،

يسمى طالب القرآن في مجتمع الفور «المهاجر» هَجَرَ أسرته وذويه لطلب العلم وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة تقريباً يرسل مع إخوته الكبار إلى المسجد لطلب العلم ويتلقى الدروس من إخوانه الملتحقين بالمسجد إذ أن مرحلة تلقي التعليم من الأستاذ «الفكي» تأتي في مرحلة متأخرة عندما يصير المهاجر كبيراً.

يوم المهاجر الصغير

يبدأ اليوم وقت السحور حيث يقوم للصلاة ثم يقرأ في اللوح إلى شروق

(١) الطالبان موسى آدم عبد الجليل - الآن أستاذ جامعي «دكتور» عبد الله آدم خاطر من المثقفين العاملين في الحقل الثقافي عمل في الصحافة وتأليف الكتب.

(٢) السيد عبد الرحمن محمد محمود - من رجالات الإدارة وشغل منصب وزير إقليمي في دارفور.

(٣) الأستاذ المربي أبو حمد حسب الله من رجال التربية المرموقين.

الشمس فيغسل اللوح ويخرج (للحَلَّة) المجاورة طلباً للطعام لأن من مسئولية الصغار خدمة أسرة الخلوة، ويجلب الطعام من داخل «الحَلَّة» وبعد الإفطار يبدأ في كتابة فقرات جديدة للحفظ ويسمى ذلك كتابة «اللوح» ويكون بمساعدة مهاجر كبير خاصة إذا كان من إخوانه أو أقاربه وقبل الغروب يعودون إلى القرية لجلب العشاء ثم يذهبون للنوم ليبدأ غدهم باكراً.

كبار المهاجرين

هؤلاء يكونون متفرغين للدراسة خاصة في الصيف فيبدأون يومهم وقت السحور أيضاً يدرسون إلى وقت الإفطار ثم يذهبون إلى الفكي الواحد تلو الواحد للتصحيح والمراجعة وأثناء النهار يواصلون دراستهم المسائية من صلاة المغرب إلى العشاء.

ثم إن للفكي مهام تربوية إضافية هي توجيه هؤلاء وإرشادهم إلى كيفية إحسان العبادة كالوضوء وكيفية الصلاة ويمنعهم من إتيان كل ما من شأنه تقليل قدرهم كطلبة قرآن وعندما يحفظ الطالب القرآن الكريم يدعو الفكي كبار الفقهاء ويوزع عليهم جزءاً من القرآن ويذبح لهم ولد الطالب ثوراً ويحتفل الناس بذلك وقد تكون المناسبة مقرونة بتزويجه ويكون هذا الاحتفال بمثابة منحه شهادة عليا.

يتولى الفكي رسم الشرافة على لوح الحوار أو يوكل ذلك لأحد الحيران الكبار البارعين في الرسم الزخرفي فيرسمها ويملاً مقلقاتها بالألوان.

«الجبرية المحلية ترسم» يحمل الحوار اللوح إلى أهله أولاً، ثم يعود إلى المسيد ليخرج مع الحيران يعرضون شرافتهم لربات البيوت والسوق المحلي وهم ينشدون الأهزوجة التالية:-

مولانا يا مولانا آمين

من فضلك لا تنسانا آمين

من فضلك لفقير	أمين
الفقي وحيرانا	أمين
الحيران للجنة	أمين
فيها الحور والرمات	أمين
والحيران حوالها	أمين
محمدا ساكنا الله	أمين
والقارئ كتاب الله	أمين
نحن نموت والحى الله	أمين

هذا ويقوم بالإنشاد حوار واحد وتكتفى المجموعة بترديد كلمة أمين وراءه.

الصلة بين الخلوة والجملة

أفراد القرية يتقبلون الخلوة كامل القبول ويقدمون كل الدعم لتأكيد وجودها ويسارع أفراد القرية لمساعدة الفكي في قضاء حاجته خاصة الزراعية.

الصلة بين الفكي والعمدة أو الشيخ

إن كلاً من الفكي والعمدة يمثل قوة حقيقية في مجتمع دارفور ويعمل على تحقيق رغبة المجتمع في التعليم والعمدة له رجاله الذين يساعدونه في الإدارة كما أن إنشاء الخلوي عمل إداري لذا فالاحترام المتبادل هو السمة الأساسية في العلاقة بين الفكي كممثل لمؤسسة التعليم والعمدة كممثل لمؤسسة الحكم.

فالسلطة الإدارية سواء الشرطية^(١) أو العمدة اهتمت اهتماماً كبيراً بالفقهاء الذي يسمون بالأئمة لقيامهم بإقامة الصلاة وغيرها.

(١) الشرطية رتبة إدارية أهلية في دارفور.

وفي كل عام بعد نهاية الخريف يطلب العمدة أو الشيخ من الأئمة أن يأتوا إلى منزله لمدة أسبوع يقرأون القرآن وبعد الفراغ يعلقون المصحف على شقين ثم يكتبون محاية^(١) توزع على نية الأمل في الشفاء ونجاح المنتج من خلال العمل الذي قاموا به وطلباً لتسهيل أمور حكمه ولمواطنيه أن يعيشوا في رفاهية ورخاء.

تاريخ حركة المهاجرين^(٢)

بدأ دخول الإسلام وانتشاره بدارفور اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادي وتلك هي فترة دخول القبائل العربية المسلمة إلى سلطنة دارفور وأصبح الإسلام الدين الرسمي في عهد سلاطين الكيرا مؤسسي دولة دارفور ١٦١٦ - ١٦٤٠م وحتى القرن الرابع عشر وفد إلى المملكة عرب من جهة تونس يقال لهم بنو «هلال» واختلطوا بالسكان الأصليين وعندما تزوج أحمد المعقور «خيرة» بنت شاو دُور سلطان الفور التنجر وأنجب منها ابنه سليمان سولنج الذي أسس أول دولة مسلمة في دارفور وهناك روايات تذكر أنه كان عالماً في الدين ويعد أول المهاجرين وعمل على أن يكون الإسلام الدين الرسمي وكانت السلطنة تحكم بقانون «دالي» الشهير^(٣) لقد عملوا على نشر الإسلام وشجعوا مواطنيهم على الهجرة إلى الأزهر بمصر طلباً للعلم وجعلوا للمهاجرين رواقاً بالأزهر عرف برواق «الفور» وشهدت هذه الفترة بناء الجوامع وإنشاء المساجد وتشجيع المهاجرين ومن أشهر ملوك دارفور الذين شجعوا حركة بناء المساجد والخلوي السلطان تيراب ١٨٧٥ يقال أنه بنى تسعة وتسعين جامعاً وجلب العلماء من الأزهر وتونس. كانت أشهر خلوي المهاجرين في هذه الفترة خلوي طرة وخلوي شوبا

(١) محاية - كلمة معروفة وهي نتاج جهد الشيخ المتمثل في كتابة الشيخ على اللوح ومحوه وبشرب المريض هذا ويشفى بإذن الله.

(٢) عبد الرحمن محمد محمود مجلة الدراسات السودانية جامعة الخرطوم العدد الأول ١٣/١٠/١٩٧١م.

(٣) قانون دالي قانون عرفي وضعه أحد حكام التنجر اسمه إبراهيم دليل.

وخلاوي طينة وكوبى و خلاوي تندلي أو الفاشر ومشايخ هذه الخلاوي من الأئمة المتفهمين في الدين.

وبدأت حركة المجاهدين أول ما بدأت حركة لتعليم القرآن والكتاب والقراءة ونلاحظ أن حركة المجاهدين هذه بدأت كتعليم ديني يعرف بتعليم الخلاوي كما بدأت كظاهرة منتشرة بين جميع المناطق لكنها تقلصت مع دخول الاستعمار. وذكر البحث مؤسسات قائمة بذاتها لها نظم وقواعد ومفاهيم مرتبطة بها وربما يعود ذلك إلى سياسة الانجليز في جعل إقليم دارفور إقليماً مقفولاً في وجه التيارات الثقافية والفكرية الآتية من أواسط السودان كل ذلك أي لقبول أفراد الفور لمنظمات المهاجرين كمؤسسات أهلية تتمتع بالدعم المعنوي وهذا ساعد المهاجرين على الاستمرار والبقاء لأن أفراد الفور يؤمنون بأن الطفل لا يستطيع أن يتعلم مبادئ القراءة والكتابة إلا إذا هاجر لقرية غير قرية والديه مما أدى لانتشار هذه الحركة بين جميع قرى الفور.

التنظيم الداخلي لمنظمات المهاجرين

ليس هناك حد للعمر للالتحاق بحلقة من حلقات المهاجرين لكن مسارها عرف بين أفراد أهل دارفور على أن يبدأ الالتحاق فيما بعد السنة السابعة كما أن فترة البقاء أو الانتساب للحلقة مقرونة بتجويد الكتابة والقراءة وحفظ القرآن وغالباً يقضي التلاميذ أربعة أو خمسة أعوام قبل أن يتم تخرجهم، لهذا نجد أن أعمار المهاجرين متأرجحة ما بين السنة السابعة والسنة الخامسة والعشرين.

ولربما يوجد من هم فوق هذه السن وبالفعل شهدت ثلاثة من المهاجرين المنتسبين إلى خلاوي «كِلْبِس» وهم فوق الخمسين عاماً أما عدد المهاجرين فيختلف من خلوة أو من حلقة لأخرى ويعتمد ذلك على شهرة الفقيه وسمعته الطيبة لدى الجمهور ومدى حفظه للقرآن وتجويده لقراءته ومدى تدينه. يعتمد

عددهم أيضاً على مدى كرم المواطنين بالقرى لخللاوي المهاجرين نسبة لاعتماد المهاجرين على ما يتصدق به عليهم غيرهم.

وخللاوي المهاجرين هي عبارة عن قرى قائمة بذاتها وتعرف بقرى المجاهدين وهي أول ما يلحظه الزائر لمعظم القرى بهذه المنطقة وتبنى قراهم في شكل قطايطي صغيرة الأحجام.

تسع القطية واحداً أو اثنين للإقامة بها، وهي قرى مؤقتة ويتوسطها منزل الفقيه ويتفاوت عدد هذه القطاطي من قرية لأخرى كما ذكرنا وهناك قرى للمهاجرين يبلغ عدد تلاميذها المائة تلميذ ومن أشهر هذه الخللاوي خللاوي كلبس ومرندو وحجير وبيلا ومكجر وسندو ونرج وشنقة وخللاوي جبل كوتو وخللاوي جبل كونو وخللاوي قرعة ودايا.

وهناك عدد كبير من الخللاوي التي يناهز عدد تلاميذها عدد تلاميذ المدارس النظامية كخللاوي كلبس ومكجر واديا وقوتو وكردل. فخلوة كلبس مثلاً يناهز تلاميذها الثلاثمائة وتمتاز الخللاوي بموقعها الجغرافي الممتاز إذ توضع دائماً فوق المناطق المجاورة لمجاري الوديان المقاربة للقرى الكبيرة وتمتاز قراهم بأبراج الحمام المتعددة فقد تخصص المهاجرون في تربية الحمام^(١).

أما عن التنظيم الوظيفي فعلى قمته الخللاوي والإشراف الكلي على التلاميذ أو المهاجرون ثم تليه طبقة المهاجرين العليا وهم المتقدمون في أعمارهم والذين شارفوا التخرج ووظيفتهم شبيه بوظيفة مديري الأقسام داخل المؤسسة الواحدة وتلي هؤلاء طبقة صغار المهاجرين وهم التلاميذ حديثو العهد بالهجرة.

وتعتبر حلقة المهاجرين وحدة اجتماعية واقتصادية قائمة بذاتها كما هو الحال

(١) الحمام - واختيار الجيد منه ولعلهم أَلَمُوا بأخبار حمام الحرمين كما أفادنا الكتاب ومشايخ المهاجرين يقيمون بسيرة الحمام كثيراً وهذا الفصل نقلوه من كتاب الرحلة الحجازية للبنتوني محمد لبيب.

عند أسر الفور فالزوجان يمثل كل منهما وحدة اقتصادية قائمة بذاتها إذ لكل فئة من فئات المهاجرين وظيفة وعمل خاص تقوم بأدائه والمهاجرون يحترفون سؤال الناس «الشحدة» وتمثل مصدراً رئيسياً لدخلهم ولقوتهم كما أن المجتمع يعتبر أن ما يقدمه للمهاجر هي مساهمة في دفع عجلة التعليم وحفظ القرآن الكريم ومنتظر الثواب من الله تعالى ومن وظائف صغار المهاجرين طهي الطعام للكبار وتخصيص جزء مما يجمعونه للفقير. ويشترك كل فئات المهاجرين في حرث وزرع أرض «الفكي» كما يستأجرهم المزارعون في العملية الزراعية ودخل هذه الوحدة الكلية بالنسبة لمجموعات المهاجرين نجد أن كل مهاجر يعتمد على نفسه اعتماداً تاماً.

دخل الإسلام بادية ذي بدء غرب السودان عن طريق التجار ولكنهم لا يستطيعون تعليم أمور الدين، ولكن بدخول بعض المتعلمين تغير الحال وصار كل حافظ لبعض القرن يني له خلوة ليتعبد فيها ويجمع حوله الذين يريدون تعلم أمور ويبنون منازلهم حول الخلوة وهكذا حل محل دراسة القرآن اسم الخلوة في دارفور فكان القرآن يدرس في المساجد والجوامع وفي منازل الحفظة كما جاء في كتاب «تشحيذ الأذهان»^(١) لمؤلفه محمد بن عمر التونسي. ونجد التونسي قد خص المسجد بتعليم الكبار أما الخلوة للسكن وتعليم المجاورين علوم الشريعة.

أما ما ذكره التونسي من عدم إجابة أهل دارفور للقرآن فهذا زعم غير مقبول ونحن نرد على التونسي بكثرة الخلاوي الشهيرة بدارفور ومنها خلوة الفكي غرباوي الجامعي وقرية كريب الشهيرة والتي تعلم فيها السلطان «عبد الرحمن الرشيد» والشيخ مالك الفتاوي. وخلوة طرة سلاطين وخلوة جديد السيل التي كان يدرس فيها الشيخ «الحافظ» حمد بن محمد الجامعي.

كما كانت هنالك خلوة جديد رأس الفيل، وخلوة «ازرققا» التي خرجت

(١) تشحيذ الأذهان - تأليف محمد عمر التونسي.

فيمن خرجت «الحافظ» عبد القادر بن مالك الجامعي والذي كان مشهوراً بنسخ المصاحف بخط جميل على رواية أبي عمر الدوري وإهدائها إلى العلماء بجديد السبل وغيرها من مراكز تعليم القرآن.

هذا وقد اشتهرت بعض الخلاوي بمدينة الفاشر على عهد السلطان علي دينار نذكر منها خلوة الفكي أبو سنين والفكي عثمان دي، بحلة الواحية وخلوة الفكي زكريا عبد الله بحي تكرير وخلوة الفكي يوسف بالطريفية.

أما في عهد الاستعمار فقد كان هناك عدد من الخلاوي بمدينة الفاشر كخلوة الفكي حسن محمد عثمان «بالوكالة».

أشهر الخلاوي اليوم بدارفور

تركزت الخلاوي في الوقت الحاضر بالريف وأشهر هذه الخلاوي خلوة كبكاية والتي تأسست في السبعينات وتضم حوالي ٥٤٠ دارساً ودارسة ويلتحق خريجوها بمعهد علوم القرآن الكريم بالفاشر.

أما المشايخ الذين يدرسون القرآن فهم القوني عبد الكريم يوسف والقوني عبد الله آدم والقوني صالح حلاب والقوني حسن ابكر محمد والقوني حسين عبد الكريم والقوني عبد العزيز قاسم والقوني برمة شلتوت صالح وهو «أستاذ البنات» والقوني حرن يوسف والقوني أحمد إدريس^(١).

وكل هؤلاء يعيشون هم وأسراهم على نفقة الشيخ أحمد حنفي صالح. أما معنى كلمة قوني فهي تعني المعرفة التامة بالقرآن الكريم فيما يتعلق بالحفظ والتجويد ولو على رواية واحدة. وكلمة قوني في الأصل أتت من تشاد.

(١) قوني أظنها كلمة المحمية وتطلق على الفقيه المتبحر في تجويد القرآن.

مظاهر الإقبال على تعليم القرآن بدارفور

إن سكان دارفور قد عرفوا قديماً بإقبالهم الشديد على تعلم القرآن الكريم ومن مظاهر هذا الإقبال الخلوي الكثيرة التي ذكرناها آنفاً والعدد الوفير من المصاحف المخطوطة التي لا زال بعضها موجوداً اليوم، بل هناك من يكتب هذه المصاحف المخطوطة إلى اليوم، والإصرار على تعلم القرآن مع ما تلاقيه بعض القبائل من صعوبة لأن لهجتها غير عربية ومع ذلك فقد تحailوا على الحفظ بما يعرف عندهم «بالحبال والنظم».

وإليك مثلين أحدهما للحبال والآخر للنظم.

لما كانت آيات سورة الرحمن متشابهة وخاصة مع تكرار قوله تعالى ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ فقد استنبطوا الحبل الآتي وهو مجموعة من حروف الهجاء تمثل أوائل الآيات التي بعد كل آية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ وتحرك بنفس حركاتها والحبل هو:

«خرميوكى سبي فقى ذفف مف كهو مفف حملت».

أما مثال النظم فإنهم عندما أرادوا ضبط مواضع السجودات في القرآن على مذهب مالك وعلى رواية أبي عمر الدوري التي تتمشى مع مذهب الإمام مالك ذكروا النظم الآتي.

أولها يسجدون في الأعراف	والأصال في الرعد لا خلاف
وفي النمل أتاك يومرون	وفي إسراء خشوعاً يسجدون
يشاء الحج بكيا لمريم	نفوراً للفرقان معلومة
في النمل رب العرش العظيم	وفي السجدة وهم لا يستكبرون

وفي حبال أخرى كثيرة يضبطون بها المتشابهات في القرآن الكريم ليسهل عليهم حفظه. وكذلك من مظاهر الاهتمام بالقرآن أن الطفل إذا وصل إلى سورة

«البينة» رسمت له شرافة في لوحه وقدمت له الهدايا وهكذا دواليك إلى أن يختتم وهناك يقام له احتفال كبير يكرم فيه أيما تكريم.

أما في مدن الإقليم فإنه وإن قل الإقبال من الصغار على الخلاوي إلا أن إقبال الكبار على تلاوة القرآن في المساجد والجوامع والبيوت في تزايد مستمر ومن أشهر الخلاوي في الفاشر اليوم خلوة الشيخ إبراهيم سيدي محمد. وقد استخدم في بعض جوانبها كمنزلة للمتشردين ومدرسة لتعليمهم.. وهي تعد نموذجاً حقيقياً لربط التعليم بالعمل.

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور «بحمام الحمى» يملأ سطوح المسجد الحرام ومنافذه وطاقاته. فتجده معششاً هنا وهناك، ويجتمع زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص في الجهة الشرقية، وله فيها مكان مخصوص، فيه أحواض لشربه، وبحواره مكان يلقي فيه حب القمح المرتب له من أوقاف مخصوصة، وكثيراً ما تراه في الجهة الغربية، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد إلقائه إلى جيوش هذه الحمامات المستأنسة، التي تكاد تحط على رؤوس الناس، لأنها لم تعرف منها في حياتها إلا كل لطف وأنس. وليست هذه الخصيصة قاصرة على نوع الحمام، بل كل حيوان دخل الحرم فهو آمن، حتى ذهب بعضهم إلى عدم قتل الحية أو العقرب في الحرم، احتراماً له وإكراماً لها فيه وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه إلا لسهولة أنسه وقلة جفائه. ومن أغرب ما يروى عنه أنه مع كثرة في الحرم لم يشاهد منه شيء على الكعبة إلا نادراً جداً. وفي الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبي قبيس بئر يقال لها بئر «الحمام» يجتمع عندها كثير منه ليشرب بحريته ثم يذهب إلى حيث أراد. وهذه البئر قديمة جداً وأظنها من زمن الجاهلية. كما إنني أظن أن

احترام الحمام هنا من زمن بعيد وعلى كل حال مكرم في البيت سواء بل الإسلام وبعده. والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التي عششت في الغار على النبي ﷺ إنما يزيد في احترامه وإعظامه.

وليس الحمام بمحترم فقط بل هذه عادة قديمة جداً فبنو نوح كانوا يكرمونه لأنه أول من بشرهم بظهور الياسة مدة الطوفان. واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس، لأنه يمثل عندهم روح القدس، ويقولون إنه عندما كانوا يغسلون المسيح في نهر الأردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه، لذلك يرسمونها بكنائسهم وصورهم الدينية بكثرة. ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوروبا وخصوصاً في كنائس إيطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا، وقد تعدى هذه الكنائس إلى منافذ المساكن وكرانيشها وأسطحتها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها: فإذا ذهبت إلى فينا أو روما مثلاً وجده هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أي إنسان. وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذي لا يزال في مدينة القسطنطينية إلى يومنا هذا، وتراه على الخصوص في مسجد بايزيد ومسجد أبي أيوب الأنصاري، غير أن أهل الآستانة قد بالغوا في إكرامه حتى حرموا ذبحه، فهم لا يأكلونه أبداً سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم. أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الآستانة من ذرية حمام الغار «الذي يقولون عنه أنه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون» فإنه لا أصل له عندهم، كما لا أصل في دينهم لتلك المأمرية التي كان يؤديها حمام الغار. والشيعية من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد في حمام الحرم، ويزعمون أنه هو الذي أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضي الله عنه. والصينيون يستعملون الحمام من زمن بعيد في استكشاف «بختهم» على مثل ما يستعمله بعض الأروام الآن في طرقات مصر؛ فيأتون للحمام بطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شيء من الخير والشر، فتأتي الحمامة وتستخرج

بمنقارها واحدة يكون منها فالهم، ويسمون هذه الحمامة باك - كوب - بن - Pak)
Pko - Pin) يعني الحمامة ذات الورقة البيضاء.

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للإله عشطورت (Astrate)
وكان عند الفينيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم. ولذلك كانوا
يضعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل ولقد ورد في سيرة ابن هشام
عن صفية بنت شيبة، أن النبي ﷺ لما نزل مكة بعد الفتح وطاف البيت دعا
عثمان بن طلحة وأمره بفتح الكعبة فلما دخلها وجد فيها حمامة من عيدان
فكسرها بيده ثم طرحها.

على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله أنيساً في نوعه جميلاً
في صورته نظيفاً في لباسه، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية فإننا
نرى فيه درساً عائلياً كبيراً: نرى الذكر مع أنثاه يعملان لحياتهما الزوجية: فتراهما
بين توافق وتعاشق وتعانق لا ينفصلان إلا ليتصلا، ولا يفترقان إلا ليجتمعا، في
جلابيب جمال وأساليب دلالة، مما لا يرى له مثال، في زوجين من غير نوعهما
على كل حال.

على أن الحمام له على الإنسان أفضال تذكر فتشكر: فقد كان من القرن
الثامن من قبل المسيح إلى منتصف القرن التاسع عشر يؤدي وظيفة التلغراف بين
الأمم المختلفة، حتى أعلن مرس ووطسون سنة ١٨٤٤م تلغرافهما الكهربائي،
الذي لا يشك أحد في أنه أفاد العالم بأسره فائدة جسيمة، وكان من أكبر الأشياء
التي ساعدت على التمدن العصري وانتشاره بسرعة. ولكن هل الفوائد الجسام
تنسبنا ذلك الحمام! ولتكلمة الفائدة نقول لك أن أول من استعمل الحمام الزاجل
هو رجل من جزيرة أوجين «من جزر اليونان» أتى في سنة ٧٧٦ قبل المسيح إلى
أثينا ليحضر الألعاب الأولمبية واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين
أفراخها فلما برز في هذه الألعاب أرسل الحمامة فذهبت إلى عشها، ومن قدومها

علم أهل الرجل بنجاحه في مأموريته. ومن ثم استعمله الرومان واليونان والعرب والمصريون في مراسلاتهم. وكان لمصر وخصوصاً زمن الأيوبيين والفاطميين مصلحة للرسائل وكان بها في كل جهة بيت للحمام وكله قريب من جهات متعددة: فكانوا إذا أرادوا إرسال مكتوب إلى أي مكان أرسلوه على جناح حمامة مأخوذة من هذه الجهة. إلا أنهم كانوا يرسلون الخبر من صورتين على حمامتين بعد الذي حصل في حصار الفرنجة «لعكا» ذلك أن المسلمين في عكا أرسلوا رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي بواسطة حمامة من حمامهم فاتبعها طير جارح وضربها فسقطت في معسكر العدو الذي عرف منها موقع الضعف من عدوه ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرنسا إلى دمياط سنة ١٢٧٠م وسار بجنده إلى المنصورة، أخذ ملك مصر الملك «الكامل» خبره بواسطة الحمام الزاجل فسير إليه جيوشه لوقته فأوقفته عند حده، وكان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأسر لويس وسجن بها إلى أن تم الصلح بينه وبين ملك مصر فأطلقه وسافر إلى تونس ومات بها وفي حبسه يقول بعضهم:

قل للفرنسيس وإن أنكروا حبس لويس في مقال صحيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح

والحمامة تقطع في طيرها من سبعين إلى ثمانين كيلومتراً في الساعة، ولها صبر على الجوع جملة أيام لكنها لا تصبر على العطش.

وكان لهذا الحمام في حصار ألمانيا لباريس بين سنتي ١٨٧٩ - ١٨٧١م أكبر فضل في ربط المملكة الفرنسية بعاصمتها.

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت أن لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لأذى الصيادين وخلافهم فيؤدي مأمورياته وهو في غاية الهدوء والطمأنينة.

ولقد كان عباس باشا الأول والي مصر رجع إلى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه. لكنه مات رحمه الله قبل أن يتم غرضه. وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه «الغية» لكنهم اختصروا على تربيته وتطهيره في محيط ديارهم وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران حتى إذا التحم بحمام غريب طار معه إلى أن تنفذ قواه ثم يرجع به إلى صاحبه الذي يكون فرحه به لا يقدر. وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الجزغندي - والريحاني - والمزرزر - والقزاي - والأبلق - والعنبري - والغزار - والقشاشي - وغيرها، إلا أن هذه «الغية» لم تقف عند أفنية الأغنياء بل تعدتهم إلى الفقراء وهم إلى الآن يضيِّعون فيها وقتهم الذي هم وعيالهم في حاجة إليه لعمل حيوي مفيد. ولقد شاهدت في بستان سراي يلدز الداخلي، بعد خلع السلطان عبد الحميد، داراً كبيرة من السلك وفيها ما لا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الخلقة بمكان عظيم، وربما كان يتسلى به في سجنه الذي قضى على نفسه به طول حياته سامحه الله^(١).

المسيد في كردفان

إقليم كردفان يحسب من أكبر أقاليم السودان وله حدود مع أقاليم شتى فهو من جهة الشرق يتاخم الخرطوم والإقليم الأوسط، وشمالاً الإقليم الشمالي وغرباً يحده إقليم دارفور وجنوبه يلامس إقليمي بحر الغزال وأعالي النيل ويمتاز إقليم كردفان بثروات طبيعية ضخمة مطمورة في جوفه أشهرها البترول الذي وجد في منطقة «المجلد»..

الجزء الجنوبي من الإقليم وعلى ثراه تسعى ملايين الحيوانات، كالبقر والغنم والخيول إلخ.. وأرضه الخصبة تعطي محاصيل كثيرة أهمها الصمغ العربي،

(١) الرحلة الحجازية محمد لبيب البتنوني الناشر مكتبة المعارف. الطائف شارع الكمال. النسخة موجودة عند الفكي سماعين بنالا - ويطلع عليها كبار المهاجرين. لذا لزم التنويه.

والسمسم، الفول السوداني، الكركدي، الذرة بأنواعها وحب البطيخ إلخ..

وضرب الفصحاء في المجتمع السوداني المثل بخيرات هذا الإقليم فقالوا عنه،
«كردفان الغرا - أم خيرا برا..» أثنوا على كردفان وجعلوها غراء وخيرها على وجه
الأرض «برا» لا يحتاج لجهد كبير.

وتقطن كردفان قبائل شتى^(١) النوبة في جنوبها والمجموعات العربية في
الشمال والوسط وشبه العربية في أطرافها الشاسعة وعلى رأس القبائل المجموعة
الجهينة^(٢) ويعرفون محلياً «بالبقارة» نسبة لتربيتهم البقر فنسبوا لمهنة رعاية البقر
«بقارة» وفي شماله تنتشر القبائل العربية شبه الخالصة - دار حامد - الكبائش -
الحمر - الكواهلة - بني جرار^٣ - المجانين إلخ. وتعرف هذه المجموعة بـ «الابالة»
- نسبة لتربيتهم الإبل - التي برعوا في توليدها وتنسيلها وسياستها.

العباسية

ويسكن هذا الإقليم شطر كبير من المجموعة العباسية التي تعرف «بالجعليين»
وهم موزعون بين الرعي والزراعة والتجارة ولاسيما في عاصمة الإقليم الأبيض
وشرقها وشمالها بارا - الرهد أم رواة - تندلتي تتبع لمحافظة كوستى.. إلخ وهذه
المجموعة تنسب لجدهم سمرة ولسمرة أربعة أولاد هم:

١/ بدير - جد البديرية.

٢/ طريف - جد الطريفية.

٣/ عبد الرحمن أبو شيخ - جد الشويحات.

(١) الراوي - الأستاذ الشيخ موسى عبد المجيد العالم الموسوعي بكردفان الأبيض وهو صاحب أكبر مكتبة
خاصة في كردفان.

(٢) من أكبر القبائل العربية في السودان.

(٣) تسكن هذه القبيلة الآن شمال غرب مدينة تندلتي وهي تتبع لمحافظة كوستى - الولاية الوسطى.

وسمرة جد هذه البطون له شقيقان هما سمير ومسمار والثلاثة من أهم عمد المجموعة العباسية الجعلية في كردفان وفي مديرية النيل وغيرها من الأماكن، وسمرة كما أشرت جد البديرية والطريفية والشويحات إلخ. سمير جد الشايقية والجموعية والجوامعة والماجدية وغيرهم - مسمار جد الجعليين وهم المجموعة التي تقطن بين شلال السبلوقة ومقرن «نهر اتبرا» مع النيل ويطلق عليهم المؤرخون المحدثون جعل الصغرى^(١).

دخول الإسلام:

شق الإسلام كما هو معلوم طريقه لبلاد النوبة والبحاة «السودان» في مطلع القرن الأول الهجري ثم توالى الهجرات في موجات متتالية عبر البحر الأحمر والصحراء الشرقية «العمور» والصحراء الغربية ومن طريق النيل.

ويظن بعض المؤرخين^(٢) أن المجموعة الجعلية العباسية دخل جزء منها عبر الصحراء الغربية بمحاذاة النيل واستقرت في شمال كردفان، في المنطقة المعروفة بدار الريح وأهمها الجزء المسمى جغرافياً «بالقيزان والخيران» وهي منطقة تتكون من التلال الرملية العالية ويسمى مفردتها «قوز» وهو التل الرملي، أما الخيران فمفردتها «خور» وهو مجرى السيل بين التلال «القيزان» وكانت الحياة رغبة ميسورة وعلى ظهور الكثبان الرملية.. والقيزان ينبت الكلاً وفي بطن الأودية يسهل

(١) جعل الصغرى - تعني المجموعة التي تعرف باسم الجعليين ويقطنون بين مقرن أتبرا والفاضلاب شمالاً إلى الحقنة والمسيكناج جنوباً راجع بروفييسور يوسف فضل حسن المؤرخ المعروف ومدير جامعة الخرطوم سابقاً. أى كتاب من كتبه؟

(٢) المؤرخين منهم اللواء حامد صالح الملك رحمه الله كتب كتاباً عن أنساب الجعليين في نهاية الستينات عندما كون «حزب بني العباس» ثم الشيخ الفحل الفكي الطاهر صاحب كتاب «أصول وتاريخ العرب في السودان» دار الطابع العربي الخرطوم ١٣٩٦ هـ الموافق ١٩٧٦ م.

الماء والسقيا فعاشت هذه المجموعة دهرًا طويلاً في هذا المكان.

وزعموا أنهم انحدروا من القيزان والخيران إلى مشارف النيل عند جبل «العرشكول»^(١) غربي مدينة الدويم لدواع اقتصادية وأمنية وتدلل الروايات الشفهية وما كتبه الشيخ الفحل الفكي الطاهر أن من آثار هذه المجموعة الجعلية المنطقة المعروفة باسم بئر «سرار» جدهم الكبير وهو ابن «كردم» الذي سميت باسمه كردفان ويزعمون أن «كردم» كان حاكماً وكان كثير الغضب والانفعال وعندما يغضب يقولون «كردم فار» بمعنى أن في صدره حمية هكذا خرجها «العامة» ويقول الشيخ الفحل أن هذه المجموعة دخلت بلاد كردفان سنة ٦٥٨هـ وكان قائدها عصرئذ الأمير إدريس بن قيس وفيما يلي مقتطفات من حديث الشيخ الفحل.

نسب الأمير إدريس:

الأمير إدريس ابن الأمير قيس بن الأمير يمن بن الأمير عدي بن الأمير قصاص بن الأمير كرب بن الأمير محمد هاطل بن الأمير أحمد باطل بن الأمير ذي الكلاع بن الأمير سعد بن الأمير الفضل ابن الأمير العباس بن السيد الإمام محمد بن السيد الإمام علي السجاد ابن السيد حبر الأمة وترجمان القرآن السيد عبد الله بن السيد العباس عم رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

كردم الفوار:

هو السلطان حسن بن الأمير أبو الديس بن الأمير قضاة بن الأمير عبد الله حرقان بن الأمير مسروق بن الأمير أحمد بن الأمير إبراهيم جعل جعل قبائل الجعليين بن الأمير إدريس، أخبرني الباقر ولد القاضي عربي يوم كان قاضي

(١) العرشكول - أو عرشكول جبل كبير غربي مدينة الدويم.

أبودليق^(١) أنه سمع من والده قال سمعت الشيخ الكناني ولد ابصفيه البديري يقول في بلد البديرية جبل كان يستقر به «كردم الفوار» العباسي وكان شديد البطش فيقولون كردم فار فاشتهر البلد بدار كردم الفوار ثم مزجوا وقالوا دار كردفان وأن كردم دفن في سفح الجبل وأنه كان ملكاً قوياً سمى نفسه السلطان واتخذ وزيراً وجمع جيوشاً وملك كردفان كلها وقوي أمره وملك ساحل النيل الأبيض وملك ثلاثين سنة وتوفي وترك ابنه سرار وأنه دفن بسفح الجبل في بلد البديرية اليوم.

الأمير سرار بن الأمير السلطان حسن كردم الفوار

تولى الأمير سرار الملك بعد أبيه وساس سياسة حسنة وانتقل إلى مقر أسلافه الأولين في الجهات المسماة بارا وخرسى اليوم وحفر بئر سرار «المشهور» وعدل في أحكامه وأطاعه كل الساكنين إلى غرب النيل الأبيض وكان يتوق إلى الارتحال إلى النيل وقضى ربنا أنه توفي ودفن مع أحفاده في مقبرتهم العتيقة بين بارا وخرسى ومدة ملكه عشرون سنة وترك أولاده سمرة وسميرة ومسمار.

والأمير مسمار بن الأمير سرار بن السلطان حسن كردم الفوار بن الأمير أبو الديس بن الأمير قضاة بن الأمير عبد الله حرقان بن الأمير مسروق بن الأمير أحمد بن الأمير إبراهيم جعل وذلك أن الأمير مسمار تولى بعد أبيه فنقل مقر ملكه إلى جبل «العرشكول» المطل على النيل الأبيض لأن مياهه عذبة وكان كثير الخيول استعداداً للحروب ووجد التربة الخضراء^(٢) تمتلئ في الفيضان وبعد نزول الماء يصبح مرعاها محجوزاً للخيول طول السنة لأنه دائم الخضرة وإن الأمير مسمار جد واجتهد وجمع كثيراً من الرجال والخيول وكان همه ضم كلمة العرب من قضاة وقحطان وعدنان وأخذ البلاد من العنج وذلك أن قدماء المصريين

(١) أبو دليق عاصمة البطاحين شرق مديرية الخرطوم.

(٢) التربة الخضراء بالقرب من العرشكول وكان قبل قيام العزان يصلها النيل وذلك في منتصف الثلاثين.

يسمون البلاد «نوب» أي أرض الذهب وسموا سكانها النوبة أو نوباوين أي سكان «أرض الذهب» ومن اجتهد الأمير مسمار تم بعض اتفاق القبائل وجمع كلمتها ولم تسعفه المقادير بل توفي ودفن على رأس جبل العرشكول ومدة ملكه عشرون سنة.. ولمسمار شقيقان سمير وسمرة والثلاثة من عمد هذه المجموعة الجعلية ومن أبنائهم.

١/ أحمد أبو ريش.

٢/ طريف.

٣/ عبد الرحمن أبو شيخ.

الرياشية

وأحمد أبو إدريس ولد سمرة ولد السلطان حسن كردم الفوار ويقال لهم الرياشية ويسكنون بجهات الأبيض مزارعون ورعاة ومندمجون في البديرية نسباً وسكناً وذلك لأنهم أقلية.

أولاد طريف

وطريف هذا ولد سمرة ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار وأولاد طريف يقال لهم الطريفية منهم مزارعون مع البديرية والبعض أرباب ماشية مع الجميع.

الشويحات

عبد الرحمن أبو شيخ جد قبيلة الشويحات ولد سمرة سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار وهم سكان الأبيض منهم العمدة سليمان ولد الزاكي وبعضهم في دار الجعليين في حلة [المطمر] ومنهم في الأبيض أولاد الشيخ الضو أهل دين وبعضهم مع البديرية لصللة النسب وقديماً كانوا يسكنون جبل «التويس» وجبل

شويح وهناك هاجمهم ملك الفونج وقتلهم في بارا وتفرقت البقية وجزء رجع إلى جبل شويح بقيادة الفكي «ساق» ويقال أن ابن الفكي ساق قتل أحد الطريفية الذين كانوا يسكنون «الحمراء» فهرب الفكي ساق واحتوى بالماجدية والكرتان، وأهم فروع الشويحات المعيناب وأولاد موسى وأولاد عتيق.

بدير جد قبيلة البديرية

وبدير ولد سمرة ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار ولد الأمير أبو الديس ولد الأمير قضاة ولد الأمير عبد الله حرقان ولد الأمير مسروق ولد الأمير أحمد ولد إبراهيم جعل، البديرية قبيلة عظيمة كانوا في دنقلا قديماً بين الشايقية والدناقلة ولهم مملكة في الخندق^(١) يتوارثها أولاد الملك صلاح إلى محيي الأتراك ولهم جزائر ومزارع ومنهم «غيش بربر» ومنهم الشيخ حمد ولد التراي والشيخ عيسى الطالب وفي كردفان لهم نظرة خاصة وأملاك ومنهم بدنقلا الشيخ محمد سوار الذهب ومنهم في كردفان العالم العلامة الشيخ بدوي أبو صفية وابنه الكناني فإنهما كانا يقودان تلامذتهما وينازلان أي جبل ويدعوان إلى الإسلام وبدوي هو العالم العلامة الشجاع المجاهد في سبيل الله ولد في بلدة الأبيض سنة ١١٨٠ هجرية وطلب القرآن وتعلمه ببدة الأبيض والتحق بالعلامة الفقيه «أحمد ولد عيسى» وتفقه في علوم الدين والأصول وارتحل إلى وطنه فجاءت إليه طلاب العلم وكثروا عنده ولما رأى كثرة الرجال قام في حلال البديرية داعياً ولما كثرت لديه الجموع من الرجال نازل المجوس وكان يرأسل الجبل ويدعوهم إلى دين الإسلام فإن أطاعوا ترك لهم من يعلمهم وذهب لآخر ولما جاءت حكومة الأتراك رمي من أعدائه بالخروج على الحكومة فأبى ذلك فاعتقل في الخرطوم ثم أفرج عنه فرجع إلى وطنه وتوفي في الأبيض سنة ١٢٥٦ هـ وفيما يلي نسب البديرية إلى السيد العباس عم رسول الله ﷺ.

(١) ومملكة الدفار تنسب إلى البديرية وعاصمتها العفاض.

الجوامعة

وهم من المجموعات العباسية التي استوطنت شرق كردفان بين البديرية والجميع وساهمت قبيلة الجوامعة قديماً وحديثاً في تنمية الحياة الاجتماعية ومن أشهر أبناء الجوامعة الذين يذكرهم التاريخ كمعلمين الشيخ بحر أبو أم كلثوم والشيخ غانم أبو شمال وغيرهما والجوامعة من المجموعة العباسية الجعلية.

وهم جامع - وجمع - وحامد.

وجامع هو جامع ولد فهيد ولد أحمد ولد سعد الفريد ولد الأمير مسمار ولد الأمير سرار ولد السلطان حسن كردم الفوار «صاحب كردفان» وتتصل سلسلة النسب إلى الأمير إبراهيم جعل الجد الأعلى لهذه المجموعة الكردفانية.

أقدم الخلاوي:

يجمع الرواة أن أول خلوة عرفت في كردفان في العهد الباكر لدخول الإسلام والمسلمين هي خلوة «القفلة» موقعها شرق مدينة بارا^(١) المعروفة وشمال قرية «أم دم»^(٢) وهي أعرق الخلاوي وأقدمها بلا ريب والناس في ذلك العهد المبكر يقبلون على كتابة التاريخ كما نفعل اليوم وأمور العلم والتعليم كانت لا تتعدى حفظ القرآن الكريم وبعض أبواب الفقه.

وحسبهم في ذلك العهد صدق النية والعمل الخالص ومن «القَفْلَة» انطلقت شرارة التعليم في أنحاء كردفان ورغم أن تاريخ خلوة «القفلة» القديم اندثر مع المعلمين الأبقار وما بقي منه في الصحف قضى عليه حريق شب في مبنى خلوة «القفلة» فضاع ذلك الأثر العظيم كما حدثنا الشيخ مشاور^(٣).

(١) بارا - مدينة عريقة تقع شمال الأبيض وتحسب من أهم المدن في كردفان ولها دور في التاريخ.

(٢) أم دم قرية مشهورة في كردفان.

(٣) الشيخ الفقيه مشاور جمعة حافظ ومجود وهو القيم على إدارة الخلاوي في إقليم كردفان رحمه الله.

مونس ومنصور

والتاريخ المتداول عند المشايخ المعاصرين يبدأ بالشيخ مونس والشيخ منصور ويعتبر الشيخان من أقدم المشايخ في هذا الإقليم وهم من نسل مؤسسي القفلة^(١). والتعليم في إقليم كردفان اجتاز أطواراً كثيرة البداية كانت في عهد الهمج ثم عهد الفونج ٩١٠هـ - ١٢٢٧هـ الفترة الثالثة العهد التركي من ١٢٢٧هـ إلى ١٢٩٧هـ الفترة الرابعة من ١٢٤٣هـ إلى نهاية المهدية والفترة الأخيرة من بعد المهدية إلى يومنا هذا.

التعليم في عهد الفونج

في ذلك العهد أو قبله كانت البداية وقد اشتهر في ذلك العهد جماعة من الرجال المجاهدين ذكرنا منهم الشيخين مونس ومنصور ثم تلاهما الشيخ سليمان منصور.

ومن ضمن المجاهدين الأوائل الذين ذكرهم الشيخ ود ضيف الله^(٢) الشيخ مختار ولد أبو عناية وشقيقه الشيخ أخرش أبو عناية. وقد تنقلا في إقليم كردفان وكان جهاد الشيخ مختار أكبر من أخيه إذ توغل في جنوب كردفان «جبال النوبة» وهي منطقة وعرة في ذلك الزمان والوصول إليها ضرب من المشقة وظل الشيخ مختار يطوف في جنوب كردفان داعياً ومعلماً إلى أن وافاه الأجل في منطقة جبال النوبة.

ثم تلاهما الشيخ غانم أبو شمال الجامعي وترجم له الشيخ ود ضيف الله قال بعد تعليمه القرآن شرح السنوسية شرحاً مفيداً وقال في شرحه لها قرأنا التوحيد

(١) القفلة بلدة والقفل ضرب من الشجر المعروف في السودان وكان كثيراً في تلك الجهات.

(٢) راجع ود ضيف الله (حرف الميم).

عند الفقيه علي بن بري وأدركنا وفاته. وبعده بدأنا القراءة عند الفقيه أرباب^(١) وبعدها بقيت مدرسة عظيمة يذكر أيضاً في هذا المقام الشيخ بحر بن أم كلثوم الجامعي من أولاد مرج على عهد سلطنة الفونج وكانت نفحاته في قرية أم دايوك.

آل البرد

من الأسر التي ساهمت في نشر المعرفة وأشاعتها آل البرد وهم أجداد الأستاذ الشيخ المؤرخ محمد عبد الرحيم.

ذكرهم عندما تحدث عن والدته فاطمة قال أمي فاطمة بنت سليمان بن آدم بن بحر بن هارون بن بشير بن موسى البرد وموسى هو أحد أولاد البرد السبعة المشهورين بالعلم والصلاح.

ويضعهم الرواة من الأبيكار الذين نشروا القرآن في ربوع كردفان ويرجع تاريخهم إلى حوالي ١٠٥٠هـ.

الدواليب

بيت الدواليب بمنطقة البديرية «دنقلا» بيت معروف وهم أسرة مجاهدة يعرفها جميع أهل بالسودان قديماً وحديثاً وقد ترجم المشايخ لجدهم الأكبر ود دوليب قال والده محمد الضرير ابن إدريس بن دوليب الركابي أمه اسمها زينب ولد «بالدبة» ونشأ بها وكان خيراً فاضلاً جمع بين العلم والعمل واشتغل بالتدريس وكانت له «مكتبة»^(٢) عظيمة تناقلت الركبان أخبارها وكان ورعاً تقياً لا تأخذه في الله لومة لائم. غير مكترث بالملوك. وذات مرة أرسل له الملك «أونس» ولد ناصر» يطلب أحد تلاميذه في جنحة ارتكبها فقال له الشيخ محمد ود دوليب أنا

(١) أرباب هو أحمد المشهور بأرباب العقائد سبق الإشارة إليه في الحديث عن المحس.

(٢) المكتبات كانت نادرة والإشارة إليها هنا دليل على عظمتها.

غير الله والرسول وكتبي هذه لا أعرف أحداً، ورفض الوساطة.

ومن نسل هذا الشيخ اشتهر الشيخ عبد الهادي ود دوليب وفي زمنه وقع شجار بين أبناء الشيخ عبد الهادي وأولاد ملك الشايقية وضرب أولاد الشيخ أبناء ملك الشايقية فجرد ملك الشايقية حملة على أولاد عبد الهادي.

فخرج الشيخ عبد الهادي وأولاده وتلاميذه فارين بدينهم خوفاً من بطش الملك. فتبعهم الملك وجنده إلى كردفان حيث لحقوهم في جبل الحرازة^(١) بشمال كردفان وكانت قوة الملك أكبر من أن يحاربها الشيخ عبد الهادي وتلاميذه «القلة». وكما تعبر لغة العصر فقد لجأ للحرب النفسية وأشاع أنه سيحارب أعداءه بالجن وانتشر هذا الخبر وبلغ كل الجهات. خاصة الجيش المغير وأدخل الزعم الخوف في قلوب رجال ملك الشايقية وأخذوا يترقبون، وأما الشيخ عبد الهادي ود دوليب فقد جمع النوبة وتلاميذه وشرح لهم خطته وقال الحرب خدعة وسنخدعهم بالحمير وجمع أهل الجبل كل الحمير الموجودة وفي المساء ربطوا على ظهر كل حمار حزم من «القش» [الكال] الجاف وساقوا الحمير نحو أعدائهم في أسفل الجبل ولما دنوا منهم أشعلوا النار في «القش» على ظهور الحمير فهاجت الحمير وصارت تعدوا من شدة الذعر نحو معسكر الأعداء في أسفل الجبل والنوبة.

والنوبة يزعمونها نحو المعسكر فاندفعت الحمير المزعجة تعدو وتصيح وتنفر بأصوات مزعجة، ودخلت إلى المعسكر من كل اتجاه فأصاب الجند الهلع وتذكروا توعد الشيخ عبد الهادي لهم بأنه سيحاربهم «بالجن» ففزعوا وانكسروا وتشتتوا وتركوا متاعهم وسلاحهم فغنمت النوبة وتلاميذ الشيخ، هذه الحادثة طار خبرها في جميع أرجاء المنطقة وتسامع الناس بود دوليب وأقبلوا نحوه.

كان ذلك في أواخر القرن التاسع الهجري ثم استقر الشيخ عبد الهادي في

(١) جبل الحرازة - شمال كردفان جهة حمرة الوز ويعرف بجبل الحرازة أم قد.

جبل الحرازة وأوقد نار القرآن وصار يعلم الناس إلى أن وافته المنية.

بداية خُرسي

وخلف الشيخ عبد الهادي ود دوليب ابنه الأكبر الشيخ يسن وبعد برهة نقل نار القرآن والمسيد لمنطقة «خُرسي» ولذا يرجع تأسيس خُرسي لشيخ يسن «١٢٠٠هـ» ثم شاع اسم خُرسي وعمت بركتها جميع أنحاء كردفان ودارفور.

وتلى الشيخ يسن ابنه الشيخ إدريس ثم الشيخ محمد ود دوليب ثم الشيخ جعفر ثم الشيخ الدرديري ثم الشيخ الدسوقي والخليفة الحالي الأستاذ الشيخ الدرديري.

وخرّج مسيد خُرسي آلافاً مؤلفة من الحفظة خلال القرون المنصرمة وانتشروا في أنحاء كثيرة من كردفان ودارفور وقد التحق كثير من الدواليب في خدمة الدولة الفوراوية قضاءً ومعلمين وكُتّبة.. وما زالت آثارهم باقية ومدارسهم تؤدي رسالتها العلمية في خُرسي وغيرها ولهم خريجون منتشرون في كثير من أنحاء البلاد.

ويواصل الشيخ مشاور حديثه عن مدارس القرآن الخلاوي فيذكر خلوة الشيخ ود حليب في «الببضة» شرق الأبيض والشيخ كباشي الكساني في شمال الأبيض في «البُقل» والشيخ سلامة في البنية والشيخ موسى أبو بن الشيخ بدوي في عهد السلطنة الزرقاء.

والشيخ أحمد بيوضة تلميذ الشيخ غريب من المليحة والشيخ البرير جد الشيخ القرشي ود الزين والقرشي من مشايخ الإمام المهدي..

وفي الأبيض الشيخ إسماعيل بن عبد الله بن صالح البديري الدهمشي الذي نزح من دنقلا واستقر في الأبيض وهو المشهور «بالشيخ إسماعيل الولي»..

وهناك خلوة الشيخ يونس بن إسماعيل «المجنوني» وهي خلوة مشهورة منذ التركية والمهدية أما عن خلاوي شرق كردفان فنجد خلوة الشيخ بابكر أبو عزة

«الحوش» وذلك بعد أن انتقل من «التيارة» ومن أشهر الخلوي خلوة الشيخ محمد أحمد «أبو عزة» بحلة العشرة وهو جامعي من الشويحات وهي أكبر خلوة في شرق كردفان اليوم.

وخلوة الشيخ عبد الرحيم البرعي في الزرية وهو ابن الشيخ محمد وقيع الله ويعتبر مسيده من أهم المسايد وأكبرها ويتفق عليه الشيخ من حر ماله وقد بلغ به شأواً عظيماً حيث أدخل النور الكهربائي وأسباب الصناعة وطلبة هذا المسيد بجانب حفظ القرآن يتعلمون مبادئ التريية والحرف وقد زرتها أوائل السبعينات ووجدته ينبض بالحركة والذكر والتلاوة.

ويواصل الشيخ مشاور الحديث الذي بدأه الشيخ موسى ويقول الشيخ مشاور أن الخلوي هنا في كردفان ذات تاريخ قديم مثلاً خلوة الشيخ محمد ود كدام ١٣٢١هـ وخلوة ود دوليب تاريخها ١١٢٠هـ أما خلوة الشيخ إسماعيل ١٢٣١هـ وخلوة المزروب الشيخ حامد ود عبد الحفيظ فقديم جداً..

وأصحابها مسلمية يكتنون «بالمحانيين» وخلوة الشيخ حامد بن عبد الحفيظ بها عدد من المشايخ وكان ذلك في عهد الفونج وأخيراً انتهت المشيخة إلى الشيخ حامد بن عبد الحفيظ وتوفي عن عمر جاوز الخامسة والتسعين عاماً.

وتوجد أيضاً خلوة أبو عزة التي سبق أن ذكرناها وبها ٤٠٠ طالب وبدأت في الستينات واحتفلت العام الماضي بعشرة من الحفظة أما الآن ففيها ثلاثة عشر حافظاً.

وهناك أيضاً خلوة «الحاج أمين» غرب بارا وهي من عهد الأتراك وكان الحاكم التركي أعفى أهلها من الضرائب وقدم لهم الإعانات، ويدهم وثيقة الإعفاء حتى اليوم.

وهناك مناطق توجد بها خلوي قديمة مثلاً قرية «الفور» جنوب أبوكرشولة أما في الجبال الشرقية ففي كل قرية توجد خلوة قد يكون عمرها بين سبعين إلى ثمانين سنة..

وهناك خلوة قديمة في «اميدى» منذ عهد المهديّة وخلوي في البردي

أسسها - الفلانة وهي خلاوى قبل عهد الانجليز وكذلك خلوة في الدميك. «تاريخ الشيخ مختار» وخلوة في لقلوة تاريخها غير قديم لكنها عامرة وبنيت بالحجر أما السنجكاية ففيها خلوة الشيخ السنوسي وهي قديمة جداً.

وبالدلتج «خلوة قعر الحجر» يرجع تاريخها إلى أواخر المهدية أما منطقة الفولة فيها ستة خلاوي وتاريخها من الخمسينيات أما النهود فيها خلاوى مثل خلوة المسجد للشيخ «كرسي» والشيخ حديد وهم من مؤسسي القرآن هنا إلا أن نشاطها قل بسبب المدارس ولكنها انتعشت أخيراً.

• وخلوة الشيخ عبد الله محمد الأمين الشنقيطي وخلوته من الخلاوي التي بها إنتاج عظيم.

بدوي ود أبي صفية ١٨٠٠ - ١٢٥٦هـ

هو أحمد البدوي بن عبد الرحمن بن عبد الصمد بن بدوي الرقيق «الحجازي» وأمه صفية بنت موسى البديري الدهمشي فهو حسيني أباً بديري أما اشتهر بكنية جده أبو صفية وأيضاً بدوي ود أبي صفية يكنى «بأبي شنب» ولد بالأبيض ١٨٠٠هـ قرأ القرآن على جده موسى أبو صفية.. ثم هاجر إلى معهد «كترانج» حيث درس العلم نحو ١٦ سنة على الشيخ أحمد عيسى الأنصاري ثم رجع إلى كردفان بعلم وفير وتحقيق وورع وزهد.

مجاهداته:

اجتهد في تدريس القرآن الكريم وفتح خلوة لتدريس القرآن وأخرى للعلم فكان يدرس القرآن ستة شهور ثم يذهب لجنوب كردفان داعياً ومبشراً وكان يعلمهم الضروري من أمور الدين وكان ينتقل بين الجبال داعياً ومنافحاً عن الدين وبعد أن توطدت صلاته بالجبال أرسل أخاه محمد شرف الدين إلى جبال تقلى لينوب عنه في التبشير ونشر القرآن وركز على جبل «طاشين» حيث الملوك وبعد

برهة زوجه الملك ابنته أم كلثوم وولدت له البنين والبنات ووقف معه أهل تقلى لما لقوه منه من خير ولقبوه «بالشرح الدين» وفتح عدداً كبيراً من الخلاوي بمنطقة «المنزفه» غرب الأبيض، وعكف على الخلاوي حتى علا ذكرها وارتفع اسمها وكان يومها عدد ضخم من الطلاب وكان هذا العدد الكبير يقوم بزراعة الأرض المطرية ذات العائد الكبير فكانوا يخزنون ما يكفي «الخلوات» ويرسلون الفائض لطلبة القرآن والعلم بالأبيض.

النساء:

وأنشأ عدة خلاوي خاصة بالنساء لدراسة القرآن والفقه ونجحت نساء كثيرات وأن بناته السبع يعرفن القرآن فبرعن في التدريس خاصة بنته المجاهدة «زينب» التي قتلت غيلة ومصحفها بيدها بإيعاز من «الزبالعة»^(١) والسبب في قتلها أنه لما دخل «الزبالعة» كردفان تصدى لهم وداب صفية واستأصلهم من كردفان.. ولما جاءت الحكومة التركية أعطته جاهاً وكسوة وبنت له مسجداً بالطوب الأحمر فلم يقبل ودفع الكسوة لبعض الفقراء ولم يدخل المسجد بل كان يصلي في «الراكوبة» ولما سألوه قال شكى كبير في هذا البناء.

أثره في أم درمان:

لما فتح المهدي الأبيض وجد أولاده بالأبيض منهم أحمد الكنانى وكان رجلاً كبيراً فقال للمهدي هؤلاء أولادي يؤيدونك أما أنا فقد مسني الكبر وأوشكت على الهلاك. وجاءوا معه إلى أم درمان وسكنوا «العباسية» جنوب بالقرب من خور أبو عنجة وتزوج المهدي - أم هاني بنت الكنانى.

(١) الزبالعة مجموعة مفارقة للجماعة وينعتهم المجتمع القديم باسم العباسية بمعنى الذين أحدثوا أمراً فوق المذاهب الأربعة المعروفة عند عامة المسلمين.

الباب الثامن

المرأة وتدريس القرآن

ساهمت المرأة السودانية في مجال التعليم من غير شك، ولكن المؤرخين ورواة التراجم المحليين بل المجتمع السوداني كله ظل يغمط المرأة حقها، لا ازدراء لها ولا تبخيساً لقدرها، وفي رأيي أن المجتمع يفعل ذلك حرصاً عليها وصوناً لذاتها، ولذلك يتخطاها الكاتب ورواة الأخبار بحسن نية. وحسبي أن أشير لمكانة المرأة في المجتمع التقليدي، فهي بلا ريب صاحبة كلمة نافذة على الرجال وعلى المجتمع كله، فكلمة منها تورد الناس الهلاك وأخرى ترفع للقيمة الاجتماعية، ولنا مثل في الشاعرات المغنيات اللائي يسميهن المجتمع «الحكيمات» مفردة حكامة - وهي التي تحكم على سلوك الرجال وعلى أخلاق الجماعة بكلمة من طرف لسانها.

ومهما يفعل الرجال في المجتمع القروي والبدوي فلا قيمة لعملهم إن لم ترض عنه المرأة وتقومه وتحيزه وأكبر يمين عرقية وأغلظها أن يقسم الرجل باسم أمه أو نسيته. وللنسيية حظ من الاحترام لم ينله أحد قط. فهي المطاعة إن أشارت وإن أمرت. وأكبر إساءة للرجل «ابن البلد» أن تذكر نسيته أمامه أو خلف ظهره وهذا في العرف أمر خطير. ولا يغسل هذا الطعن في عرض النسيية إلا الدم، ومن شدة إعزازهم للمرأة «أحياناً» يرجحون العرف على الشرع، والعادة على العبادة في سبيل احترام المرأة. وبعض القبائل في بلادنا إن نشب بينهم شجار «دام» لا يستطيع فضه الرجال مهما أوتوا من الحنكة والوجاهة. ولكن حسبهم أن تقف

بينهم امرأة واحدة من ذوات السلوك الحميد وتحسر ثوبها عن رأسها وإن وقفت مثل هذه المرأة بينهم يتقهقر الفريقان في الحال. ويرجع كل فريق إلى حيه احتراماً لقدرها.

المرأة والتعليم

في كل فج انتشرت فيه خلاوي القرآن ومسايدة درست البنت بحجب الولد ولكنهم حينما يكتبون التاريخ يتجاوزون المرأة، لا تهميشاً لدورها ولكن ضناً بها وبذكر اسمها كما ذكرت أنفأ. وكثير من القبائل لا ينادون المرأة باسمها صوناً «لعرضها» ولكنهم ينادونها بالكنية أم علي، أم أحمد، أو يكونونها باسم أبيها بنت حامد، بنت الحسن إلخ ومجرد ذكر اسم الأم سبة عند قبائل شرق السودان كأن ينادي أحدهم باسم اسمه، والرجل منهم قد يتجاوز ويحلم إن سب أبوه أو سبت عشيرته ولكنه لا يغفر البتة إن لحق اسم أمه إهانة والمرأة معلوم أنها كانت في الجاهلية العربية تعاني من الظلم الاجتماعي ولما أشرق نور الإسلام ارتفع عنها الإصر وسما بها الإسلام لمشارف عالية وقارن بينها وبين الرجل في مواقف عديدة والرسول الكريم ﷺ أعلى من قدرها أمّاً وزوجاً وأختاً وبتناً وهذه المعاني الرفيعة استوعب روحها وجدان المسلم العادي عندنا، فتكريم المرأة وإعزازها فوق العرف له أساس ديني متين ومن معاني الدين وسلطان العرف جعل مجتمعنا مكانة مرموقة للمرأة، فإن أخفى المؤرخ أو الكاتب بعض أخبار النساء فتقديري أنه من باب الإعزاز لهن.

واللائي وصلتنا أخبارهن لا بد أن يكن من النابغات المجودات كل في ميدانها وحينما تحدثت عن تعليم القرآن في شرق السودان ذكرت نساء قبيلة الأشراف البجاوية وقلت أنهن اضطلعن بتعليم الصبيان والصبايا منذ أن عرف مجتمع شرق السودان خلوة القرآن، وظللن يؤدين رسالتهم حتى يومنا هذا وذكرت أسماء بعضهن كالشيخة فاطمة طويل والشيخة بنخيتة من سواكن.

النساء الملمات

ذكرت أن الشيوخات اللاتي وصلت أخبارهن إلى جيلنا الحاضر وما قبله لا بد أن يكن من المبرزات اللاتي شققن طريقهن بين الرجال، وأسوق هنا أمثلة ممن وردت أسماؤهن في بعض المخطوطات ثم من يليهن من اللاتي تسقطت أخبارهن مشافهة، وبعض من المعاصرات.

فاطمة بنت جابر

هي الشيخة الحافظة المعلمة فاطمة بنت جابر بن عون بن سليم، من نسل الشيخ المعلم الرائد غلام الله بن عائد. ولدت الشيخة فاطمة مطلع القرن الحادي عشر الهجري في دار الشايقية في جزيرة «ترنج»^(١) وحفظت القرآن فيها وقد جعلها ود ضيف الله^(٢) نظيرة لإخوانها في العلم وهم من أبرز علماء ذلك العصر وتزوجها الشيخ سرحان وأنجب منها العالم الفقيه محمد بن سرحان المشهور باسم «صغIRON» وكانت لها مدرسة قرآن خلوة تشرف على الدراسة فيها وتنفق على طلابها ثم حجت مع شقيقها الفقيه المعلم إسماعيل بن جابر وكان في صحبتها ابنها محمد صغIRON، ولم يتوسع ود ضيف الله أو غيره في الترجمة لشخصيتها الفذة، واستأثر إخوانها أولاد جابر - كما جرى العرف عندنا - بالترجمة دونها.

عائشة بنت القدال

جاء ذكرها عرضاً ولم تكن مقصودة بالترجمة إذ كان الشيخ ود ضيف الله يترجم للشيخ خوجلي بن عبد الرحمن المشهور بـ«خوجلي أبو الجاز». قال ود ضيف الله ولد الشيخ خوجلي بالجزيرة توتي^(٣) وبدأ الكتاب عند

(١) الجزيرة ترنج «أشش» تقع جنوب نوري حوالي ١٥ كيلو على خطي ١٨،٤٠ شمالاً و٣١،٥٦ شرقاً.

(٢) طبقات ود ضيف الله، تحقيق د. يوسف فضل حسن، ص ٤٦.

(٣) أولاد جابر: إبراهيم، عبد الرحمن، عبد الرحيم، إسماعيل.

«عائشة الفقيرة» بنت ولد قidal ويقول الرواة أن خلاوي الفقيرة «الفقيهة» عائشة^(١) كانت جنوبي الخرطوم في المنطقة المعروفة بجبل «أولى» حيث خزان النيل الأبيض الآن، ولم يذكروا شيئاً ذا بال عن هذه الشيخة المعلمة.

بتول الغبشة

ورد اسمها عند ود ضيف الله أيضاً حينما ترجم لابنها هجو، قال هجو بن بتول الغبشة وأبوه اسمه حماد وحماد من مشايخ اليعقوباب بمنطقة سنار وهو مشهور على زمانه وكانت له مكانة رفيعة.

ولكن اسم الشيخة بتول الغبشة كان أكبر من اسم زوجها الشيخ حماد ولذلك نسبوا ابنها إليها فقالوا هَجُو بن بتول. زرت مكانها في منطقة الحاج عبد الله شمال سنار وحكى الرواة أنها حافظة مجودة ومعلمة، وفي سنينها الأخيرة مالت للتقشف والانقطاع عن الناس وكانت تخط المصاحف وتقتات من ريعها، ومن شدة زهداها وتقشفها سموها بتول الغبشة والغبشة في القاموس السوداني المحلي: ألا يمس جسد المرء شيء من الدهن أو الزيت أو ما يماثله من أسباب الترف والزينة وكثرة استعمال الماء تجعل الجسم جافاً أو أغشش. إذن فالغبشة ضرب من الزهد.

أمونة بنت عبود

في بحثي المتواصل عن شيخات القرآن سمعت عرضاً اسم الشيخة أمونة بنت عبود ولم أعرها بادی الأمر اهتماماً لجهلي بها. وذات مرة كنت أقرأ كتاب «التربية»^(٢) في السودان» وقع بصري على حديث عن الشيخة أمونة نقلاً عن كتاب «نزهة الألباب» ولم أعثر على الكتاب المذكور ولكنني وجدت عوضاً عنه كتابي

(١) عائشة شيخة معروفة سبق الإشارة إليها.

(٢) التربية في السودان - د. عبد العزيز أمين عبد المحيد - المطبعة الأميرية في القاهرة ١٩٤٩ م. نزهة الألباب - تأليف رفاعة رافع.

«الثقافة العربية في السودان» «ورفاعة رافع الطهطاوي في السودان» وأثبت ههنا ما كتبه رفاعه الطهطاوي قال: وقد رأيت في طريقي ببلاد الشايقية بمديرية دنقلة حرم «سنجق»^(١) يدعى الملك الأزيرق تسمى السيدة أمونة، تقرأ القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما للغلمان والثاني للبنات، كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون، وتنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن وحلجه وغزله وتشغيله، ولا ترضى أن يشوبه شيء من مال زوجها، وبحانب المكتبين خلوات لمن يختلي من العباد والزهاد الحاضرين من أقصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف. ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام. انتهى. وبعد اطلاعي على هذا الحديث قوي عزمي على مواصلة البحث عن سيرة هذه الشيخة التي أهملها الجيل المتقدم. وبدأت أسأل أهل الجهة «الشايقية» الذين أشار إليهم الشيخ رفاعه الطهطاوي فلم يعرفوا كبير شيء عن الشيخة أمونة وواصلت السعي المتواصل عن أخبار تلك السيدة الشيخة ظاناً ما ذكره الشيخ رفاعه هو الحقيقة. وتبين لي بعد حين أن رفاعه ربما وقع في التباس وخطأ بذكره أنه شاهد ببلاد الشايقية بمديرية دنقلة والشاهد أن أمونة وخللاويها ونشاطها التعليمي بمركز شندي مديرية بربر فالتهمت للشيخ رفاعه عذراً للسبب التالي، فمنطقة وادي «بُشارة» وأغلب «خط ود حامد»^(٢) يسكنه الشايقية غرب النيل، وجنوب المتمة والمنطقة الشرقية المقابلة «الباسير» أيضاً يسكنها الشايقية. ولعل الالتباس نشأ من هنا إذ لم يميز رفاعه بين شايقية مديرية دنقلة وشايقية شندي والله أعلم.

ودلني في البداية على أسرة الشيخة أمونة رجل فاضل^(٣) من أبناء المنطقة قال

(١) سنجك رتبة عسكرية تركية وشاغلها قائد خمسمائة عسكري.

(٢) خط ود حامد - منطقة إدارية تابعة لنظارة الحملين.

(٣) السيد أحمد الشيخ جاد الله من أهالي المعرفة في المنطقة.

أنهم يسكنون وادي بشارة جنوب غرب شندي وشمال شلال السبلوقة^(١) فحزمت حقيتي من غير توان وخرجت من أمدرمان حتى وادي بشارة وكان ذلك في السابع من رمضان سنة ١٣٩٥ هـ الموافق ١٢/٩/١٩٧٥ م عبر طريق مليء بالرمال والأوحال، والعربة المتهالكة تنن وتقف وتمشي بسبب وبلا سبب إلى أن وصلنا عصراً قرية وادي بشارة ووقفت العربة في صدر القرية عند دار الشيخ الحسن، شيخ قرية وادي بشارة وهو من أسرة الشيخة أمونة ونزلت في دار الشيخ من غير إذنه كعادة الزائر في بلادنا وبعد الترحيب بي أرسلوا من يخبره أن ضيفاً حل بالدار فعاد من الجزيرة^(٢) عاجلاً واستقبلني هاشاً باشاً وبالغ في الترحيب وحسن الضيافة وكنت عاجلاً قلقاً فسقته بعد برهة للحديث عن أمونة فتهللت أسارير الشيخ وأشرق وجهه.

كما لقيت في قرية مديسيصة شمال وادي بشارة الحاج الحسن علي موسى من وجهاء البلد ومن رواة تاريخ المنطقة كما زرت العمدة فضل الله الشريف في قرية «ود حامد» وهو من أحفاد الشيخة أمونة ثم عدت لألتقي بالشيخ عبد الرحمن يوسف محمد يوسف الأزيرق ومن حديثي ومحاورتي لهما خرجت بمعلومات أوجزها في الملخص التالي، وفي تقديري أن الرواة رغم صلتهم بالشيخة أمونة لم يبالغوا في إخبارهم عنها، فهم على جانب من العقل والفضل ولا سيما العمدة فضل الله الشريف.

والدها الشيخ عبود وأخواتها مهيرة بنت عبود الشاعرة المشهورة التي شاركت في واقعة كورتي عام ١٨٢٠ وبقية شقيقاتها هن غوالي - مرار - فاطمة الزرقاء وجب وماكنة ومن نسلها الملك «أصول» والد العطا ود «أصول» القائد المعروف والفريق إبراهيم عبود رحمه الله وغيرهم.

(١) السبلوقة شلال ومضيق على النيل الكبير.

(٢) الجزيرة تعني هنا - الأرض الزراعية في النيل أو عليه.

واختلف روايتي حول مكان ميلادتها هل كان في «أسلى» مركز مروى أم في كبوشية ولكن اتفقوا على أن نشاطها وخلوها كانت في وادي بشارة وبعد حفظها القرآن تزوجت جدنا محمد الأزيق الذي صار سنجكاً في التركية.

وأمانة بجانب بيتها فقد اهتمت بالتعليم وبدأت بأبناء الأسرة ثم أبناء القرى المجاورة وما عثم أن تسمع بها أهل المنطقة وصاروا يحضرون أبناءهم وبناتهم. فلما تكاثر العدد فصلت عن البنين والبنات وجعلت للبنات فصولاً دراسية وسكناً خاصاً كما جعلت مثل ذلك للبنين واستعانت بمشايع معلمين من خارج المنطقة وطار اسمها بعدئذ وحمله الغادي والرائح وعرفها الناس شرقاً وغرباً لا سيما حجيج غرب أفريقيا الذين كانوا يقدمون عبر دارفور وكردفان ثم ينزلون النيل ناحية أمدرمان ومنها ينحدرون شمالاً حتى بربر ثم ميناء سواكن.

والحجيج الأفريقي السوداني كانوا يقطعون المراحل بالإبل وعلى أرجلهم ولهم في كل مرحلة منزلة معلومة يجدون فيها الطعام والأمن. ومن محطات الحجيج القديمة الجموعية أمدرمان - السروراب المتممة إلخ ولما ظهرت خلاوي أمانة صارت دارها منزلاً للحجيج الأفريقي السوداني وكل الذين يسافرون بالضفة الغربية للنيل، أما اعتناؤها بالدارسين فقد كان عظيماً إذ كانت تنفق عليهم من زرعها وكانت تملك أرضاً واسعة على النيل ولديها نفر ممن يحسنون العمل الزراعي وقد خصصت «ساقيتين»^(١) لزراعة القطن وبعد حصاده تغزله نساء الحي وطالبات القرآن. واستقدمت نساجين من جهات المتممة والجبلاب، وبعد النساجة توزعه كساء للطلبة والطالبات وما زاد تتصدق به على الحجيج وغيرهم. كما كانت تقوم بنفقة واسعة وذكروا أنها كانت تجمع جلود ذبائح النفقة وتصنع منها النعال المعروفة «الشقيانة»^(٢) وتوزعها أيضاً على الطلبة والحجاج الذين يعبرون من

(١) الساقية تكون على النيل وهي وحدة زراعية متفق عليها مقدارها اثني عشر فدانا.

(٢) الشقيانة نعل معروف يلبسه البدو والرعاة.

تلك الجهة المشار إليها. وكان اهتمامها بالحجيج كبيراً وهم الذين نشرُوا اسمها في أماكن عديدة من بلادنا وغيرها.

وبعد نجاحها هذا تنازل لها كثير من الأهالي عن جزء من أراضيهم، فصارت أراضيها الزراعية واسعة واستغلتها رحمها الله، في الإنفاق على التعليم.

وبعد زمان صار كل شيء باسمها فالقرية سميت «حِلَّة» أمونة والجزيرة جزيرة أمونة. السواقي سواقي أمونة والنخيل نخيل أمونة وما زالت بقية النخيل وفسائله شاهداً على فضلها. وحتى المقبرة المعروفة بمقبرة «رية» والتي دفنت فيها الشيخة أمونة تعرف عند بعضهم باسم «ترب أمونة».

وزرت سواقي أمونة ونخيلها وقبرها، وعلمت من الشيخ الحسن أن أراضي أمونة لم تورث. ولكنها سجلت على الشيوع في زمن المستر «بل»^(١) وقفاً على الضعفاء والذرية شرط ألا تباع ولا ترهن وسجلت الأرض على النمرة ٥ ومساحتها ٥٠ فدان يحدها من الجنوب أولاد إبراهيم البشير، ومن الشمال بابكر عثمان الشيخ، ومن الغرب «الفاسد»^(٢) ومن الشرق الجزيرة «مركي».

هذا . وكانت الشيخة تعيش عيشاً متقشفاً، كما عرف عنها الورع وكانت لا تقابل الرجال إلا من وراء ستر، وظلت حتى أخريات أيامها تحاهد في خدمة كتاب الله ونشر المعرفة ورغم أنني استقيت هذه المعلومات من أقرب الناس إليها فإنهم لم يؤرخوا لوفاتها ولا ميلادها^(٣) شأنهم في ذلك شأن أهل السودان في عدم توثيق أخبار النساء حتى لو كن من ذوات المكانة كالشيخة البرة أمونة بنت عبود. كما أفادني الرواة الذي عولت عليهم بأن زوجها محمد آغا الأزيرق بعد

(١) بل - إداري أنجليزي.

(٢) الفاسد - ظل الشتاء.

(٣) لست أدري ولماذا - أكونها امرأة.

تقاعدته من الوظيفة التركية طلب منها أن يشاركها في النفقة، فلم تقبل خشية عدم نقاء ماله الذي جمعه من رتبته العسكرية «سنجك» وهذا يؤكد ورعها وإخلاصها وصدقها.. رحمها الله.

مريم بنت حاج عطوة

الشيخة الحافظة المعلمة الواعظة مريم بنت الحاج عطوة أصلها من المغاربة الذين استوطنوا بربر جهة «المكايلا» نبتت الشيخة مريم تحت رعاية والدها الفقيه عطوة المغربي وتعلمت في بيت والدها القرآن حتى صارت من أفقه أهل زمانها وشاع ذكرها في أرجاء الأقاليم وخطبها بعض من الرجال وأخيراً ظفر بها العالم المفوه الشيخ محمد بن أحمد بن جلال الدين المجذوب وأنجب منها أولاداً أشهرهم العلامة الشيخ مجذوب جلال الدين وهو معروف جداً لأبناء الجيل المتقدمين إذ كان يعمل مدرساً في كلية غردون التذكارية وفوق هذا فالشيخة جدة شاعرنا الفذ محمد المهدي المجذوب.. وكان نشاطها العلمي في الدامر إذ كانت تدرس القرآن والفقه لكافة الناس وتخصص وقتها لوعظ النساء ولما صارت امرأة نصفاً بدأت تنسخ المصاحف وعند ذريتها مصحف من خطها كذلك كتبت راتب الإمام المهدي وغير ذلك من الكتب والأدعية والصلوات.. وقد تركت أثراً محموداً من علم ومخطوطات وتلاميذ.

فاطمة بنت أسد

من منطقة الجعليين قرية «المطمر» الواقعة بين أم علي والمحمية، اشتهرت بالحفظ الجيد والفقه الواسع وبين الفينة والأخرى كان يتقدم لها الخطاب وكانت ترفضهم فقد فضلت عليهم الدراسة والعلم ولما تقدم بها العمر وصارت أقرب إلى العنس نصحتها تلاميذها وأهلها بالزواج.

وتسامع بها رجلان عظيمان من أهل القرآن والفقهاء هما الشيخ القلوباوي جد القلوباب بمنطقة بربر الشمالية والشيخ عبد الوهاب جد الوهايب بربر.

وسافرا سوياً لخطبتها ونزلا في الدامر عند الشيخ الفكي حمد ود المجذوب ولما سألهما عن حالهما أخبراه بقصدهما ونيتهما فأثنى عليهما ودعى لهما بالتوفيق وكان الفكي محمد المجذوب يعرف أحوال الشبيخة فاطمة بنت أسد فأوصاهما وهم يودعانه إن لم يوفقا في قبول أحدهم زوجاً لها أن يذكره خطيباً ثالثاً.

ولما وصلا المطمر قوبلا بالترحاب والإكرام ثم عرض كل واحد نفسه طالباً يد الشبيخة فاطمة فلم تستجب لهما ولما يقسا منها ذكراً لها طلب حمد ود المجذوب وكان حمد وقتها في سن الشيوخوخة المتقدمة فرحبت وقبلته زوجاً ورفضت من هم في سن الشباب وقمة الرجاءة ورضيت بهذا الشيخ الكبير وأنجبت منه الفكي منصور جد المناصير وهم بيت من المجاذيب وأشهر أفراد هذا البيت خليفة المجاذيب وحامل راية المهدي الذي قتله الانجليزي كتشنر بعد فتح بربر والدامر وسبقت الإشارة إليه في حديثنا عن الدامر.

والسيدة فاطمة بنت أسد كان والدها على جانب كبير من الورع والفقهاء وأطلق عليها اسم فاطمة بنت أسد تيمناً بالسيدة فاطمة بنت أسد أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وما زالت بلدة المطمر تعرف بمطمر بنت أسد^(١).

أم كلثوم بنت القرشي^(٢)

والدها الشيخ العالم القرشي ود الزين وبلغ الشيخ القرشي درجة عالية من السمو الروحي جعلته مقصداً لكثير من طلاب المعرفة. ومن ضمن من قصده

(١) رواية أبرنا - الشيخ الفكي البشير - وهو أعلم الناس بأخبار الدامر وعلى رأس ذوي الفضل فيها.

(٢) رواية القاضي الشيخ محمد الأمين.

لاستكمال المعرفة الحقّة الإمام محمد أحمد المهدي حتى أصبح المهدي من أشهر تلاميذه وفي بيت القرشي ود الزين فتان حافظتان ماهرتان هما أم كلثوم والنعمة.

الشيخة أم كلثوم

التزمت أم كلثوم منذ فجر شبابها التدريس وبدأت بتعليم البنات والبنين إلا أنها بعد انتشار خلاوي البنين التي قام عليها تدريساً ورعاية جماعة من الحلاويين تعرف بـ المديداب اشتغلت أم كلثوم بتدريس البنات وصارت لها سمعة كبيرة داخل وخارج المنطقة وتوسعت في بناء الخلاوي الدراسية والسكنية بعد أن توافدت عليها البنات من كل جهات الجزيرة.

وثبت أنها كانت تعلم وتحفظ المهارات من طالباتها ولا تدعهن يخرجن إلا في حالات الزواج حرصاً منها عليهن وتزوجت كثيرات من طالباتها في دارها وكانت تزفهن إلى منزل الزوجية من خلوتها. ويصحب العروس الطالبات وهن يهزجن بالدعاء والابتهالات وبعض الأغاني الخفيفة المعروفة في وسط السودان.

قراءة البنين

وبجانب تدريس البنات كانت تهتم بتدريس أبناء الأسرة الأقربين. وحفظ عليها وتحت إشرافها ورقابتها ابن ابنها القاضي محمد الأمين القرشي وهو راوي خبر هذه السيدة ومما ذكره إعجاب الإمام المهدي بهذه الشيخة وكثير العطف عليها ولم يكتب الله له أن يتزوجها ولكنه استعاض عنها بشقيقتها الحافظة النعمة بنت القرشي وأنجب منها الإمام المهدي ابنه المعروف بالسيد علي المهدي.

الشيخة عائشة

الشيخ أبو دليق خلّف من الأبناء حسين وعائشة ولما قربت وفاته قيل له من

الخليفة بعدك قال عائشة بنتي وتزوجها الشيخ بدوي ابن أخيه وولد منها أبناءه. النقر ومضوى وعبد الله وتاج الدين وياسين. ونار الشيخ بدوي متوقفة على زوجته عائشة بنت الشيخ علي أبو دليق كان ذلك في أواسط عهد السلطنة الزرقاء.

الشيخة خديجة

نزلت الشيخة خديجة مع أسرتها لأمدردمان أيام المهدي ولما استقرت الأسرة في أمدردمان فتحت الشيخة فاطمة أم النصر بنت أبي رجالة خلوة واستمرت قيمة عليها بمساعدة ابنتها خديجة ولما توفيت خلفتها ابنتها خديجة فصارت تدرس بهمة ونشاط ثم صارت تدرس بنات المهدي وبنات بنات المهدي ومن معهن من بنات الأنصار وغيرهن وصارت تبذل جهداً كبيراً في التعليم رغم تقدم السن وكانت مكرمة معززة من قبل الإمام عبد الرحمن المهدي وحات أربعة مرات بمساعدة الإمام عبد الرحمن المهدي.. وتوفيت رحمها الله في ١٩٤٦م ودفنت في أمدردمان.

الشيخة فرح

الشيخة البرة أم الفقراء الحافظة القائنة المتفكحة فرح بنت بيتاي وهي شقيقة سيدنا علي بيتاي والقائمة فيما يتصل بأمر النساء الدارسات والطالبات وقد وهبها الله الصبر على المكاره وكانت وما زالت متفانية في خدمة مسيد سيدنا علي بيتاي فهي المعلمة الأكبر بالنسبة لمعلمات القرآن والمستشارة للشيخ في عموم شؤون المسيد وما برحت رغم تقدم العمر تعمل بهمة لا يعوقها الكسل ولا يمسهما الفتر وفقها الله وأعانها ونفع بها وبارك في أيامها.

الشريفة مريم:

هي السيدة مريم المرغنية بنت السيد هاشم الميرغني زوجها السيد تاج السر

الميرغني وهي من الحافظات اللائي واطبن على التلاوة والذكر وكان اهتمامها كثيراً بمدارس القرآن ولها خلاوي في أماكن متفرقة بالإقليم الشرقي خاصة في مقرها «سنگات» حيث مسيدها الأكبر وله سمعة كبيرة جعلت الناس يقصدونه من جميع الجهات من الشمالية وشرق السودان وأرتيريا والحبشة والصومال إلخ وقد تخرج فيه حفظة كثيرون كما عرفت السيدة مريم بالإنفاق على الطلبة وأبناء السبيل وجميع المحتاجين والقيم الآن على مسيدها ودائرتها اليوم السيد محمد سر الختم الميرغني رحمهما الله وأجزل لهما الثواب.

الباب التاسع

رجع الحديث^(١)

إلى ذكر الخلوة ونار القرآن المتوهجة من حولها الألواح المنحرفات لكي يعمهن الضياء.

هذا صوت العليابي رحمه الله يردد.. والنار مشوى لهم.. وكأين من قرية.. وهذا الطاهر «المشكوت» رحمه الله قد أصلح النار ويردد ولوحه بيده.. وحمى الحيران شيئاً فشيئاً.. وعلت الأصوات في صخب لكن في جد.. قراءة الظهر القرآنية فيها حيوية انفعال الصغار وصياحهم مع الحر وبعض ازدحام الأنفاس.. لكن قراءة الليل، ﴿إن ناشئة الليل هي أشد وطناً، وأقوم قبلاً﴾ صدق الله العظيم. هذه ترنيمة صوت نقي: أجعلتم سقاية الحاج وعمارة.. وتلاشى الصوت في الجمع القارىء وهذه هدرة مقتدرة ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ وجعل الصوت يبعد عند ﴿وأن عذابى هو العذاب الأليم﴾.. ﴿وقتل داود جالوت﴾.. ﴿قال أنظرنى إلى يوم يبعثون﴾.. ﴿قال ألم أقل لك﴾.. ﴿قل من كان فى الضلالة﴾.. ﴿واذكر أنحأ عاد﴾.. جمهرة أصوات منسجمة من حذر ذي حيوية واجتهاد واستشعار أدب من جو الخشوع عند قراءة القرآن. واستقام جرس التلاوة المجتمعة بهدير منهمر، يدوي كدوي النحل.. هكذا وصفوا القرآن في تلاوة العصور الأوائل كانوا إنما يذكرون بالكراهة أن يهذ القرآن هذاً كالشعر. والهد كان طريقة من الإنشاد السريع المندفع في الأراجيز والأشعار الذي ربما تخفى معه

(١) رجع الحديث العلامة البروفيسر عبد الله الطيب - حقية الذكريات صفحة ١١٠ وزارة التربية والتعليم.

الألفاظ والمعاني. لعل طريقة العرب «البقارة» عندنا حين يتشدون ويندفعون في أخريات الأبيات بأداء يحاكون به ركض الخيل مما يشبه الهذ. حذر القرآن وإسراعه وإدراجه أي المضي بقراءته ليس من الهذ ولكن من صميم الترتيل. دوي كدوي النحل. هذا هو القرآن كلام الله المحكم القديم، كتاب الله المنزل المحروس بحفظ الصدور والسطور وتجويد التعليم.

قراءة المدرسة لطيفة، لكنها كأنها تلحين بحت. هل ينقصها عنصر الخشوع حيوية تلاوة الخلوة وأصالتها لصغار المدارس خشوع عند القرآن ولكن يصحبه رنين صياح غناء غريب.. ينقصها عنصر الانسجام الذي ينشأ من حرية أداء أنواع الأصوات والمقدرات والمواهب المختلفة كلهن معاً وعلى انفراد.. وينقصها عنصر العتق ومنشأ تواتر سند التلقي شفاهاً عن الأشياخ جيلاً بعد جيل. وينقصها عنصر البساطة والترايبية.. قراءة المدرسة مع قصد الخشوع بالقلب المسلم المؤمن مما يهيمن عليها شيء من أسلوب النظام المدرسي حيث نرى التلاميذ متشابهين قاعدين على مقاعد المدرسة وأمامهم قماطهم المتشابهة.. ناظرين بانتباه واحد إلى أجزاء مطبوعة متشابهة وإلى المدرس والسيورة..

أصوات التلاميذ الصغار في المدرسة حلوة جزلة الروح لطيفة على كل حال. جزالة الروح مصدرها البراءة والاندفاع. مقرر منهج المدرسة الأولية جزء عم. جزء تبارك. جزء قد سمع. مطبوعة برواية حفص عن عاصم تعلم بعض المدرسين قراءة هذه الأجزاء الثلاثة في المدرسة ولم يعرف بالخلوة قراءته ينقصها التواتر. بعض المدرسين قرأ في الخلوة واختلطت عنده الرواية المطبوعة بالتي تعلمها من اللوح..

عم يتساءلون... ون

عن النبأ العظيم... ايم

قم الليل إلا قليلاً.. ايلاً

ذرني ومن خلقت وحيداً.. ايذا

وجعلت له مალأ ممدوداً.. دودا

قراءة المدرس أستحسنها وتعجبني بتكلف. في نغمها نظام.. رتابة.. وتلحين بلا ترتيل خاشع أصيل الأصول.. وتحزين كأنه جزء من النظام، نظام برجوازية الأفندية وعسكرية الضبط والربط.. تلحين ليس فيه عنصر الشجو والتهزم المطرد الذي يخالط أوتار القلوب..

بعد حين وآخر رنة متقنة. الشيخ مصغ سامع بصير.. نار القرآن ساطعة عيدان سلمها وتنضبها مشتبكة حول ثاقبات يفرح ويضطرب ويصخب حولهن أوار شعلات اللهب.. والكل.. حيران وشيخهم قعود حول النار على تراب المسجد.. ﴿قل أذكرين حرم أم الأثيين﴾ ﴿من صلصال كالفخار﴾ ﴿أم يقولون شاعر نربص به ريب المنون﴾ هذا العليابي رحمه الله قبل أن يصل إلى سورة محمد.. ﴿لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات والأرض﴾.

كنت فوضوياً أستعجل قبل زمان العرضة وشيخنا يشير علي أن أقعد كانوا يعطفون علي في حياة الوالد وبعد وفاته. كان شيخنا كله صبر وتسامح وبركة. وقفت مرة للعرضة عاجلاً بها وكنت قد محوت لوحى مرتين في نفس اليوم. وقفت مستحضرأ بسمت العرضة وقلت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بمد اللسان في أعوذ وبيان فتحة الشين وسكون الياء.. أحاكي الحفاظ البارعين.

كان الشيخ وذكرون رحمه الله ربما استعاذ في مجامع تلاوات الحفاظ الكبار في الختمات التي يعنون بها.. «أعوذ بالله من الشرك والكبر والشيطان الرجيم».

ويستحسن بعض القراء الآن أن يقولوا في الاستعاذة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

وكل هذا حسن. والاستعاذة المختارة عند القراءة هي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهي الاستفادة من ظاهر آية النحل: فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

قالوا وكان الشيخ تكرون الكبير، رحمه الله، حافظاً معروفاً بجودة الحفظ وصحته وقعد فوق «العنقريب» بحضرة السيد الحسن رضي الله عنه، لأنه - كما ذكروا أنه احتج به على بعض من أرادوا ألا يقعد على العنقريب في حضرة السيد - كمصحف لحفظه فلا يوضع على الأرض. قالوا وكان صوته كبيراً أجش وكذلك كان صوت الشيخ ابنه رحمهم الله جميعاً.

وكررت الاستعاذة.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وذهب اللوح الذي حفظته من ذاكرتي مرة واحدة. وجدت أنني نسيت. وذكرت ذلك لشيخنا فزجرني مع عطف عريض.. أحسبه قال «بس» أقعد الله يهديك يا ولدي.

هكذا كان يقول الوالد رحمه الله.

مراس الحيران - أجيال من الحيران - حفظ أثمان القرآن أكسبهم معرفة بما هو منها أسهل حفظاً وما هو أصعب. وكلها قد يسرها الله سبحانه وتعالى للذكر ﴿فهل من مدكر﴾.

هذا وكان بعض الحيران في بلدنا يجيدون العرضة ويعرفون بذلك ومن هؤلاء يكون من بعد الحفاظ وحملة القرآن. وكان من بين خلوات القرآن روح تنافس طيب في طلب التبريز. وكانت خلوات الدامر والجعلين شرقاً وغرباً وبربر شرقاً وغرباً والغبش والشايقية وخلوات الصعيد ينهن في الحفظة والدارس تبادل مستمراً في الزمان القديم. كان ذلك كله حياً منذ نحو أربعين سنة. وقد زال الآن كله أو قد أوشكت بقاياه أن تزول إلا ما شاء ربك إنه عليم قدير.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ صدق الله العظيم.

وكانت الشرافة مما يهيء لصاحبها سؤال الشيخ إطلاق سراح الحيران قبل الأوان، والشرافة إظهار وإعلام أن الحوار أدرك كذا وكذا حفظاً من سور القرآن ﴿لم يكن الذين كفروا﴾ أولى الشرافات الكبيرة يصلها الحوار وهو صاعد من «الناس» إلى «البقرة» على النحو الذي قدمنا ذكره.. «الفاتحة» يتبدأ بها للبركة و«الناس» آخر الكتاب الكريم يتبدأ بها من بعد لتيسير القراءة والكتابة والحفظ. ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ مرحلة تشريف صغير إذا بلغها الحوار صنع أهله شيئاً ظريفاً جاء به إلى الخلوة ولذلك قالوا:

أصل الشرف في اللغة الارتفاع وفي العامية تقول فلان يتشرف لكذا أي يمد رأسه تطلعاً إليه وفي اللغة العربية الفصيحة شرف فلان منزله أي يجعل له شرفة أ شرفات والشرفة «وهي التي يقال لها البلكونة الآن» مرتفعة ومزينة.

هذا وكان صغار الحيران ينطلقون بالشرافة ليرى الناس أنهم حصلوا كذا وكذا من كتاب الله. وكان الحيران في طوافهم بالشرافة يسألون الناس الجوائز عليها فكل يعطيهم ما يقدر عليه. لم نحضر زمان كان للحيران سلطان بسؤال الشرافة. لا يخفى ما في ذلك من ربط محكم للمجتمع بمعاهد التعليم. لا بل مصدر ذلك من صنيع الحيران إنما كان من حقيقة الارتباط الروحي القوي بين التعليم في الخلوة والمجتمع أمر طبيعي لا تكلف فيه.

شاهدت في مدينة كنو بعض الصبية بأيديهم الألواح يطوفون بها ويتغنون أغاني حلوة جداً ذات نغم حي، سريع متلاحق، ولكنه بلغة هوسا.

وسمعت نفس النغمة أو نغمة مقاربة لها جداً بمدينة الرسول ﷺ من أصيبية صغار بناحية أحد يدعون للزوار.

هذا وكان مما يزيد فن الشرافة الجميل جمالاً أنه أمر عتيق ذو أصول عريقة

وأنه عفوي الروح بسيطها غير متكلف وأنه فوق ذلك بركة.

الشرافة بركة. ثم مع الشرافة التمر والطعام والشاي أحياناً واللقيمات أحياناً كثيرة. لما شرف الطيب النقر ذبح خروفاً أو عجلاً لا أذكر جيداً فأطعم نعم الطعام وأطلق الحيران في وقت واسع، أول العصر، أذكر قراءته ليلاً بعد ذلك في ألواح البقرة ﴿سيقول السفهاء من الناس﴾ وهي أول الجزء الثاني، ويغلو في تحري صحة النطق بالقاف يقارب بها الكاف جداً والغالب على نطق الخلوي مقارنة الغين وبعض ناس الخلوي يخلصها غنياً. وقال لي شيخ محمد ود الجلال رحمه الله عمدة الدامر وكانت له بعلوم الأدب والعريضة دراية وذوق دقيق، إن الكتاب وفيهم علم وفضل كثير - كانوا يحرصون على «القلقلة» ويمتحنون الحيران الكبار فيها بسورة اقتربت وبقوله تعالى فيها ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ وعن أستاذنا الشيخ جلال أن بعض فقراء الخلوي في الماضي يمدون اللسان في الغين ليفرقوا بينها وبين القاف في نحو ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ مع ملاحظة أن رواية الدوري على المشهور من إدغام الراء في اللام - استغفلهم أو لا تستغفلهم.

حاشية: نطق القاف عندنا مقارب للكاف وليس بكاف وهذا النطق فاش في معظم البلاد العربية ويقرأ به القرآن في بعضها كاليمن. ونطق الغين عندنا من مخرجها وقد يجاء بها ضعيفة مقارنة لمخرج القاف. هذا في العامية الدارجة. وفي قراءة القرآن وأداء النطق الفصيح ما قدمناه من مخالطة القاف مخرج الغين ولا يخطئون في أداء الغين. فالذين يخلطون نطق الحرفين في القراءة ويخافون الالتباس هم الذين يمدون اللسان. وليت المدرسين الآن يفعل بعضهم شيئاً من هذا القبيل. إذ أن نطق الغين والقاف في المدارس جعل يخلط اختلاطاً قبيحاً حتى أن الكلمات التي كان ينطقها الناس غيناً فلا يخطئون قد جعل ينطقها التلاميذ قافاً فيخطئون والخطأ من التدريس في هذه الحالة مثل كلمة صغير التي ينطقها بالعجمة المدرسية صقير - خطأً جديداً جداً.

نطق الحيم عندنا من سقف الفم حرف شديد أخو الياء لا يخالطه الانتشار
الشيئي الطابع كما في جيم أهل الشام ولا مشابهة ما بين الكاف والقاف كما في
جيم أهل مصر. وفي كتاب شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد أن بني عمك من
اليمن كانوا ينطقون الحيم كافاً فيقولون الكمل للجمل. وزعم أبو العلاء المعري
في رسالة الغفران أن العباديين هم رهط عدي بن زيد الشاعر، كذلك يفعلون، والله
تعالى أعلم.

من الأشياء المدرسية ذات الشبه شيئاً ما بالشرافة شجرة الحمام. الحمام،
بتشديد الميم الأولى، وكلمة الحمام كان معناها عندنا الحر الشديد، تماماً كما في
قول الشاعر القديم:

نذق برد نجد بعدما لعبت بنا ** تهامة في حمامها المتوقد

أي في حرها المتوقد

وكنا نقول «البرود» بفتح الباء. «وأنا ماشي أتبرد» أي ابترد يعني أستحم كما
نقول الآن. وما كنا نقوله أصبح وعليه قول ابن أبي ربيعة:

زعموها سألت جارتها ** وتعرت ذات يوم تبترد

أي تبترد.. أصبح لأنه أفصح ثم هو أشبه بأحوال جو بلادنا لأننا لم نكن ننسخن
الماء ولكن نصبه على أجسامنا بارداً.

وحكايات الحيران في الخلوة لعمرى أظرف من حكايات تلاميذ المدارس
لسذاجتها وخلوها من روح المنافسة في الوظيفة والتحكم الإداري والجاه الدنيوي
البرجوازي الغريب الحليب. يحكون أن أحد الحيران أخبر شيخه بأن هدية طعام
جيد قد جاءت وكان ذلك الشيخ يريد أن يستأثر وحده بالهدية.

الحوار: كأنه يطلب من شيخه - الرمية - سيدنا العمة مدينة جابت قدحاً كبيراً

قالت نأكلوه.!!

وحكى الزميل الفاضل عبد القادر زمامه أستاذ الأدب بالمغرب أن أسلوب الرمية المعمول به عندنا له مشابه في طريقة تعليم القرآن «بالتفتيا» التي كانت متبعة عندهم. يقول التلميذ مثلاً نعماس - نعم يا سيدي - تبارك الذي بيده الملك.

الشيخ: وهو على كل شيء قدير.

ومما يجري مجرى الفكاهة أن شيخاً كانت تخاط عنده الملابس فجاءه رجل لم تكن عنده إلا جلالية «حلة» واحدة ليخيط مواضع منها فأعطاهها تلميذاً له فعكف عليها فلما فرغ منها جاء فقال على أسلوب التعليم.

التلميذ: نعماس - الجلالية وجدت هل أردتها لمولاها.

الشيخ: اسكت «بعد ضمه الكاف» لعله ينساها أي هل أردت الحلة لصاحبها فأمره الشيخ أن يسكت أملاً أن ينساها صاحبها، وكيف ينساها ولا حلة عنده غيرها. مثل هذه التنف على عدم حديثها المطلق مما يصح أن يرد به على ابن خلدون في الذي زعمه. أن حفظ القرآن لا تنشأ عنه ملكة البيان في الغالب لأن الناس مصروفون على الإتيان بمثله بالمعجزة. هذه من أضعف النقاط في «المقدمة» لما فيها من السفسطة ولها مشابهة لبيت ابن خلدون قد أعفى قلمه وقراءه منها، وقد كان رحمه الله مزيجاً فذاً من إصابة الحجة وتدليسها بعض الأحيان والله در الحريري إذ يقول:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

خلوة الفقيه الكراس^(١)

أدخلوني خلوة القاضي الطيب لأنها بجوارنا ولم أستفد منها شيئاً لإهمال الفقيه بها أو لصغر سني التي هي أول السادسة حتى قالت المغنية حين ختاني في

(١) خلوة الفقيه الكراس الشيخ بابكر بدري حياتي الجزء الأول ١٩٥٩ صفحة ١٩.

آخر البيت «الكسر سنينات اللبن في الخلوة» ثم نقلت لخلوة الرجل الصالح يقظ المخلص في عمله الفقيه أحمد حامد الشهير بالكراس سنة ١٢٨٨ واستمرينا عنده إلى أن توفي ١٢٩٥ حيث أمرني بتمريره وأظنه كان مصاباً بالحمى السوداء لأنه يتبول دماً ويأمرني بدفنه بعيداً عن الناس في حفرة عميقة.

اسمحوا لي أن أذكر عن هذا الرجل ما أعرفه عنه. أداء لواجهه علي. كان رحمه الله فوق السبعين من عمره على أنه قوي البنية يمكث بخلوته إلى الساعة ١١ مساءً حيث يتم تلاميذه سبع القرآن فيتوجه لإحدى زوجتيه ويرجع للخلوة في أو قبل الرابعة صباحاً أفرنجياً أو الساعة ١٠ مساءً عريباً «على الاستواء» فيثيرنا فنوقد النار ونشرع في القراءة للعرضة وهو يدخل في مخزن الخلوة يستحم يومياً ومعه تلميذان يقرآن عليه لوجيهما ليمحيهما بعد هذه القراءة ويكتبنا غيرهما فتستمر العرضة «قراءة الألواح حفظاً» عليه تلميذين تلميذين حتى يفرغ من اغتساله - فيخرج فيجلس في عنقريه «سريه» حتى تفرغ العرضة ومن سمعوا منا يمحون ألواحهم ويكتبون غيرها من رؤوسهم لأنهم قد سبق فحفظوه عصر اليوم الماضي وبعد الكتابة يصححون عليه ما كتبوه مثني مثني هؤلاء الكبار أما المتوسطون فإنه يجلس أمامهم ويعلي عليهم ما يكتبون في يومهم هذا غيباً من رأسه والصغار يكتب لهم ألواحهم «بنوى التمر» ليكتبوا عليه تعوداً على الكتابة وتحسيناً للخط وكل هذا يجري يومياً لا يشغله عمل عن عمل لا في النظام وفي الصحة - ومما أذكر أنني تساهلت يوماً في حفظ لوحى وكان «ولما فتحوا متاعهم» في سورة يوسف عليه السلام في وقت العشاء فلما حضر الفقيه سحراً واجتهدت في حفظه حتى جاءت نوبة تسميعي ظننت أنه لا ينتبه لي فمحوته وكتبت «فلما دخلوا» وعندما قرأته عليه ضحى الغد للصحة سكت إلى أن ختمته بقولي «إنه هو العليم الحكيم» قال لي تعالى يا العليم الحكيم - أنت عرضت على من؟. فقلت له: عليك يا سيدنا. فقال متى. قلت وأنت تستحم في المخزن - قال: أنا دخلت للاستحمام

وكان يقرأ فلان وفلان ثم بعدهما فلان وفلان وبعدهما فلان وفلان وخرجت وهما يقرآن فبين لي أي هذه الدفع أنت عرضت لوحك ومن كان معك. فقلت يا سيدنا يموت الفكي ويموت أبوي أنا عرضت فقال لي تموت أنت امشي امحي وتعال - اكتب ما محوته فذهبت ومحوته وكتبت سطرين مما محوت فافتضح أمري فضربني على الكذب وأملأني لوح «ولما فتحوا» وحكم عليّ ألا أبرح الخلوة حتى أسمع إياه غيائياً أي أعرضه عليه وفعلاً حصل ذلك. ومع أن حيران الخلوة يفيضون على الأربعمئة طالب ليس له منهم ساعد ولا من غيرهم. كان رحمه الله لا ييالي بأهل المال ولا أهل الجاه ولا يقبل هدية من أحد ولا يسمح لأحد أن يخدم تلاميذه في «بلاده»^(١) ولا منزله كغيره ولا يستخدمهم هو، وقد رأيت الشيخ عوض الكريم أبو سن وهو ناظر الشكرية جاء زائراً وكان راكباً حصاناً فوقف عند باب زرية الخلوة فقابلته الفقيه إبراهيم وقيع الله فقال الشيخ عوض الكريم أي زائر الفقيه أحمد الكراس فجاء الفقيه وقيع الله يافقيه أحمد الشيخ عوض الكريم جاء يزورك فلم يلتفت له فلما رأى الشيخ عوض الكريم عدم قيام الفقيه أحمد من عنقريه ترجل من حصانه ودخل المسيد.

الدكتور طه حسين^(٢)

ولكنه لا يعرف كيف يحفظ القرآن ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده وإن كان يذكر من حياته في الكتاب مواقف كثيرة منها ما يضحكه الآن ومنها ما يحزنه، يذكر أوقاتاً كان يذهب فيها إلى الكتاب محملاً على كتف أحد إخوانه لأن الكتاب كان بعيداً ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشياً تلك المسافة ثم

(١) بلاده - البلاد الأراضي الزراعية المطرية.

(٢) حديث الأربعاء - دكتور طه حسين.

لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكتاب ويرى نفسه في ضحى يوم جالساً على الأرض بين يدي «سيدنا» ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع وكان «سيدنا» جالساً على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة وقد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب بحيث يمر كل داخل «بسيدنا» وكان «سيدنا» قد تعود متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته أو بعبارة أدق «دفيته» ويلفها لفاً يجعلها في شكل المخدة ويضعها عن يمينه ثم يخلع نعله ويتربع على دكته ويشعل سيجارته ويبدأ في نداء الأسماء وكان «سيدنا» لا يعفي إلا إذا لم يجد من ذلك بدأ كان يرقعهما من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت وكان إذا أخلت به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتاب وأخذ النعل بيده وقال له تذهب إلى «الحزين» وهو هنا قريب فتقول له «يقول لك سيدنا أن هذه النعل في حاجة إلى لوزة من الناحية اليمنى» انظر أترى هنا حيث أضع اصبعي فيقول لك «الحزين» «نعم سأضع هذه اللوزة» فتقول له «يقول لك سيدنا» يجب أن تتخير الجلد متيناً غليظاً جديداً وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر أو يكاد يظهر فيقول نعم سأفعل هذا، فتقول له ويقول لك سيدنا إنه عميلك منذ زمن طويل فاستوصي بالأجر خيراً ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش ثم عد إلي مسافة ما أغمض عيني ثم أفتحها وينطلق الصبي ويلهو عنه سيدنا ثم يعود وقد أغمض عينه وفتحها عدة مرات.

على أن الرجل كان يستطيع أن يغمض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئاً فقد كان ضريراً إلا بصيصاً ضئيلاً جداً من النور في إحدى عينه يمثل له الأشباح دون أن يمكنه أن يتميزها وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل.. وكان يخدع نفسه ويظن من المبصرين.. ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت على اثنين من تلاميذه، يسط ذراعيه على كتفي كل واحد منهما ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا قد أخذوها على المارة حتى إنهم

ليتنحون لهم عنها وكان منظر سيدنا عجبا في طريقه إلى الكتاب وإلى البيت صباحاً ومساءً كان ضخماً بادناً وكانت دفته تزيد في ضخامته وكان كما قدمنا يسط ذراعيه على كتفي رفيقيه وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضرباً وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجيهم وأحسنهم صوتاً وذلك أنه كان يحب الغناء وكان يحب أن يعلم تلاميذه الغناء وكان يتخير الطريق لهذا الدرس فكان يغني ويأخذ رفيقه بمصاحبته حيناً والاستماع له حيناً آخر أو يأخذ واحداً منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر وكان سيدنا لا يغني بصوته ولسانه وحدهما وإنما يغني برأسه وبدنه أيضاً فكان رأسه يهبط ويصعد وكان رأسه يلتفت يميناً وشمالاً وكان سيدنا يغني يديه أيضاً فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقه بأصابعه وكان سيدنا يعجبه «الدور» أحياناً ويرى أن المشي لا يلائمه فيقف حتى يتمه وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً وما يظن صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من صوته وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ إلا ذكر سيدنا وهو يوقع آياتاً من «البردة» في طريقه إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر أو في طريقه إلى البيت منصرفاً من الكتاب يرى صاحبنا نفسه كما قدمنا جالساً على الأرض يعبث بالنعال من حوله وسيدنا يقرئه سورة الرحمن ولكنه لا يذكر أكان يقرؤها بادناً أم معيداً.

وكانه يرى نفسه مرة أخرى جالساً على الأرض ولا بين النعال بل عن يمين سيدنا على دكة أخرى طويلة، وسيدنا يقرئه ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأكبر ظنه أن كان قد أتم القرآن بداء وأخذ يعيده وليس غريباً أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن فقد أتم حفظه ولم يتم التاسعة من عمره وهو يذكر في وضوح وجلاء ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن. وذلك أن سيدنا كان يتحدث إليه قبل هذا اليوم بأيام عن ختم القرآن أن أباه سيتهج به وكان يضع لذلك شروطاً ويطالب بحقوقه ألم يكن قد علم قبل صاحبنا

أربعة من إخوته ذهب واحد منهم إلى الأزهر والآخرين إلى المدارس وصاحبنا هو الخامس فكم لسيدنا على الأسرة من حق، وحقوق سيدنا على الأسرة كانت تمثل دائماً طعاماً وشراباً وثياباً ومالاً فأما الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوة دسمة قبل كل شيء ثم جبة وقفطان وزوج من الأحذية وطربوش مغربي وطاقيّة من هذا القماش الذي تتخذ منه العمام وجنيه أحمر لا يرضى بشيء دون ذلك فإذا لم يؤدي إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة ولا يقبل منها شيئاً ولا صلة بينه وبينها وهو يقسم على ذلك بمحرجات الأيمان وكان هذا اليوم [أربعاء] وكان سيدنا قد أنبأ في الصباح بأن صاحبنا سيختتم القرآن في هذا اليوم وأقبلوا في العصر يمشي سيدنا معتمداً على رفيقيه ويمشي صاحبنا من ورائه يقوده يتيم من أيتام القرية حتى إذا بلغوا البيت دفع سيدنا الباب دفعاً وصاح صيحته المعتادة «يا ستار» واتجه إلى المنطرة فإذا فيها الشيخ قد انفتل من صلاة العصر وهو يقرأ من الأدعية كعادته فاستقبلهم مبتسماً مطمئناً وكان صوته هادئاً وكان صوت سيدنا عالياً وكان صاحبنا لا يقول شيئاً وكان اليتيم مبتهجاً أجلس الشيخ سيدنا ورفيقه ووضع في يد اليتيم قطعة من فضة ودعا الخادم وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يصيب شيئاً من الطعام ومسح على رأس ابنه وقال «فتح الله عليك انصرف إلى أمك وقل لها أن سيدنا هنا».

وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا وكانت قد أعدت له ما لا بد منه في مثل هذا الوقت وهو كوز ضخم طويل من السكر المذاب لا شيء عليه أخرج إلى سيدنا هذا الكوز فعبه عباً وشرب رفيقه كويين من السكر المذاب أيضاً ثم أخرجت القهوة فشربها سيدنا مع الشيخ وكان سيدنا يلح على الشيخ في أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن وكان الشيخ يجيب «دعه يلعب إنه صغير» ثم نهض سيدنا لينصرف فقال له الشيخ «نصلي المغرب معاً إن شاء الله» وكانت هذه هي الدعوة إلى العشاء وما أحسب أن سيدنا نال شيئاً آخر أجراً على ختم

صاحبنا للقرآن فقد كان يعرف الأسرة منذ عشرين سنة وكان له فيها عادات غير مقطوعة وكانت الكلفة بينه وبينها مرفوعة وكان واثقاً أن الحظ إن يخطئه معها هذه المرة فلن يخطئه مرة أخرى.. منذ هذا اليوم أصبح صبيّاً شيخاً وإن لم يتجاوز التاسعة لأنه حفظ القرآن ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنه دعاه أبوه شيخاً ودعته أمه شيخاً وتعود سيدنا أن يدعو شيخاً أمام أبويه أو حين يرضى عنه أو حين يريد أن يرضاه لأمر من الأمور. فأما فيما عدا ذلك فقد كان يدعو باسمه وربما دعاه «بالواد» وكان شيخنا الصبي قصيراً نحيفاً شاحباً زري الهيئة على نحو ما ليس له من وقار الشيوخ ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو أكثر وكان أبواه يكتفیان منه تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافه إلى اسمه كبراً منهما وعجباً لا تطفأ به ولا تحبباً إليه، أما هو فقد أعجبه مظاهر اللفظ في أول مرة.

ولكنه كان ينتظر شيئاً آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع كان ينتظر أن يكون شيخاً حقاً فيتخذ العمة ويلبس الحجة والقفطان وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يدخل في القفطان وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن وكيف يكون الصغير شيخاً وكيف يكون من حفظ القرآن صغيراً وهو إذن مظلوم وأي ظلم أشد من أن يحال بينه وبين حقه في العمة والحجة والقفطان.

وما هي إلا أيام حتى سُم لقب الشيخ وكره أن يدعى به وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب وأن الإنسان يظلمه حتى أبواه والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء للقب الشيخ وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور والعجب ثم لم يلبث أن ينسى هذا كله فيما نسي من الأشياء على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يدعى شيخاً وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب للكتاب كما كان يذهب مهمل الهيئة على رأسه طاقيته التي تنظف يوماً في الأسبوع وفي رحله حذاء يجدد مرة في السنة ولا يدعه حتى لا يحتمل شيئاً فإذا تركه فليمش حافياً

أسبوعاً أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء حديد كان خليقاً بهذا كله لأن حفظه القرآن لم يدم طويلاً.. أكان وحده ملوماً في ذلك. أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيدنا. الحق أن سيدنا أهمله حيناً وعني غيره من الذين لم يهتموا القرآن أهمله ليستريح وأهمله لأنه لم يتقاضى أجراً على ختمه للقرآن واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال وأخذ يذهب إلى الكتاب يقضي فيه طوال النهار في راحة مطلقة ولعب متصل ينتظر أن تنتهي السنة ويأتي أخوه الأزهري من القاهرة حتى إذا انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة استصحبه ليصبح شيخاً حقاً وليجاور في الأزهر.

ومضى على هذا شهر وشهر وشهر يذهب صاحبنا إلى الكتاب ويعود منه في غير عمل وهو واثق بأنه قد حفظ القرآن وسيدنا مطمئن إلى أنه حفظ القرآن إلى أن كان اليوم المشئوم.. كان هذا اليوم مشئوماً حقاً ذاق فيه صاحبنا لأول مرة مرارة الخزي والذلة والضعة وكره الحياة.. عاد أبوه بلقب الشيخ، فأقبل عليه ومعه صديقان له فتلقاها أبوه مبتهجاً وأجلسه في رفق وسأله أسئلة عادية ثم طلب إليه أن يقرأ «سورة الشعراء» وما هي إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ففكر وقدر وتحفز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وبسمى الله الرحمن الرحيم ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث أولها «طسم» فأخذ يردد «طسم» مرة ومرة ومرة دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعراء فلم يستطع أن يتقدم خطوة. قال أبوه فاقراً سورة النمل فذكر أن أول سورة كأول سورة الشعراء «طسم» وأخذ يردد هذا اللفظ وفتح عليه أبوه فلم يستطع أن يتقدم خطوة أخرى.. وقال فاقراً سورة القصص فذكر أنها الثالثة وأخذ يردد «طسم» ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة ولكنه قال له في هدوء قم فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن فقام خاجلاً يتصبب عرقاً وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجل وصغر السن ولكنه مضى لا يدري أيلوم نفسه لأنه نسي القرآن أم يلوم سيدنا لأنه أهمله أم يلوم أباه لأنه امتحنه.

ومهما يكن من شيء فقد أمسى هذا اليوم مساء ولم يظهر على مائدة العشاء ولم يسأل عنه أبوه في إعراض ودعته أمه إلى أن يتعشى معها فأبى فانصرفت عنه نام ولكن هذا المساء المنكر كان في حملته خيراً من الغد ذهب إلى الكتاب فإذا سيدنا يدعوه في جفوة ماذا حصل بالأمس. وكيف عجزت عن أن تقرأ سورة الشعراء. وهل نسيته حقاً. اتلها علي فأخذ صاحبنا يردد «طسم» وكانت له مع سيدنا قصة كقصته مع أبيه قال سيدنا عوضني الله خيراً فيما أنفقت معك من وقت وما بذلت في تعليمك من جهد فقد نسي القرآن ويجب أن تعيده ولكن الذنب ليس عليك ولا علي وإنما هو على أيك فلو أنه أعطاني أجري يوم ختمت القرآن لبارك الله له في حفظك ولكنه منعني حقي فمحا الله القرآن من صدرك.

الباب العاشر

اليمن و غلام الله

بعدما ذهبت في هذه الدراسة جرتني البحث إلى أول مؤسس لمدرسة القرآن «الخلوة» في شمال السودان الأدنى وأشارت الروايات الشفهية والمكتوبة أنه في أوائل القرن العاشر الهجري دخل أرض دنقلا وهي يومئذ قسبة البلاد رجل يمني اسمه أحمد بن عايد المشهور بغلام الله جد السادة الركابية. فيما بعد. فتتبع أثر الرجل بعدما وقفت على ما ذكره المستر هارولد ماكمايكل في المجلة الدورية التي تصدر باللغة الانجليزية SUDAN NOTES AND RECORDS.

السودان في رسائل ومدونات وماكمايكل من الإداريين الذين كانوا يحكمون البلاد أبان الحكم الثنائي وقد اهتم الرجل بالثقافة العربية والإسلامية في السودان وله مؤلفات ذكر فيها أن غلام الله قدم من اليمن بلدة «اللحية» إلى دنقلا واستقر بها ووجدت الناس في حيرة وضلال من عدم معرفتهم بالقرآن والعلم فشرع يعلم الناس القرآن.

فمسكت هذا الخيط وذهبت إلى اليمن في سنة ١٣٩٥هـ الموافق يوليو ١٩٧٥م متطلعاً أخبار الرجل وأمضيت شهراً كاملاً بالجمهورية اليمنية زرت خلاله الأماكن المشهود لها بتدريس القرآن عليّ أجد أثراً أو أصلاً لهذا الرجل. زرت صنعاء ونواحيها وتعز وبيت الفقيه وزيد إلخ.

وأعاني على تلك السياحة الشاعر الأديب عبد الله حمران^(١) كما أفدت من

(١) عبد الله حمران - كان سفيراً لليمن في السودان ثم عينه الرئيس الحمدي مستشاراً لرئيس الجمهورية وله صلات بأهل الفكر والثقافة في السودان.

صحبة الأديب الكبير والعالم المحقق القاضي اسماعيل الأكرع^(١) الذي استقبلني في المطار وذهب بي لقلب العاصمة ووضع لي برنامجاً عن أسماء وأماكن مدارس القرآن في مدينة صنعاء وغيرها وكان يصحبني دليل من مكتب القاضي إسماعيل صحبني في تلك الرحلات خارج وداخل مدينة صنعاء ودلني القاضي إسماعيل على المنطقة التي «يظن» أنها خرجت حفاظاً كثيراً في ماضي السنين واسمها قريب من اسم «اللحية» التي ذكرها ماكمايكل^(٢).

ورغم تحفظ القاضي الأكرع، الذي قال لا علم لي ببلدة «اللحية» بل في بلادنا - حليتان - حليلة صنعاء وحليلة بني مطر ورجح أن الشيخ غلام الله ربما درس في حليلة بني مطر باعتبارها «هاجرة» قرآنية قديمة واسم «الهاجرة» عند أهل اليمن اسم مكان دراسة القرآن.

وحليلة بني مطر من الأماكن التي اشتهرت بتدريس القرآن دهرًا طويلاً ولذلك سميت بهاجرة بني مطر وهي أقرب الحليتان في تقديري، ولكنني بدأت أولاً بصنعاء المسجد الكبير. المعروف باسم مسجد «الملكة أروى» وهو مسجد عتيق ضخم وهندسته تشبه هندسة الحرم المكي بل يكاد يشبه الحرم المكي في كل شيء البناء المعقود والمسقوف على جميع جدر المسجد كما في بنيان الحرم المكي القديم ويتوسط صحن مسجد «الملكة أروى» بيت «السليط» ويشبه وضعه وضع الكعبة من حيث الموضع وشكل البناء وأحسبهم بنوه هكذا من باب التيمن والتفاؤل بشكل الكعبة المشرفة^(٣).

(١) القاضي اسماعيل الأكرع كان سفيراً بالعارجية اليمنية ثم وزيراً وهو أحد كبار العلماء باليمن وله مخطوط باسم «معاقل العلم ودور الهجرة» والآن هو المسؤول الأول عن وزارة الآثار والكتب.

(٢) ماكمايكل - المجلد التاسع صفحة ٣٥.

(٣) وفي صنعاء بنى أبرهة الحبشي بيتاً يحاكي به الكعبة المشرفة وهو الآن مكان يقصده الزوار والسياح.

الملكة أروى

هي أروى بنت أحمد بن يعفر بن موسى الصليحي والصليحيون من الأسر التي حكمت اليمن عام ٤٣٩هـ.

وكفلها بعد أن توفي أبوها الملك الصليحي وربتها زوجة الصليحي أسماء بنت شهاب ثم زوجها الصليحي بابنه المكرم ويقال أنه جعل صداقها خراج ولاية «عدن» وحكم زوجها صنعاء ثم مرض بالفالج وانتقل إلى مدينة جبل «لواء إب» وعهد إليها تدير الملك فبانت جدارتها ورجاحة عقلها حتى لقبوها بيلقيس الصغرى.

وبعد وفاة زوجها المكرم ٤٨٤هـ قبضت على أزمة الأمور بيد من حديد قرابة الخمسين سنة من ٤٨٤هـ - ٥٣٣هـ وضربت مثلاً رائعاً في الحزم والثبات والحكمة والعدل وكانت على جانب كبير من الأدب والمعرفة والدهاء ولها أعمال جليلة كبناء «المسجد الجامع» بصنعاء خاصة منارة الجناح الشرقي كما بنت مساجد أخرى ودور العلم ورتبت للعلماء ومدرسي القرآن الرواتب.

هذا وتوفيت الملكة أروى رحمها الله بمدينة «جبل» عام ٥٣٣هـ ودفنت بجامعها الشهير وأكمل من بعدها الحكام المتعاقبون تزيين المسجد الكبير وسقف جنباته التي أشرنا إليها وجعلوها سقفان «دورين».

كما بنت أروى بنت أحمد المكتبة الأثرية الشهيرة التي تفخر بها الجمهورية العربية اليمنية والعالم العربي كله وهي من أندر مكتبات العالم وقد جمعت النفائس السبئية والحميرية والمعينية وأخيراً الإسلامية إلخ.

بدأت بحثي متيناً بهذا المسجد العتيق. ووجدت بضع حلقات تدريس القرآن الكريم وهي ليست بالكثرة التي تواكب حجم هذا المسجد العظيم وقد أفادني المشايخ الذين يقومون بتدريس القرآن بأماكن المدارس القرآنية التي تعرف في بلاد اليمن بالمعلاّمة.

تجوالي في صنعاء

تجولت في أرجاء مدينة صنعاء صحبت مرافقي الأستاذ «علي» من مكتب الآثار على مسجد «النهرين» وبدأنا بمدرسة مسجد النهرين وهي علامة كبيرة يقوم على التدريس فيها ثلاثة من المشايخ هم:

سيدنا أحمد الثور.

سيدنا يحيى العلوفي.

سيدنا عبد الله.

وزرت بعدها علامة - قبة المهدي - ويرعاها ثلاثة من المعلمين أيضاً هم:

سيدنا عبد الله التهامي.

سيدنا محمد دلال.

سيدنا أحمد الخولاني.

والتعليم في علامة «قبة المهدي» يجمع بين البنين والبنات وأجمع هؤلاء المشايخ وغيرهم أن المدرسة القرآنية تسمى «العلامة» ويسمون اللوح «الرنقاش» ويقرأون القرآن على رواية نافع.

ونظام الدراسة التقليدي كما هو في جميع مدارس القرآن في البلدان الأخرى إذ تبدأ الدراسة منذ بزوغ الفجر وتستمر إلى ما بعد العشاء والدراسة في بلاد اليمن مثل غيرها تركز على حفظ القرآن في المقام الأول باعتباره المادة الأساسية وحفظه غاية يجزئون اليوم ليله ونهاره للقراءة والحفظ.

وقبول الطلبة الجدد يوم الأربعاء وعندهم من ضحوة الخميس إلى نهاية الجمعة عطلة أسبوعية وفي يوم الخميس يدفع الطلبة الهدية المعروفة بـ«الخميسية» مما ييسر «لمعلمهم» الذي يطلقون عليه اسم «سيدنا» مثل كثير من البلاد الإسلامية.

والمعلامة التقليدية لا يعرف مشائخها الرواتب ولكن الأجر يأتيهم مضاعفاً من المواطنين. كل على قدر طاقته.

ولهم جعل من الزكاة عيناً ونقداً ومن الثمار والبقول وكل المحاصيل ولسيدنا مكانة رفيعة في المجتمع هو جدير بها.

العقاب

تطبق المعلامة العقاب المعروف «الفلة» وقد شرحتها حينما تحدثت عن العقاب في خلاوي السودان ومن وسائل العقاب ضرب «القيد» على بعض الطلبة برضاء أولياء أمرهم وقد رأيت أحد الطلبة يرسف في القيد ويدعى ذلك الطالب «القملّي» وذلك في معلامة «طلحة» بمدينة صنعاء وعلى جدار المعلامة سلاسل أخرى معلقة تنذر بالشر كل طالب عاث وبعده مدرسة طلحة ذهبت لمعلامة «الفليحي» الأهلية ولقيت المعلم سيدنا محمد مساعد ولفت نظري شعار مثبت عند مدخل معلامته.

«إخواني لا تخرجوني ممنوع الدخول مع عدم المنحل المخلص لله ثم الوطن» محمد مساعد.

هذا وبعد تجوالي في مدينة صنعاء خرجت ومرافقي إلى حليلة بني مطر حوالي ٦٠ كيلومتراً غربي صنعاء مرجحاً رأي القاضي الأكوع بأن حليلة بني مطر هي المعنية وهي هاجرة قرآنية ووصلناها بعد مشقة لأنها تقع بعيداً عن الطريق المرصوف والمعبّد وبعد أن خرجنا من الطريق لم تستطع السيارة أن تمشي بضعة أمتار فتركناها وذهبنا راجلين ودخلناها تحت رذاذ من الغيث الخفيف.

وأمضينا بها وقتاً مناسباً وبالفعل تأكد عندي أن الحليلة كانت «هاجرة» ومقر لدراسة القرآن ولكني جئت وقد انفض سامر مدارس القرآن فيها وأضحت قرية عادية إذ تفرق أكثر أبنائها في أنحاء البلاد ولم أجد من أبنائها من اهتم بتاريخ

مدارسها.

ووجدت بعض الشيوخ وليس في يدهم مخطوط ولا وثيقة أعول عليها ولم أجد عندهم روايات شفوية.

وكل من سألته لا يعرف شيئاً عن «غلام الله» وحتى العلماء الدارسون كالقاضي إسماعيل الأكوخ استبعد اسم غلام الله فهو ليس من الأسماء التي يطلقها أهل اليمن. وذكرت له اسم الرجل أحمد بن عايد. فصوب اسم عايد قال لعل أصله عايد^(١) والشاهد أن غلام الله اسم أطلقه الدناقلة على الشيخ أحمد بن عائد والدناقلة يقولون لـ عبد الله - نقد الله وتقاس كلمة غلام الله على هذا الغرار والله أعلم. وجاء في كتاب أعلام التربية في السودان.

أما فيما يتعلق بكنية غلام الله فيشير المخطوط إلى أنه عندما كان طفلاً صغيراً اشتعلت النار في المنزل وهو بداخله فهرعت أمه لإنقاذه وسط اللهب ولكن زوجها أمسكها ومنعها من اقتحام النار المشتعل. وقال لها إذا كان الطفل ابني فعلاً فلن تمسه النار.

ويقال أنه عندما أخدمت النار اندفعوا لمعرفة مصير طفلهم وجدوه سليماً بل كان يلهو ويلعب. ولم يمسه أذى ما خلا أثر الدخان على ثيابه ومن ثم أطلق عليه «الغلام المحمر» وأخيراً اشتهرت بغلام الله ويقول صاحب أعلام التربية في السودان^(٢) ولقد تعددت الروايات حول نسب غلام الله فهناك من يرى أنه قدم من قرية [اللحية] وهي من قرى جزيرة - تواوة - التابعة لبلاد اليمن وسكن بجزيرة من جزر البحر المالح [البحر الأحمر] اسمها «ساكية» ومنها اتجه إلى دنقلا حيث أقام. فلما قدم غلام الله عمر المساجد وبدأ يعلم الناس القرآن فعلم أبناءه وأبناء المسلمين.

(١) هل هو - عائد - عايد؟؟ وفي بلاد اليمن يحولون الذال ضاداً فيصير عائض.

(٢) أعلام التربية في السودان - الدكتور سر الختم عثمان أحمد - الأمانة العامة للشئون الدينية والأوقاف.

شيخ القراء

وبعد زيارتي لحليلة بني مطر أقمت يوماً ثم ذهبت لمسجد الروضة حيث يقيم شيخ القراءات في اليمن سيدي «يحيى محمد الكبسي» وهو من أسرة معروفة بالعلم ولهم صلة واشحة بالنسب الشريف.

وتقع مدينة الروضة شمال مدينة صنعاء حوالي ثلاثين كيلومتراً.

وخرجت وصاحبي مساء الخميس الثامن من جمادى الآخرة ١٣٩٦ هـ صوب مدينة الروضة مقر آل الكبسي ولقينا العلامة سيدي يحيى الكبسي. وبعد أن قدمني مرافقي للشيخ يحيى هش الرجل وانفجرت أساريه.

ثم أجلسنا في صالون مكتبته بالقرب من صحن مسجد الروضة وأثنى على رحلتي وحثني على الصبر وأوصاني بالحرص على مواصلة هذا البحث ثم طلبت منه أن يحدثني على المسجل الذي أحمله والمسجل يوفر الزمن ويدع المتحدث يسترسل في الكلام من غير أن أقاطعه ولما سمع الرجل اسم المسجل وشريط الكاسيت نفر نفوراً شديداً واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقال مثلي لا يتحدث في هذه الآلة الشيطانية التي تحور الأحاديث وبعد مراجعة وافق على شرط أن يسجل آيات من القرآن ثم يقي المسجل والشريط عنده إلى يوم آخر ثم أحضر أنا ومرافقي وفتح المسجل وكما عبر مولانا الشيخ يحيى الكبسي فإن رد القرآن كما تلوته فيها ونعمت وإن حورت آلة المسجل أعفي نفسي من الحديث.

ولما عدنا يوم السبت أمر غلامه بإحضار المسجل وطلب مني أن أسمعه قراءته التي سجلها بالأمس وسيدنا يحيى «كفيف» لذلك يسمع بجميع حواسه، وطلب إعادة الشريط مرة ثانية ولما لم يخط المسجل ولم يحور انفجرت فمه عن ابتسامة رضا عريضة وحمد الله وأثنى عليه وحوقل وسبح وقال أنا قليل الاطمئنان ومع أن آلة

لا تحور فإنني أتحدث حديثاً قصيراً وأنقل حديث سيدنا يحيى الكبسى كما هو.

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
وصلّى الله على سيدنا محمد «أنا يحيى بن محمد الكبسى والكبسى بلدة في
[خولان] وميلادي في [الطويلة] [قرية] في الثاني عشر من جمادى الآخر سنة اثني
عشر بعد الثلاثمائة والألف درست القرآن في بلدة عمران - على سيدنا محمد
الحلي وأنا ابن سبع سنين وحفظته في ثلاثة سنين وكنا نقرأ على رواية الدوري
والآن نقرأ برواية نافع».

وذكر الشيخ القارىء يحيى الكبسى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف وقال
هي وجوه القراءات بأيهما قرأت سلمت وكتب لك الأجر والثواب ثم سأله عن
القاف اليمانية وهم ينطقونها كما ننطقها نحن في السودان وكما ينطقها أهل
صعيد مصر.

فقال لها القاف وجه في اللغة وإمالة الغين نحو القاف أيضاً لها وجه والصواب
أن تحسن النية والله أعلم بمن اتقى.

المعلامة في اليمن

وخرجت من العاصمة صنعاء إلى مدينة تعز صحبة الأخ علي بن أحمد سائق
العربة ومكثنا في مدينة «ذمار» ثم منها إلى لواء - إب حيث زرنا مسجد الملكة
أروى بنت أحمد في مدينة «جبل» وزرنا بعض مدارس القرآن هناك.

ومنها انطلقنا إلى مدينة تعز ودخلناها ليلاً وفي الصباح طفنا على معالم المدينة
وقصور الإمام يحيى والمتاحف ثم ذهبنا ومرافقي لزيارة مدارس القرآن.

والاختلاف يسير جداً في جهات صنعاء وأحوازها وفي تعز وأنحائها وبعد أن
أقمت ثلاثة أيام خرجت لبلاد تهامة اليمن حيث زرت بعض القرى والمدن
الصغيرة وأقمت بضع أيام بين الحديدة والمخا.

وخرجت منها شمالاً إلى زيد وبيت الفقيه وهما مدينتان تاريخيتان عامرتان
بأهل العلم بالأخص مدينة زيد.

القرآن في زيد

بلغت الدعوة الإسلامية بلاد اليمن في نهاية السنة السابعة وأول السنة الثامنة
من الهجرة.

وكان أول من قدم على رسول الله ﷺ من أهل اليمن الأشعريون أهل زيد
والسبب في وفادة الأشاعرة إلى رسول الله ﷺ أن «منقذ بن حيان» قدم المدينة
تاجراً فمر به النبي ﷺ يوماً فنهض إليه منقذ وسمع كلامه فسأله النبي ﷺ عن
أشراف قومه رجلاً رجلاً بأسمائهم فأسلم منقذ، وتعلم الفاتحة وسورة اقرأ وكتب
معه النبي ﷺ كتاباً لقومه فلما قدم منقذ على قومه كتبهم الكتاب فطلق يصلي
ويقرأ فقالت زوجته وهي بنت الأشج. إني أنكرت بعلي منذ قدم من يثرب. إنه
يغسل أطرافه ويستقبل الجهة فيحني ظهره مرة ويضع جبينه مرة ديدنه منذ قدم.

فتلاقيا الأشج ومنقذ، فأخبره الخبر فأسلم ثم سار على قومه بكتاب رسول الله
ﷺ «فأسلم من أسلم ثم تجهزوا وافدين وذلك قبل الفتح ولما دنوا من المدينة
وفيهما عبد القيس «أبو» أبو موسى الأشعري وبرفته أربعة عشر ركباً منهم الأشج
العصري رئيس الوفد آنذاك. قال النبي ﷺ «أتاكم وفد عبد القيس خير أهل
المشرق وفيهم الأشج العصري» وقال رسول الله ﷺ عندما دخل «الوفيد» عليه
قال: «مرحباً بالقوم الغير الخزايا ولا الندامي» وقال النبي ﷺ قبل قدوم الأشعريين
«يقدم قوم هم أرق منكم قلوباً».

ثم قال رسول الله ﷺ لو فد زيد من أين جئتم قالوا: من زيد قال: بارك الله في
زيد «ورمع» في الثالثة وهذا الدعاء كما يظهر جاء بعد ترحيبه بالقوم لما لمس
من حسن إسلامهم ودعى لهم بالخير والبركة لما وجد فيهم من كرم أخلاق

وحسن عشرة وتعاون وإخاء بقوله عليه الصلاة والسلام «إن الأشعرين إذا أرموا في الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في إناء واحد ثم اقتسموا فيما بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم» رواه الشيخان.

تلاوة القرآن

والأشعيون لإيمانهم الصادق وهبهم الله حلاوة الإخلاص والصدق وطهارة القلب فمن ذلك ما قاله صاحب الرسالة «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حيث يدخلون بالليل.. وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن في الليل وإن كنت لم أر منازلهم حيث نزلوا بالنهار».

وروي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قوله في أبي موسى الأشعري حين سمع صوته وهو يقرأ القرآن - قال - «لقد أعطي هذا زمزماً من زممير آل داود» قال: يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لجبرته تحبيراً «أي لحسنه تحسيناً».

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن أبي موسى الأشعري فقال «صنع في العلم صنعة» أي خلق للعلم وهذا يدل على أن أبا موسى كان علماً بالقراءة.

ثم قدم أبو موسى الأشعري أيضاً الشاعر إلى وادي زيد فنشر الدعوة الإسلامية ووضع أساس المدرسة القرآنية.. وكان المكان غيظة أي «هيجة» وكانت مدينة زيد قبل تخطيطها - عقدة - طرفاء وأراك - وحولها قصور وقرى وإن رعاء الأشاعرة يرعون هناك ويسقون دوابهم من هذه البئر الموجودة غرب المسجد فكان عندها أحواض ماء كثيرة وإلى جانبها مسجد منصب بحجارة أحدثه الرعاء هنالك وكانوا إذا سقوا دوابهم توضأوا وصلوا في ذلك المصلى.

الفقهاء

أبرزهم أبو الفتح بن أبي عقامة الثعلبي فكان عالماً ومجوداً ومؤلفاً والحسن

أبي عقامة خطيب الجمعة بزييد وإليه تنسب الخطب «العقامية» التي كان يرتجلها.

من أشهر من اهتموا بالقراءات المنصور عمر بن علي بن رسول مؤسس الدولة الرسولية.

وفي عهد الأفضل العباسي بن الملك المجاهد الرسولي قدم العالم الشهير الفيروزابادي مؤلف «القاموس المحيط في العربية» واستوطن زييد وتولى القضاء بها وتوفي بها ولا يزال يعرف قبره بقبر «صاحب القاموس».

ومن علمائها أبو الحسن عبد الله بن المبارك الزبيدي مؤلف «تجريد صحيح البخاري».

وعالم زييد الكبير محمد بن عبد الله الريمي مؤلف كتاب «التفقية في شرح التفقية» في أربعة مجلدات قدمه للملك المجاهد. فأجازه بأربعة شخوص ذهبية مكتوب على كل شخص.

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها على الناس طراً قبل أن تنفلت
فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت ولا البخل يقيها إذا هي ولت

وعلى الشيخ الريمي تلقى شيخ الإسلام إسماعيل بن أبي بكر المقرئ الشاري الذي يعتبر معجزة هذا العصر بعلمه ومولفاته الشهيرة منها كتاب الإرشاد في الفقه وكتاب «عنوان الشرف الوافي في علم الفقه والتاريخ والنحو والعروض والقوافي» فإذا قرأناه على النمط المألوف يشمل الفقه ووضع فيه أربعة أنهر كل نهر استخرج من أول حروفه فناً فالنهر الأول عروض والنهر الثاني تاريخ دولة بني رسول والنهر الثالث نحو والنهر الرابع قوافي.

ومن أدبه الرفيع قصيدته المشهورة التي تحتوي على عشرين بيتاً. شرحها الخزرجي بعنوان «مخلعة المقرئ» قال أنها تحتوي على ستة صور وتقرأ بالتقديم

والتأخير والوسط وكل صورة تحتوي على عشرات الآلاف من الصور ومطلعها:

ملك سما ذو الكمال زانه	الورى من كريم الطبع والشيم
بي الغنا ورده تصفو مشاربه	العلا في يديه وابل الديم
له نما طال من في فرعه شمم	ترى فاق كل العرب والعجم
حلو الجنا قد توالى مواهبه	علا وهو في العليا كالعلم
يروى الظمأ بأياد كلها نعم	سامي الذرى عنده الأملاك كالخدم

والمقري بلا شك معجزة العصر الذهبي الذي أنجب فطاحل العلماء كما وفد إليها كبار العلماء من العالم العربي والإسلامي ومنهم الرحالة ابن بطوطة الذي زارها في منتصف القرن الثامن في عهد الملك المجاهد الرسول وتحدث عنها بكل فخر واعتزاز.

المساجد والمدارس القرآنية

وفي عهد الملك الأشرف الثاني إسماعيل الرسول بلغت المدارس والمساجد بزيبدة ستة وثلاثين وثلاثمائة ومجموع الفتيات العالمات أربعة آلاف فتاة والدارسات لكتاب «الإرشاد» للمقري بلغن خمسة آلاف فتاة ، منهن فتيات حمزة الناشري ومن أبرزهن أسماء بنت موسى الضجاعي.

زيبدة والعالم الخارجي

بلغت شهرة زيبدة أرجاء العالم الإسلامي وصارت منافسة لكبريات المدن العلمية الإسلامية وجذبت شهرتها أكبر العلماء المؤلفين وقد وصلها علماء الأزهر، وطلب علماء الأزهر تبادل مؤلفات علماء زيبدة وقال سفراء الأزهر لقد عرفنا المكانة العلمية التي بلغت زيبدة. غير أنا لم نقرأ مؤلفات رغم الشهرة العلمية الكبيرة على أثر ذلك بعث شيخ الإسلام إسماعيل المقري مؤلفه «الإرشاد» فتناوله

الأزهر بقلب مفتوح وعكف على دراسة مادته الغزيرة ومحتواه العلمي، فأعجب بها علماء الأزهر وكتبوا في أول صفحاته عبارة تمثل قوة الكتاب وعدم تذليل الصعاب لا لمؤلفه بقوله «مشى حملك» إذ أنهم شبهوه بالحمل الهائج الذي لا ينقاد إلا لصاحبه.

تسلم الكتاب المقري وعكف على شرحه فأسماء «تمشية الحمل» وبعث به إلى الأزهر ومن ثم أصبح مادة يدرسها الأزهر بعد تحليل عباراته كما قام بشرحها ابن حجر العسقلاني. وأسماء «الإسعاد» ثم لخصه وأسماء «فتح الجواد على شرح الإرشاد».

السودان وزبيد

أشرت من قبل أن شهرة زبيد بلغت العالم العربي والإسلامي والأفريقي وقد بلغت سمعة زبيد الأماكن العامرة ببلادنا ولاسيما المناطق التي تهتم بدراسة القرآن والفقه وقد زارها للدراسة نفر من سواكن وبربر والدامر وعلمت من العم حسن ملين اليماني^(١) أنه سمع من الشيخ محمد الجلال عمدة الدامر^(٢) أن والده الجلال والشيخ ود الشيخ الطاهر والشيخ حسيب والد آل علي حسيب مجذوب ومنصور كما درس فيها الشيخ عبد الباقي جد قبيلة البطاحين.

زبيد اليوم

زرت زبيد باعتبارها من الأماكن التي توهج فيها ضوء نار القرآن قبل المدن اليمانية الأخرى، كما أفادني أهل المعرفة من أبناء اليمن ووجدت آثار القرآن في مسجد الأشعرين وغيره من المساجد الكبيرة وما زالت «المعلامة» مدرسة القرآن

(١) حسن ملين يمني يقيم في الدامر ومن قبل كان بآبيرا وله في السودان سبعون سنة متوالية.

(٢) الشيخ محمد الجلال عمدة الدامر ورئيس المحكمة ومن الحفظة الفقهاء رحمه الله.

تؤدي رسالتها وطففت على بعضها وعلق بذهني معلامة سيدنا النهاري المقامة وسط سوق زبيد وهي سوق أثرية مظلمة كالأسواق التقليدية في جدة ودمشق والقاهرة وتونس وفاس وفي السودان كانت مثلها - سوقاً - سواكن وبربر ومعلم القرآن الذي لقيته كان بجانب تدريسه للطلبة له تجارة فهو يبيع - التمباك - وهو صنف عريض يضرب لونه للحمرة المشربة باللون البني ويشبه تماماً لون التبغ المعروف. الذي نشاهده في كثير من البلدان.

بيت الفقيه

ومدينة بيت الفقيه عامرة «بالمعلامة» والمشايخ المتبحرين في تدريس القرآن وهي مدينة عظيمة ولها سمعة حسنة وتقرن دائماً بمدينة زبيد واكتفيت بزبيد وحسبي أني قدمت نموذجاً للمعلامة - من منطقتين - صنعاء وأطرافها وزبيد وفي تقديري أنهما تعطيان المثل لوضع مدرسة القرآن المعلامة في هذا القطر العامر وأحسبهما مثلاً لبقية المدن التي تضطلع بتدريس القرآن.

الحليلة في مخطوط

جاء في كتاب «معاقل العلم ودور الهجر»^(١) كانت الحليلة هجرة وتقع في «مخلاف» البرورية من ناحية بني مطر. ذكرها ابن أبي الرجال في ترجمة المفضل بن منصور قال أن الحليلة ووقش وكانت الهجرتان مشحونتين بالعلماء الأفاضل.

وينسب إليها الفقهاء بنو الحليلي ومن فضلائهم الحاج محمد بن يحيى حميد الدين ومنهم سيدنا محمد الحليلي والحاج محسن بن لطف الحليلي مولده ١٢٧١ هـ كان فقيهاً فاضلاً وقد أجازته عدد من العلماء ومنهم السيد العلامة

(١) معاقل العلم ودور الهجر» تأليف القاضي إسماعيل الأكرع وقد أطلعني على المخطوط بداره في صنعاء.

داود بن عبد الرحمن حجر القديمي والسيد العلامة محمد بن عبد الرحمن الشرفي الزبيدي توفي بصنعاء ١٣٤٧هـ.

والفقيه الفاضل الكامل أحمد بن سليمان صاحب الحليلة كان عالماً فاضلاً وكان معاصراً للإمام أحمد بن الحسين وسكن بها عمرو بن منصور بن جبر العنسي العباسري أحد العلماء المشهورين انتهى حديث القاضي الأكوخ.

المسجد الأول

مسجد [الزلام] كان للرجال ثم خصص للنساء وهو مسجد قديم به أربع طاقات تضاء فيها السرج أيضاً به حجران مربعان عليهما نقوش «حميرية» ويروى أن المسجد بني على عهد الصحابة.

جامع الحليلة

يقدر تاريخ بناءه للإمام الهادي حوالي ٨٢٠هـ وهو مسجد مستطيل الشكل به محراب مزين بالنقوش. وليس له منبر وحول المحراب نقشت آيات من القرآن الكريم آية الكرسي وبعض آيات أخرى وكلها من غير نقط.

ويقوم المسجد على اثني عشر عاموداً من الحجر المعروف بـ«حبش» وأربعة أبواب وعدة طاقات وهي طاقات «غير نافذة» وسقفه من شجر الطنبد وطريقة السقف تشبه السقف البلدي في السودان.

وفي الركن الجنوبي الغربي ضريح منصور بن نصر العباسري وملحقة به غرفة للضيوف وأخرى تسمى المغسل بها لوح عريض يشبه «النقالة» يغسلون عليه الجنائز.

وفي ساحة المسجد نبع جارٍ ويسمى عندهم «الغيل» وماؤه عذب صافٍ يتدفق من أعالي جبل الحليلة وفي وسط قرية الحليلة غسيل تستقي منه البلدة كلها..

الثالثة «غنى» أبوي الشيخ حسن ود حسونة.

وكان الرجال الثلاثة من ألمع مشايخ السلف الصالح وقد سبقوا الشيخ العبيد بحوالي قرنين من الزمان وعرف الشيخ فرح بسماحة الأخلاق وطراوة اللسان وصياغة الحكمة التي يستسيغها العامة والخاصة وكثير من أقوال الشيخ فرح تنسب للشيخ العبيد كما تنسب أقوال الشيخ العبيد للشيخ فرح للتقارب الشديد بينهما في النهج والأسلوب.

أما الشيخ إدريس ود الأرباب فقد بز أهل عصره في السخاء والكرم وهو أمر معروف عند كل الناس أما الغنى «الثراء» فقد وقع على الشيخ حسن ود حسونة وقد استجاب الله بفضله ومنه وحقق له دعوتين أما الثراء فلم يتحقق للشيخ فكل درهم يقع في يده كان ينفقه في التو والحين فلم يدخر مالا ليحسب نفسه من الأغنياء «ويحسبه الناس».

طائفة من أقواله وحكمه:

كان أحد الحكام الأتراك يميل نحو التدين وكان يزور الشيخ العبيد الفينة بعد الأخرى وبعد ظهور المهدي أرسل الحاكم التركي رسولا يسأل الشيخ العبيد عن رأيه في المهدي فرد الشيخ بطريقته المعروفة:

كان مهدي جيداً لينا

واكان ما مهدي شين لينا

سمع الشيخ العبيد أن رجلاً متحمساً قاوم الجيش التركي فتصدت له قوة جيش الحكومة وقتلته وأنصاره فلما سمع الشيخ العبيد الخبر تأسف وترحم على الرجل وقال قوله المشهورة:

أخونا فلان أذن قبل دخول الوقت

وفي رواية - صلى قبل دخول الوقت
ومن أقواله:-

نعمة الأمير إن زار الفقير
وبئس الفقير إن زار الأمير

القادر ما تقادرو
الاضيق ما تعاذروا
وما تشهد على الماك حاضروا

العنده حبة من الرئاسة
ما تكمل معاه الفراسة

الماعنده ضهر
وما بحمل السهر
ووشو مافيه قهر
هو اليجز ومرتو التهر

توضا صحيح
صل صحيح
وإن سألك قول قولاً نصيح

خلاصة القول لم أجد أثراً مباشراً لغلام الله وظني أنه درس القرآن ههنا في
حليمة بني مطر ومنها خرج إلى «زيلة» فجزر البحر الأحمر الأخرى حتى دخل
السودان والله أعلم.

الأمر في النهاية مع الاتجاه والموضوع والشيخ الذي يلائم استعداداه وميوله كل هذه المزايا جعلت المسجد يخرج القادة والعباقرة.

حلقات تحفيظ القرآن:

تعود فكرة إنشاء هذه الحلقات في العصر الحديث إلى أحد تجار باكستان هو فضيلة الشيخ محمد يوسف سبتي فقد أنشأ في باكستان مئات المدارس التي يرتادها الطلاب بعد الفراغ من دراستهم الرسمية وقد عرض الفكرة على العلماء فلقيت ترحيباً تاماً. وتشكلت في مكة جماعة تشرف على تنفيذ هذا المشروع وعرفت باسم «جماعة تحفيظ القرآن» وعين الشيخ محمد يوسف سبتي رئيساً. أما الأعضاء فهم:

الشيخ علوي عباس مالكي	نائب رئيس
الشيخ عبد الله بن عقلا	عضواً
الدكتور غلام مصطفى	عضواً
الشيخ محمد صالح قزاز	عضواً
الشيخ عبد الله الساسي	عضواً
الشيخ محمد عبد الهادي عقيل	عضواً
الشيخ صالح باخطمه	

أما الأموال اللازمة لهذا المشروع الخيري فقد جاءت من عدة مصادر نذكر منها.

تبرع صاحب الفكرة بتسديد ثلث رواتب المدرسين وفي عام ١٣٨٧ توقف عن المساعدة لظروف مالية قاهرة فتعهد صاحب المعالي حسن الشربتلي بدفع راتب شهري قدره ٥٤٠٠ ريال.

الكتاتيب:

ظهر الكتاب كمؤسسة تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامي والكتاب هو المؤسسة التعليمية التي وجدت في المجتمع الإسلامي لتقوم بتربية صغار المتعلمين سمي الكتاب بهذا الاسم نظراً لأن الطفل كان يتعلم فيه الكتابة والقراءة ثم عم هذا الاسم بحيث أصبح يشمل كل مؤسسة تعليمية تعنى بتربية الصغار حتى ولو لم تكن القراءة والكتابة مادتها الدراسية الوحيدة فقد أطلق هذا الاسم على مؤسسات تعليمية كان همها الأول تعليم الطفل وتحفيظه القرآن الكريم.

تعليم القرآن

ينسب إلى GOIDZINET مقالاً مهماً في دائرة «معارف الأديان والأخلاق» عن التعليم الأولي عند المسلمين وقد حاول فيه أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي قد أنشئ في عهد مبكر وأنه يرجع إلى صدر الإسلام وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية:

أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول ﷺ مرة إلى معلم كتاب. تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها في ندف الصوف وغزله.

٢- كان اللوح المخصص للكتابة موجوداً في وقت مبكر جداً فلقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات في الحكمة ليقلمها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة صفحة ٤٩ و ٥٣ و ١٩.

وذكر ياقوت في معجم الأدباء عن كتاب أبو القاسم البلخي من أنه يتعلم به ٣٠٠٠ تلميذ ومثل هذا العدد الضخم يوحى بأن هذا النوع من الكتاتيب كان في نهاية القرن الأول ومطلع الثاني.

أما عن المكان الذي كان يوجد به الكتاب من هذا النوع فقد وردت توصيات

كثيرة بأن لا يكون في المسجد، ومن ذلك ما قاله الإمام مالك حينما سئل عن ذلك لا أدري ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفظون من النجاسة.

وقد ورد في كتاب الحسبة ما يؤيد ذلك فقد نصت على أنه لا يجوز تعليم الأطفال في المسجد لأن النبي ﷺ أمر بتنزيه المسجد من الصبيان والمجانين لأنهم يسودون حيطانها ولا يتحرزون من النجاسة بل يتخذ لتعليمهم «حوانيت» في الدروب وأطراف الأسواق.

وهناك من يرى أن الكتاب كان معروفاً عند العرب. وخاصة في مكة. بدليل وجود سبعة عشر رجلاً من قريش كانوا يعرفون القراءة والكتابة عند مجيء الإسلام.

والواقع أن هذا الاستنتاج غير قطعي فالقريشيون كانوا على اتصال بالأمم المجاورة لاشتغالهم بالتجارة فهناك احتمال كبير بأنهم أخذوا القراءة والكتابة عنهم اتصلوا بهم على أن الأمر الذي لا جدال فيه أن عدد الكتاتيب قد ازداد بمجيء الإسلام نتيجة للعوامل الآتية:-

١/ أن الدين الإسلامي يحث على القراءة والكتابة فأول كلمة نزل بها الوحي على محمد ﷺ هي كلمة «اقرأ» كما أن الرسول كان بحاجة لكتاب يكتبون ما ينزل عليه حفظاً له من الضياع أو التبديل.

٢/ اتساع الدولة الإسلامية فهذا العامل أدى إلى نشر الدواوين لتنظيم إدارة الدولة على أسس سليمة فكان لا بد لكل من أراد الانخراط في الخدمة بها أن يكون ذا إلمام بمبادئ القراءة والكتابة.

وقد ظهرت في المجتمع الإسلامي أنواع متعددة من الكتاتيب. فهناك كتاتيب تعنى بتعليم مبادئ القراءة والكتابة كما كانت هناك كتاتيب لا تعلم إلا الخط وأخرى معنية بتعليم القرآن الكريم. يقول ابن بطوطة «ومعلم الخط غير معلم

القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها. ولا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً له فيصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب لأن معلم الخط لا يعلم غيره.

ويؤكد ابن خلدون هذا إذ يقول عند وصفه لحالة التعليم في بلاد المشرق الإسلامي.. ولا يخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما تتعلم سائر الصنائع. ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان. وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة. وقد اختلف في الوقت الذي ظهرت فيه الكتايب المتخصصة في تعليم القرآن الكريم. فيرى «جولدزيهر» مثلاً أنها ظهرت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام حينما يرى الدكتور أحمد شلبي أن مثل هذا النوع من الكتاب لم يظهر إلا في نهاية القرن الأول أو القرن الثاني للهجرة. فأقدم أنواع الكتايب هي تلك التي كانت تعلم مبادئ القراءة والكتابة ويدلل على صحة رأيه هذا بالحجج التالية:

١/ قلة حفظ القرآن. ويستشهد بهذا الصدد بقول ابن العربي من أن غالبية الأئمة لا يحفظون القرآن الكريم. والواقع أن هذا السبب غير مقبول إذ لا يشترط فيمن أراد تعليم القرآن أن يكون من حفظته ولا يوجد في تاريخ التربية الإسلامية شاهد يؤكد ذلك الرأي. فالصحابة رضوان الله عليهم كانوا يعلمون غيرهم ما يحفظونه من القرآن الكريم^(١).

٢/ لقد كانت هناك مهام وأعمال ضخمة تنتظر حفظ القرآن لذا لا يعقل أن ينصرفوا عنها إلى تعليم الأطفال. ونرد على هذا بقولنا أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وما الآيات والأحاديث والأقوال المأثورة التي وردت في بداية هذا الفصل إلا دليل على مدى حرص الإسلام على العلم ونشره.

(١) التعليم في مكة والمدينة - الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ - دار العلوم الرياض صفحة ١٢ - ١٤٠٢

بل إن الفتوحات الإسلامية وخروج المسلمين لنشر الإسلام كانت تحتّم قيام مؤسسات تعليمية تعلم أبناء المسلمين دينهم الحنيف كي يقوموا بنشره في الخارج.

٣/ يستشهد بأقوال ابن بطوطة وابن خلدون التي وردت قبل قليل «أحمد شلبي» وإذا تفحصنا تلك الأقوال وجدنا أنها تنص على انفصال كتاب الخط عن كتاب القرآن الكريم ولا يوجد ما يشير إلى أنها جاءت متأخرة بل إن ابن بطوطة يذكر أن الصبي ينقل بعد الانتهاء من الدراسة في كتاب القرآن إلى كتاب الخط. وهذا نابع من حرص المسلمين على تعليم أبنائهم القرآن الكريم في وقت مبكر.

من هنا نرى أن حاجة المجتمع الإسلامي كانت تدعو منذ البداية إلى قيام الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة.

لقد وجد الكتاب جنباً إلى جنب جوار المسجد يسهم في نشر نور العلم والمعرفة وكان الكتاب يتخذ من المسجد مقراً له في بعض الأحيان.

وينطبق هذا القول على الكتاتيب في مكة المكرمة إذ أن بعض معلمي الأطفال كانوا يقومون بتأدية رسالتهم في المسجد الحرام. وهذا يتضح من حديث الناس عن أحمد بن أبي الخير القسطلاني إذ يقول وصار يكتب الوثائق ويسجل على الحكام مع تأديته للأطفال بالمسجد الحرام تحت مأذنة باب علي.

كتاتيب مكة

كانت الكتاتيب القاعدة الأولى للتعليم الأهلي. وكانت هذه الكتاتيب منتشرة آنذاك في أحياء مكة.

وقد تحدث سنوك هرجرونجة الذي زار في أواخر القرن التاسع عشر عدة كتاتيب.

ووصف تقاليدهم العلمية وصفاً دقيقاً مفصلاً. كما تحدث الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاروي عن كتابات مكة ومناهجها في مطلع القرن العشرين قال:

كانت الكتابات في مكة المكرمة أول معرفتي بالحياة أكثر من أن تحصي وأشهر كتاب كان كتاب الشيخ عبد المعطي النور في الشبيكة وكتاب الشيخ فودة في أحياد وكتاب الشيخ أحمد حمام في حارة الباب ولا تخلو محلة من كتاب أو أكثر طول أم القرى وعرضها وكان من أهم الكتابات في حدود عام ١٣٢٦ و١٣٣٠هـ.

كتاب الشيخ عبد الله السناري «حَمْدُو»^(١) وكان من عرفائه الشيخ مصطفى يغمر وكان حملة أساتذة الكتاب الشيخ أحمد السوركتي^(٢) الداعية الإسلامي الكبير بجاوا. والسيد أحمد مجاهد وغيرهما من رجال التعليم المخلصين. وكان المنهج في أكثره تحفيظ القرآن والإملاء والخط والحساب.

وكانت هناك مواسم وأعياد للكتاتيب. فإذا ما ختم أحد التلاميذ من بنين وبنات القرآن غيباً أو نظراً أو وصل إلى حد محدود من ذلك في المصحف الشريف أقام له أهله حفلاً عظيماً سواء كان ذكراً أو أنثى. وطاف به أو بها في موكب شعبي يطوف شوارع البلد في نسق جميل وعرض شائق وتكون الألواح مرفوعة فوق الرؤوس احتراماً وإعظاماً لما تضمنته من آيات الذكر الحكيم.

وكانت معاشر الحلوى - الباستا أو السمسمية أو الانبوتة أو البنات الحموي أو هما معاً تقدم للعرض.

وأصوات المنشدين تردد الدعوات الصالحات والابتهالات المشجية وكما

(١) عبد الله السناري المشهور بـ «حمدو» مواطن سوداني وله عقب في مكة المكرمة وكان من شيوخ القرآن في الحرم ويرجع أصله إلى بلدة دنقلا.

(٢) أحمد سوركتي داعية إسلامي مشهور في أندونيسيا من أهالي دنقلا.

كانت تقام للأولاد فهي للبنات وكن مع الفقيهة أو العريفة والخدمات والوصيفات ينتظمن صفوفاً في مربعات أو مسدسات ويجلسن ما اتسع لهن الوقت في الطرقات من الكتاب إلى الكتاب. تماماً كما كانت الحال في القرافات والاملاكات وفي الزفاف والصرارات وربما صحب ذلك في الأولاد خاصة بعض الدفوف أو ما يسمى بالطاسة والزيز، ويعقب ذلك دعوة عامة للطلبة أو الطالبات في دار الفائز الناجح.

الكتاتيب بمكة في القرن الحالي

كانت الكتاتيب في أوائل القرن الهجري الحالي منتشرة في كل حارة ومهمتها ختم القرآن مجوداً وتعليم التلميذ القليل من مبادئ القراءة والكتابة وهناك كتاتيب خاصة بتعليم الخط والحساب وأشهر تلك الكتاتيب كتاب الشيخ فرج غزاوي وكتاتيب أولاده عبد الله غزاوي وسليمان غزاوي وتاج الدين غزاوي.

ويجلس الطلاب جميعاً أرضاً وغالباً ما يكون هؤلاء متفاوتين في السن فيهم الكبير والصغير. ويقسم المعلم - وكان يدعى «الفقيه» - التلاميذ إلى مجموعات ويختار من بينهم العرفاء ليساعدوه في التخطيط ويمكن إيجاز حال الكتاتيب في النقاط التالية:

١/ لم تكن الكتاتيب تراعي مبادئ الصحة العامة كما أن الأثاث الذي يضمه الكتاب في جنباته جد بسيط ويصف الأستاذ عمر عبد الجبار الكتاتيب بقوله وكان الكتاب في ذلك العهد عبارة عن حجرة مفروشة بحصر بالية وأزيار مكشوفة يشرب منها الأطفال وفيهم الصحيح والمريض وقد يكون المرض معدياً. فينشرون العدوى بين الأصحاء باختلاطهم في الجلوس على الحصر والشرب من إناء واحد.

٢/ لم تكن ذات مستوى دراسي جيد فقد يقضي الطالب وقتاً طويلاً ومع هذا تبقى حصيلة معرفته محصورة في الحروف الهجائية ولعل ذلك راجع لعدة عوامل منها جمود أساليب التدريس ثم استغلال التلميذ وتكليفه بأعمال كثيرة خدمة

للفقيه. فالتلاميذ مكلفون بالمحافظة على شربته أو شراء كل ما يحتاج إليه من السوق ويصف المؤرخ أحمد السباعي حالة الكتائب وصفاً دقيقاً. ومما قاله بهذا الصدد وكنت أشارك في بعض هذه الخدمات أو أكثرها لأن «سيدنا» كان لا يدين كثيراً بمبدأ التخصص. وكان يميزني ويختصني برعاية باللغة في بعض الأحيان فيسلمني نعاله أمضي بها إلى العم «جابر الخراز في رأس المدعي» أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل إليها زنبيل المقاضي وأقضي عندها وقتاً غير يسير أعاونها في غسل الصحون والأطباق.

٣/ أهم ما كان يفرح التلاميذ ويدخل البهجة إلى نفوسهم الاحتفالات التي تقيمها الكتاب والاحتفالات نوعان:

الأصراف

وهي احتفال بسيط يقام في الكتاب إذ يأتي أهل التلميذ إلى الكتاب ليستمعوا السورة التي بلغها ابنهم من القرآن الكريم.

وحينما ينتهي التلميذ من قراءتها من اللوحة يقدم أهله بعض الهدايا للفقيه وتوزع الحلوى على التلاميذ ثم يعلن ذلك اليوم إجازة للجميع ابتهاجاً بالتحصيل العلمي الذي وصله أحد تلاميذ الكتاب.

الأقلابة^(١)

ينقلب الكتاب في هذا الاحتفال رأساً على عقب إذ يلبس التلاميذ أبهى الملابس ويقفون في صف واحد بحيث يأتي أصحاب الملابس اللامعة والنظيفة في المقدمة. ويسيرون وهم ينشدون حتى يصلوا بيت زميلهم فيستقبلهم ممطياً جواداً.

(١) أيام الأصراف والأقلابة - جريدة قريش عدد ٢٠٥ - ١٠/٧/١٣٨٣هـ - ٢٧/١١/١٩٦٣م. الفزاري -

التعليم في مكة والمدينة ومحمد عبد الرحمن الشامخ - دار العلوم.

ثم يسير الموكب في شوارع مكة يتقدمهم المحتفى به حاملاً لوحه وقد كتب عليها السورة التي بلغها ومما يجدر ذكره أن وصوله إلى تلك السورة هو سبب الاحتفال الكبير.

ثم يعود الموكب إلى بيت المحتفى به حيث يتناول الجميع الطعام.. لقد دارت عجلة الزمن وحلت رياض الأطفال والمدارس الابتدائية الحديثة محل الكتاتيب ولكن هناك من يرى أنه ما زال بإمكان الكتاتيب أن تلعب دوراً في تنشئة الأطفال شريطة أن يعاد النظر فيها من الأساس وينطلق الدكتور عبد الحميد الهاشمي في دعوته هذه من ثلاثة حقائق:

١/ انتشار الأمية والتخلف في أرجاء العالم الإسلامي.

٢/ التزايد المطرد لعدد السكان وهذا يعني تزايداً مستمراً في إعداد من هم بحاجة للالتحاق بالمدارس.

٣/ على الرغم من اهتمام الدول الإسلامية بنشر العلم فإن قسماً كبيراً من دخولها يتجه نحو أمور أخرى كنفقات الدفاع.

إن تطوير الكتاب قد ينتج عنه أحد احتمالين. أن يبقى الكتاب القديم محافظاً على خصائصه الرئيسية وفي مثل هذه الحالات فإنه يفي بحاجات الفرد والمجتمع. فالكل يعلم أن القراءة والكتابة ليست هي كل ما تصبو إليه التربية وأما أن يكون التطوير جذرياً بحيث ندخل في حسابنا تنمية القيم والاتجاهات واتباع الوسائل التربوية الحديثة. وإذا فعلنا ذلك فإننا نكون قد أنشأنا مدرسة ابتدائية حديثة.

التعليم والتقاليد^(١)

ومن التقاليد الاجتماعية التي تتصل بالتعليم في المملكة العربية السعودية أنه

(١) المهرجان الوطني للتراث والثقافة - الجنادرية - مطبعة الحرس الوطني - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

كان في فترة ما مقصوراً على حلق التعليم في المساجد وفي المدارس «الكتاتيب» وقد كان في مدينة الرياض أكثر من خمس وعشرين مدرسة في أنحاء المدينة قبيل نصف القرن الرابع عشر الهجري.

والمدرسة أو «الكتاب» عبارة عن غرفة واسعة تكون غالباً قرب المسجد ويتلقى الأطفال فيها أصول التعليم ويقوم بعبء التعليم فيها شخص واحد يدعى «المطوع» وفترة التعليم اليومي في هذه المدارس ثلاث ساعات في فترة الصباح وساعة واحدة بعد الظهر وساعة واحدة بعد العصر وتستمر هذه المدارس في أداء وظيفتها شتاءً وصيفاً وتلك المدارس حرزها النظافة وهي مفروشة بالحصباء أو الحصر أحياناً.

ومنهج تعليم الهجاء في تلك الكتاتيب معقد للغاية حيث يبدأ التلميذ بالتعرف على حروف الهجاء حرفاً حرفاً عن طريق التلقين ثم الكتابة في اللوح ومحوه وكتابته مرة ثانية مع مزيد من الحروف الهجائية.

وعملية تعليم المطوع قاصرة على كتابة الحروف ثم امتحان التلميذ في مدى إتقانه بواسطة خطها على الأرض مع «استظهار وحفظ» اللوح لمعرفة ما إذا كان أتقن كتابة الحرف وبعد ذلك ينتقل التلميذ إلى قاعدة تعليم الحرف مع الحركات والتنوين «بدون شد» أو الحركة مع الشد وتقلب هذه القاعدة «بالشد القصير» و«الشد الطويل» وبعد ذلك يظل التلميذ يكرر هذا المستوى إلى أن ينتقل إلى قاعدة أشد تعقيداً وهي تعليم الحروف بجميع صورها الحركية وتدعى تلك القاعدة «العبيبة» وهذه القواعد الهجائية ليست من السهولة إتقانها لذا فإنها تعتبر أزمة في لغة الطفل آنذاك ولا بد من اجتيازها وبعد فترة من الزمن أو بعد إتقان تلك القواعد ينتقل التلميذ إلى تعلم الكلمات في شكل أسماء وتدعى هذه العملية «الأساس» ومن ثم يبدأ الطالب في تعلم القرآن مبتدئاً بقصار السور ويطلق على المرحلة الأولى وهي تعلم قواعد الحروف والكلمات عملية «الهجرة» أو «الألف».

ويتم تعليم القرآن بالتدريب على نسخ قصار السور من القرآن الكريم على اللوح الخشبي الذي يحمله معه وهو عبارة عن لوح من الخشب مستطيل الشكل بما يقرب من «٤٠ سم» وعرض «٢٠ سم» وله مقبض في أعلاه وعندما يمتلىء اللوح يغسل ويبيض بالحجير أو الحجر الرملي.

أما المواد التي تستخدم في الكتابة في هذا اللوح فهي غالباً مواد محلية بسيطة فالحبر يصنع من قشور ثمر الرمان مع [الزاج الأسود] مضافاً إليهما شيء من الصمغ «والهباب» الأسود أما الأقلام إنها من قصب الذرة وأغصان شجرة التين.

وأجرة المعلم في هذه الكتابات عبارة عما يناله من الصدقة والزكاة وهبات أولياء أمور الطلاب من النقود أو المنتجات الزراعية. وبعضهم يأخذ أجراً نقدياً مرتبطاً بفترات زمنية محدودة مثل فترة «القيظ» و«الصيف» و«الخريف» و«الشتاء» ومناسبة الأعياد ومناسبة الانتقال من فترة تعليمية إلى أخرى مثل الانتقال من الهجاء إلى تعلم الكلمات ثم البدء في قصار السور ثم بعد ختم جزء عم وجزء تبارك وجزء من قد سمع ثم ينتقل إلى تعلم القرآن كله حتى حفلة الزفاف التي تعقد عند انتهاء القرآن وتسمى تلك المناسبة الزفة.

وفي فصل الشتاء يحضر الطلاب معهم ما يستطيعون حمله من الحطب يومياً يوقدون جزءاً منه في المدرسة للتدفئة أما بقية الحطب فيستحوذ عليه المطوع.

ومن التقاليد المعروفة والتي لها ذكريات في نفوس الأطفال حفلة القرآن الكريم وتدعى «الختمة» حيث يقدم للمعلم هدية كبيرة في ذلك الزمان وهي عبارة عن عشرين ريالاً نقداً وبعض الأغنياء وكبار الفلاحين يقدمون للمعلم كمية من الطعام والإنتاج المحلي ويبدأ الأهل في الإعداد «للختمة» حيث يعدون وليمة دسمة في الصباح الباكر ويحضر طلاب المدرسة وأولاد الجيران وربما تلاميذ وطلاب مدارس أخرى يشاركون في حفلة «الخاتمة» وهي عبارة عن دعاء ختم

القرآن الكريم يلقي للطلاب كلمة كلمة والطلاب وولي الأمر يؤمنون.

أما حفلة يوم «الزفة» وغالباً ما تكون يوم السبت فإن ولي الأمر يحضر بعض الخيول وبعض السيوف وكل طالب يحضر سيفه أو سيف والده أو السلاح الذي يمتلكه والده، ويلبس الطلاب أحسن ثيابهم وربما اعتجروا العقل ولبسوا الثياب ولبسوا الثياب الفضفاضة ذات الأكمام الطويلة المسماة «المردون» فيركب من حفظ القرآن إحدى تلك الخيول ومعه من يتقن ركوب الخيل كما يركب أقاربه بقية الخيول ويعبر الطلاب وفي مقدمتهم الخيل الشوارع والأحياء ويصطف الناس في جنبات الطريق وبعضهم يجهش بالبكاء فرحاً بهذه المناسبة ويشارك الحيران والد حافظ القرآن الفرحة، وقبل الظهر يذهب حافظ القرآن على فرسه ويتجه مع الصغار إلى قصر الإمارة وبالذات إلى الملك.

أهزوجة الختمة:

صومعية لومعية	حافظ حافظ كل الثلاثين
حافظ حافظ جزء عم	يا فرس لا تجدعيه
مسع ياسمين	يا فرس توه صغير

الحياة العلمية والثقافية والفكرية^(١)

في المنطقة الشرقية

كان التعليم بمفهومه التقليدي معروفاً وسائداً في واحتى الأحساء والقطيف واللتين كانتا من المراكز التعليمية القليلة والمتميزة في جزيرة العرب. وكان وسائل التعليم وطرقه في المنطقة قبل بدء التعليم الرسمي في العهد السعودي متعددة ومختلفة ومن أهمها:

أ. الكتاب

كان السكان يرسلون أبناءهم إلى الكتاب عندما يقتربون من سن السابعة من أعمارهم. وكان يطلق على معلم الصبيان لقب «المطوع» أو «مُلاً» وهو لقب عثماني. ولم يكن في الكتاب مستويات دراسية متميزة أو مستقلة. وكان [المطوع] هو المعلم الوحيد في الكتاب ويقوم بتدريس جميع المواد وإن كان يستعين في بعض الأحيان ببعض طلابه المبرزين بتدريس المستجدين والضعفاء من طلابه. وكان المكان المعد للتدريس عبارة عن غرفة من غرف منزل «المطوع» يخصصها لهذا العمل. إلا أن بعض المعلمين المشهورين والذين يكثر طلابهم كانوا يقومون أحياناً باستئجار مبنى يستخدم خصيصاً للتدريس، وأول من فعل ذلك هو الشيخ عبد اللطيف بن عبد العزيز آل مبارك إذ استأجر داراً وجعلها كتاباً لتعليم الخط والحساب والإملاء عام ١٣٥٥هـ.

وكان الكتاب عبارة عن غرفة تفرش أرضيتها بحصيرة يجلس عليها الصبيان ويواجهون «المطوع» الذي يتميز في الغالب بالهيبة والشدة حيث كان يحمل باستمرار عصا لا يخل في استخدامها عند الحاجة إليها، بل ويستخدم أيضاً الفلقة

(١) الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية تأليف الدكتور عبد الناصر السبيعي.

«الجحيشة» ولذا كان المطوع ذا شخصية وقورة ومهابة.

ولا تستخدم في الكتاتيب كتب أو دفاتر خاصة في المراحل الأولى من الدراسة فقد كان التدريس عموماً يركز على تعليم قراءة القرآن الكريم والتجويد وحفظ القرآن الكريم ومعرفة قراءته دون سواه من النصوص المكتوبة، وكان كل ما يلزم الملتحق بالكتاب إحضار لوح خشبي يعده النجارون خصيصاً لهذا الغرض، يقوم المطوع بحفر حروف الهجاء عليها ليقوم الصبي بتهجيتها باستمرار، حيث يحمله يومياً إلى منزله وإذا أجاد الصبي معرفة قراءة الحروف الهجائية طلب منه المطوع أن يحضر جزء عم، ومن ثم يتدرج في تعلم حفظ القرآن الكريم كاملاً، وكان الطريقة المتبعة في تدريس القرآن الكريم أن يتلو «المطوع» الآية كلمة كلمة ثم يرددها الصبية حتى يحفظوها. فإذا ختم الصبي السورة عادة وتلاها مرات إلى أن يتأكد «المطوع» أن الصبي قد حفظها. وغالباً كان يمكث الصبي في الكتاب ما بين سنة وأربع سنوات كل حسب قدرته.

وتنقسم الكتاتيب في المنطقة إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

١/ كتاب خاص بتدريس القرآن الكريم وحفظه وتجويده.

٢/ كتاب يقوم المطوع فيه بتدريس القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة.

٣/ كتاب خاص بتدريس الحساب والقراءة والكتابة ومسك الدفاتر.

وكان في الأحساء وحدها ما يزيد على ثلاثين كتاباً من تلك الأنواع مجتمعة كما كان هناك عدد كبير من الكتاتيب في القطيف والدمام والجبيل والخبر والعيون تقوم بالدور نفسه.

وكان من المعتاد أن يستمر الصبي الذي يختم القرآن الكريم إذا كانت ظروف والده ورغبته مشجعة، في تعلم القراءة والكتابة في نفس الكتاب إذا كان «المطوع» قادراً على ذلك، أو أن ينتقل إلى الكتاب المتخصص في تعليم القراءة

والكتابة. وكان الورق المستخدم آنذاك يعرف باسم «الكاغد» أما الحبر فكان يصنع محلياً من الشب الأسود وندى الخوخ «العنكيش» بعد سحقه جيداً. وكان أدوات التعليم ووسائلها تحفظ في الصندوق بعد انتهاء الدراسة ويظل الصندوق في الكتاب حتى يتخرج الطالب منه.

وكانت مناسبة الاحتفال بختم القرآن الكريم وحفظه تعد مناسبة اجتماعية كبرى للابتهاج والفرح. فبعد أن يتأكد المطوع من إجادة تلميذه لقراءة القرآن وحفظه وترديده له سبع مرات متتالية «وهو ما يسمى بالتجويدة» تبدأ مراسم الاحتفالات بأن يلبس جميع الدارسين في الكتاب ملابس جديدة ويتحلى القادرون منهم بالسيوف والخنجر ويقومون بارتداء العباءات والعقل. ويبدأ الموكب في التحرك من الكتاب يتقدمه خاتم القرآن ومعلمه «المطوع» ويبدأ الجمع في التطواف على بيوت تجار البلد وأعيانها ويقومون بتأدية رقصة العرض المشهورة وترديد التحميدة عند كل بيت يمرون به، وكان البعض يبالغ في حمل مباخر العود ومراش العطور^(١) وكان المتعارف عليه أن يحضر والد خاتم القرآن المحتفى به شخصاً متخصصاً بحفظ الأناشيد والأهازيج الدينية متقناً لأدائها خاصة التحميدة التي تردد طيلة طواف الموكب في الأحياء وأمام المنازل. وكان التلميذ المحتفى به وصحبه ينتقلون من بيوت زملائهم حسب الدعوات الموجهة للاحتفاء بهم، محترقين الأحياء والطرقات أما التحميدة التي تردد في تلك المناسبة فقد سميت بذلك لأنها تبدأ بحمد الله.

وكانت عادة الاحتفال بخاتم القرآن الكريم تعد ظاهرة اجتماعية متميزة ففي نهاية الاحتفالات يقيم والد المحتفى به مأدبة غداء كبرى يحضرها معلم الصبي وزملاؤه وأفراد عائلته. وفي تلك المناسبة السعيدة يقوم والد خاتم القرآن الكريم بإهداء المعلم هدية خاصة غالباً ما تكون مبلغاً من المال، وهذه تعتبر مكرمة خاصة

(١) المهرجان الوطني للتراث والثقافة - الرياض مطبعة الحرس الوطني ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

ولا علاقة لها بالمكافأة المتفق عليها مسبقاً.

وكان دور الكتاب التعليمي ينحصر في إجادة الصبيان لقراءة القرآن الكريم وتجويده والإلمام بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة والحساب.

ولم يكن خريجوا الكتاب يحصلون على شهادات أو وثائق أو توصيات علمية تثبت المستوى الذي وصلوا إليه، أو تدل على مدى إتقانهم وإجادتهم لما درسوا في الكتاب.. وسبب ذلك أن أصحاب الكتاتيب لم يكونوا مؤهلين لإصدار تلك الوثائق الدراسية.

صورة من الماضي، الطاسة والزير،

كان لا بد من الاحتفال بـ«الأصراف» إذا أتم الغلام جزءاً من القرآن تجويداً على الأقل.. أو حفظاً أو بـ«الأقلاية» إذا ختم القرآن كله.. وكذلك الفتاة الصغيرة التي كان لها حظ في هذا المجال عند من يسمونهن «الفقيه» وقد أدركنا عدداً منهن قبل الثلاثين من هذا القرن.

وقرأنا عندهن أطفالاً وهن ملء الصون وقاراً وحشمة وعفة وهيبة وقد يجمع «الكتاب» الفقيهات من الجنسين فيما دون البلوغ معاً، وأكثرهم من ذوي الأسنان التي لا تتجاوز العشرة أو الاثني عشر عاماً.. كما أن من الكتاتيب «الأولاد» من يشتمل على «فتيات» لمجرد الحفظ والقراءة والكتابة أيضاً على اللوح من الخشب.. يكتب فيها «بالحبر الأسود وجمزية» وبالأقلام المبرية وتمحي الألواح في مركز من الماء باليد غسلاً.. ثم تبيض بما يسمى «المضر» من الوضر أو السودان وتعرض في الشمس حتى تجف.

وكانت «الطاسة والزير» تتقدم المواكب والاحتفالات بقدوم «الصرارات» في ركوب الزوار وأيضاً في الزفافات والختانات ولاسيما في هذا الاحتفال الذي يتصدره «الفقيه أو الفقي» أو سيدنا المفضل، وإلى يمينه «العريف» وهم يرددون

الأناشيد المناسبة فرحاً بنبوغ المحتفل به. أو بها ويختارون الشوارع الخاصة..
والعامة والخاصة في عرض مهرجاني رائع.. وصدى الطبلين «الطاسة والوزير»
يدوي بين «الأخشبين».

الغدفة والغدفة

كانت الفتاة الصغيرة - منذ عرفنا الحياة - تأخذ بنصيحتها من التعليم الأولي في
«الكتاب» بضم الكاف وتشديد التاء وتقوم بالتدريس فيه امرأة حازمة مهيبة، ذات
سمعة حسنة وفتوح وتوفيق، ويطلق عليها «الفقيهة» وكان من حق الطفل الصغير
أن يشارك البنات مع أخته في التلقي إذا كان فيما دون العاشرة من عمره، وكانت
الكتاتيب من هذا القبيل لا تكاد تخلو منها محلة في مكة أو جدة أو المدينة أو
الطائف، وكل ما يدرس بها ينحصر أولاً وقبل كل شيء في «فك الحروف» ويبدأ
بالتهجّي ويتطور إلى القراءة والحفظ ومعرفة ما لا غنى عنه من أمور الدين
والعبادات مع الخط والإملاء ومبادئ الحساب.

وكنا نرى أسرابهن مغدفات بما يسمى «الغدفة» التي تحجب الوجه كله
ويبدو من الصبية والفتاة حتى أطراف يدها فإنها تستره بالملاءة أو الملاية..
وتحمل في يدها صباح كل يوم «القفة» المزركشة التي تصنع محلياً وتحلى باللوان
من الأخضر والأصفر والأحمر ولها «دنادش» وشرافات، وتحتوي على ما تزود
الأم ابتتها به من غذاء أو «تصبيرة» أو حلوى أو فاكهة... وبشيء من «دقة الملح
المبزر» وكسرة من الخبز أو «الشريك» بضم الشين وهي بدورها لا تبخل على
لداتها بما توفر لها وتغذر عليهن من نعمة الرغد أو الكفاف وربما أثرت بشيء من
ذلك أو بأغلاه «الفقيهة والعريفة» جلباً لرضائها واستزادة من عنايتها ورعايتها ومع
الإغداغ عليها بالأسبوعية التي تسمى «الخميسية» وهو ما يدفع مقابل ما تبذل من
جهد ومال لاستئجار المنزل وتحضير المال واحتمال أعباء التربية والتفرغ لها حتى

إذا بلغت التلميذة الحد الذي تتمكن معه من أداء فروضها أو استطاعت أن تختتم سوراً من القرآن غيباً أو نظراً وفاقت قريناتها.. منحت من أهلها «الاصرافة» أو «الاقلاية» وأقيمت لها حفلة كبرى.. وطافت بها «مغذية» ومقنعة صاحبة الشأن الأولى والعريفات والطالبات في مظاهرة أو مسيرة عامة يرددون فيها أناشيد الفرح والغبطة بتخرجها ونجاحها... وتوزع فيها «الحلاوة النبات» ذات الأكاليل الفضية والذهبية والسسمية أو «الانبوتة» واللوزية كل في نطاق قدرته واستطاعته ويتقدم هذا الموكب بزميرة من جملة المعاصر والمباخر والند والعود من إحاطته بالحراسة التامة، فإذا انتهى الحفل.. رجعت إلى أهلها لتجد أمامها «المنسيح» وقد شد أواخيه وتولى تعليمها التطريز فيه كبيرات السن من ذويها اللواتي يحدن الحياكة والحبك والتفصيل والخياطة مع مباشرة الأعمال المنزلية من كنس ومسح ونظافة وطهي واستقبلت عهداً جديداً يؤهلها لتكون ربة دار تستقل بها فلا تجهل شيئاً مما عرفته قبلها الأم والعمة والخالة والجددة لتنهض بهذه الأعباء حال تزف إلى عريسها المقبل... بالإضافة إلى الآداب العالية والأخلاق الفاضلة والصفات الجميلة التي تجعلها محل التمني لكل خاطبة تود لابنها الحياة الهنيئة الراضية.

ولقد افتقدنا منذ حين هذه الغدقات والقفات وأغنى عنها ما عمت به الغوارف وفاضت به المعارف، وما تحب أن نبخسها حقها من التقدير والتشجيع وقد برهن على مواهبهن وشغفهن بالعلم والثقافة في أرقى المستويات، وإنما هي مجرد ذكريات تدون في سجلهن الماضي.

في مدينة جدة

الاحتفال بختم القرآن

الاحتفال بختم القرآن عادة موروثة في جدة. إذا ختمه الطفل وكان يحضر هذا الاحتفال جمهور من الأهليين في بيت من حظي بختم القرآن المجيد، سواء

أكان طفلاً أم طفلة، ويحضر معهم شيخهما أو شيختهما اللذان حفظاهما كتاب الله تعالى، وأصدقاء وصديقات الجانبيين.

ومن تقاليد هذا الاحتفال أن يعرض به «لوح» هندي مزخرف منقوش بالألوان من خشب هندي مدهون، كُتبت فيه بخط جميل كبير بعض آيات الذكر الحكيم ويقرأ الطفل أو الطفلة في الحفل ما تيسر من كلام الله جل جلاله، ليستمع الحاضرون إلى قراءتهما فإذا أتما القراءة بادر المحتفلون إلى إلقاء النقود الفضية على اللوح المعروض. والحاصل من ذلك يعود بطبيعة الحال إلى شيخ التلميذ أو شبيخة التلميذة.

ويكثر الحاصل أو يقل بحسب يسر أو عسر ذوي الطفل أو الطفلة. وأهلها وأقاربها أو أصدقائهما الذين يحضرون الاحتفال.

ويحدثنا الشيخ محمد بن حسين نصيف بهذه المناسبة أن والده كان يتم القرآن على يد الشيخ محمد علي جميل. وقد ألقى المحتفلون بختمه على اللوح المعروض عليهم «ألفي ريال» صارت كلها من نصيب محمد علي جميل، وإنه قد اشترى من ذلك المبلغ الضخم بالنسبة لزمانه داراً. فقد كانت قوة الشراء في النقود إذ ذاك كبيرة وكانوا يحضرون في حفل الختم من ينشد لهم بأصوات مشجعية وألحان عذبة قصائد مناسبة في التهئة بهذا النجاح الميمون.

وكان من المنشدين في هذه الاحتفال الشيخ محمد القمري «بضم القاف وسكون الميم بعدها راء مكسورة فياء النسب» وأبناء هذا الشيخ منهم مؤذنون اليوم.

فإذا انتهت هذه المراسم المعتادة قدمت إلى الحاضرين موائد الإفطار فقد كانت هذه الحفلات لا تقام إلا في وقت الصباح. فيطعم الناس ويشربون ويتناولون الحلوى وينصرفون مثنين.

وقد أدركنا الحلقات في المسجد الحرام — كما كانت في المدينة المنورة
بالمسجد النبوي الشريف تغص بالطلاب الكبار والصغار ليلاً ونهاراً وفي جميع
الأوقات حتى منتصف الليل وفي تباكير الصباح وبعد كل فرض يؤدي. ولا أبالغ إن
قلت أن عددها أكثر من مائة بين الأروقة و«الحصاوي» وفي المدارس المجاورة
و«الخلاوي».

وكانت الدوافع إلى ذلك ترتفع إلى طلب الأجر من الله العلي القدير وتتنويع
إلى الجمع بين الحسنين في الدنيا والآخرة^(١).

(١) «موسوعة تاريخ جدة - المجلد الأول تأليف عبد القدوس الأنصاري - الطبعة الرابعة القاهرة دار مصر
للطباعة.

تاريخ التعليم الشعبي في قطر^(١)

منذ نهاية القرن التاسع عشر

إلى منتصف القرن العشرين

إبان فترة الاستعمار البريطاني لم تتح بريطانيا أي فرصة للتعليم بل اتبعت سياسة التجهيل لأبناء الخليج العربي تلك السياسة التي كانت سائدة إبان الحكم التركي.

أما بالنسبة لدولة قطر لم تفكر بريطانيا في فتح مدرسة واحدة فيها وأدرك أبناء المنطقة ذلك وفكروا في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وتأمين القدر الضروري من التعليم فبرز بذلك التعليم الشعبي الذي انحصر في الكتاتيب المحلية والمدارس الأثرية ومجالس العلم.

أولاً : الكتاتيب

١/ تعريف^(٢):

«الكتاب» هو عبارة عن مدرسة مصغرة ذات غرفة واحدة، ومعلم واحد، لا يشترط في الغرفة أية مواصفات، كما لا يشترط في المعلم حصوله على أية مؤهلات علمية أكاديمية، ويحشد في هذه الغرفة عدد من الطلاب في أعمار مختلفة ومستويات متباينة، ليعلمهم هذا المعلم الذي كان يسمى في قطر «مطوعاً» وغالباً ما يكون هو نفسه إمام مسجد الحي وخطيبه.

(١) اتحاد المؤرخين العرب لجنة تدوين تاريخ قطر البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية.

(٢) الجزء الثاني الدوحة قطر - ٢١ - ٢٨ مارس ١٩٧٦ د. كمال ناجي مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر والتوزيع - مدير وزارة التربية والتعليم.

٢/ نظام القبول:

يقبل في الكتاب كل راغب في التعليم، ويقسم الطلاب في داخل قاعة الدرس بحسب أعمارهم من ناحية وتحصيلهم من ناحية أخرى.

٣/ مواد الدراسة:

مواد الدراسة في الكتاب ثلاثة فقط هي: العلوم الشرعية، واللغة العربية ومبادئ الحساب.

«أ» العلوم الشرعية - ويتناول:

حفظ القرآن الكريم وتلاوته وتجويده.

الفقه الإسلامي:

الفقه الإسلامي: ويتركز في تعليم الفقه «العبادات» ولا يتعداها إلى «المعاملات» وحتى «فقه العبادات» يعطى في أضيق الحدود وعلى مذهب واحد هو مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

السيرة النبوية:

السيرة النبوية: وتعطى السيرة النبوية التي تشمل مولد النبي ﷺ وبعثته وهجرته وجهاده لنشر الدعوة وغزواته وحروبه بشكل مبسط.

القصص الديني:

القصص الديني: ويشمل قصصاً عن الأنبياء والمرسلين وجهادهم في الحق والخير.. كما يشمل توضيحاً لبعض أيام الإسلام المشهورة.

«ب» اللغة العربية وتشمل:

١/ مبادئ القراءة والكتابة والإملاء العربي.

٢/ بعض مبادئ قواعد اللغة العربية بشكل مبسط.

٣/ حفظ الشعر العربي وبخاصة القديم منه مع حفظ بعض الخطب الشهيرة.

«ج» مبادئ الحساب وتشمل:

١/ تعليم العمليات الأربع للأعداد الصحيحة مع التدقيق العملي عليها.

٢/ تعليم العمليات الأربع للكسور الاعتيادية البسيطة.

٤/ قاعة الدرس:

وقاعة الدرس عبارة عن غرفة واحدة كبيرة لا تشترط فيها مواصفات معينة كما أسلفنا - ولا تحتوي من الأثاث إلا على سجادة صغيرة توضع في صدر القاعة ليجلس عليها «المطوع» وحصير كبير يجلس عليه الطلاب في صفوف متراصة وفي أحد أركان القاعة زير ماء «حب» يشرب منه التلاميذ وربما احتوت القاعة على لوح أسود «سبورة» وبعض ألواح الازدواج التي يتعلم عليها المبتدئون.

٥. نظام التعليم:

يسير التعليم في الكتاب طبقاً للخطوات التالية:

[أ] يقسم المطوع تلاميذه إلى مجموعات بحسب مستوياتهم الدراسية. فمنهم المبدىء، ومنهم المتوسط، ومنهم الجيد الذي شارف على ختم القرآن الكريم «تلاوة» والأجزاء الثلاثة الأخيرة «حفظاً»، ويراعى في التقسيم أن يجلس المتقاربون أعماراً متجاورين.

[ب] يختار المطوع أذكى الطلاب في كل مجموعة وأقواهم شخصية وأكثرهم تحصيلاً ليعينه «عريفاً» على المجموعة اللاحقة لمجموعته، فيكون لكل مجموعة «عريف» من المجموعة التي تعلوها مستوى ويعتبر مسئولاً مسئولية مباشرة عن هذه المجموعة، كما يعتبر المطوع مسئولاً مسئولية مباشرة عن المجموعة الأعلى، ومسئولية غير مباشرة عن المجموعات الأدنى.

[ج] يلقي المطوع درسه على المجموعة الأعلى أولاً ثم على المجموعات الأخرى مجموعة مجموعة معطياً فرصة للمجموعة الأعلى بأن تذاكر ما أعطيته في حين درسه للمجموعات الأخرى، ويحرص على أن ينوع الدرس بين المجموعات فإذا أعطى الأولى حساباً أعطى الثانية قراءة والثالثة كتابة وهكذا.

[د] بعد أن ينتهي المطوع من إعطاء الدروس لجميع المجموعات ينتقل كل عريف إلى مجموعته ويوالي متابعة تلاميذ المجموعة حتى إذا أكملوا واجبه أبلغ المطوع الذي يبدأ في السماع منهم وتصحيح أخطائهم.

٦/ نفقات الكتاب:

تتمثل نفقات التعليم في الكتاب فيما يلي:

أ - راتب المطوع الشهري.

ب - إيجار قاعة الدرس.

ج - بعض الكتب والأدوات المدرسية والقرطاسية القليلة كألواح الازدواز والكراسات والأقلام والأحبار وغيرها.

٧/ أهم الكتاتيب:

وكان من أهم الكتاتيب التي أثبتت جدارتها في قطر في بداية القرن العشرين ثلاثة كتاتيب سميت مدارس تجاوزاً وهي:

أ/ مدرسة الشيخ الرحباني والشيخ ابن حمدان وقد قدما من نجد وافتحا كتابهما في الدوحة لتعليم القرآن الكريم.

ب / مدرسة الشيخ محمد الجابر وهو من أهالي قطر وقد أسس كتابه سنة

١٩٠٠.

ج/ مدرسة الشيخ الأنصاري، وهو من أهالي قطر أيضاً وقد أسس كتابه في نفس العام.

وقد جذبت هذه الكتابيب الثلاثة بالإضافة إلى أبناء قطر كثيراً من أبناء الإمارات المجاورة الذين كان يتحمل نفقات تعليمهم وإقامتهم في قطر بعض المحسنين الأثرياء من أهالي إماراتهم.

وكان يتبرع بهذه النفقات عادة أحد الشيوخ أو الأثرياء وقد يتعاون أكثر من واحد في تكاليف كتاب واحد فيدفع أحدهم أجر المطوع ويقدم الثاني قاعة الدرس والكتب التي يستوردها من البلدان المجاورة كما فعل السيد خليل الباكر الذي كان يستورد الكتب من البحرين.

التعليم في بلاد البترول^(١)

فقد كان التعليم أو المتعلم أو الإنسان الذي يعرف القراءة والكتابة إنساناً عزيزاً على مجتمع الخليج التقليدي ينظر إليه باحترام ويكون لرأيه التقدير وربما جاء ذلك نتيجة جملة من العوامل أهمها في نظرنا أن من يقرأ ويكتب مرتبط في معظم الأحوال بالمراكز الدينية في المجتمع التقليدي بالخليج.

فالمطوع معلم الصبيان أو القاضي الشرعي وإمام المسجد كل هؤلاء تربط أعمالهم ومراكزهم بالقيام بالشعائر الدينية وحتى المطوع كان يعلم الصبية حفظ القرآن. كما أن العامل الاقتصادي كانت له أهمية لا تنكر حيث كانت القراءة والكتابة من مستلزمات التاجر الناجح.

لذلك فإن هذه المجتمعات بالفطرة تحترم المعلم حتى بمعناه الضيق وحاولت أن تتبنى أشكالاً من التعليم الحديث حتى قبل ظهور البترول أما الشكل التقليدي للتعليم فكان هو المطوع والمطوعة معلم ومعلمة الصبيان والبنات وفي بعض المناطق كان يطلق على القائم بهذا النشاط «المُلا».

هذا التعليم كان سائداً في الخليج وربما لقرون عديدة حيث يجتمع الصبية أو البنات في بيت أو طرف المسجد في كل حي أو قرية يتلقون على يد المطوع الذي يكون هو إمام المسجد أو المؤذن أو القاضي الشرعي للقرية أو الحي يتلقون درساً في قراءة القرآن عن طريق الحفظ والتلقين حتى يتعلموا قراءته.

من مظاهر الاهتمام بهذا النوع من التعليم ظاهرة الاحتفال بإنهاء المرحلة بعد حفظ القرآن.

(١) مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع - البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي ١٩٧٥ الدكتور محمد غانم المريح.

فيقوم أهل الطفل أو اليافع وفي بعض الأحيان يقوم أبناء حيه بالباسه الملابس الجديدة الكاملة من العباءة حتى النعال ويطوفون به شوارع الحي فيما يسمى بالختمة أي اختتام مرحلة قراءة القرآن ومعرفة شيء من الكتابة ويردد دعاء يحمدون فيه هذا الإنجاز. وهذا يمكن أن ينظر إليه على أنه إعلان يظهر النتيجة واستعداد هذا اليافع إلى الدخول في قوة العمل وأن لديه شيئاً.

هذا الاحتفال يبين الأهمية التي يضيفها المجتمع على هذا النوع ومدى حاجته إليه إلا أن الوضع الاقتصادي آنذاك لم يكن يتيح له التوسع في التعليم.

كما أن الظاهرة الأخرى في هذا النوع من التعليم أنه يقوم على مستوى الحي أو القرية الصغيرة وبالتالي فإن المنضمين تحت لواء «المطوع» هم غالباً من أبناء الجيران الذين يعرفون بعضهم بعضاً معرفة جيدة، فلا يختلف مجتمع الجيرة عن مجتمع «المطوع» أو الكتاب، كما أنه في العادة لا يترك «المطوع» تعليم هؤلاء الصبية قراءة القرآن وبعضاً من الكتابة والحساب فقط وإنما يترك له حرية تأديتهم أيضاً بالوسيلة التي يراها ناجحة. ولذلك فإن المجتمع الصغير ينظر إلى سلطة المطوع على أنها موازية ومشابهة لسلطة الأب في الأسرة فهو بالتالي «والد الجميع ومعلم الأولاد» وربما هو الرجل الذي يلجأ إليه أبناء الحي في مشكلاتهم.

ويبدو اهتمام أبناء الخليج بالتعليم في أنهم قبل النفط حاولوا في أكثر من مكان إنشاء مدارس على النمط الحديث، وعلى الخط الذي رآه بعضهم في العراق أو في مصر أو ربما في الهند، في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن إلا أن هذه المحاولات تعثرت في بعض الجهات وتراوحت بين التعثر والاستمرار في جهات أخرى حتى جاءت الدولة - بفائض مالها النفطي وأخذت على عاتقها هذه المهمة.

التعليم في الكويت والخليج أيام زمان^(١)

وهناك العديد من المدارس منتشرة في مختلف أحياء الكويت وتقتصر هذه المدارس على تعليم القرآن الكريم وتعليم الحروف الهجائية ومبادئ مبسطة من الحساب وتحسين كتابة الخط العربي.

كيف يحصل الملا على أتعابه من التلاميذ؟

هناك طرق عديدة لتحصيل الأجور وكان معظمها يدفع في المناسبات الدينية والأعياد ولكل مناسبة نوع من الأجور وأما الطرق فكانت كالآتي:

١/ الدخلة

يدفع ولي الأمر مبلغاً من المال كرسوم دخول ويعتمد المبلغ على إمكانية ولي الأمر المالية.

٢/ أجور الخميسية

يدفع الطالب مبلغاً من المال في كل خميس يذهب فيه إلى المدرسة ويعتمد أيضاً على استطاعة ولي الأمر.

٣/ أجور النافلة

يدفع الطالب مبلغاً من المال أو ما تيسر من قليل من القمح أو الأرز أو التمر في المناسبات الدينية.

(١) تاريخ التعليم في الكويت والخليج «أيام زمان» وحكايات يرويها صالح جاسم شهاب الجزء الأول.

٤/ أجور العيضية

يدفع الطالب مبلغاً من المال حسب استطاعة ولي أمره وتكون إما قبل العيد أو بعده بأيام.

٥/ أجور الفطرة

يدفع الطالب مبلغاً من المال يعادل ما قيمته ستة أرطال من القمح أو من الأرز أو من التمر.

٦/ الجزء

يحتوي القرآن الكريم على ٣٠ جزءاً، إلا أن هناك شيئاً متعارفاً عليه بأن اختيار ثلاثة عشر جزءاً من القرآن وكلما اجتاز الطالب جزءاً من الأجزاء يدفع مبلغاً من المال لا يتجاوز ٧٥ فلساً.

٧/ الختمة

بعد أن يختم الطالب جميع أجزاء القرآن الكريم البالغة ثلاثين جزءاً يدفع الطالب حسب حالة والده المالية ما بين ٢٠ روية إلى ٤٠ روية في حالة عدم استطاعة الطالب دفع مثل هذا المبلغ ينظم للطالب جولة لزيارة بعض البيوت الكويتية وخاصة التجار.

وهناك بعض الموسرين الذين يتفوقون مع الملا أنه في نهاية تعلم أبنائهم القرآن الكريم بأكمله يدفعون مبلغاً من المال عندما يختم القرآن بجميع أجزائه الثلاثين وفي هذه الحالة لا يدفع ولي الأمر أي شيء من الأجور التي ذكرتها سابقاً في مختلف المناسبات.

كتاتيب تعليم القرآن

التعليم في جزيرة فيلكا^(١)

كان التعليم في الجزيرة عبارة عن كتاتيب يقوم أصحابها بتحفيظ القرآن الكريم للأولاد والبنات، كما كانت هناك نسوة يطلق عليهن اسم «مطوعات» يقمن بتحفيظ القرآن الكريم للبنات.

وقد تنفرد بعض هذه الكتاتيب بتعليم الأولاد مبادئ القراءة والكتابة والحساب بالإضافة إلى دروس النحو والتجويد. ويختلف المستوى الفكري للطلاب في هذه الكتاتيب فالبعض تمتد فترة تحفيظه إلى سنتين أو أكثر وقد يختم البعض القرآن في ستة أشهر.

طريقة التدريس:

يجلس الأولاد على شكل حلقة دائرية ويبدؤون الدرس بترديد ما حفظوه من السور بصوت جماعي مع تحريك أجسامهم إلى الأمام والخلف أثناء التلاوة ثم يقوم الملا بعد ذلك بالاستماع إليهم واحداً واحداً.

العقاب:

كان المعلم يعاقب الأولاد الدارسين عقاباً شديداً في بعض الأحيان يسعى إلى الضرب «بالخيزرانة» في معظم الأوقات كان يستعمل «الفلقة» في تأديب كل من يقصر أو يحاول أن يتهرب من الدرس أو يشاغب.

ختم القرآن

وعند ختم أحد الدارسين للقرآن الكريم يحتفى به من قبل معلمه وزملائه

(١) التعليم في جزيرة فيلكا - خالد سالم محمد - الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

يدورون به على منازل الجزيرة وهو في كامل زينته.

أشهر كتاتيب الجزيرة

أهم الكتاتيب التي كانت موجودة في الجزيرة في بداية القرن هي:

أولاً كتاتيب الأولاد:

١/ كتاب الملا عبد القادر حسن السرحان والد الملا معروف كان يدرس القرآن الكريم فقط.

٢/ كتاب الملا محمد عبد القادر حسن السرحان والد الملا عبد القادر يدرس إلى جانب القرآن الكريم مبادئ القراءة والكتابة.

٣/ كتاب الملا معروف عبد القادر يدرس القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة.

٤/ كتاب الملا عبد القادر محمد عبد القادر يدرس القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة.

٥/ كتاب الملا محمد عبد الرحمن التركيب يدرس القرآن الكريم.

٦/ كتاب الملا إدريس اسماعيل إدريس يدرس القرآن الكريم.

٧/ كتاب الملا عبد الرحمن البههي يدرس القرآن الكريم.

ثانياً - كتاتيب البنات «المطوعات»:

١/ زوجة الملا عبد الرحمن البههي وابنته.

٢/ زوجة الملا علي طالب.

٣/ زوجة سلطان سنكيس وأخته أمينة.

٤/ المطوعة أم سلامة.

اقتراح

الأسلوب الذي اتبعه أسلافنا في إشاعة التعليم في تقديري أسلوب فريد يستحق كل اهتمام ويتلخص في أن المجتمع هو المتكفل بحمل أعباء التعليم في الخلاوي. وقد ظل حفيظاً على حمل هذه الأمانة العظمى عبر القرون وإلى يومنا هذا، وإن ضعف ذلك بعض الشيء بفعل الكثير من سلبيات العصر.

لقد هبط المستعمر ديارنا وهو يحمل مدارس التي أسماها النظامية والرسمية ووضعها بيننا وأحاطها بأعلى قدر من الرعاية والحظوة وشمل خريجها بالعناية أثناء الدراسة وبالوظيفة ذات الدخل الثابت والمكانة الاجتماعية المرموقة، الأمر الذي جعل النظرة إلى تعليمنا الأساسي الذي يقوم في بيوت الله لدراسة كتاب الله نظرة دونية كلها تحقير وتهميش، وبالرغم من ذلك ظل تعليمنا بالخلوة سائراً، وظل مجتمعنا حاملاً جل أعبائه المادية وأعني تلك الرعاية التي يجدها طالب الخلوة الذي هجر أهله ودياره وهو لا يملك إلا الرغبة الصادقة والعزيمة القوية في مواصلة الجهد لاستكمال حفظ كتاب الله، وينطق متوكلاً على الله ومعتمداً عليه، ويستخر الله من بين أفراد المجتمع نفرأ ممن حباهم الله حب المساجد والخلاوي فيحمل العبء ويتكفل بأمر طعامه وشرابه وسكّته ورعايته ويكفل له بذلك الاستقرار الدراسي والنفسي..

أم درمان

وذلك ما كان يجري في أم درمان النابضة أبداً بالوطنية والعراقة السودانية فيها قامت الخلاوي والمعاهد العلمية وفي طليعتها معهد أم درمان العلمي العتيق والذي كان من ثمراته الجامعة الإسلامية التي حملت اسم مدينة أم درمان التي حمل أهلها عبء التعليم الديني ثم تلتها الجامعة الأهلية وظلت بعض بيوت مفتوحة لإيواء الطلبة لعشرات السنين يقصدها الطالب بثبات ويقين فيجد فيها الترحاب والمأوى

والمأكل والملبس ونذكر من هذه البيوت على سبيل المثال:

- ١/ بيت الإمام عبد الرحمن المهدي - ودنوباوي.
- ٢/ بيت السيد علي الميرغني - بيت المال.
- ٣/ بيت السيد الحسن الإدريسي - المورد.
- ٤/ بيت عثمان صالح - ودنوباوي.
- ٥/ بيت الخليفة حسن سوار الذهب - السواراب.
- ٦/ بيت الشيخ قريب الله - ودنوباوي.
- ٧/ بيت الشيخ الجزولي التلب - أبي روف.
- ٨/ بيت الشيخ محمد ود عبد الماجد - فريق ود الماجد.
- ٩/ بيت الشيخ البنا - ود البناء.
- ١٠/ بيت الشيخ عمر الإمام - القلعة.
- ١١/ بيت الشيخ أحمد باعبود - المورد.
- ١٢/ بيت الشيخ بابكر بدري - البوستة.
- ١٣/ بيت السيدة أم الكرام الخليفة شريف - ودنوباوي.
- ١٤/ بيت السيدة زينب عبد القادر «حنينة» - العباسية.
- ١٥/ بيت آل الأمير نقد الله - ودنوباوي.
- ١٦/ السيدة زهراء السيد عبد الرحمن - فريق الأمراء.
- ١٧/ بيت آل طلب - القلعة ودنوباوي.
- ١٨/ بيت آل إسحق - بيت المال.
- ١٩/ بيت الشيخ دفع الله - فريق الشيخ دفع الله.

٢٠/ بيت الشيخ مصطفى الدسوقي حي العرب.

وعذراً لمن لم تشملهم هذه القائمة المختصرة من الذين ساهموا في هذا المبدأ وما زالوا.

نموذج لأفعال هؤلاء الكرام

وتجديداً لهذا العمل الوطني المجيد أتقدم بالاقترح الآتي:-

أن تكون في الأحياء والمساجد لجان لحصر الطلبة الذين هم في حاجة إلى رعاية، وحصر الفضلاء الذين يتقدمون لحمل أعباء رعاية من يستطيعون إيوائهم من الطلبة «إقامة، وإعاشة، ورعاية» ثم القيام بتوزيع الطلبة عليهم ومتابعة ما يتم من إنجاز.

وفي تقديري أن الفضلاء بأمدردمان الآن يستطيعون إيواء كل الطلبة الذين يفدون من الأقاليم ولا سيما بعد أن امتصت جلهم الجامعات الجديدة «ولا سيما البنات اللائي هن أحق بالرعاية».

بهذا الأسلوب الذي سار عليه أسلافنا ستنشأ علاقة حميمة بين هؤلاء الطلبة وأسرهم الجديدة. وإنها لعلاقة محبة وود وتقدير، إننا نجد كما أسلافنا نماذج لهذا في شرق السودان وغربه ووسطه وشماله، وإذا ما برز هذا العمل الجليل في ثوب حديث فإنه سيجذب بلا شك الكثيرين للمساهمة فيه، ولا يخالجنى أدنى شك في أن المدن الأخرى وعلى اتساع القطر ستحذو حذو أمدردمان، بهذا سيصبح إيواء الطلبة عادة جارية تتناقلها الأجيال عن رغبة وطوعية، هذا فضلاً عن ثوابها عند الله وإن تحقق هذا نكون قد أحيينا سنة اجتماعية كادت تندرس.

الاقتراح الثاني:

أن تضع الدولة هيكلًا وظيفيًا خاصاً بحفظ القرآن الذين يتخرجون في

المعاهد العليا والجامعات كأن تمنحهم درجة أو درجتين فوق رصفائهم تكريماً وتشجيعاً. ونسأل الله التوفيق.

صور وخط وزخرفة

ضمن هذا الباب صور لبعض المشاهد في المسيد أملّي أن تتآزر الصورة مع مضمون الكتاب وهي صور لا تحتاج لشرح. ثم أوردت نماذج للخط وهو خط الخلوة المعروف في بلادنا كما عثرت على خط الناسخ المشهور إبراهيم ود دليل «من أهالي المئمة» ونماذج من الزخارف حتى كان بعضها على مخطوطاته واشتهر الرجل في المهدي وبعدها وكان يخط المصحف وراتب الإمام المهدي إلخ وخطه لفت أنظار أهل حذاقة هذا الفن فقد كان يخط خطأً بارعاً أقرب إلى الفارسي ومن حسن حظي أن عثرت على توقيعه وقد وقع في نهاية كتابته لراتب الإمام المهدي. وكان شعراء الغزل والنسيب يشبهون حاجب الحسناء بخط ود الدليل. قال الشاعر ود الطاش وهو من شعراء الدارجة والفصحى:-

احترت حار بيّ الدليل
كسّ للماك ما لقيت دليل
كاتلاني عندك عليك دليل
حاجبيك صاّد ودّ الدليل

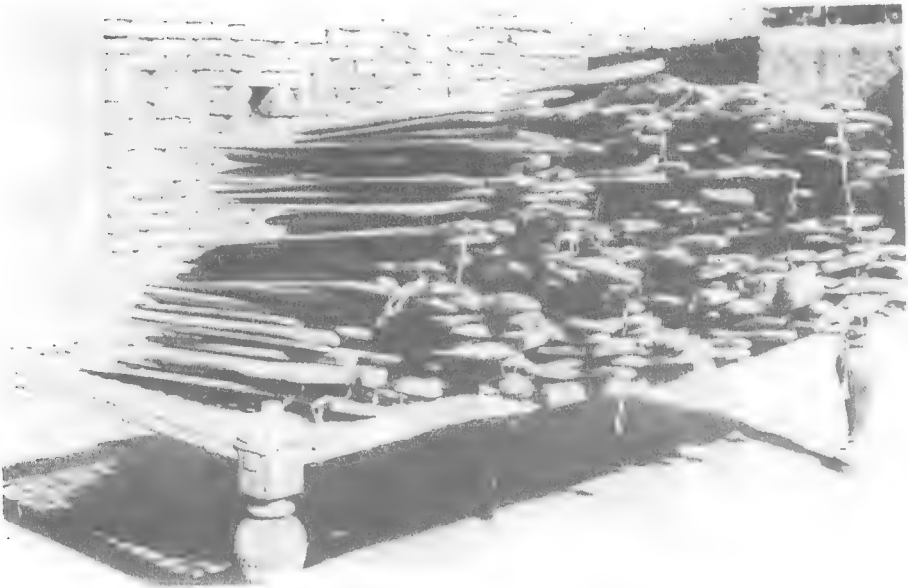
كذلك سقت ما تيسر لي من الزخرفة وهو فن مشهور في العالم الإسلامي وعند خطاطي المصاحف، وأغلب الزخارف لها دلالات ورموز يعرفها أهل هذا الفن وبعض القراء الحذاق، وعموماً فهي شيء جميل يدركه من له أدنى قدر من الذوق. أرجو أن ينتبه أهل فن الخط لهذه الأشياء وهي كثيرة حبيسة المكتبات والأضابير في المسيد.

بعض طلاب السيد يوحنا ألواحهم في حجر المحاية





طالب من مسيد ود الفادنى



حفظ الألواح على سرير القده ويقوم مقام «الكبس»



لو حاشرافة

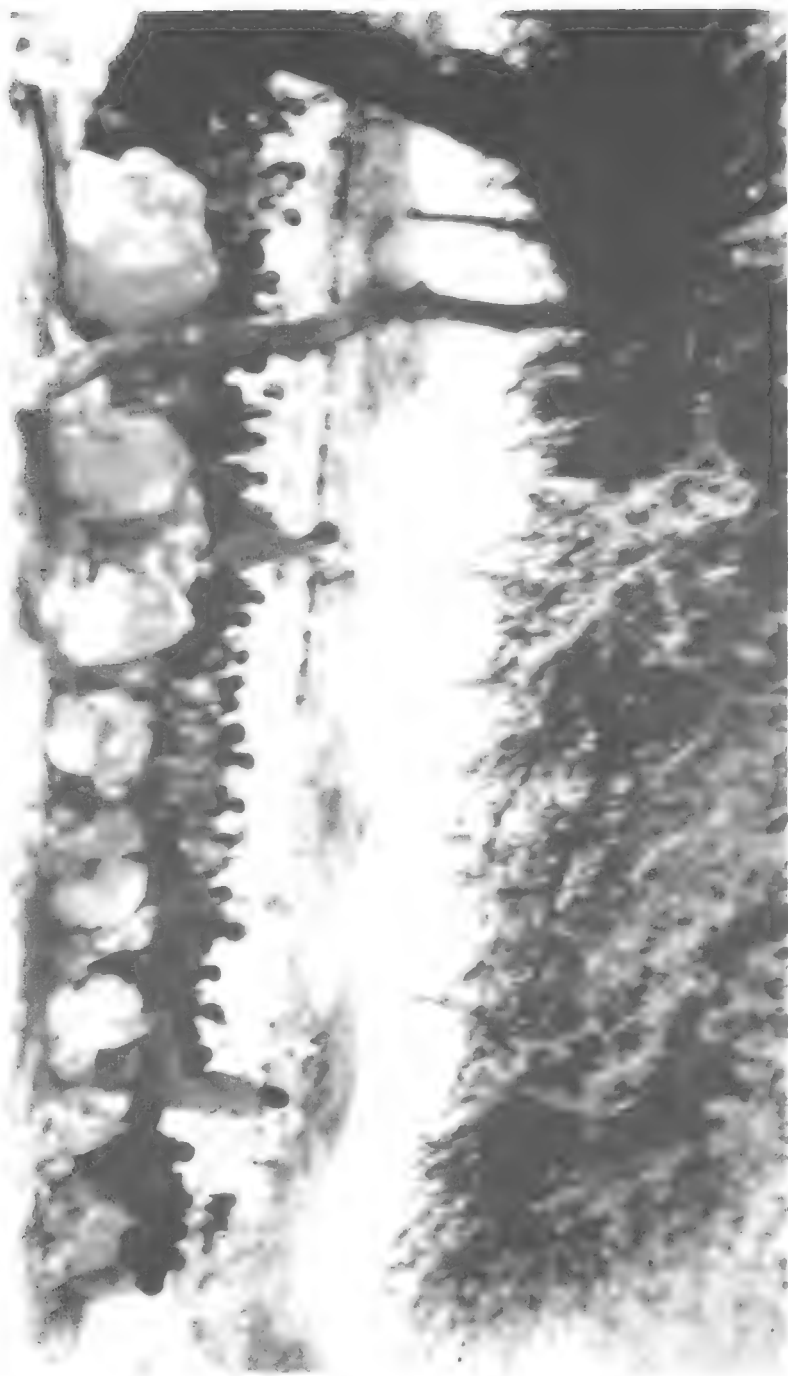


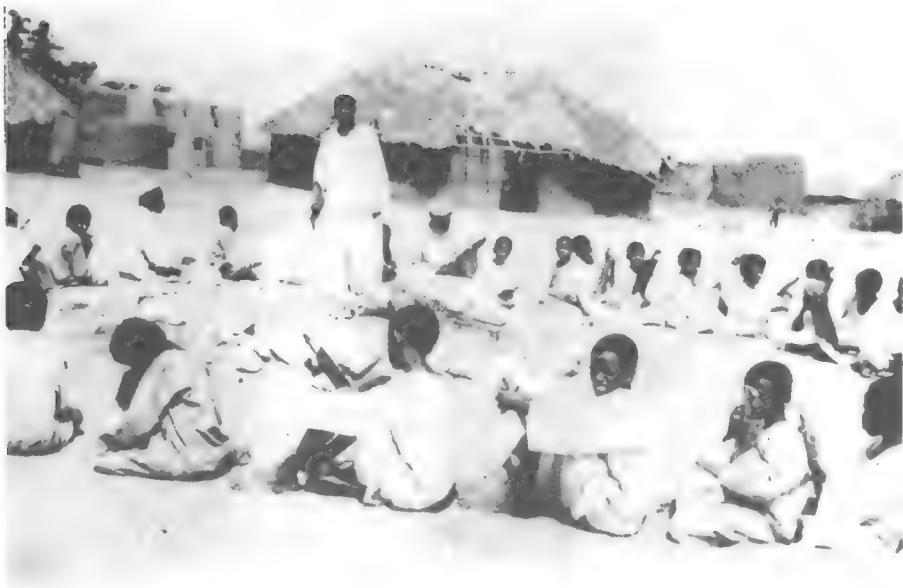
شيخ القرآن براجع مع الطالب



صورة لطالبات سيد همشكريب ومن عدد كبير ولا يسمح للسيد
 بأخذ الصورة من الأمام أخذت الصورة من الخلف

مجموعة من طلاب السيد تحت ظل شجرة ضخمة





مشهد لخلوة بالنيل الأبيض دار محارب



مشهد لطالب مضروب عليه القيد



طلبة مقيدون



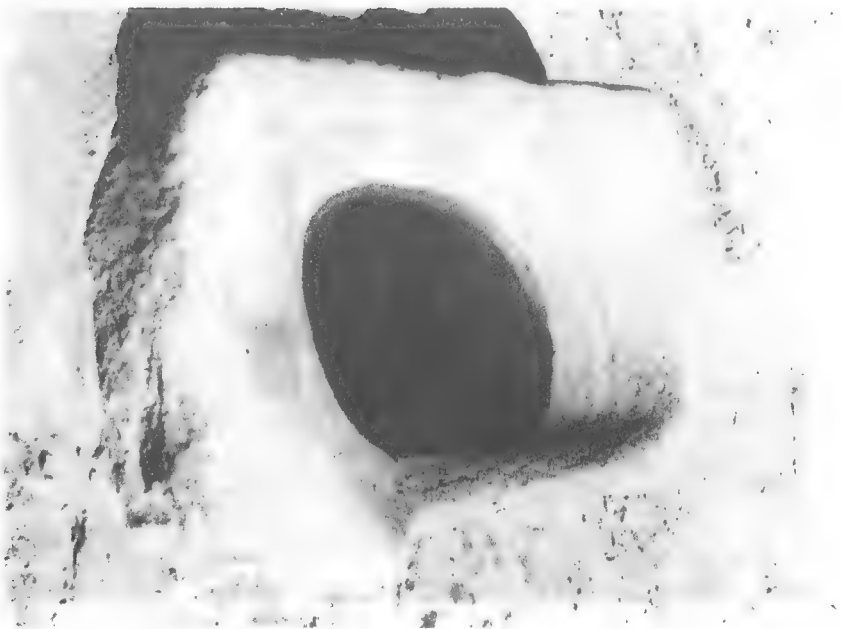
محو الألواح في حجر المحاية



حلقه قرآن حول النار



زخرفة الخط في المسيد وهو فن خاص



حجر المحاية في مسيد الدامر المتيق

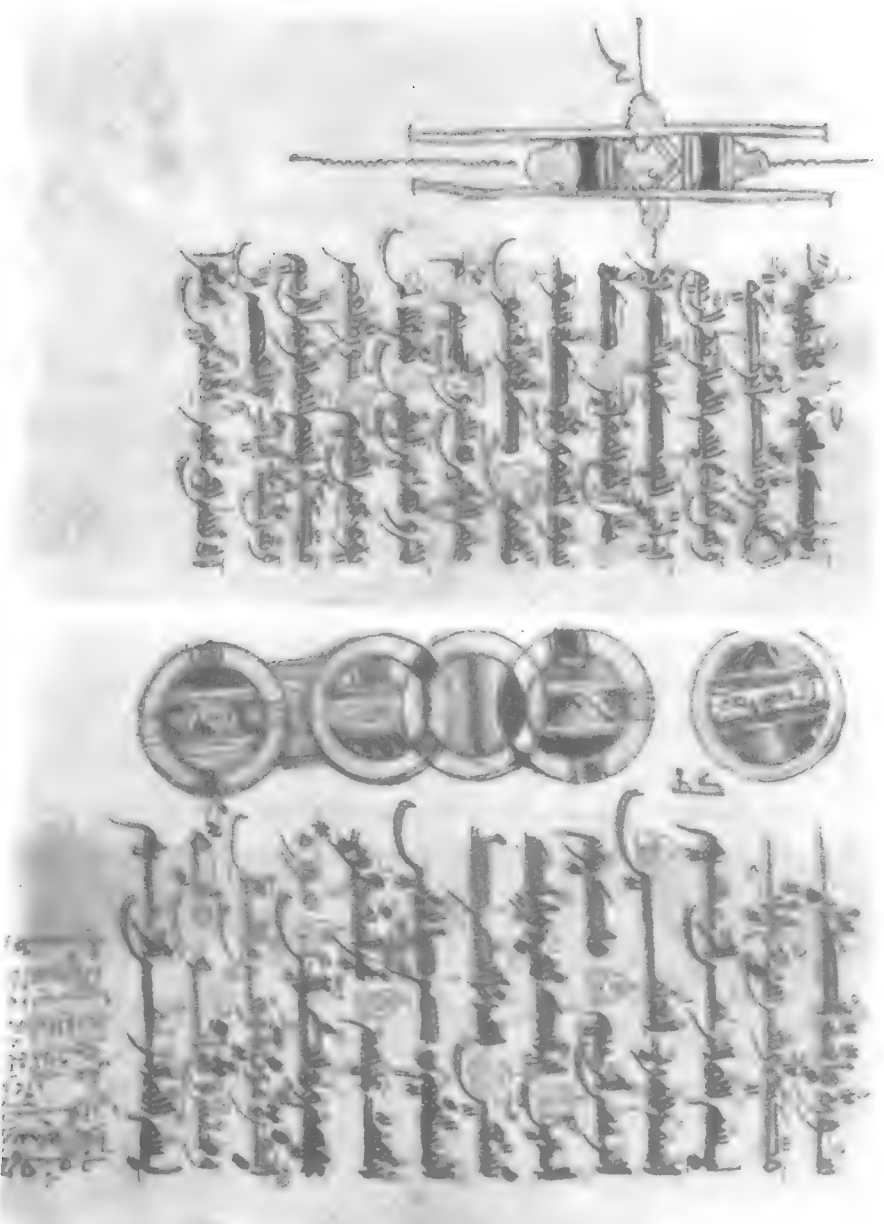


هذه اللقطة من مسيد ود نعمان ريفى الحوش الطلبة
 حول نار القرآن وخلفهم شجرة ظليلة من (الآراك) وهى شجرة (واحدة)
 ولكنها تمددت وطالت وترمى ظلالها علي أطراف المسيد السيقان التى تلاحظ
 فى الصورة هى أعواد يابسة جعلوها سندا لفروع الشجرة الأم حتى لا تزحف على الأرض
 وتضييق المكان والطلبة يأوون إليها فى الهاجرة فسبحان مسخر الأشياء



طالب يصحح

هذه الصفحات برواية ورش كتبت في غرب السودان وهي من آثار السيد





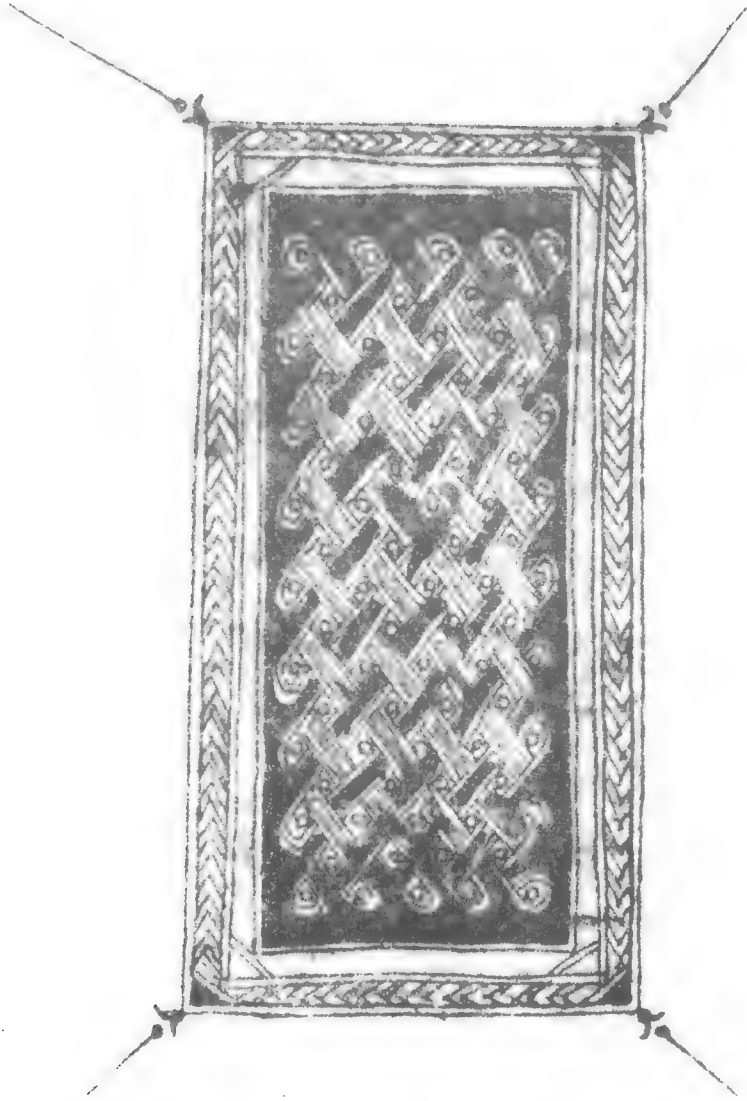
طالبان يحملان لوحيهما وعليها الزخرفة المعروفة بالشراقة



طريقة خاصة للحفظ «ركن الألواح على بعضها»



لوح الشرافة



زخرفة من مصحف أثرى



خط وزخرفة ١٣٠٧ هـ



الشيخ الريح خليفة مسيد ود الفادنى يوزع الشاي على الطلبة



جفنة وجرى العرف أن يأكل الطلبة فى الجفان (القدح) الكبير وهى من تراث المسيد



قصر الحاكم النوبتي بدقلا المعوز الذي أُلحق به مسجدا في الطابق الثاني وعليه كتب تاريخ افتتاح المسجد

كتاب الطرازي في ضبط الخزازي
 هذا الشرح المسمى شرح الضبط والاصحائه
 شرح الضبط الخاص برسم القرآن
 العظيم للإمام الأعظم محمد بن
 عبد الله الشافعي
 رحمه الله تعالى
 ورضي عنه، آمين

أنفع بالمدينة عبد الله ابن كثير عمك
 في دار
 في دار

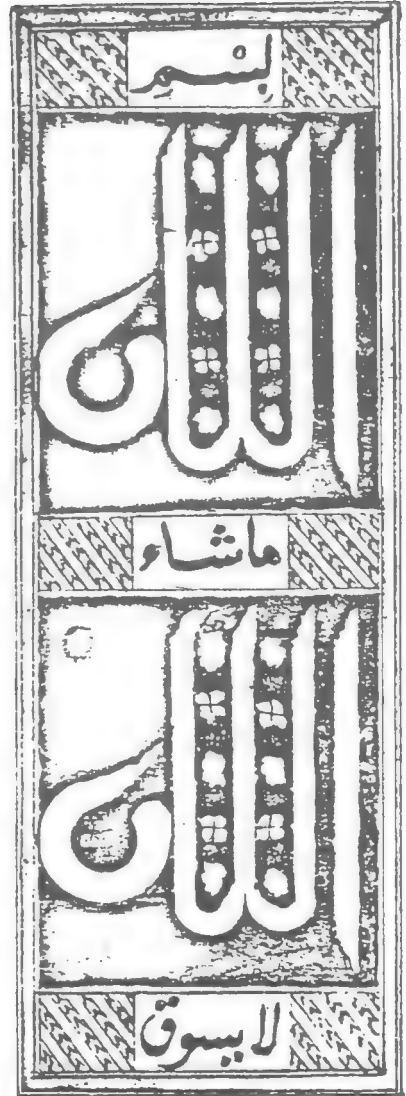
أبو عمرو بالبصري
 عبد الله ابن عامر بالشام
 عامر بالكوفة
 حمزة بالكوفة
 علي الكسابي بالكوفة
 في دار
 في دار
 في دار
 في دار

أنموذج لكتاب الطرازي الذي ينقلون عنه طريقة الرواية والتجويد

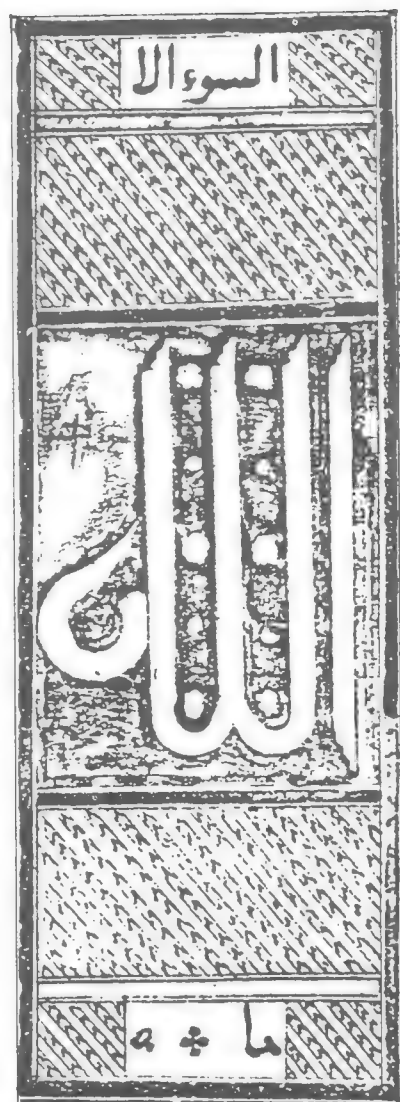
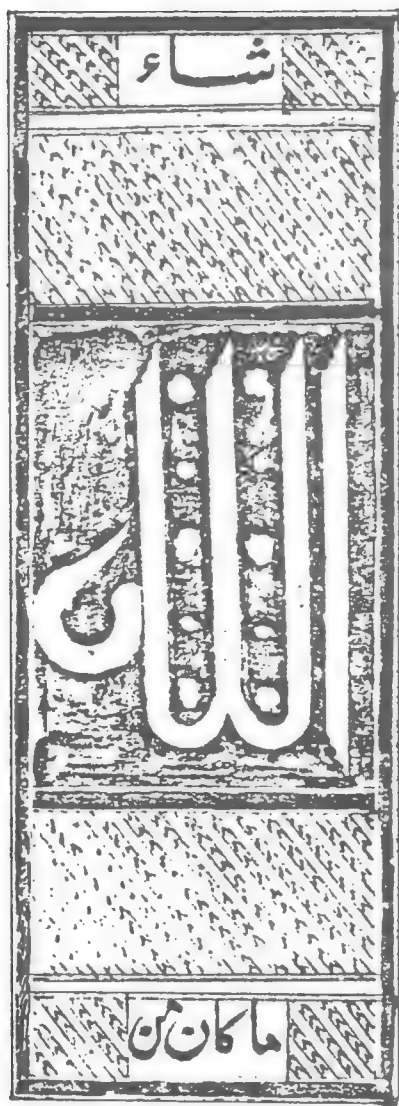
قوله ولا ينج فيه امعاء فقال لا اي حاجه
 له احي لان الصايه طاروا لان الصايه في انا يلو انا ما يستحق فيه واليه كانا امسك به من سعة
 وادسك اليه في كل واحد منها جزء لاننا نطير للنبس والمباشره له وءه وقر له طيله الا في غير عليه والذنه
 جزء من هذا صافه ثمانية اجزاء مثل هذا الذي قتله وقر له انتم بيان فضل عليه مثل الخبث من العلم وقام على
 يوجد فيها القدر كاف والمرا بالعلم واحد الانم الاباء والبنون العلم له عدد ولا

فول فليد القديس جوجيا ويه سبب ثلثين ايام وطول ستمه مسكني سمان لملرحه
بعد الذي حو اليه غنيسوس وليمسك بياضه يدها من الشانه ذه الباهو والموال هذه
الغنية اذ تقصصا بزيارتيك اذ لمناذ سبب ام يسك او يسك وجو ثمانية
الايام قالوا له بعد وكونوا اذ ايضا فاذنوا ذلك اذ يبركا فها هك اذ انا سبب
لومصر واذك اذ فزيع بعضيس ثوبنا ثلثين الفدية فبريسنا ثمانية
فخذ ثلثي اذ يجمع بلرحه اوليك ليوكون كل ذلك اذ انا يبركا والبره اذ انا يبركا
البرج فليس علي ذك اذك اذ ذك فله اذك اذك

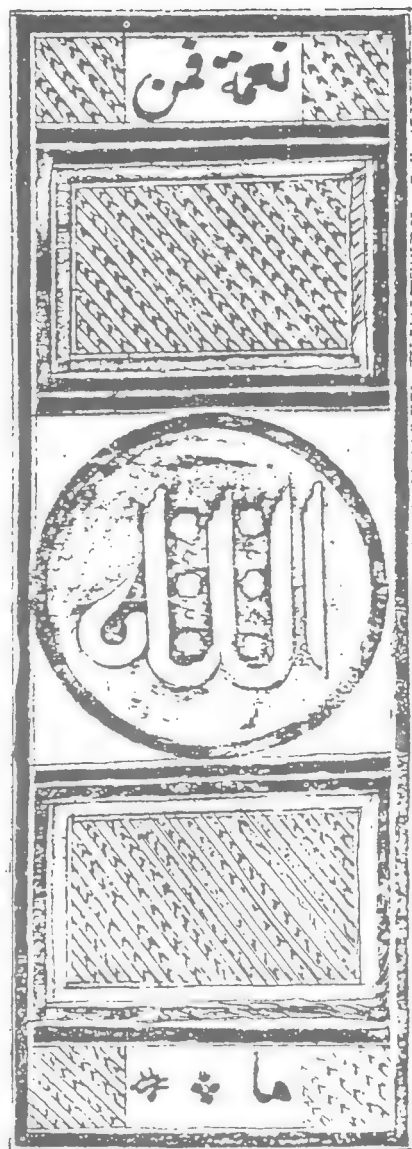
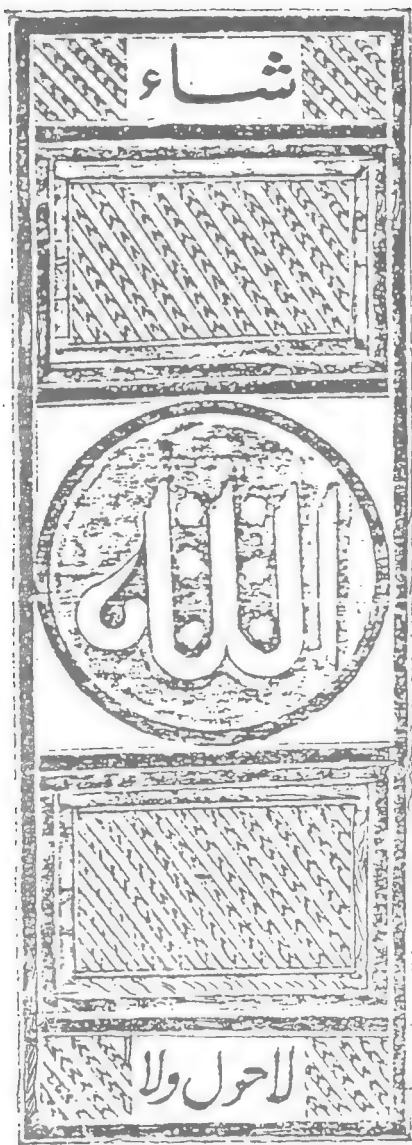
ما بين تلك الاعمال الهندي
فلم يثبت فيها الا يثبت الا فيه ظهري



الخير

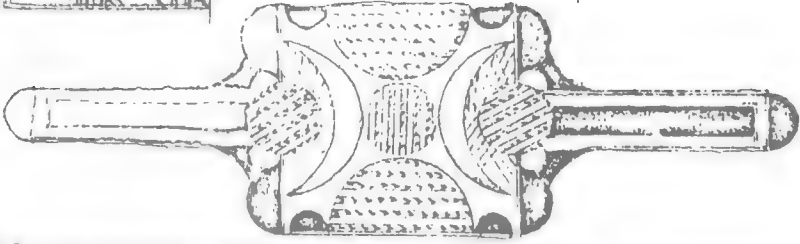


شاء



شاء

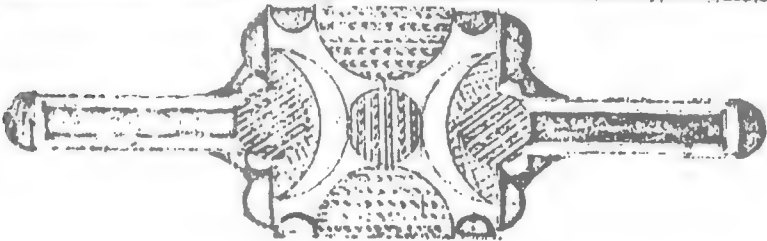
كتبه ابراهيم محمد بن ابراهيم
 سنة ١٢٠٠

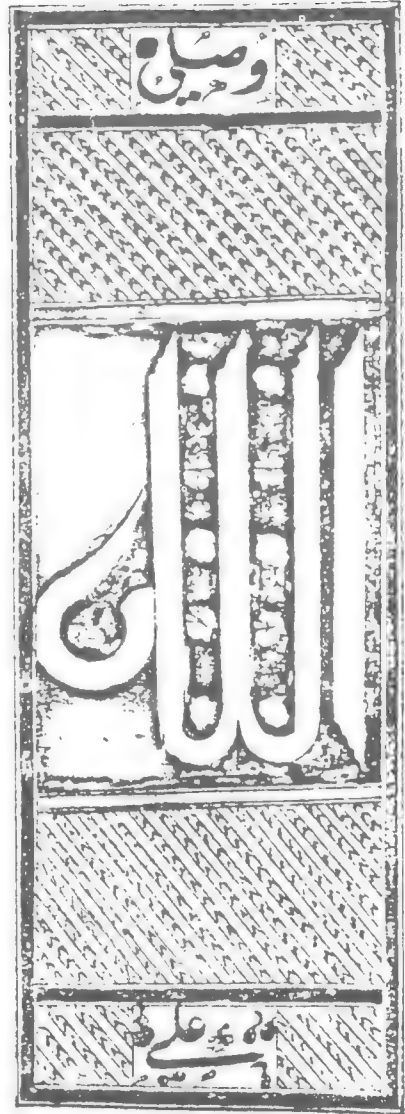


والعزيم الذي من لندوا
 برنهم بعد لون هو الدنيا
 خاتم من بلن ثم فني اعدا

والمر

بن العبد الرحمن الرحمن
 المحسن لله الذي به خلق
 السموات والارض وجعل العالمين





سیدنا

طلائع الدعاة^(١)

مغبراً جند في المسير	من الذي يزرع الفيافي
تحفه هالة الجسور	يذوب من رقة ولكن
فلاحه لافح الهجير	وقد نضاً للهجير وجهها
بعزمه جبرة الصخور	يعاند الصخر مستدلاً
وحزمة من سطور نور	له رفيقان من عصاه
وكبرياء الفتى الفقير	وتارة فاخر السحايا
يشف عن مقصد كبير	وإن في ناظره عمقاً
قد انتحى في الجبال غارا	أقام في موحش قصي
وهيمنت حوله الصحارا	تكاتفت فوقه الليالي
فعاد لا يذكر الديارا	غدا له صخره أنيساً
بحيث لا يأمن العثارا	يرود آفاق مهلكات
لدى هواكيره تمارا	تراه وهو اليقين صرفاً
يساقط الظل والثمارا	وربما لاح منه كون
نشرن من حوله الغبارا	وربما أزعجته خيل
يحور عند الشروق نارا	وشاقه الفجر وهو نبع
ووحشة الشمس إذ توارى	وهداة الغاب في الدياجي
فهاج في نفسه ادكارا	وأرغن للرعاة غنى

(١) قصيدة طلائع الدعاة للشاعر الغد الأستاذ عبد الله الشيخ البشير رحمه الله فقد درس في المسيد ودرس فيه.

وأترع السر جانبية
يحوس بين الربا مصيخاً
أفاض من روحه عليهم
وصاح فيهم إلى المعالي
وكان ما كان فاستفاقوا
فمد آراءهم بشورى
فشيدوا «للمسيد» داراً
وراء أهل القرى مناراً
وفجروا في الفلاة نهراً

وهب من غاره وسارا
عليه إطراقه الحيارا
فأرث العزم في الكسالى
فأقبلوا نحوه عجالي
على الدوي الذي توالى
ورد أقوالهم فعلا
بهية فاستوى جلالا
على الهضاب العلا تلالا
تجيش أمواجه زلالا

* * *

الخلوة

هب من نومه يدغدع عينيه	مشيحاً بوجهه في الصباح
ساخطاً يلعن السماء وما في	الأرض من عالم ومن أشباح
حنقت نفسه وضاق به الحيلة	واهتاجه بغيض الرواح
وأهابت به الظلال وقد	نشرن في جلوة القرى والبطاح
طوفت في خياله ذكريات	الروع واعتاده مطيف الجماع
ومشى بارماً يدفع رجليه	ويككي بقلبه الملتاح
ضمخحت ثوبه الدواة	وروت رأسه من عبيرها الفواح
ثورة صورت خوافي	ما بين حنايا صبينا من رياح

ورمى نظرة إلى شيخه	الجبار مستبطناً خفي المناحي
نظرة فسرت منازع	عينيه ونمت عما به من جراح
جبذا «خلوة» الصبي	ومرحى بالصبا وعبقري وشاح
وظلال من الضحى	ظفرت منها بعقد من الصباح للاح

زهرات شتى متنوعة الألوان	من سوسن الربى والأقاحي
متعت شمسها فعاودها ألف	هو يستقيدها للمراح
ونفوس سجي الكرى في	حواشيها ودب الفتور في الأرواح
فأرجحت مهومات ما	تبرح مركوزة على «الألواح»

كلما لفها التعاس وأضفى فوقها عالماً ندي الجناح
قصف الرعد في المكان ودوى مرزماً صاخباً قوي الصياح
فاستفاقت وهيمنت بعض أشياء وعادت وعاد قصف الرياح

صور للصبا الأغـر موشاة بأحلامه وضوء الصباح
يدفق البشر من مفاتن دنياها ويفتر عن سناً وضاح^(١)

(١) قصيدة للشاعر النابغة التحاني يوسف بشير رحل عن دنيانا وهو في نضارة الشباب وعمره ٢٧ سنة وقد
خبر الخلوة والدراسة فيها وأسرتة من أهم الأسر التي مارست تدريب القرآن.

قصيدة الشيخ فرح ود تكتوك

بعنوان الحكمة

يا واقفاً عند أبواب السلاطين
تأتي بنفسك في ذل ومسكنة
من يطلب الخلق في جلب لمصلحة
وكما يحاكي لمسجون يدوم له
إن كنت تطلب عزاً لا فناء له
ولا تصاحب غنياً تستعز به
فالطمع يرميك في ذل ومهلكة
والقانع نام قريراً لا كصاحبة
فشق بربك لا تبقى سواه حمى
وكم جرى طامعاً في البيد مغترباً
كم دودة في عميق الأرض في حجر
ألا الزم العلم والتقوى ما نتجت
خل الملوك بدياهم وما جمعوا
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما
واعلم بأن الذي ترجو شفاعته
لا يقدر العبد أن يعطيك خردلة
ما لي أذل لمخلوق وأسأله
أرفق بنفسك من هم وتحزين
وكسر نفس وتخفيض وتهوين
أو دفع ضرر فهذا في المجانين
وكم من السجن في أيدي المساجين
فلا تقف عند أبواب السلاطين
وكن عفيفاً وراعي حرمة الدين
وما يفيدك إلا كل تهوين
كما تنام غصون في البساتين
والرزق منزلة في ختم يسن
ولم يجد قصده في الشام والصين
يأتي لها رزقها في التو والحين
من الثمار تفز بالخرد العين
وقم بدينك من فرض ومسنون
استغنى الملوك بدياهم عن الدين
عن البرية مسكين بن مسكين
إلا بإذن الذي أنشاك من طين
وإن سألت الذي أعطاه يعطين

الدين كنز عظيم لا فناء له
من باع ديناً بدنياه واستعز بها
فلقمة من طعام البر تُشبعني
وقطعة من قليل الثوب تسترني
الحمد لله قد تمت قصيدتنا
فرح الفقير كثير الذنب ألفها

والمال عارية والله يغني
كأنما باع فردوس بسجين
وجرة من قليل الماء تروين
إن مت تكفنتي أو عشت تكسين
ونشكر الله في سر وتعلن
منظومة لعييد في البطاحين^(١)

(١) الشيخ فرح من شيوخ المسيد ومن المعلمين الحكماء انظر «حلال المشبوك» للمؤلف.

أهل القرآن

- أحمد ود سعد الشاعر المادح وهو من صفوه
من مادحي المصطفى ﷺ والقصيدة متراوحة بين
العامي والقصيح.

هنيئاً لكم أيها السكان	بي دار الولي المشحونة بالقرآن
عام سبع وعشر خرج من أمدرمان	أخذني الله واختار لي خير مكان
أجاب دعوتي المنعم الرحمن	بسكان الولي وجوار أهل القرآن
نحمد ونشكر يا مكنون الأكوان	حمداً بعد ما يكون وقد ما كان
خصيتنا بهم صاروا لنا إخوان	كما قال النبي المؤمنين إخوان
أولهم محمد نور ولد أحمد	ود همزة البرتل دائماً سرمد
بين فضلهم كالشمس لم يخمد	يا مولاي بهم هب لنا منك مدد
بابكر الفكي كم فك متشبكين	دائماً ساع في إصلاح ذات البين
إبراهيم تقى وصافي من تدوين	شيلي الله بهم وزن الدقون آمين
عبد الله الخليفة وأخيه ذوي الآداب	شباناً نشوا في طاعة الوهاب
ثالثهم الجنيد الشربوا من ميزاب	والجد نور الدين يوسف النشاب
إبراهيم سمي خليلك يا رحمن	ذو القلب النقي من الصدى والران
به اقتبس وأكرمه بالقرآن	في سره اقتبس الرشيد والعرفان
الولد المبر ليناً وللوالدين	ذو القدر النما سموه محمدَيْن
الناس ليهم حظ وهو له حظين	يقضي للحوائج ويعفي من الدين
أحمد بن الشيخ فيه العفة مطبوعة	برم ايدو النفس ما جاها في طوعا

السنة كلها شهورها واسبوعها	ما بكل ما بمل من عطشة أو جوعة
محمّد الأمين بن الفقيه علي	بالدين قد تجلى وبه قدروا على
أمره بالبلاغة والشجاعة جلى	يوم ساقوا العوين اشتد بنا الوجمل
عاجبنا عجيب بي سجيته واطباعه	في الليل البهيم برتل اسباعه
ما يغير من الناس الاشتروا وباعوا	القرآن خزينتوا وبه طال باعوا

عبد الله بن الخالة والحنفي	والسيد أخيه رأينا الخير فيه
حليماً رؤوف ما جافى وما جوفي	صادق بالوداد في العهود وفي
الحفظة الكرام يا صاحبي افهم	أربع عشر هاهم عددهم تم
يا مولاي بهم أرجوك اكشف الهم	واحفظنا الجميع من ذوات السم

الخط

وهذه منظومة ابن البواب في الخط وقد اهتم بها كثيراً، طلبه القرآن وهي من المنظومات المتداولة بينهم وقد صور فيها المؤلف القلم والحبر وأدوات الخط. والمنظومة لا تحتاج لشرح أو تنويه. قال ابن البواب:

يا من يريد إجادة التحرير	ويروم حسن الخط والتصوير
إن كان عزمك في الكتابة صادقاً	فارغب إلى مولاك في التيسير
واعدد من الأقلام كل مثقف	صلب يصوغ صناعة التحرير
وإذا عمدت لبريه فتوخه	عند القياس بأوسط التقدير
انظر إلى طرفيه فاجعل بريه	من جانب التدقيق والتحضير
واجعل لجلفته قواماً عادلاً	يخلو عن التطويل والتقصير
والشَّقَّ وسَطَه ليقى بريه	من جانبه مشاكل التقدير
حتى إذا أتقت ذلك كله	إتقان طب بالمواد خبير
فباصرف لأي القَطِّ عزمك كله	فالقَطُّ فيه جملة التدبير
لا تطمعني في أن أبوح بسره	إنني أضن بسر المستور
لكن جملة ما أقول بأنه	ما بين تحريف إلى تدوير
والق دواتك بالدخان مدبراً	بالخل أو بالحصرم المعصور
وأضف إليه مَغْرَةً قد صولت	مع أصغر الزرنيخ والكافور
حتى إذا ما خمرت فاعمد إلى	ورق النقي الناعم المخبور
فاكتبه بعد القطع بالمعصار كيّ	ينأى عن التشعيث والتغيير
ثم اجعل التمثيل دأبك صابراً	ما أدرك المأمول مثل صبور

إبدأ به في اللوح منتظياً له
لا تخجلن من الرديء تخطه
فالأمر يصعب ثم يرجع هيناً
حتى إذا أدركت ما أملت
فاشكر إلهك واتبع رضوانه
وارغب لكفك أن تخط بنائها
فجميع فعل المرء يلقاه غداً
عزماً تجرده عن التسمير
في أول التمثيل والتسطير
ولربّ سهل جاد بعد عسير
أضحيت رب مسرة وصبور
إن الإله يجيب كل شكور
خيراً تخلفه بدار غرور
عن التقاء كتابه المنشور

إحصائية بعدد الخلاوي في جمهورية السودان نقلاً عن الإحصائية الرسمية
لمصلحة الشؤون الدينية والأوقاف حتى مطلع ١٤١٠هـ

عدد الخلاوي	الإقليم
٩٢٢	كردفان
٢٢٤٠	دارفور
٤٣١٢	الأوسط
٣٤٢٨	الشرقي
١١٣٥	الشمالي
٢٦١٨	العاصمة القومية
١٥	الاستوائية
٦	بحر الغزال
٨	أعالي النيل
١٤٦٨٤	جملة

وهذه المدارس القرآنية بعضها معان من الدولة وبعضها يتكفل بها المجتمع.

الفهرس

٣	استفتاح
٥	إهداء
٧	مقدمة نقدية بقلم د. عبد الوهاب موسى
١٧	نقد لكتاب المسيد بقلم د. محمد خير عثمان وزير التعليم العام السابق
٢٥	شكر وتقدير
٢٧	مقدمة
٤٥	القرآن الكريم
	الباب الأول:
٥٥	مدخل على مسيد ود الفاندي
٧٣	المسيد
٧٦	الخلوة
	الباب الثاني:
١٢٩	القرآن في دنقلا
١٣٧	المسجد الأول
١٤٣	مشايخ دنقلا
١٥٠	العلماء الأقدمين في دنقلا
١٥٤	مسايد دنقلا
١٥٨	المحس
١٦٠	المحس والقرآن
١٦٤	الصواردة
١٦٩	المحس في أنحاء السودان
	الباب الثالث:
١٨١	البديرية
١٩٠	الشايقية
	الباب الرابع:
١٩٩	مسيد الدامر
٢١٤	قوز العلم
٢١٦	مسيد الجوير
٢١٧	الكتياب
٢٢٢	اب دنانة
٢٢٧	مسيد الأغيش
٢٢٩	مسيد رأس الوادي

٢٣٢	الرباطاطاب
	الباب الخامس:
٢٣٧	المسجد في شرق السودان
٢٣٩	قبائل الأشراف
٢٤٠	سواكن
٢٤٤	المسجد في شرق السودان
٢٥١	الحلقة والبجا
٢٥٧	مسجد همشكوريب بيتاي
	الباب السادس:
٢٧١	الإمام المهدي
٢٧٦	الخلوة والمهدية
٢٩٠	مسجد أم ضبان
٣٠٤	مسجد الشريف محمد الأمين الهندي
٣٠٨	خلاوي البدو
	الباب السابع:
٣١١	المسجد في دارفور
٣١٢	التعليم في دارفور
٣١٦	تاريخ حركة المهاجرين
٣٢٠	أشهر خلاوي دارفور
٣٢٢	حمام الحمى
٣٢٦	المسجد في كردفان
٣٢٧	العباسية
٣٢٩	نسب
٣٣٢	بدير جد البديرية
٣٣٣	أقدم الخلاوي
٣٣٤	التعليم في عهد الفونج
٣٣٥	الدواليب
٣٣٩	بدوي ود أبو صفية
	الباب الثامن:
٣٤١	المرأة وتدریس القرآن
٣٤٣	النساء المعلمات
٣٤٣	فاطمة بنت جابر
٣٤٣	عائشة بنت القدال

٣٤٤	بتول الغبشة
٣٤٤	أمونة بنت عبود
٣٤٩	مريم بنت حاج عطوة
٣٤٩	فاطمة بنت أسد
٣٥٠	أم كلثوم بنت القرشي
٣٥١	الشيخة عائشة
٣٥٢	الشيخة خديجة
٣٥٢	فرح بنت بيتاي
	الباب التاسع:
	العلماء وتجارهم
٣٥٥	رجع الحديث (بروفسير عبد الله الطيب)
٣٦٢	خلوة الفقيه الكراس
٣٦٤	الدكتور طه حسين
	الباب العاشر:
٣٧١	اليمن و غلام الله
٣٧٣	الملكة أروى
٣٧٧	شيخ القراءات
٣٧٩	القرآن في زبيد
٣٨٤	الحليلة في مخطوط
	الباب الحادي عشر:
٣٨٧	تاريخ التعليم في مكة المكرمة
٣٩٠	الكتاتيب
٣٩٣	كتاتيب مكة
٣٩٧	التعليم والتقاليد
٤٠٦	الاحتفال بختم القرآن
٤٠٩	التعليم الشعبي في قطر
٤١٤	التعليم في بلاد البترول
٤١٦	التعليم في الكويت والخليج أيام زمان
٤١٨	التعليم في جزيرة فيلكا